



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة الملك سعود
كلية التربية
قسم الدراسات الإسلامية



مجموعت

المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام

The International Conference on Mercy in Islam

الجزء الحادي عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التربية بالرحمة من منظور التربية الإسلامية

إعداد:

د. علي مصطفى غيني



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ثم الصلاة والسلام على الرحمة المهداة، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد نبي الرحمة، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين كانوا ﴿مَعَهُ أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وكل من سار على نهجهم في التواصي بالصبر والتواصي بالرحمة إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن التربية جزء من نظام الأمة تستهدف تنشئة وتكوين إنسان مسلم متكامل من جميع نواحيه: الجسمية والروحية والعقلية وغيرها، في جميع مراحل نموه، على ضوء القيم والمبادئ التي أتى بها الإسلام، وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي بيّنها.

والمبادئ الإسلامية هي خير مؤسس وموجه وموحد للفكر التربوي الإسلامي في مختلف القضايا، التي يواجهها ويعالجها اليوم، سواء من ناحية الأهداف أو المحتوى أو الأساليب أو الوسائل وغيرها، والتربية لا تكون جديرة بأن توصف بأنها إسلامية إلا بقدر ما تتمثل بمبادئ الشريعة وتصطبغ بها، وتترجمها إلى إجابات وحلول لقضايا التربية وإشكالاتها وتحدياتها.

ومن المعلوم أن الرحمة والرفق بالناس والتهيؤ عليهم من أهم مبادئ الشريعة الإسلامية الغراء ومقاصدها، بل لم يرسل الله نبيه ﷺ إلا ليكون رحمة للبشرية جمعاء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٧) [الأنبياء]، والنصوص التي تدلّ بجلاء على أن الرحمة مبدأ إسلامي أصيل تفوق الحصر، وسأورد جزءاً كبيراً منها في ثنايا هذا البحث.

مشكلة البحث:

كان مفهوم التربية -ولا زال- في بعض المجتمعات -لا سيما الإفريقية منها- مرتبطاً بالعنف والغلظة والشدّة، حتى كان الأهل في بعض المناطق حين يذهبون بالطفل إلى الكتّاب يقولون للمعلّم: «لك اللحم، ولنا العظام» أي: لك أن تضرب حتى ولو أدى إلى موت الطفل، فلا يبق إلا عظامه للدفن! وأصبح من الصعوبة بمكان إقناع بعض المربين بإمكانية وجود تربية خالية من العنف والشدّة، تربية قائمة على الرحمة والرفق واللين، وهذه الإشكالية تبرز تساؤلاً مهماً؛ ما مكانة التربية بالرحمة في المنظومة التربوية الإسلامية؟ وللإجابة على هذا السؤال اخترت أن أشارك في هذا المؤتمر القيم ببحث علمي عنوانه: «التربية بالرحمة من منظور التربية الإسلامية»، لألقي الضوء على التربية بالرحمة بصفاتها مقصداً من مقاصد التربية في الإسلام وبوصفها أسلوباً مهماً مهم من أساليب التربية الإسلامية.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. بيان معنى التربية بالرحمة، وأهميتها في منظومة التربية الإسلامية.
٢. الكشف عن أصناف التربية بالرحمة في التربية الإسلامية.



٣. توضيح أهداف التربية بالرحمة من منظور التربية الإسلامية.

٤. ذكر نماذج من التطبيقات التربوية للرحمة في القرآن والسنة واجتهادات المربين المسلمين.

٥. التعرف على الآثار التربوية والنفسية للتربية بالرحمة.

أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث مما يأتي:

١. تتبع أهمية البحث من أهمية التربية بالرحمة نفسها في كونها تؤثر تأثيراً مباشراً على المنظومة التربوية برمّتها، سواء تعلق الأمر بمحتوى المناهج الدراسية، أو طرق التدريس، أو الأنشطة التعليمية، أو أساليب التقويم، أو حتى المؤسسات والوسائط التعليمية، والإدارة المدرسية، وأساليب تكوين الموارد البشرية العاملة في قطاع التربية والتعليم، وغياب عنصر الرحمة يؤثر بشكل سلبي على كل هذه العناصر برمّتها.

٢. إن المؤسسات التربوية في العالم الإسلامي المعاصر بحاجة ماسة إلى رسم سياستها التربوية والتعليمية، على ضوء الأساليب التربوية الإسلامية المستمدة من مبادئ الشريعة الغراء، حتى لا يكون السلوك المنحرف عن صراط الإسلام المستقيم هو طابع شباب هذه الأمة وأجيالها الناشئة!

٣. إن الأساليب التربوية التي بنيت على مبادئ الشريعة ومقاصدها، هي الأقرب إلى إبراز حيوية التربية الإسلامية، وصلاحيتها للتطبيق في كل عصر، مهما اختلفت عاداته وأعرافه، ومهما تجددت نوازلها، وتباينت منطلقاته.

٤. تقديم صورة ناصعة للتربية الإسلامية، ونفي التهم التي تنسب إليها بأنها تربّي على العنف والقسوة والإرهاب، من خلال إبراز القيم التربوية الإسلامية النبيلة القائمة على الرحمة والشفقة بالناس جميعاً التي تزخر بها هذه التربية.

منهج البحث:

وهذه الدراسة تنتمي إلى مجال الدراسات الأصولية في مجال التربية^(١)، والمنهج البحثي المناسب لمثل هذه الدراسات هو المنهج الاستنباطي أو الأصولي، وهو: «الطريقة التي يقوم فيها الباحث ببذل أقصى جهد عقلي ونفسي عند دراسة النصوص بهدف استخراج مبادئ تربوية مدعمة بالأدلة الواضحة»^(٢).

وهذا المنهج يساعد على استنباط واستخراج منهج التربية الإسلامية في استعمال أسلوب التربية بالرحمة، ومن ثم صياغتها على نسق تربوي للاستفادة منها في مجال العملية التربوية.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وستة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: مفهوم التربية بالرحمة.

المبحث الثاني: التأصيل الشرعي للتربية بالرحمة، وأهميتها في التربية الإسلامية.

(١) عرفها علي خليل أبو العينين، منهجية البحث في التربية الإسلامية، ص: (١٢) بأنها: «تلك الدراسة التي واستخراج المبادئ والأسس النظرية للتربية الإسلامية، وإطارها الفكري وما يتصل به من أهداف وقيم، وطرائق تربوية وتعليمية؛ من خلال دراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة باعتبارهما المنبعان الرئيسان، وما دار في فلكهما من اجتهادات العلماء».

(٢) عبد الله، عبدالرحمن صالح، وحلمي محمد فودة، المرشد في كتابة البحوث التربوية، مكتبة المنار، مكة المكرمة: (١٤٠٢هـ)، ص: (٤٣).



المبحث الثالث: أصناف التربية بالرحمة.

المبحث الرابع: أهداف التربية بالرحمة.

المبحث الخامس: نماذج من التطبيقات التربوية للرحمة في التربية الإسلامية.

المبحث السادس: الآثار التربوية والنفسية للتربية بالرحمة من منظور التربية الإسلامية.

ثم الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات.



المبحث الأول مفهوم التربية بالرحمة

الرحمة في اللغة العربية تعني: الرِّقَّةُ وَالتَّعَطُّفُ وَ(الْمَرْحَمَةُ)، مِثْلَهُ وَقَدْ رَحِمَهُ بِالْكَسْرِ (رَحْمَةً) وَ(مَرْحَمَةً) أَيْضًا وَ(تَرَحَّمَ) عَلَيْهِ. وَ(تَرَاحَمَ) الْقَوْمُ (رَحِمَ) بَعْضُهُمْ بَعْضًا. (١)

والمعنى الاصطلاحي لا يختلف كثيرًا عن المعنى اللغوي؛ إذ يدور حول الرقة والإحسان، ف«الرَّحْمَةُ رِقَّةٌ تَقْتَضِي الإِحْسَانَ إِلَى الْمَرْحُومِ» (٢).
وقيل: الرحمة: «رِقَّةٌ فِي النَفْسِ، تَبْعَثُ عَلَى سَوْقِ الْخَيْرِ لِمَنْ تَتَعَدَى إِلَيْهِ» (٣).

كما أن الرحمة تأتي بمعنى العطف والمودة، من ذلك قوله ﷺ: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» [الفتح: ٢٩] أي: «متعاطفون متوادون بعضهم لبعض، كالولد مع الوالد» (٤).

(١) الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م. ص: (١٢٠).

(٢) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ. ص: (٣٤٧).

(٣) ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي، التحرير والتوير، الدار التونسية للنشر، تونس: (١٩٨٤هـ): (٢٦/٢١).

(٤) محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - =

وقال ابن القيم رحمته: «ومما ينبغي أن يعلم: أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها. فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك.

فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل من ولده كان لقلته رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه [ويرفّه] ويريحه. فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة الأم»^(١).

ويفهم من التعريفين اللغوي والاصطلاحي: أن الرحمة شعور قلبي بالرفقة والعطف والشفقة على المرحوم، وثمرته ذلك الشعور بالإحسان إلى المرحوم والتلطف به، واللين وإرادة الخير له، وكف الأذى عنه، بجميع الوسائل والطرق الممكنة والمشروعة.

ومن هنا تتضح العلاقة الترابطية بين التربية بمفهومها الإسلامي الذي يعني إعداد الإنسان الصالح إعداداً متكاملًا دينياً ودُنيوياً في ضوء منهج الشريعة الإسلامية، وبين الرحمة بالمفهوم السابق، فتكون الرحمة في هذه التربية وسيلة وغاية في آن واحد؛ لأن المطلوب من المربي أن يكون متحلياً بصفة الرحمة بوصفه أسلوباً من أمثل الأساليب في التأثير في المتربي، وإعداده الإعداد الكامل من جميع النواحي، والرحمة أيضاً غاية بحد ذاتها؛ لأن التربية تهدف إلى غرس خلق الرحمة في نفس المتربي، حتى يصير إنساناً سوياً مستقيماً، بحمل الخير للبشرية جمعاء، بل وللكون

= سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م. (٣٢٣/٧).

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية. (١٧٤/٢).

كله حيواناته وجماداته، فلا يسعى في الأرض فساداً، ولا يكون معول هدم للإنسان ولا للبيئة، لأنه رُبِّي على الرحمة والشفقة على جميع المخلوقات. فالتربية والرحمة متلازمان تلازم الهدف والوسيلة، التربية تستهدف غرس قيمة الرحمة في نفوس الناشئة بشتى الطرق التربوية، وفي نفس الوقت فإن الرحمة -نفسها- تمثل وسيلة تربوية ناجعة لتعزيز نفسها بوصفها سلوكاً وقيمة إيجابية ومرغوبة؛ ليس لدى الطلبة وحدهم، وإنما لدى المجتمع التعليمي بكامله.

ومن هذا المنطلق فإن مفهوم التربية بالرحمة هو: استخدام أسلوب الرحمة والعطف على المتربي والإحسان إليه، لغرس صفة الرحمة في قلبه، حتى تظهر آثار تلك الصفة الربانية في أقواله وأفعاله، فيعطف على بني جنسه على اختلاف ألوانهم وأشكالهم ومعتقداتهم، ويشفق على البيئة التي يعيش فيها، أيًا كانت تلك البيئة، ويتعد عن العنف غير المبرر، والشدة غير المنضبطة، قال السعدي رحمته: «وهذه الرَّحْمَة التي في القلوب، تظهر آثارها على الجوارح واللسان، في السعي في إيصال البر، والخير، والمنافع إلى الناس، وإزالة الأضرار والمكاره عنهم»^(١).



(١) السعدي، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله، بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، المحقق: عبدالكريم الدريني، دار النشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م، ص: (١٨٩).

المبحث الثاني

التأصيل الشرعي للتربية بالرحمة وأهميتها في التربية الإسلامية

الرحمة صفة من صفات ربّ العالمين، ولقد انفردت صفة الرحمة في القرآن الكريم بالصدارة، وبفارق كبير عن أي صفة أخلاقية أخرى، حيث تكررت صفة الرحمة بمشتقاتها ثلاث مئة وخمس عشرة مرة^(١)، وهذا دليل على أن الأصل في الإسلام الرحمة والشفقة، لا العنف والشدة.

وقد وصف الله ﷻ نفسه بصفة الرحمة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقد جعل ﷻ إرسال نبينا محمد ﷺ رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ووصفه بالرحمة، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أما في السنة النبوية فقد استفاضت نصوصها الداعية إلى الرحمة،

(١) راغب السرجاني، الرحمة في حياة الرسول ﷺ، الناشر: رابطة العالم الإسلامي، سنة النشر:

١٤٣٠ - ٢٠٠٩، ص: (٤٦).

الحائثة عليها، المرغبة فيها إما نصاً أو مفهوماً، كيف لا وصاحبها ﷺ هو نبي الرحمة، كما وصف نفسه، فقال: «أنا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ»^(١)، فهو الرحمة المهداة إلى جميع العالمين. وقد حثَّ النبيُّ أمته على التحلي بخلق الرحمة، رغبة وأملاً في رحمة الله ﷻ، فعن جرير بن عبدالله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ»^(٢).

وعن أبي هريرة قال: قَبَّلَ رَسُولُ ﷺ حَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، وعنده الأقرع ابن حابس التميمي جالس، فقال الأقرع: إنَّ لي عشرة من الولد ما قَبَّلْتُ منهم أحداً! فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: (من لا يرحم لا يرحم)^(٣).

وعن عائشة ﷺ قالت: جاء أعرابي إلى النبيِّ ﷺ فقال: أُنْقَبِلُونَ صبيانكم؟ فما نقبلهم. فقال النبيُّ ﷺ: (أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة)^(٤)؟

قال ابن بطال بعد أن ذكر عدداً من الأحاديث الحاضرة على الرحمة: «في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرَّحْمَةِ للخلق كلهم، كافرهم، ومؤمنهم، ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب، ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرَّحْمَةِ، ويستعملها في أبناء جنسه وفي كل حيوان»^(٥).

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل باب في أسمائه ﷺ، رقم الحديث: (٢٣٥٥).

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التوحيد، باب قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا دَعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، رقم الحديث: (٧٣٧٦).

(٣) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم الحديث: (٥٩٩٧).

(٤) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، رقم الحديث: (٥٩٩٨)، ومسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه، وفضل ذلك، رقم الحديث: (٨٠٢٧).

(٥) ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ)، شرح صحيح البخاري لابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م: (٢١٩/٩).



كل هذه النصوص وغيرها تدلّ دلالة صريحة على أن الإسلام رحمة من الله لبني آدم، لنستشعر سعة رحمة الله بخلقه، فإذا كان رب الناس الذي هو المالك لهم على الحقيقة، يعامل عباده بمقتضى هذه الرحمة التي وسعت كل شيء، فأحرى أن يتخلق عباده بأخلاقه، وتظهر عليهم آثار هذه الأخلاق في معاملة بعضهم لبعض^(١)، لاسيما في الميدان التربوي، الذي يكون التعامل فيه مع الفئة الغضة الطرية في المجتمع، وهم الصغار، ولا تتجح معهم وسيلة من وسائل التربية أو أسلوباً من أساليبها إذا كان خالياً من الرحمة والعطف والشفقة.

ويكاد يجمع التربويون على أن الرحمة والحب والعطف والحنان من أهم دعائم وأساسات التربية، فإن الحب يتمثل في الحنو على المتربي، وتقبيله واحتضانه، وإظهار محبته، والعطف عليه، والطفل وإن كان صغيراً ضعيف الإدراك قليل الفهم إلا أنه يعي البسمة الحانية، ويدرك الغضب، فلا يمكن أن يتعلم الطفل الرحمة والحنان والعطف إذا كان والده يقسو عليه ولا يرحمه، فإن المربيين لا يمكن أن يربوا أولادهم بأسلوب الرهبة والقسوة فقط؛ بل لابد من الحب الفياض الغامر، والرحمة والشفقة على المتربيين، وهم من ثم ينقلون هذا الحب إلى غيرهم^(٢).



(١) عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، آثار ابن باديس، المحقق: عمار طالبي، الناشر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة: الأولى (عام ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ ميلادية)، (٤/٣٣٨).

(٢) عدنان بارحارث، حاجة الطفل إلى الحب والرحمة، موقع جامعة أم القرى: (<https://uqu.edu.sa/lib/ar/42246>) بتاريخ: ١ نوفمبر ٢٠١٥م الساعة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة.

المبحث الثالث أصناف التربية بالرحمة

يعتمد الإسلام مبدأ الرحمة بصورة عامة في جميع شؤون الحياة، فيجعل منه سمة تميز المؤمن، وعنصرًا يقوي الإيمان، وفضيلة تزين العمل، «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ»^(١).

والرحمة تدخل في جميع أنواع التربية، ومع جميع أصناف المتربين، وتتأكد التربية بالرحمة مع المتربي الضعيف، الذي لا حيلة له ولا قدرة على المقاومة والدفاع عن نفسه، ولذا نجد في التربية الإسلامية الحض على استعمال التربية بالرحمة مع الأطفال والصفار، ومع الفقراء والمساكين، ومع العمال والخدم، ومع جميع أصناف الخلق، فالمنهج الإسلامي في التربية بالرحمة لا تميز بين مسلم وكافر، وبين جنس وآخر، بل يربي جميع أصناف الخلق بالرحمة، يرفق بضعيفهم، ويسدّ خلة فقيرهم، ويطعم جائعهم، ويكسي عاريهم ويصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم؛ لقوله ﷺ: «ارحموا تُرحموا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ»^(٢).

وفي قوله ﷺ: «ارحموا» «أتى بصيغة العموم، ليشمل جميع أصناف الخلق، فيرحم البرّ والفاجر، والناطق والبهيم، والوحوش والطيور»^(٣).

(١) مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم الحديث: (٢٥٩٤).
(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد، باب رحمة البهائم، رقم الحديث: (٣٨٠)، ص: (١٣٣). وأحمد بن حنبل، المسند: (١٦٥/٢)، وصححه الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الأدب المفرد، ص: (١٥١).

(٣) الطيبي، الحسين بن عبد الله، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى «الكاشف عن حقائق =



والتربية بالرحمة يمكن تصنيفها بناء على نوع الرحمة المستعملة فيها إلى:

١. الرحمة النافعة والضارة:

أولاً: الرحمة النافعة تربوياً:

هذا النوع من الرحمة هو الأصل في التربية، والأدلة الدالة عليه كثيرة، وقد سبق سرد بعض منها، قال أنس رضي الله عنه: (كان النبي ﷺ أرحم الناس بالعيال، وكان له ابنٌ مسترضعٌ في ناحية المدينة، وكان ظئره^(١) قيناً^(٢)، وكنا نأتيه، وقد دخن البيت بإذخر^(٣)؛ فيقبله ويشمه^(٤)).^(٥)

وعن أبي هريرة قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ ومعه صبيٌّ، فجعل يضمُّه إليه، فقال النبي ﷺ: (أترحمه)؟ قال: نعم، قال: (فالله أرحمُ بك، منك به، وهو أرحمُ الرَّاحمين)^(٥).

ثانياً: الرحمة المضرة تربوياً:

وينبغي التنبه إلى أن من الرحمة ما هو مذموم؛ كالرحمة التي يحصل سببها تعطيل لشرع الله، أو تهاون في تطبيق حدوده وأوامره، قال ابن تيمية رحمته: «فإنَّ الرَّأفةَ والرَّحمةَ يحبُّهُما اللهُ ما لم تكن مضيعةً لدين الله»^(٦)؛ لأنَّ الرَّحمةَ الحقيقيةَ في تطبيق شرع الله وإقامة حدوده، قال ابن

= السنن، تحقيق: عبدالله هندواي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م: (٣١٨٥/١٠).

(١) الظئر: المرضعة غير ولدها، ويقع على الذكر والأنثى.

(٢) وهو الحداد والصائغ.

(٣) الإذخر - بكسر الهمزة - حشيشة طيبة الرائحة، تسقف بها البيوت فوق الخشب.

(٤) مسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه، وفضل ذلك، رقم الحديث: (٨٠٢٦).

(٥) البخاري، الأدب المفرد، باب رحمة العيال، رقم الحديث: (٣٧٧). ص: (١٣٢). وصححه الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الأدب المفرد، ص: (١٥٠).

(٦) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، مجموع الفتاوى، المحقق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،

تيمية رحمته: «إنَّ العقوبات الشرعيَّة كلها أودية نافعة، يصلح الله بها مرض القلوب، وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم، الدَّاخلة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١٠٧) [الأنبياء]، فمن ترك هذه الرَّحمة النَّافعة لرأفة يجدها بالمريض، فهو الَّذي أعان على عذابه وهلاكه، وإن كان لا يريد إلاَّ الخير، إذ هو في ذلك جاهل أحمق»^(١).

ولذا نهى الله تعالى المؤمنين عن أن تأخذهم رأفة أو رحمة في تطبيق حدود الله وإقامة شرعه، فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢) [النور].

ومن الرَّحمة المذمومة، ما يكون سبباً في فساد المرحوم وهلاكه، كما يفعل كثير من الآباء من ترك تربية الأبناء وتأديبهم، وعقوبتهم رحمة بهم، وعطفاً عليهم، فيتسببون في فسادهم وهلاكهم وهم لا يشعرون. قال ابن تيمية رحمته: «ما يفعله بعض النساء والرجال الجهال بمرضاهم، وبمن يربونه من أولادهم، وغلمانهم، وغيرهم، في ترك تأديبهم وعقوبتهم، على ما يأتونه من الشرِّ ويتركونه من الخير رأفةً بهم، فيكون ذلك سبب فسادهم وعداوتهم وهلاكهم»^(٢).

وقال ابن القيم رحمته^(٣): «إنَّ الرَّحمة، صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقَّت عليها، فهذه هي الرَّحمة الحقيقية، فأرحم النَّاس بك من شقَّ عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك، فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التآدب بالعلم

المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م: (٢٩١/١٥).

(١) المرجع السابق: (٢٩٠/١٥).

(٢) المرجع السابق الصفحة نفسها.

(٣) إغاثة اللفهان، مرجع سابق: (١٧٤/٢).



والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلته رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه، ويرفقه، ويريحه، فهذه رحمة مقرونة بجهل كرحمة الأم».

واستخدام أسلوب الشدة في التعامل مع المتربّين ليس ممنوعاً على الإطلاق، وإنما عندما يكون نافعاً ومؤدياً للمصلحة التربوية فإنه مقبول، ولكن بشروط وقيود، وذلك بأن يكون في الوقت المناسب، وبالقدر المناسب، وبالأسلوب المناسب، وأن يكون بعد استخدام الأساليب الأخرى. ويجب التفريق بين الرحمة النافعة والمضرة في التربية؛ لأن عدم التفريق بينهما قد يؤدي بالشخص إلى استخدام الرحمة المذمومة ظناً منه أنه يستخدم أسلوب الرحمة المحمودة، وأهم الفروق بينهما أن الرحمة المحمودة تكون عن دراية وبصيرة بظروف الموقف ومقوماته، بل وبحالة الشخص، بعكس التربية بالرحمة المضرة، كما أن الرحمة المحمودة تكون لمصلحة الشخص، بينما تكون الرحمة المذمومة نتيجة انفعالات وعواطف آنية من المربي، ولا يستطيع المربي أن يميز بين ما يفيد المتربي وبين ما يضره. وإنما هذه الرحمة ناتجة عن عواطف تجيش في صدره غير متبصر بالعواقب.

٢. الرحمة الغريزية والمكتسبة:

ويمكن أيضاً تصنيف الرحمة من حيث الغريزة والاكتساب

قال عبدالرحمن السعدي: «والرَّحْمَةُ التي يتصف بها العبد نوعان:

النوع الأول: رحمة غريزية.

قد جبل الله بعض العباد عليها، وجعل في قلوبهم الرأفة والرَّحْمَةَ والحنان على الخلق، ففعلوا بمقتضى هذه الرَّحْمَةَ، جميع ما يقدرون عليه من نفعهم، بحسب استطاعتهم، فهم محمودون، مثابون على ما قاموا به،

معذورون على ما عجزوا عنه، وربما كتب الله لهم بنياتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم.

والنوع الثاني: رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة. تجعل قلبه على هذا الوصف، فيعلم العبد أن هذا الوصف من أجل مكارم الأخلاق وأكملها، فيجاهد نفسه على الاتصاف به، ويعلم ما رتب الله عليه من الثواب، وما في فواته من حرمان الثواب؛ فيرغب في فضل ربه، ويسعى بالسبب الذي ينال به ذلك، ويعلم أن الجزاء من جنس العمل، ويعلم أن الأخوة الدينية والمحبة الإيمانية، قد عقدها الله وربطها بين المؤمنين، وأمرهم أن يكونوا إخواناً متحابين، وأن ينبذوا كل ما ينافي ذلك من البغضاء، والعداوات، والتدابير^(١).

ويتأكد على المرابي السعي الجاد لاكتساب صفة الرحمة إن لم يكن مطبوعاً بها غريزياً.



(١) بهجة قلوب الأبرار، مرجع سابق، ص: (١٨٩).

المبحث الرابع أهداف التربية بالرحمة

يشير التربويون إلى أن مفهوم الهدف التربوي يدلّ على التغيرات التي يراد حصولها في سلوك الفرد والمجتمع، وهو الغاية المقصودة من رسم الخطط التربوية ووضع المناهج الدراسية، وهو «ما تسعى التربية إلى تحقيقه في الطالب وفي المجتمع، الذي يعيش فيه من تغيرات مرغوب فيها، سواء كانت تحقيق شيء جديد، أو تنمية لشيء موجود»^(١).

وتهدف التربية بالرحمة إلى إشاعة سلوك الرحمة من الناحيتين النظرية والتطبيقية بين كافة عناصر المنظومة التربوية، سواء كانت العناصر البشرية في تعاملاتها أو العناصر المعنوية في محتواها، ويتفرع عن هذا الهدف أهداف فرعية أخرى كما يلي

١. الاقتداء بالله ﷻ وبنبيه ﷺ:

وقد وصف الله ﷻ نفسه بصفة الرحمة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

(١) الشافعي، إبراهيم محمد، وآخرون، المنهج المدرسي من منظور جديد، العبيكان، الرياض: (١٦٤١هـ)، ص: (١٦).

وقد جعل ﷺ إرسال نبينا محمد ﷺ رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧]، ووصفه بالرحمة فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة، ١٢٨]، فإذا كان رب الناس الذي هو المالك لهم على الحقيقة، يعامل عباده بمقتضى هذه الرحمة التي وسعت كل شيء، فأحرى أن يتخلق عباده بأخلاقه، وتظهر عليهم آثار هذه الأخلاق في معاملة بعضهم لبعض، وإذا كان النبي ﷺ وهو المرئي الأول، وهو المقتدى به في كل شؤون الدين متحلياً بهذه الصفة العظيمة، فمن الواجب أن يتصف جميع العاملين في المجال التربوي بالرحمة والشفقة.

٢. نيل رحمة الله ورضوانه:

وهذا بغية كل مربٍّ مسلم، والهدف الأسمى، الذي يصبو إليه كل معلّم مؤمن، ولا يصل إلى هذه الغاية النبيلة إلا من اتصف بالرحمة في كل سلوكيته، وبالأخص في المواقف التربوية، فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمُ النَّاسَ»^(١).

يقول السعدي رضي الله عنه: «رحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدتها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، والعبد في غاية الضرورة والافتقار إلى رحمة الله، لا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما هو فيه من النعم واندفاع النقم، من رحمة الله.

فمتى أراد أن يستبقها ويستزيد منها، فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته، وتجتمع كلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

(١) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التوحيد، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، رقم الحديث: (٧٢٧٦).

أَلْمُحْسِنِينَ ﴿ [الأعراف: ٥٦]، وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله. والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم»^(١).

أما من كان بعيداً عن الإحسان بالخلق، ظلوماً قاسياً عنيفاً، فهذا لا ينبغي له أن يطمع في رحمة الله، وهو متلبس بظلم عباده.

٣. تحبيب التربية الإسلامية إلى المتربّين:

إن استعمال الرحمة في التربية يجعل من تلك الأخلاق الكريمة سمة بارزة لهذه التربية، وصفة مميّزة للمربّين على نهجها، وحينما يلتزم المربّي أو المعلم بالرحمة والرّفق واللّين واللّطف والأناة من خلال سلوكه وممارساته في المواقف التربوية، تظهر من خلاله هذه السّمة، فيكون المرآة الصادقة التي تعكس التربية الإسلامية الحقيقية، وقد امتثل المربّي الأول صلوات ربي وسلامه عليه هذه الصفة في تربيته، كما يدلّ على هذا قصة الأعرابي الذي بال في المسجد، كما كان يوصي المربّين والمعلّمين الذين كان يرسلهم إلى الأمصار لتعليم الناس أمور دينهم وتربيتهم عليها بالرحمة والرفق والتيسير، والبعد عن العنف والشدة والتعنّت، وبهذا انشّرت قلوب المتربّين والمتعلّمين، وأحبّ الناس الإسلام، ودخلوا فيه أفواجا.

عن سعيد بن أبي بُرْدَة، عن أبيه، عن جدّه قال: لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما: «يَسْرًا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشْرًا وَلَا تَنْفِرَا، وَتَطَاوَعًا وَلَا تَخْتَلَفَا»^(٢).

قال ابن حجر: «في الحديث: الأمر بالتيسير في الأمور، والرّفق بالرعيّة، وتحبيب الإيمان إليهم، وترك الشدّة؛ لئلا تنفّر قلوبهم، ولا سيما فيمن كان

(١) بهجة قلوب الأبرار، ص: (١٨٨).

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب - باب قول النبي ﷺ (يسروا ولا تعسروا)، رقم الحديث:

(٦١٢٤).

قريبَ العهد بالإسلام، أو قاربَ حدِّ التكليفِ من الأطفال؛ لِيَتِمَّكَنَ الإيمانُ من قلبه، ويتمرَّنَ عليه»^(١).

٤. تحقيق الأهداف بأيسر الوسائل:

التربية بالرحمة والرفق واللين هي الاختيار الأمثل لتحقيق الغايات، والوصول إلى النتائج المرجوة من النجاح وتحقيق الأهداف التربوية بأيسر السُّبُل، وبدون مشقَّةٍ وعناء، يدلُّ عليه قوله ﷺ: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ»^(٢).

٥. توطيد العلاقات وتقوية الأواصر:

العلاقة بين المرَبِّي والمرَبِّي يجب أن تكون وطيدة وقوية، حتى تحدث عملية التأثير والتأثير، ولا يتأتى ذلك إلا باستعمال الرحمة والرفق بينهما، وذلك لما في الرِّحمة من أسرار وخصائص عظيمة، فبسببها تهوي الحواجز، وتُختصر المسافات، وتقوى الصِّلات، وتزول الضغائن والأحقاد من القلوب، ويحصل المطلوب، أما العُنف والشدة والغلظة فلا تحقِّق إلا النُّفرة، والبُغْض، والقطيعة، قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].



(١) ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقى، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز: (١٢/١٦٣).

(٢) مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم الحديث: (٢٥٩٤).

المبحث الخامس

نماذج من التطبيقات التربوية للرحمة في التربية الإسلامية

من تأمل في نصوص الشرع وسير السلف واجتهادات العلماء يجد نماذج كثيرة تفوق الحصر من تطبيقات تربوية للرحمة، ولا غرابة فإن نجاح التربية أيًا كانت تتوقف على إشاعة مبدأ الرحمة في جوها، وعلى امتثال معاني الرأفة مع المتربين، أما التربية بالعنف والقسوة فلا تجدي نفعًا، ولو كان من أعظم المرَبِّين، قال ﷺ مخاطبًا معلِّم البشرية، ومرَبِّي الأمم صلوات ربِّي وسلامه عليه: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولقد تجلَّت مظاهر رحمته ﷺ في حياته كلها، وحفلت بها سيرته العطرة، وامتلأت بها شريعته المشرفة، فرحم ﷺ كلَّ صغير وكبير، وقريب وبعيد، وامرأة وضعيف، بل شملت رحمته الحيوان والجماد، وقد ضرب رسولُ الله ﷺ أروع الأمثلة في معالجة المواقف التربوية بالرحمة، حينما قام أعرابيٌّ جاف أو حديث عهد بالإسلام فبال في مسجده! فتناوله النَّاسُ. فقال لهم النبيُّ ﷺ: «دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَيَّ بَوْلَهُ ذُنُوبًا (١) مِنْ مَاءٍ، أَوْ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ» (٢).

(١) الذُّنُوبُ: الدُّلُوعُ الْعَظِيمَةُ، وَقِيلَ لَا تُسَمَّى ذُنُوبًا إِلَّا إِذَا كَانَ فِيهَا مَاءٌ.

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»، رقم الحديث:

وفي موقف تربوي آخر حصل لأحد الصحابة، يتجلى فيه بوضوح انتهاجه ﷺ نهج الرحمة في التربية، ما حكاه صاحب الموقف نفسه معاوية ابن الحَكَم السُّلَمِيّ، حيث قال: بَيْنَا أَنَا أَصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِّنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ. فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاتَّكَلُ أُمِّيَاءَ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَيَّ أَفْخَاذَهُمْ، فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ يُصَمُّونَنِي لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلَحُ فِيهَا شَيْءٌ مِّنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ...» الحديث^(١).

والتطبيقات التربوية للرحمة في الإسلام تعدت الإنسان إلى الحيوان والجماد، فقد جاء النهي في شرعنا عن تعذيب الحيوان أو إخافته أو إجهاده أو إجماعته، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ^(٢)، حَتَّى مَاتَتْ هِرًّا لَا»^(٣).

وعلى نقيض هذه الصورة، ذكر رسول الله ﷺ صورة أخرى، لامرأة غفرت الله لها ذنبها بسبب كلب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ بِرُكْبَتَيْهِ، كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِّنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَزَرَعَتْ مَوْقَهَا فَسَقَتْهُ فَغْفِرَ لَهَا بِهِ»^(٤).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى

(١) مسلم، الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم الحديث: (٥٣٧).

(٢) خشاش الأرض: أي هوائها وحشراتهما، الواحدة خشاشة.

(٣) مسلم، الصحيح، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، رقم الحديث: (٢٦١٩).

(٤) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم الحديث: (٣٤٦٧)، ومسلم، الصحيح، كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، رقم الحديث: (٢٢٤٥).



شَجْرَةَ أَوْ نَخْلَةَ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَجْعَلُ لَكَ مَنْبَرًا؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ»، فَجَعَلُوا لَهُ مَنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى الْمَنْبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَتْنُ أَنْبِئِ الصَّبِيَّ الَّذِي يُسَكِّنُ. قَالَ: «كَانَتْ تَبْكِي عَلَيَّ مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا».(^١)

فالذي يرحم الحيوان والجماد، يرحم البشر وبنى جنسه من باب أولى، قال تعالى: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، «وذلك لما في قلب الأول من القسوة، والغلظة، والشر، وما في قلب الآخر من الرحمة والرفقة والرأفة، إذ هو بصدد إحياء كل من له قدرة على إحيائه من الناس، كما أن ما في قلب الأول من القسوة، مستعد لقتل النفوس كلها».(^٢)

وصار الصحابة رضي الله عنهم على هذا النهج النبوي في الاتصاف في الرحمة لا سيما في المواقف التربوية، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مثلا الذي عرف بشدته، وقوته، تغير الرحمة، من طباعه، فيصبح رقيقا يمتلئ قلبه رحمة، ويفيض فؤاده شفقة، ومما يدل على ذلك قوله لعبدالرحمن بن عوف حينما أتاه يكلمه في أن يلين لهم لأنه أخاف الناس حتى خاف الأ Bakar في خدورهن، فقال: (إِنِّي لَا أَجِدُ لَهُمْ إِلَّا ذَلِكَ، وَاللَّهِ لَوْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا لَهُمْ عِنْدِي مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ؛ لَأَخَذُوا ثَوْبِي عَنْ عَاتِقِي).(^٣)

(١) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم الحديث: (٣٥٨٤).

(٢) السعدي، بهجة قلوب الأبرار، مرجع سابق، ص: (١٩٠).

(٣) الدينوري، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، المجالسة وجواهر العلم، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت - لبنان)، تاريخ النشر: ١٤١٩هـ: (٤٣/٤).

وهذا أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه من رحمته أنه كان له جَفَنَةٌ مِنْ ثَرِيدٍ غُدْوَةً
وَجَفَنَةٌ عَشِيَّةً لِلْأَرَامِلِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ^(١).

ولم يزل العلماء والباحثون والمفكرون على مرّ التاريخ حتى عصرنا
هذا يوصون بالتحلي بخلق الرحمة لا سيما في المواقف التربوية، وقلب
المربي والمعلم أحوج ما يكون إلى الرحمة، «وعلامه الرَّحْمَةُ الموجودة في
قلب العبد، أن يكون محباً لوصول الخير لكافة الخلق عموماً، وللمؤمنين
خصوصاً، كارهاً حصول الشر والضرر عليهم، فبقدر هذه المحبة
والكراهة تكون رحمته».



(١) السعدي، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن
سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت،
الطبعة: الأولى، ١٩٦٨ م: (٢٩٩/٤).

المبحث السادس الآثار التربوية والنفسية للتربية بالرحمة من منظور التربية الإسلامية

للتربية بالرحمة آثار تربوية ونفسية حميدة، لعل من أهمها:

١. إشباع الحاجات العاطفية والاجتماعية للمتربي:

من أهم حاجات الطفل الاجتماعية الحاجة إلى الحب والعطف والحنان والرحمة ممن حوله، وهذا الحب المتبادل بينه وبين والديه وإخوته وأقرانه ومعلميه حاجة لازمة لصحته النفسية.

والطفل الذي لا يشبع هذه الحاجة العاطفية، فإنه يعاني من العطش العاطفي، ويشعر أنه غير مرغوب فيه، ويصبح سيء التوافق، مضطرباً نفسياً^(١).

ويكاد يجمع التربويون على أن الحب والعطف والحنان من أهم دعائم وأساسات التربية، فإن الحب يتمثل في الحنو على المتربي، وتقبيله واحتضانه، وإظهار محبته، والعطف عليه، والطفل وإن كان صغيراً ضعيف الإدراك قليل الفهم إلا أنه يعي البسمة الحانية، ويدرك الغضب، فلا يمكن أن يتعلم الطفل الرحمة والحنان والعطف إذا كان والده يقسو عليه ولا يرحمه، فإن المربين لا يمكنهم أن يربوا تلاميذهم بأسلوب

(١) زهران، حامد عبدالسلام، علم نفس النمو، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الرابعة: (١٩٧٧م)، ص: (٢٦٧).

الرغبة والقسوة فقط؛ بل لابد من الحب الفياض الغامر، والرحمة والشفقة على المتربّين، وهم من ثم ينقلون هذا الحب إلى غيرهم^(١).

٢. تحقيق الصّحة النفسية للمتربّي:

وقد أجريت دراسات متعددة لاستقصاء أثر أساليب الوالدين في التعامل مع الأبناء على صحة الأبناء النفسية، وتشير نتائج هذه الدراسات إلى أن التعامل الذي يعطي للطفل شعوراً بالأطمئنان، ويقوم على التقبل والمسايرة والنصح والإرشاد يؤدي إلى نتائج تكيفية أفضل من تلك التي يؤدي إليها التعامل، الذي يقوم على الحرمان والنبد والضغط والإكراه والعقاب البدني^(٢).

إذاً لكي ينشأ الأطفال نشأة سوية خالية من العقد، ومن الكبت والضغط، ولكي يشعروا بالرحمة والسعادة والاستقرار وهم بين آبائهم وأمهاتهم، ولكي يُعدّوا إعداداً يجعلهم نافرين لغيرهم، مكملين رسالة آبائهم، رافعين من شأن أمتهم، لكي يكونوا كذلك، فهم يحتاجون إلى أن يعاملوا معاملة رحيمة رقيقة لطيفة في صغرهم، وأن يشعروا بالاستقرار والراحة النفسية والسعادة القلبية، وهم بين آبائهم وأمهاتهم، إن ذلك يجعلهم يحبون أسرهم، ويقدرّون الروابط الأسرية حق قدرها، ويحاولون إقامة مجتمع مماثل أينما وجدوا^(٣).

٣. رفع المستوى التحصيلي لدى المتربّي:

حفظ كرامة الإنسان أهم حق من حقوقه، لأن الإنسان إذا كان يشعر في نفسه بالمهانة جرّاء ما يعامل به من تحقير وإذلال وانتهاك للكرامة،

- (١) عدنان بارحارث، حاجة الطفل إلى الحب والرحمة، مرجع سابق.
- (٢) التل، سعيد وآخرون، المرجع في مبادئ التربية، عمان، الأردن، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط١، كانون أول ١٩٩٣م، ص: (٢٨٤).
- (٣) حسن أيوب، السلوك الاجتماعي في الإسلام، القاهرة، مصر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٢م، ص: (٢١٤).



فإنه يكون مكسور الإرادة، ويُقتل فيه روح الإبداع، فلا يستطيع أن يقدم أو ينتج شيئاً، فضلاً عن أن يكون في مقام الريادة والابتكار، ويعجز عن أداء الأمانة الملقاة على عاتقه، ولذا منعت الشريعة كل ما من شأنه أن يشعر الإنسان بالمدلّة والهوان والوهن، «فأَيُّما فعل أو قول يشعر بالكرامة والعزّة فهو مطلوب في الشرع، وأَيُّما فعل أو قول يشعر بالمدلّة والهوان فهو ممنوع، وفي ذلك كله حفظ للكرامة»^(١).

والتربية بالرحمة تجعل المتربي واثقاً بنفسه شغوفاً بالتحصيل الدراسي، محبباً لأساتذته وللبيئة التعليمية، بعكس التربية التي مبناها القهر والكبت، حيث أثبت علم النفس أن النجاح الذي يحققه الطفل في المستقبل ليس مرده إلى بنيان جسمه وتغذيته بقدر ما يرجع إلى الحب الذي تلقاه في أسرته في سني طفولته المبكرة.

وعلى العكس من ذلك تماماً، فإن حرمان الطفل من حب وحنان الأبوين يؤثر سلباً على نموه الانفعالي والعضوي الفيزيولوجي معاً؛ لأن هذه العلاقة تؤثر تأثيراً مباشراً، وتدفع الطفل لتعلم أنماط السلوك غير المتكيف، وقد تسبب له حالات من القلق والتوتر، «ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيق عن النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقاً، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتّمرن، وهي الحميّة والمدافعة عن نفسه ومنزله. وصار عيالاً على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السّافلين»^(٢).

(١) النجار، عبدالمجيد، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية: (٢٠٠٨م)، ص: (٩٩).

(٢) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي =

والطفل يحتاج إلى حب المرَبِّي ورحمته حتى يأنس به ويشعر بأنه قريب إليه، وعلى العكس إذا لم يجد هذا الحب فإنه ينفر من المعلم ولا يستفيد من تعليمه.

٤. حمل رسالة الرحمة لجميع الناس:

المنهج الإسلامي في التربية بالرحمة لا تميز بين مسلم وكافر، وبين جنس وآخر، بل يربي جميع أصناف الخلق بالرحمة، يرفق بضعيفهم، ويسدُّ خلة فقيرهم، ويطعم جائعهم، ويكسي عاريهم، ويصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أدعُ الله على المشركين. قال: (إني لم أبعثُ لعائناً، ولكنُ بعثتُ رحمة).^(١)

(بعثتُ رحمة) «أي: بالرسالة العامة، والإرشاد للهداية، والاجتهاد في التبليغ، والمبالغة في النصح، والحرص على إيمان الجميع، وبالصبر على جفائهم، وترك الدعاء عليهم؛ إذ لو دعا عليهم لهلكوا. وهذه الرحمة يشترك فيها المؤمن والكافر».^(٢)

٥. تحقيق السكينة والدفء الاجتماعي للمترَبِّي:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم].

= (المتوفى: ٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ (مقدمة ابن خلدون)، ص: (٧٤٣).

(١) مسلم، الصحيح، كتاب البرِّ والصلة والأداب، باب النهي عن لعن الدوابِّ وغيرها، رقم الحديث: (٦٦١٣).

(٢) (٢٠١) القرطبي، أحمد بن عمر بن إبراهيم، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق: محب الدين ديب مستو وآخرون، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦ م: (٥٨٢/٦).



جعل الله المودة والرحمة من عناصر الرابطة الزوجية، ومن أهم مقوماتها، وهما من القيم التي تشكل حصناً وقيماً من كل ما يهدد أمن الأسرة واستقرارها، بعد مرحلة التأسيس، فالمعاملة الحسنة أو العشرة الطيبة قد يكون باعثها المودة، وقد يكون الدافع إليها الرحمة، أو هما معا.

فهذان العنصران لا بد منهما في محيط الحياة الأسرية «وإلا تعرض البناء للانحيار أو الدمار في أي لحظة تطير فيها المودة من القلوب، والرحمة تفوق المودة في الأهمية، لأنها تبسط جناحها على العلاقة الزوجية في حالات الرضا وفي حالات الغضب، وفي حالات الشقاق وفي حالات الوثام، فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان، ولذا ذكرت الرحمة بعد المودة؛ لأن المودة قاصرة على حالة واحدة: حالة الرضا والمحبة والصفاء بين الزوجين»^(١).

ذلك أن الأسرة كما جعلها الله وأراد لها أن تكون هي محل السكن والسكينة، والدفء الاجتماعي والنفسي، ووسيلة المودة والإيثار، وموطن الرحمة والتراحم والإحسان، والأرض المناسبة لزراعة بذور مستقبل حياة الإنسان السلوكية، وميدان التدريب على هذه المعاني الإنسانية الرفيعة، لتصبح سجية وخلقاً^(٢).

فيجب على الزوج أن يرحم زوجته ويعطف عليها ويأخذها بالرفق واللين ويعاملها بالحسنى، ويظهر لها الحب والعطف والحنان، وكذلك على الزوجة أن تحب زوجها وترحمه، وهما بذلك يكون أسوتهما رسول الهدى والرحمة، فقد كان ﷺ خير الناس معاشرة لأزواجه وأحسن الناس رفقا بهن، وتسامحاً معهن.

(١) العالم، يوسف، المقاصد العامة للشريعة، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية: (١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ص: (٤١٤).

(٢) التل، شادية وآخرون، التفكك الأسري دعوة للمراجعة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى: (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، (سلسلة كتاب «الأمة» العدد رقم: (٨٥)، ص: (١١٠).

وبناء العلاقة بين الزوجين على المودة والرحمة له مغزى تربوي واضح، وهو أنه إذا كانت العلاقة بين الزوجين منسجمة، فإن هذه العلاقة تعمل على نمو شخصيات متكاملة متزنة بين الأولاد، وبالعكس فإن الخلافات والمشاحنات والقسوة في التعامل بين الزوجين، من شأنها إحداث الاضطراب والنمو النفسي غير السليم بين الأطفال^(١).

وبالجمله ما من معاملة من المعاملات، أو رابطة من الروابط الاجتماعية أو الإنسانية، إلا وأساسها وقوام أمرها الرّحمة، فمن علاقة الإنسان بنفسه التي بين جنبيه، وعلاقته بذويه وأهله، إلى علاقته بمجتمعه المحيط به، إلى معاملته لجميع خلق الله من إنسان أو حيوان، كل ذلك مبني على هذا الخلق الرفيع، والسّجّية العظيمة.

ويمكن تلخيص واستنتاج الآثار التربوية والنفسية للتربية بالرحمة مما يلي:

- أ. الشعور بالثقة بالنفس.
- ب. قوة الشخصية مما يؤدي إلى القدرة على المناقشة وإبداء الرأي والدفاع عن النفس والأهل وغيرها.
- ج. التعود على خلق الصدق والصراحة لا انتفاء الكذب والخبث والمكر.
- د. المبالاة والاهتمام بالأمر الشخصية والأمر العامة للمجتمع.
- هـ. قوة العلاقات الاجتماعية وخاصة مع الوالدين.



(١) أحمد، عبدالمجيد سيد، علم نفس الطفولة الأسس النفسية والاجتماعية والهدي الإسلامي، دار الفكر العربي، ط ١، ١٩٩٨م. ص: (٣٢٣).

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً على ما أنعم به عليّ من نعم عظيمة، ومنها كتابة هذا البحث العلمي، وفي خاتمته أسأل الله ﷻ أن يتقبله بقبول حسن، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به عباده أجمعين. وأختم البحث بذكر أهم النتائج والتوصيات والمقترحات.

أولاً : النتائج:

قد توصل الباحث من خلال دراسة موضوع التربية بالرحمة من منظور التربية الإسلامية إلى عدة نتائج منها:

١. إنّ التربية الإسلامية تتميز عن غيرها من النظريات التربويّة الأخرى، باستمداد مبادئها وأهدافها وأساليبها من المصادر الإسلامية الثابتة، التي ليست مجموعة فرضيات تثبت عن طريق التجربة، وتكون قابلة للرفض أو القبول، كما أنها ليست مجموعة من المبادئ التي من وضع البشر، بل هي منهج رباني من الله ﷻ.

٢. إن التربية الإسلامية مبناهها وأساسها على الرحمة بالمتربّين، فكل ممارسة تربوية خرجت عن الرحمة إلى الشدّة والغلظة والعنف،

فليست من التربية الإسلامية، وإن ما رسها مربون مسلمون، ونسبوا ادعاء إلى التربية الإسلامية.

٣. إن التربية بالرحمة هي الأصل في التربية الإسلامية، وما عداها لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى، وعند استفاد كافة أساليب التربية بالرحمة.

٤. إن التربية بالرحمة لا تتنافى مع العقوبة المنضبطة، التي لا تستهدف تعذيب المتربي، أو إيذائه جسدياً أو معنوياً، أو الاعتداء على كرامته وإنسانيته، وإنما العقوبة التي تهدف إلى إصلاح الاعوجاج، وتقويم السلوك المنحرف، وتوقع هذه العقوبة في الوقت المناسب، بالقدر المناسب، وعلى الشخص المناسب.

٥. حفل تاريخ هذه الأمة من لدن النبي ﷺ إلى يومنا هذا بتطبيقات تربوية رائعة لمبدأ الرحمة والرفق واللين بالمتربي.

٦. إن التربية بالرحمة لها آثار حميدة وفوائد جمّة تربوية ونفسية على الفرد والمجتمع.

٧. إن كثيراً من الانحرافات الفكرية والاجتماعية حدثت نتيجة لبعدها المناهج التربوية الوضعية عن خاصية الوسطية التي تتميز بها التربية الإسلامية، التي تتجلى في تربية الجيل على الرحمة وغرس معانيها في نفوسهم، وهذه التربية هي القادرة على إخراج نوع الإنسان الذي تحتاجه البشرية اليوم للخروج من دوامة الغلو والتطرف والانحلال والتسيب، أي: الإنسان المتوازن المعتدل.

ثانياً: التوصيات والمقترحات:

أ. التوصيات:

بعد استعراض أهم ما خلصت إليه الدراسة من نتائج، فإن الباحث يقدم عددًا من التوصيات، وذلك على النحو التالي:

١. يوصي الباحث جميع المهتمين بالتربية بجعل التربية بالرحمة أساسًا ومنطلقًا وهدفًا وغاية، ووسيلةً وأسلوبًا لتربيتهم حتى يتحقق لهم ما يصبون إليه من بناء إنسان صالح متكامل من جميع جوانبه، وإعداده إعدادًا كاملًا ليحقق العبودية لله، ويعمر الأرض، ويكون صالحًا في نفسه مصلحًا لمجتمعه، لا يسعى في الأرض فسادًا، ولا يهلك الحرث والنسل، ويكون بعيدًا عن العنف غير المبرر، والإرهاب والتطرف.

٢. يوصي الباحث رجال التربية بدراسة النصوص الواردة في الحث على الرحمة، وذكر فضائلها ومحاسنها، وجعل هذه النصوص نصب أعينهم في كل المواقف التربوية، والعمل على فهمها تطبيقها، حتى لا تبقى نظريات لا وجود لها في عالم الواقع والحقيقة.

٣. كما يوصي الباحث بضرورة دراسة سير الأنبياء والصالحين على مدى العصور والدهور للوقوف على التطبيقات الفعالة للتربية بالرحمة التي مارسوها في حياتهم العلمية والعملية.

٤. كما يوصي الباحث جميع العاملين في المجال التربوي بضرورة مراعاة الرحمة في جميع عناصر العملية التربوية، في وضع الأهداف والمحتوى، في اختيار الأساليب والوسائل التعليمية، في تخطيط الأنشطة المدرسية، وفي التقويم والاختبار.

ب. المقترحات:

بناء على ما أسفرت عنه هذه الدراسة من نتائج وتوصيات فإن

الباحث يقترح إجراء عدد من الدراسات والأبحاث العلمية في مجال التربية بالرحمة في ضوء التربية الإسلامية ومنها:

١. إجراء دراسة مسحية عن الممارسات التربوية في العالم الإسلامي لمعرفة مدى التزامها بمبدأ الرحمة من عدمه، وما تأثير ذلك على المتربّين سلباً أو إيجاباً.

٢. دراسة الكتب التربوية التي يرجع إليها المربّون في العالم الإسلامي بهدف تقويمها، وتصحيح ما قد يرد في بعضها من أفكار وآراء تخالف مبدأ التربية بالرحمة.

٣. إجراء دراسة عن الأساليب والوسائل التربوية التي يمكن استخدامها لتفعيل التربية بالرحمة من منظور التربية الإسلامية. هذا وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن دعا بدعوته واستنّ بسنّته إلى يوم الدين.



فهرس المصادر والمراجع:

١. ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ)،
شرح صحيح البخارى لابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن
إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة:
الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
٢. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية
الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، مجموع الفتاوى، المحقق: عبدالرحمن
ابن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف
الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر:
١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٣. ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي،
فتح الباري شرح صحيح البخاري، الناشر: دار المعرفة - بيروت،
١٣٧٩هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام
بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه
تعليقات العلامة: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز.
٤. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد،
ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ
والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن
الأكبر، المحقق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة:
الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ (مقدمة ابن خلدون).
٥. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد التونسي، التحرير والتنوير،
الدار التونسية للنشر، تونس: (١٩٨٤هـ).

٦. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.
٧. أحمد، عبد المجيد سيد، علم نفس الطفولة الأسس النفسية والاجتماعية والهدى الإسلامي، دار الفكر العربي، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٨. البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المحقق: حقه وخرج أحاديثه محمد عبدالله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٩. التل، سعيد وآخرون، المرجع في مبادئ التربية، عمان، الأردن، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط ١، كانون أول ١٩٩٣م.
١٠. التل، شادية وآخرون، التفكك الأسري دعوة للمراجعة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى: (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م)، (سلسلة كتاب «الأمّة» العدد رقم: (٨٥)).
١١. حسن أيوب، السلوك الاجتماعي في الإسلام، القاهرة، مصر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
١٢. الدينوري، أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى: ٣٣٢هـ)، المجالسة وجواهر العلم، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت - لبنان)، تاريخ النشر: ١٤١٩هـ.
١٣. الرازي، زين الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الحنفي، مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.



١٤. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف، المفردات في غريب القرآن، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى- ١٤١٢ هـ.
١٥. راغب السرجاني، الرحمة في حياة الرسول ﷺ، الناشر: رابطة العالم الإسلامي، سنة النشر: ١٤٣٠ - ٢٠٠٩ م.
١٦. زهران، حامد عبدالسلام، علم نفس النمو، القاهرة، عالم الكتب، الطبعة الرابعة: (١٩٧٧م).
١٧. السعدي، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨م.
١٨. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله، بهجة قلوب الأبرار وقررة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، المحقق: عبدالكريم الدريني، دار النشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
١٩. الشافعي، إبراهيم محمد، وآخرون، المنهج المدرسي من منظور جديد، العبيكان، الرياض: (١٤١٦هـ).
٢٠. الطيبي، الحسين بن عبدالله، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى «الكاشف عن حقائق السنن»، تحقيق: عبدالله هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
٢١. العالم، يوسف، المقاصد العامة للشريعة، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية: (١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م).
٢٢. عبدالله، عبدالرحمن صالح، وحلمي محمد فودة، المرشد في كتابة البحوث التربوية، مكتبة المنار، مكة المكرمة: (١٤٠٣هـ).

٢٣. عبدالحميد محمد بن باديس الصنهاجي، آثار ابن باديس، المحقق: عمار طالبي، الناشر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة: الأولى (عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م).
٢٤. عدنان بارحارث، حاجة الطفل إلى الحب والرحمة، موقع جامعة أم القرى: (<https://uqu.edu.sa/lib/ar/42246>) بتاريخ: ١ نوفمبر ٢٠١٥م الساعة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة..
٢٥. القرطبي، أحمد بن عمر بن إبراهيم، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق: محب الدين ديب مستو وآخرون، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط ١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
٢٦. النجار، عبدالمجيد، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية: (٢٠٠٨م).



التربية على الرحمة في المحاضن القرآنية

إعداد:

د. هاشم بن علي الأهدل



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن للأخلاق أثر في شخصيات المتربين، ولها أثر في استقرار المجتمعات، واستمرار الحضارات، وقد اهتمت الدول والمؤسسات التربوية بالأخلاق أيما اهتمام، وذلك لأنها من أهم مقومات الشخصية السوية، التي تبني الأمم وتنتشر القيم.

وتعد المحاضن القرآنية من المؤسسات التربوية المهمة التي ارتضاها المجتمع لتربية ناشئته على القرآن الكريم، الذي يدعو إلى التمسك بالأخلاق والتحلي بالفضائل عمومًا والرحمة خصوصًا. وقد جمع الرحمن الرحيم في كتابه الكريم بين القرآن والرحمة، يقول الله تعالى:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلِفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]

يقول ابن سعدي: «(قل بفضل الله) الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة، وفضل تفضل الله به على عباده، (وبرحمته) الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ومعرفته»^(١).

وفي المحاضن القرآنية تظهر أشكال من الممارسات والسلوكيات التي تبرز نماذج لرحمة المسلمين بعضهم بعضاً. ورغم ذلك فهذه المحاضن تحتاج دوماً إلى المراجعة والترشيد والتوجيه، لتحقيق أهدافها التي وضعت من أجلها، ومن أهم الوسائل لبلوغ ذلك التزام خلق الرحمة.

والرحمة في تلك المحاضن المباركة متعددة الجوانب، ففيها يتلى كلام الله، وكلام الله كله رحمة، وبها تنتزل الرحمات على الملتحقين بها والآوين إليها، وصفة الرحمة ملازمة للمتعاملين مع القرآن الكريم. وفي هذا البحث رصد لبعض التطبيقات العملية، سواءً كانت مأمولة أو واقعية، في هذه المؤسسة التربوية ذات الأثر الكبير في دول العالم الإسلامي.

وفي المحاضن القرآنية علاقات متنوعة، فيها الكبير والصغير، والذكر والأنثى، والعاديون وذوي الاحتياجات الخاصة، والمعلمون والمشرفون والإداريون، وكلهم في حاجة ماسة إلى خلق الرحمة. وحين ممارسة العملية التربوية والتعليمية، من الضروري استصحاب الرحمة في مراعاة الفروق الفردية، وخصائص المتعلمين، ومراعاة الحاجات النفسية.

وللتربية على الرحمة، لا بد من استخدام الأساليب التربوية كالموعظة والقصة والحوار والقدوة وغيرها. كما أن المؤسسات التربوية في المجتمع كالأُسرة والمدرسة يمكن أن تتعاوض مع المحاضن القرآنية في تعزيز الرحمة لدى المنتسبين إليها.

وإذا تأمل الناظر في سيرة النبي الرؤوف الرحيم محمد بن عبد الله ﷺ، يجد الرحمة واضحةً جلية في سيرته وتربيته وتعليمه لكتاب الله، وفيها خير دليل لمن يبغي الرحمة في المحاضن القرآنية، قال تعالى: ﴿فَمَا رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ لَئِنَّ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل

عمران: [١٥٩]، وأعماله وأقوله ﷺ كلها تفيض بالرحمة، قال ﷺ: (من لا يرحم لا يُرحم)^(١)، وقال أيضاً: (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)^(٢).

أهمية البحث:

- علاقته بتعلم وتعليم أشرف العلوم، وهو القرآن الكريم.
- ارتباطه بالأخلاق الإسلامية، مع التركيز على خلق الرحمة، الذي يعد أساس الروابط الاجتماعية والعلاقات الإنسانية.
- حاجة المنتسبين والمستفيدين من تلك المحاضن القرآنية إلى التحلي بأخلاق القرآن، ومنها خلق الرحمة.

أهداف البحث:

- نشر مفهوم الرحمة في المحاضن القرآنية، وإبراز مظاهرها ودلائلها.
- حث وتشجيع منسوبي تلك المحاضن القرآنية على تطبيق مفهوم الرحمة في برامجها وأنشطتها.
- تحسين العملية التربوية والتعليمية، ومعالجة المظاهر المنافية للرحمة في تلك المحاضن.

منهج البحث:

سوف يركز البحث على حلقات تحفيظ القرآن باعتبارها هي المحاضن القرآنية التي تعنى بالناشئة، وتسعى لتعليمهم القرآن تلاوةً وحفظاً، بتلقين من المعلمين والحفاظ. وإشراف عدد من الموجهين والخبراء

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم ٦٠١٣، في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

(٢) رواه الترمذي في سننه برقم ١٩٢٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٥٢٢.

والإداريين. ولذا سوف يستخدم المنهج الوصفي لرصد مظاهر الرحمة في المحاضن القرآنية، ويستخدم كذلك المنهج الاستباطي لاستخراج تطبيقات عملية لتحقيق الرحمة بين المنتسبين والمستفيدين منها.

مباحث الدراسة:

المبحث الأول: الدلالات التربوية للرحمة في القرآن والسنة.

المبحث الثاني: الرحمة في العملية التعليمية والتربوية في المحاضن القرآنية.

المبحث الثالث: الآثار التربوية للرحمة في المحاضن القرآنية.

المبحث الرابع: أساليب التربية على الرحمة في المحاضن القرآنية.

المبحث الخامس: دور مسؤولي المحاضن القرآنية في التربية على الرحمة.

النتائج والتوصيات.



المبحث الأول

الدلالات التربوية للرحمة في القرآن الكريم

الرحمة من الصفات الخلقية العظيمة، التي لا يمكن أن تصلح حياة البشر بدونها، وبها يعم الإحسان والعطف والرأفة بينهم، لأنها «رقة في النفس، تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه»^(١). وهي خلق خاص في طبيعة النفس السوية، وهي خلق متعدي يحث على النفع للآخرين، فالرحمة «تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة»^(٢).

واقترن القرآن الكريم بالرحمة، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٥٨) [يونس: ٥٨] «بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به»^(٣). ففي الآية تربية على ميادين الفرح الحقيقي، وهو التمسك بالقرآن، والعمل به، فهو الرحمة، وهو الفضل من الله.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٥١) [المنكوبت: ٥١] ، فالقرآن فيه الكفاية والرحمة، «وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير

(١) التحرير والتوير، ج ٢٦ ص ٢١.

(٢) مفردات القرآن، ج ١ ص ٣٤٧.

(٣) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص ٦١٦.

الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية والأسرار الربانية»^(١).

ولفظ الرحمة من الألفاظ الشاملة، التي تحوي معاني كثيرة، ودلالات تربوية متعددة، وقد وردت كثيراً في كتاب الله، وبألفاظ وصيغ متنوعة، وحري بأهل القرآن أن يتدبروا معانيها ودلالاتها، وعلى المربين في المحاضن القرآنية أن يبينوا هذه الدلالات والمعاني للدارسين. ويمكن استنباط الدلالات التربوية التالية من تلك النصوص:

تربية عقديّة:

في آيات الرحمة تعريف الأجيال بالخالق سبحانه من خلال أسمائه الحسنى وصفاته العلى، ومنها الرحمة، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]. وفيها أيضاً التربية على الاعتراف بقدرته سبحانه على الرحمة، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ١٤٩]، «فإذا أخطأ أو قصر في حق ربه أن يعترف بعظيم الجرم الذي أقدم عليه، وأنه لا ملجأ من الله في إقالة عثرته إلا إليه»^(٢).

ومن الأصول العقديّة التي يُربى عليها المتعلمون، أن رحمة الله واسعة، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فهي تشمل جميع المخلوقات، «من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه»^(٣).

ومن الأمور التي يحتاجها الجيل، أن يتربوا على التعلق بالله في كل أمورهم، وأن يبتغوا الفضل والخير والنصر من الله، قال تعالى:

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٤٤.

(٢) المختصر في التفسير، ص ١٦٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٤٥.

﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ [الأحزاب: ١٧]،

فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو^(١).

والتربية على طلب الرحمة والمغفرة من الله، وعدم اليأس أو القنوط، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣]، «أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا: قد كثرت ذنوبنا، وتراكمت عيوبنا»^(٢). ومما يبعث الأمل في نفوس المذنبين، قوله ﷺ: (إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش)^(٣).

تربية إيمانية

الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، ولذا كانت التربية المستمرة على الإنابة والتوبة، قال تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ تُوَّابًا مِّنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فهي دعوة من الرحيم سبحانه لكل من ارتكب المعاصي أن يبادر للتوبة، «أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً»^(٤).

وفي القرآن إشارة إلى اصطفاء أنبياء الله ورسله برحمة خاصة، قال تعال: ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ١٠٥]، والتصديق بالأنبياء من أركان الإيمان، التي لا يصح إيمان المسلم إلا بتحقيقها والإيمان يزداد بالعمل الصالح، وفي الآيات تربية على التنوع في الأعمال الصالحة، وتعليق القلوب بالجنة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٧٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٥٤.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم ٧١١٥، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٥١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٥٢﴾ .

(٤) المصباح المنير في تفسير ابن كثير، ص ٤٢٣.

هَاجِرُوا وَجَهْدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴿البقرة: ٢١٨﴾ وقراءة القرآن والاستماع إليه يجلب الرحمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ، ورغم ذلك فقد كان من رحمته ﷺ بأمة، وبأصحابه ﷺ، ألا يختموا القرآن في أقل من ثلاث، ونهى معاذ ﷺ أن يطيل في صلاته بالناس إماماً، كما أنه خشي ﷺ أن تُفرض صلاة التراويح في رمضان على أمته، فتوقف عن أدائها في المسجد، وهذه كلها جوانب عملية في التربية على الرحمة.

ومن الدلالات رحمته ﷺ بأمة في الصلاة، قوله ﷺ: (إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن في الناس الضعيف والسقيم وذا الحاجة)^(١). وفي الآيات التربية على الحرص على ثواب الله، والتعود على الإحسان بجميع صورته، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]

تربية خلقية في آيات الرحمة، تربية على العطف والمودة في المجتمع المسلم، وتقوية أواصر المحبة بين أفراد، ويضرب القرآن مثلاً بالنبي القدوة محمد بن عبد الله ﷺ ، وصحبه الكرام ﷺ، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، يقول ابن سعدي: "أي: متحابون، متراحمون، متعاطفون كالجسد الواحد، يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق"^(٢).

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وأكد نبينا ﷺ على هذا المعنى، في قوله: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)^(٣)، يقول النووي: «تعظيم حقوق المسلمين

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم ٧٠٢، في كتاب الصلاة، باب الإمامة.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٩٣٩.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم ٤٦٩١، في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين

بعضهم على بعض، وحثهم على التراحم، والملاطفة، والتعاضد، في غير إثم ولا مكروه»^(١).

وقال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿فِيمَا رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّالْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ، يقول ابن عطية الأندلسي: "رحم الله جميعكم، أنت يا محمد بأن جعلك الله على خلق عظيم، وبعثك لتتم محاسن الأخلاق، وهم بأن ليئك الله لهم، وجعلت بهذه الصفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم، وأنت لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك وتفرقوا عنك"^(٢).

والأحاديث كثيرة في التأكيد على خلق الرحمة، قال ﷺ: (إنما يرحم الله من عباده الرحماء)^(٣)، وقال ﷺ: (من لا يرحم لا يرحم)^(٤).

تربية اقتصادية

تربي آيات الرحمة على طلب النعم والرزق من الله، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] ، وفيها أيضاً التربية على طلب المنافع والأرزاق بأنواعها من الرزاق سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] ، يقول الطبري: «وهو العزيز في نعمته ممن انتقم منه من خلقه، بحبس رحمته عنه وخيراته، الحكيم في تدبير خلقه وفتح له الرحمة، إذا كان فتح

وتعاطفهم.

(١) شرح النووي على مسلم، ج ١٦ ص ١٣٩.

(٢) المحرر الوجيز، ج ٢ ص ٤٠٣.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم ١٢٢٤، في كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: يعذب الميت بيبكاء أهله.

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم ٥٦٦٧، في كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

ذلك صلاحاً، وإمساكه إياه عنهم إذا كان إمساكه حكمة^(١). وأرزاق الله كثيرة، تعد ولا تحصى، فمنها الصحة والعافية، والعلم والفقه، والمطر والثمار، والمال والجاه، والزوجات والأولاد، وغير ذلك كثير.

ومن رحمته ﷺ بالوضع الاقتصادي لأصحابه ﷺ، ما حصل مع كعب بن مالك ﷺ، ففي السيرة أن كعب بن مالك ﷺ قال: لرسول الله ﷺ يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله ﷺ قال: (أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك) قلت: "فإني أمسك سهمي الذي بخيبر"^(٢). فالمال قوام الحياة، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش في هذه الدنيا بلا مال يتمول به، «ورسول الله ﷺ في هذا الموقف أرحم بكعب بن مالك من كعب نفسه، وأرحم بعيال كعب من رحمته هو بعياله"^(٣).



(١) تفسير ابن جرير، ص ٤٣٤.
(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم ١٣٦٠، في كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى.
(٣) الرحمة في حياة الرسول ﷺ، ص ١٦٢.

المبحث الثاني

الرحمة في العملية التعليمية والتربوية في المحاضن القرآنية

ينبغي أن يحرص معلم القرآن ومسؤولو المحاضن القرآنية على العناية بالأسس التعليمية والتربوية في تعليم القرآن، كي تحقق تلك المحاضن أهدافها، التي أنشئت من أجلها. ومن أهم أهدافها أن يُعمل بهذا القرآن ويُهدى بهديه، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، يقول ابن سعدي: «فاتبعوه، فيما يأمر وينهى، وابنوا أصول دينكم وفروعه عليه، واتقوا الله تعالى أن تخالفوا له أمراً، لعلكم إن اتبعتموه ترحموا، فأكبر سبب لنيل رحمة الله، اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً»^(٤).

إن عدم تحقيق هذه الأسس ينافي الرحمة المطلوبة في المحاضن القرآنية، ويؤدي ذلك إلى ضعف الدافعية لدى الطلاب، وعدم رغبتهم في الحفظ والتعلم، وحدوث بعض المشكلات التربوية، وربما أصبح المحضن مكاناً لتخريج الحفاظ غير المتأدبين بآداب القرآن.

أ. التربية على الرحمة في العملية التعليمية في المحاضن القرآنية:

ينبغي لمعلم القرآن أن يمارس أنشطة ومهارات التدريس الفعال في

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣١٥.

الحلقات القرآنية، ويراعي جانب الرحمة في أدائها، لكي ينجح في مهمته أيما نجاح. وينبغي أن يكون في تعليمه سهلاً ميسراً، ولا يشدد على طلابه، ولا يكن عسراً في توجيهاته وإرشاداته، ويعمل بطلب نبي الله موسى لأستاذه الخضر عليهما السلام، حين قال له: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣] أي: لا تضيق علي، ولا تشدد علي^(١). فعلى المعلم أن يتجاوز عن أخطائهم، ويتغافل عنها، ولا يؤاخذ على الصغيرة والكبيرة، فإن ذلك ليس من الرحمة المتوخاة.

ومن مظاهر الرحمة في العملية التعليمية:

- الرحمة في التخطيط للدرس: لأن الخلل في الإعداد يؤدي إلى حدوث بعض المشكلات والعوائق التي تحول دون تحقيق الأهداف، ويؤثر على استيعاب الدارسين وإقبالهم على الحلقات القرآنية.
- الرحمة في إعطاء المنهج المقرر: ومن ذلك الاهتمام بشرح الدروس، ومساعدة الدارسين على الاستيعاب الجيد للآيات المطلوب دراستها أو حفظها، ومن الطرق في ذلك: "بيان معاني الآيات إجمالاً، والمفردات الصعبة أو الغريبة الألفاظ"^(٢). ولا بد للمعلم أن يكون متوازناً في تدريس أحكام التجويد، «فلا ينبغي الإسراع في تدريس مقرر التجويد للطلاب، وذلك بأن يُعطي الطالب حكماً جديداً قبل أن يتقن الحكم السابق - نظرياً وعملياً - فإن ذلك كمن يدخل الطعام على الطعام»^(٣). يقول الأندلسي: «ولا تقلهم من علم إلى علم حتى يُحكموه، فإن ازدحام الكلام مشغلة للفهم»^(٤). والرحمة بالدارسين

(١) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص ٨١١.

(٢) مهارات التدريس في الحلقات القرآنية، ص ١٧٧.

(٣) الحلقات القرآنية... دراسة منهجية شاملة، ص ٩٩.

(٤) تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين، ص ١٢٥.

تستلزم أحياناً، أن يعيد المعلم الدرس ويكرره أكثر من مرة، ولا يكفي بالمرة الأولى.

• الرحمة في اختيار الوسيلة التعليمية المناسبة: فالوسيلة التعليمية لها أثرها في تسهيل العملية التعليمية، وهي تقلل من الجهد المبذول من المعلم، فيرحم نفسه، وهي أيضاً رحمة للمتعلمين، وتقليل للجهد الذهني المطلوب منهم لفهم الدروس أو حفظها. والوسيلة التعليمية في المحاضن القرآنية، رحمة لأذهان الطلاب من التشتت، أو الشعور بالسآمة والملل. وأكد علماء المسلمين على استخدام الوسائل التوضيحية في التعليم، يقول ابن جماعة: «على المعلم أن يصور المسائل ثم يوضحها بالأمثلة، وذكر الدلائل»^(١).

• الرحمة في التقويم: فيراعي إتقان الحفظ عند تسميحه للطلاب، ولا يجامل على حساب الجودة، أما إن كان حفظه ضعيفاً، فمن الرحمة به أن يُعطى فرصةً للمراجعة وتثبيت الحفظ. ومن الرحمة المطلوبة، أن يكون المعلم حازماً في متابعة الحفظ والتسميع، «ولا ينبغي بحال من الأحوال أن يقوم المعلم بالتهاون في عملية التسميع، فلا يحاسب على الأخطاء، أو يكِل المهمة إلى الطلاب»^(٢).

ومن الرحمة بالطلاب تعريفهم بالوسائل المعينة على إتقان الحفظ وتشبيته، وتزويدهم بالخبرات النظرية والعملية في ذلك.

• الرحمة في التكليف بالواجبات المنزلية: فالواجبات المنزلية تساعد في تثبيت المعلومات، وتنمية المهارات القرائية والكتابية، ولكنها ينبغي أن تكون بقدر معقول، وأن تُعطى باعتدال، «لأنه ربما

(١) تذكرة السامع والمتكلم، ص ٥٢.

(٢) الحلقات القرآنية... دراسة منهجية شاملة، ص ٨٥.

كان عند التلاميذ واجبات مدرسية أو ارتباطات أسرية أخرى»^(١).
ومن الرحمة ألا يكون هدفها التهديد أو العقوبة، وإنما وظيفتها
إفادة التلاميذ وتحقيق الأهداف التربوية.

• الرحمة في طرح الأسئلة في اللقاءات القرآنية: فالأسئلة تقوي
الانتباه، وتمنع الشرود والغفلة أثناء الدرس، ولكن ينبغي أن تكون
مغلقة بالرحمة، والحرص على تحفيز التلاميذ وإقبالهم على التعلم.
فمن الرحمة أن تكون الأسئلة مناسبة لقدراتهم المعرفية وخبراتهم
العملية، فلا تكون صعبة أو معقدة أو غامضة، فيصابون بالإحباط
والعجز. ومن الرحمة أن تكون الأسئلة متنوعة، ومختلفة الصياغة،
وتناسب جميع المستويات، فتراعي قدرات الطلبة ضعيفي القدرات
الذهنية، وتستثير مواهب وطاقت المتفوقين. «ومن الرحمة ألا
تكون الأسئلة محبطة للتلاميذ، أو لبعضهم، حيث إن البعض يوجه
الأسئلة إلى التلاميذ بأسلوب التهكم أو ألفاظ التجريح والسخرية
أو الإيحاء بعدم قدرتهم على إجابة أسئلته، أو تصاحب السؤال
كلمات مؤذية أو نظرات قاسية»^(٢). ومن الرحمة أيضًا ألا يضيق
عليهم في وقت الإجابة، فيصبر عليهم، ويكرر طرح السؤال حتى
يفهموه، ويعطيهم وقتًا كافيًا للتفكير في السؤال قبل الإجابة عليه.

• الرحمة في الإجابة على أسئلة الطلاب: على المعلم المربي أن يتيح
المجال لطلابه أن يطرحوا أسئلتهم، وذكر ما يدور في خواتمهم
من إشكالات وتساؤلات، سواء عما جهلوه، أو لم يفهموه في موضوع
الدرس، أو في مواضيع أخرى يحتاجون إليها. ومن الرحمة بهم ألا
يكبت في نفوسهم هذه التساؤلات، ولا ينهرهم أو يوبخهم، وأن

(١) مهارات التدريس في الحلقات القرآنية، ص ١٩٦.

(٢) مهارات التدريس، ص ٢١٦.



يسمع السؤال من تلاميذه دون أن يفرق بينهم، ولا يمنع أحداً منهم من مناقشته وسؤاله عما أشكل عليه»^(١).

ومن الرحمة ألا يجيب المعلم عن كل تساؤل يسأله الطالب، فقد يسأل عما لا يعنيه، أو يستفسر عما يضره، والأولى تبصيره بآداب السؤال، ومن الحكمة «إن سأله طالب شيئاً من ذلك لم يجبه، ويعرفه أن ذلك يضره ولا ينفعه، وأن منعه إياه لشفقة عليه ولطف به، لا بخلاً عليه»^(٢).

ب. التربية على الرحمة في العملية التربوية في المحاضن القرآنية:

تعد الجوانب التربوية في التعليم من الأسس الضرورية المكملة لتكوين شخصية المتعلم، وتساعد في تنمية مهاراته وميوله واستعداداته، «لأنه أصبح من المقرر أن المعلم لا يعلم بقدرته على الحفظ، وفهم مادته وإتقانه لمخارج الحروف فحسب في مادة القرآن مثلاً، وإنما يعلم بطريقته وأسلوبه وشخصيته، وعلاقاته مع تلاميذه داخل الحلقات القرآنية وخارجها»^(٣). وللرحمة مجالات عديدة في العملية التربوية في المحاضن القرآنية، ومنها:

- الرحمة في مراعاة الحاجات الفطرية: وهي الحاجات العضوية، «وتتمثل هذه الحاجات في الطعام، والشراب، والراحة، وقضاء الحاجة»^(٤). فالرحمة في توفير هذه الحاجات في المحاضن القرآنية، وألا تكون الفصول الدراسية والحلقات شديدة الحرارة أو البرودة، أو شديدة الازدحام بكثرة الطلاب. ومن الرحمة بالطلاب أن تُوفر لهم المقاعد المريحة، ودورات المياه الكافية، ويُعطون فترات الراحة المناسبة.

(١) فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة، ص ٢٣١.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم، ص ٥١.

(٣) أساسيات في طرق التدريس، ص ٣٦.

(٤) الصحة النفسية، ص ٢٨.

- الرحمة في مراعاة الحاجات النفسية: وهذه الحاجات تجعل المتربي متوافقاً مع نفسه، ومع من حوله، وقادراً على مواجهة المشكلات وحلها، وتتمثل الحاجات النفسية في الحاجة إلى الأمن، والحاجة إلى الحب والتشجيع، والحاجة إلى التوجيه والنصح، والحاجة إلى الانتماء الاجتماعي، والحاجة إلى المعرفة.
- فمن الرحمة إشعاره بالأمن والأمان والارتياح النفسي، وعدم إخافته بالعقاب أو غيره، بل إشعاره بالمحبة والتقدير. ومن الرحمة إزالة ظلمات الجهل، وتزويده بالمعلومات والحقائق، والتجارب النافعة، التي تقيده في دنياه وآخريته. ومن الرحمة بالطلاب تقوية العلاقات الاجتماعية فيما بينهم، كي تسود روح الأخوة فيما بينهم، ولا يحدث النزاع والتناحر.
- الرحمة في مراعاة التدرج التربوي: فالتدرج يراعي اختلاف القدرات والمواهب والأعمار، ويكون التوجيه بحسبها، وتكون المناهج كذلك، يقول الإمام الماوردي: «واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضي إلى حقائقها، وليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل»^(١). فالرحمة بالمتعلم تتطلب عدم الاستعجال في تعليمه، أو تكليفه بحفظ ما لم يتأهل له، أو إلزامه بفهم المقاصد قبل فهم المقدمات.
- الرحمة في مراعاة الفروق الفردية: هناك فروق واضحة في طلاب المحاضن القرآنية، من حيث القدرات، والاستعدادات، والذكاءات، والخبرات، وهناك فروق بينهم في الطبائع والأجسام والعادات،

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٥٥.

يقول النووي: «وينبغي أن يكون المعلم حريصاً على تفهيمهم، وأن يعطي كل إنسان منهم ما يليق به، فلا يكثر على من لا يحتمل الإكثار، ولا يقصر لمن يحتمل الزيادة»^(١).

• والرحمة تقتضي حسن التعامل مع هذه الفروقات، لأن عدم مراعاتها قد يسبب أمراضاً نفسية ومشكلات اجتماعية، وسلوكيات منحرفة، يقول الغزالي: «كما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، كذلك المربي لو أشار على التلاميذ بنمط واحد من الرياضة - التربية - أهلكتهم وأمات قلوبهم»^(٢).

• الرحمة في الثواب والعقاب: فالرحمة في الثواب يكون بأن يُعطى بالقدر المناسب، حتى لا تكون له آثار عكسية. والرحمة في العقاب بالأب لا يكون هدفه التشفي والانتقام، وإنما من أجل تعديل السلوك، وبعد استفاد الوسائل السلمية كالعفو والتغافل، تقول غادة الطاهر: «ولا يفهم من هذا الدعوة إلى التساهل مع الطالبات وتدليلهم، وتجاهل أخطائهن، ولكن المعنى أن التوجيه وإن كان قاسياً فلا بد أن يكون مصحوباً بالمحبة، والرحمة، والشفقة، لتشعر المتعلمة أن المعلمة تعمل لمصلحتها، فلا تتصرف حسياً أو معنوياً عن الحلقة، نتيجة شعورها بالخوف والرغبة، ومن لا يرحم الناس لا يرحمه الله»^(٣).



(١) التبيان في آداب حملة القرآن، ص ٣٥.

(٢) إحياء علوم الدين، ج ٣ ص ٥٢.

(٣) رؤية منهجية لتدريس القرآن الكريم، ص ٧٧.

المبحث الثالث

أساليب التربية على الرحمة في المحاضن القرآنية

الأساليب هي الطرق والوسائل التي يتبعها المربي لغرس القيم والعادات في نفوس المتربين، وللتربية على الرحمة أساليب متنوعة، منها ما يلي:

أ. الدعاء: يبذل العقلاء الأسباب لنيل مراداتهم، ولا شك أن جميع الأمور تتحقق بإرادة الخالق سبحانه، فكما أن المربي يدعو لنفسه، فهو كذلك يدعو لمن يربيهم ويحرص على هدايتهم ورقبهم الدنيوي والأخروي، وخلق الرحمة من أهم الصفات التي يحرص على تربيتهم عليها، وتحليلتهم بها، وقد علمنا القرآن ذلك في قصة اصحاب الكهف، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، أي تعطينا «تثبتنا بها، وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير»^(١).

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: ٨]، أي: تعطينا «رحمة تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها لإيماناً وإيقاناً»^(٢).

ب. تدبر آيات الرحمة في القرآن الكريم: فالطلاب في المحاضن القرآنية يتلون الآيات ويحفظونها، ولا بد من التركيز على آيات

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٤٧.

(٢) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص ٢٠٧.

الرحمة بصيغها المختلفة، والوقوف عند ألفاظها، وتدبرها، لمعرفة معانيها، وفهم مدلولاتها، واستنباط الفوائد والعبر منها، وبيان ما فيها من الأحكام والدلالات.

ج. السرد القصصي: القصة أسلوب ناجع في غرس القيم وتغيير السلوك، وقد استفادت السنة النبوية والسيرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام، بالقصص والمواقف المتنوعة، التي تبين أحداثها خلق الرحمة الذي اتصف به نبينا ﷺ وأصحابه الكرام، أو تدعو إلى الرحمة وتحث عليها، فهو ﷺ كما وصفه ربه ﷻ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

ولا بد للمربي أن يستخدم الأسلوب القصصي من سيرة نبينا محمد ﷺ، ومواقف الرحمة وقصصها في حياته ﷺ أكثر من أن تحصى، فهي مع الصغار والنساء والضعفة، ومع أهل بيته ومع الغرباء، ومع الأصدقاء والأعداء، ومع الحيوانات والطيور والجمادات.

د. أسلوب القدوة: فلا بد أن يكون المعلم قدوةً حسنةً لطلابه، بأن يكون رحيماً في تعامله معهم، ويتجنب الشدة والغلظة، فيستميل قلوبهم، ويتجاوز عن أخطائهم، ويتغافل عن مثالبهم، ويوجههم بأسلوب الأب الرحيم المشفق. والرحمة من المعلم القدوة تكون في الصبر على تعليمهم، واحتمال المعاناة في تأديبهم، سواء كانوا من أصحاب القدرات الذهنية المحدودة، أو كانوا من الدارسين غير العرب، الذين يعانون في إخراج الحروف العربية من مخارجها. ويتأثر المتربي بالسيرة الحسنة، التي تساعد على تكوين الحافظ في المتربي دونما توجيه خارجي، لأن المثال إلى المرتقى في درجات الكمال يثير في نفس البصير العاقل قدراً كبيراً من الاستحسان، والإعجاب،

والتقدير، والمحبة، ومع هذه الأمور تتهيج دوافع الغيرة المحمودة، والمنافسة الشريفة".

هـ. أسلوب التربية الذاتية: فلا بد من وجود الدافع الذاتي للتخلي بهذه الصفة، ودور المربي أن يحث طلابه على مجاهدة النفس، واتباع السبل لتحصيل هذه القيمة الخلقية، فهي «رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة، تجعل قلبه على هذا الوصف، فيعلم العبد أن هذا الوصف من أجل مكارم الأخلاق وأكملها، فيجاهد نفسه على الاتصاف به، ويعلم ما رتب الله عليه من الثواب، فيرغب في فضل ربه، ويسعى

بالسبب الذي ينال به ذلك، ويعلم أن الجزاء من جنس العمل»^(١).

و. الممارسة العملية: لا يكفي أن تُعطى المعلومات النظرية عن أهمية الرحمة وفضلها، بل ينبغي أن تكون هناك برامج عملية، وأنشطة واقعية، للقيام بممارسات تطبق مفهوم الرحمة. والممارسة تكسب المتربي التعود والاستمرار، ولو كان الأمر شاقاً في بدايته، وأثبتت الدراسات والواقع أن «التدريب العملي والممارسة التطبيقية ولو مع التكلفة في أول الأمر، وقسر النفس على غير ما تهوى، من الأمور التي تكسب النفس الإنسانية العادة السلوكية، طال الزمن أو قصر»^(٢).

ومن الممارسات العملية للرحمة في المحاضن القرآنية، رعاية الطلاب الأيتام، وذوي الاحتياجات الخاصة، «والاختلاط بالضعفاء والمساكين، وذوي الحاجة، فإنه مما يرقق القلب، ويدعو إلى الرحمة والشفقة بهؤلاء وغيرهم»^(٣).

١ موسوعة الأخلاق، ج ١ ص ٥٠٨.

٢ الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج ١ ص ١٩٧.

٣ موسوعة الأخلاق، ج ١ ص ٥١٤.

ز. الترغيب والترهيب: فمن الأساليب التربوية حث المتربي على التحلي بالصفات الإيجابية، والتخلي عن الصفات السلبية. فالمربي يحث طلابه على الاتصاف بالرحمة، ويرغبهم فيها، ويبين لهم النصوص الحاثثة على ذلك، ويبين لهم الأجر العظيم والثواب الجزيل للرحماء، كما يبين لهم سوءة عدم الاتصاف بالرحمة، ويكفي أمثال هؤلاء القساة أنهم مبعوضون من الله والخلق.

ح. التربية بالأحداث: إن بقاء المتربين في تلك المحاضن القرآنية، يؤثر في سلوكهم وأخلاقهم، سواءً من خلال المعيشة القرآنية المستمرة، أو من خلال الاختلاط بالأساتذة والأقران، والمربي الناجح يستثمر الأحداث والأحوال التي يعايشها مع طلابه في توجيههم وتربيتهم. ويمكن أن يستثمر بعض المواقف في إبراز مظاهر الرحمة في تصرفات الآباء وأولياء الأمور. كما أنه يبرز مظاهر الرحمة في بعض المواقف والأحداث التي تمر به أو بأحد طلابه.

ويمكن أن يتم ذلك في الأنشطة غير الصفية، عند زيارة المستشفيات، وعيادة المرضى، ومراكز المعاقين، والمتخلفين عقليا، وغيرها.

ط. أسلوب الوعظ: للوعظ دور مهم في تعديل السلوك، وتحريك القلوب، ومن خلاله يكتسب المتربي السلوك المرغوب، والمربي يستخدم أسلوب الموعدة مع طلابه، كما استخدمها لقمان مع ابنه، وفي الالتزام بمواعظ القرآن، تكمل أخلاق الإنسان، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨].

ومن وسائل غرس الرحمة، وتليين القلوب قراءة سير الرحماء ومواقفهم، والاستماع إلى المواد المسموعة التي تحث على الرحمة. فالموعدة ترقق القلوب لاكتساب خلق الرحمة، وتتضمن الثواب والعقاب،

الثواب لمن كان رحيماً، والعقاب لمن كان قاسياً، وفي الموعظة «معرفة جزاء الرحماء وثوابهم، وأنهم هم الجديرون برحمة الله دون غيرهم، ومعرفة عقوبة الله لأصحاب القلوب القاسية، فإن هذا مما يدفع للتخلق بصفة الرحمة، ويردع عن القسوة»^(١).



المبحث الرابع

الآثار التربوية للرحمة في المحاضن القرآنية

يسعى المربون في المحاضن القرآنية إلى غرس القيم الخلقية في نفوس المتربين، وإذا ساد خلق الرحمة في المحاضن القرآنية، وأصبح سمةً بارزةً فيها، تحققت الكثير من الفوائد والآثار، ومنها:

- محبة الله سبحانه وتعالى، ونيل رحمته، فإذا التزم أهل القرآن بالرحمة وأحسنوا في تعليمهم وتربيتهم وإدارتهم للمحاضن القرآنية، نالوا رحمة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] «وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله، والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم»^(١). وبشر النبي ﷺ من يرحم غيره برحمة الله له، قال ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء)^(٢). الاقتداء بالنبي ﷺ في التربية والتحلي بهذا الخلق العظيم، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]
- ”ومن ذلك أن الله جعل هذه الصفة لصفوة خلقه، وخيرة عباد، وهم الأنبياء والمرسلين، ومن سار على نهجهم من المصلحين“^(٣).

(١) موسوعة الأخلاق، ص ٥٠٣.

(٢) رواه الترمذي في البر، برقم ١٩٢٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٣٥٢٢.

(٣) موسوعة الأخلاق، ص ٤٩٩.

• العمل بالقرآن، والتأسي بآدابه، وخاصةً أهل القرآن، فإن من يعلم القرآن ينبغي أن يكون أول المؤدین لأوامره المنتهين عن نواهيه، ومعلم القرآن يستخدم أسلوب الرحمة في تعليمه وتربيته، ولا يكون تعليمه مجرداً من العواطف والأحاسيس. والمعلم المربي يعزز توجيهاته وتعليمه بالأخلاق الفاضلة، وخاصةً الرحمة، ويتجنب التعزيز السلبي، «لأن الأسلوب التربوي الجاف في التربية، والتعليم، والحفظ يؤدي إلى نتائج سلبية، تضعف التأثير الوجداني والسلوكي عند المتلقي، لا سيما في الحلقات القرآنية»^(١).

• تعزيز المحاضن القرآنية وتقوية دورها بين المؤسسات التربوية، فإن تربية الدارسين على الرحمة، يخرج أجيالاً متحلياً بأخلاق الأنبياء، لها أثرها في نفع الأمة والدين. كما إن التحلي بها يقلل أو يزيل ظاهرة التسرب من تلك المحاضن، ويكثر من هذه المجالس المباركة، قال ﷺ: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفت بهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده)^(٢). ومن نشأ في هذه المحاضن المباركة، وتلقى العناية والرحمة، نشأ سوياً، خالياً من الأمراض النفسية والاجتماعية.

• تقوية أواصر المجتمع المسلم، وتماسكه، وعطف بعضهم على بعض، وتعاونهم لخدمة أنفسهم ومجتمعاتهم، فالرحمة في المحاضن القرآنية تعتبر نموذجاً يُحتذى به، ومنها يتخرج القدوات والمبدعون، ومن هنا كان «الحفاظ على القرآن وحفظه واجب جماعي يلزم

(١) مهارات التدريس في الحلقات القرآنية، ص ٢٦.

(٢) رواء مسلم في صحيحه برقم ١٢٨، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن.



كل المسلمين، لأنه دستور الأمة ورمز قوتها، ومنبع عزتها، وكان الاهتمام به وبتعليمه في كافة مراحل التعليم سمة من سمات المجتمع المسلم^(١). ففي التربية على الرحمة تقدم المجتمع وتطوره، لأن انتشار حفاظ القرآن، المتأدبين بأدابه، يساهم في إيجاد السواعد البناءة، الجادة في تفكيرها واهتماماتها، فيكونوا عوامل قوة وازدهار للأمة والمجتمع.

- تربية النفس على الرحمة، عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها امرأة، قال: (من هذه؟) قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال: (مه، عليكم بما تطيقون، فو الله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه)^(٢).
- تحقيق الأمن النفسي: فمن عاش في رحاب المحاضن القرآنية، وترى على الرحمة، فإنه يتشربها في شخصه، ويتمثلها في سلوكه، ويستشعر أثرها في حياته كلها، ويجد الراحة النفسية، والحلول الناجعة لكل ما يواجهه من معضلات وأزمات، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. ومن تربي على الرحمة «فإنه يشعر بالأمن والطمأنينة النفسية، والسكينة القلبية، غير خائف ولا قلق»^(٣).



(١) إعداد المعلم، ص ٢٣١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم ٤٣، في كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله عز وجل أدومه.

(٣) القرآن وأثره في تحقيق الأمن النفسي، ضمن بحوث الملتقى الرابع لجمعيات تحفيظ القرآن، ص ٢٤٢.

المبحث الخامس

دور مسؤولي المحاضن القرآنية في التربية على الرحمة

ينبغي أن تسود الرحمة في شخصيات جميع المنتسبين والمسؤولين في المحاضن القرآنية، سواء كانوا من المعلمين، أو المشرفين، أو أعضاء الهيئة الإدارية، أو غيرهم. وينبغي أن يتواصوا بالرحمة في جميع الأنشطة والبرامج الصفية وغير الصفية، ويظهر أثرها في جميع من يتعاملون معهم من الأقارب والأبعد.

وقد أثنى الله على عباده المتصفين بالرحمة، في قوله تعالى: ﴿تُرْكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ۗ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۗ (١٨)﴾ [القم: ١٧-١٨] ، قال الطاهر بن عاشور: «خص بالذكر من أوصاف المؤمنين، تواصيههم بالصبر، وتواصيههم بالمرحمة، لأن ذلك من أشرف صفاتهم بعد الإيمان، فإن الصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها، لأنها لا تخلو من كبح الشهوة النفسانية، وذلك من الصبر. والمرحمة، ملاك صلاح الجماعة الإسلامية، والتواصي بالرحمة فضيلة عظيمة، وهو أيضاً كناية عن اتصافهم بالمرحمة، لأن من يوصي بالمرحمة هو الذي عرف قدرها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصى بها»^(١).

(١) التحرير والتنوير، ج ٣٠ ص ٣٦١.



فالمعلم يتعامل مع طلابه كأب الرحيم، ويمارس الرحمة في معاشته لهم، ويتوخى الرحمة في تحديد كمية الحفظ، أو فترة التسميع والمراجعة، ويرحمهم في مراعاة ظروفهم الاجتماعية والنفسية، ويرحمهم في الصبر على تعليمهم وتفهمهم، وفي العدل بينهم، وعدم ظلمهم، أو تفضيل بعضهم بدون مبرر تربوي. ومن الضروري أن تكون هناك رحمة خاصة بكبار السن والأمهات، فإن لهم معاناتهم الخاصة في تعلم كتاب الله، وحسن قراءته وتجويده، ولذا ينبغي أن يُتساهل معهم في مقدار الحفظ والتسميع، والحضور اليومي للحلقات.

وإذا غابت الرحمة عاد ذلك بالسلب على الدارسين والدارسات في الحلقات القرآنية والدور النسائية، وتبين إحدى المربيات أهمية الرحمة في المحاضن القرآنية، وإذا عومل المتعلمون بالقسوة، فإن لذلك نتائج سلبية، ولفقدان خلق الرحمة في العمل التربوي أثراً سلبياً على سلوك المتعلمة، قد يصل إلى كراهية المعلمة، أو من ينتسب إلى مجتمع الحلقات القرآنية...، ومن الآثار السلبية تسرب الطالبات منها، ونقل صورة سلبية عنها للآخرين»^(١).

والمشرفون من مسؤولي المحاضن القرآنية، ولكل منهم دور في إشاعة خلق الرحمة من خلال التأثير على المعلمين، الذين يشرف عليهم، «وتقع على عاتقه مهمة كبيرة، ويضطلع بمسؤوليات جسيمة، ويحمل أمانة ثقيلة سيسأل عنها يوم القيامة، فهو في موضع تكليف قبل أن يكون موضع تشريف»^(٢)، وعليه أن يتصف بالأخلاق الحميدة، وخاصة مع من هم تحت سلطته، فيكون رحيماً بهم عادلاً معهم.

وتظهر رحمة المشرف في حسن أدائه لمهمته، وتشجيع المعلمين، والحرص على تطوير مهاراتهم وخبراتهم، وكذلك الرحمة بالمعلمين حين الوقوع في

(١) رؤية منهجية لتدريس القرآن الكريم، ص ٧٧.

(٢) فن الإشراف على الحلقات والمؤسسات القرآنية، ص ٢٣٤.

الأخطاء والمخالفات، وعدم اتخاذ أي قرارات تعسفية أو قاسية، تضر بمصلحة الطلاب أو المعلمين. ولا يمنع ذلك من إيقاع العقوبات المناسبة بعد اتخاذ الخطوات الأولية، وبالتنسيق مع الجهة المسؤولة عن الحلقات. ومن الرحمة بالمعلمين عدم استغلال حاجتهم للوظيفة، في تكليفهم بأمور ليست من مهام العملية التعليمية، أو ليست من صميم العمل التربوي.

ومن الرحمة التي ينبغي أن يتحلى بها المشرف، تقبله للتفاوت بين المدرسين، والفروق الفردية بينهم، والإصغاء لما يشتكون أو يتذمرون منه، والسعي لحل ما يواجهونه من مشكلات، والاستمرار في توفير الأمن، وإعطائهم الثقة في قدراتهم وإمكانياتهم، وعدم احتقارها مهما كانت محدودة، بل يعمل على تشجيعها.

أما الجهة الإدارية المشرفة على المحاضن القرآنية، فلها دور مهم في التربية على الرحمة، لأنها تضع الأنظمة والقوانين التي تسيّر تلك الحلقات، وتضع مناهجها، وتقر أنشطتها. ومن أهم وظائفها تحقيق الأمن الوظيفي لجميع العاملين، لأن ذلك سيؤثر في أدائهم العملي، ويعزز العلاقات البنينة الإيجابية، للطلاب والمعلمين والمشرفين والإداريين وغيرهم، في تلك المحاضن.

فمن الرحمة أن تكون الأنظمة والقوانين والإجراءات، فيها من التيسير والرحمة، ما يشجع المعلمين والطلاب وأولياء الأمور على الانضباط، وعدم الخروج على القوانين، أو التحايل على الأنظمة.

ومن الرحمة أن تخفف الجهة المشرفة من البرامج الجادة، وتسمح بممارسة بعض البرامج والمسابقات، بهدف «الترويح عن الطلبة، وإدخال السرور عليهم، ونزع الرتابة والسأم من نفوسهم»⁽¹⁾، ولا يكفي الإقرار

(1) المدارس والكتاتيب القرآنية، ص ١٦١.



والموافقة على إقامتها، بل لا بد من وضع الميزانيات المناسبة، التي تغطي تكاليف تلك البرامج.

ولا بد أن تعتمد الجهات المشرفة إقامة الأنشطة الاجتماعية للشباب، تحت إشراف الأساتذة الأخيار والمشرفين الغيورين في تلك المحاضن، فهم في حاجة إلى رحمة تنقذهم من «فتن الشهوات، ووسائل الترويج المحرمة، والمتوفرة بكثرة في كثير من البلدان، بفعل وسائل الإعلام، وشركات السياحة، والدعاية، ودور الأزياء، وما تضطلع به من دور سيء في محاربة الفضيلة ونشر الرذيلة»^(١).

ومما يعزز دور المسؤولين في تلك المحاضن، وتثبيت مفهوم الرحمة في نفوس الدارسين، ما ينبغي أن يقوم به أولياء الأمور من ممارسات تربي على الرحمة، ومن أهم هذه الممارسات: صلة الأرحام، وقد جاء الحث على ذلك في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، فالواجب على الوالدين تربية أولادهم على صلة الأقارب من جهة الأب أو الأم، قال تعالى: ﴿وَيَسِيحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنْ خَيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]، وحث نبينا محمد ﷺ على صلة الأرحام، فهي مما يحبه الله، وتجلب الرحمة، والخير الدنيوي والأخروي، قال عليه السلام: (من سره أن يُيسط له في رزقه، وأن يُنسأ له في أثره فليصل رحمه)^(٢)، وقال ﷺ: (إن الرحم شُجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته)^(٣).



(١) المدارس والكتاتيب القرآنية، ص ١٨٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم ٥٩٨٥، في كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم ٥٩٨٨ في كتاب الأدب باب من وصل وصله الله.

الختام

أ. النتائج:

- وردت كلمة الرحمة كثيراً في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وبألفاظ وصيغ متنوعة، وحرى بأهل القرآن أن يتدبروا معانيها ودلالاتها، وعلى المربين في المحاضن القرآنية أن يبينوا هذه الدلالات والمعاني للدارسين، وفيها إشارات للتربية العقدية والإيمانية والخلقية والاقتصادية.
- عدم تحقيق هذه الأسس ينافي الرحمة المطلوبة في المحاضن القرآنية، ويؤدي ذلك إلى ضعف الدافعية لدى الطلاب، وعدم رغبتهم في الحفظ والتعلم، وحدوث بعض المشكلات التربوية، وربما أصبح المحضن مكاناً لتخريج الحفاظ غير المتأدبين بأداب القرآن.
- من مظاهر الرحمة في المحاضن القرآنية: الرحمة في التكليف بالواجبات المنزلية، والرحمة في التقويم، والرحمة في مراعاة الحاجات الفطرية والنفسية، والرحمة في مراعاة الفروق الفردية، والرحمة في الثواب والعقاب.
- من أساليب التربية على الرحمة في المحاضن القرآنية: الدعاء،

وتدبر آيات الرحمة في القرآن الكريم، والقُدوة، وأسلوب السرد القصصي، والموعظة، والتربية بالأحداث.

• من الآثار التربوية للرحمة في المحاضن القرآنية: الاقتداء بالنبي ﷺ في التربية والتحلي بهذا الخلق العظيم، والأمن النفسي، والعمل بالقرآن والتأسي بآدابه.

• ينبغي أن تسود الرحمة في شخصيات جميع المنتسبين والمسؤولين في المحاضن القرآنية، سواءً كانوا من المعلمين، أو المشرفين، أو أعضاء الهيئة الإدارية، أو غيرهم. وينبغي أن يتواصوا بالرحمة في جميع الأنشطة والبرامج الصفية وغير الصفية، ويظهر أثرها في جميع من يتعاملون معهم من الأقارب والأبعد.

ب. التوصيات:

- إعداد دراسات نظرية وميدانية عن أثر التربية على التحلي بالعدل في المحاضن القرآنية، ودراسات أخرى عن أثر التربية على الصدق في المحاضن القرآنية.
- إعداد دراسة عن أثر التربية بالرحمة على المؤسسات التربوية الأخرى كالمدرسة والمسجد وغيرهما.



فهرس المصادر والمراجع

١. إحياء علوم الدين، محمد الغزالي. بيروت: دار الندوة الجديدة، د.ت.
٢. الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة الميداني. بيروت: دار القلم، د.ت.
٣. أدب الدنيا والدين، الإمام محمد بن علي الماوردي. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
٤. أساسيات في طرق التدريس، محب الدين أحمد أبو صالح. الرياض: دار الهدى للنشر، ط١٤٠٩.
٥. إعداد المعلم، عبدالله عبدالحميد. المدينة: مكتبة الغرباء، القصيم: دار البخاري، ط١٤١٥.
٦. - تأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين، أحمد بن عبدربه الأندلسي. تحقيق: محمود سليم. القاهرة: مكتبة القرآن، ط١٤٠٦.
٧. التبيان في آداب حملة القرآن، الإمام النووي. بيروت: دار ابن حزم، ط١٤١٤.
٨. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بدرالدين بن جماعة. بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.
٩. تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، تأليف سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. بيروت: مؤسسة التاريخ، د.ت.
١٠. الرحمة في حياة الرسول ﷺ، أ.د. راغب الحنفي السرجاني. البحث الحائز على جائزة المركز الأول بالمنافسة في مسابقة معالي



- السيد حسن عباس شربتلي العالمية للتعريف بالنبى ﷺ عام ١٤٢٨ .
مكة: رابطة العالم الإسلامي، المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ
ونصرته، ط ١٤٣١ .
١١. رؤية منهجية لتدريس القرآن الكريم، غادة محمد يحي الطاهر.
جدة: الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بمحافظة جدة،
القسم النسائي، ط ١٤٢٤ .
١٢. الصحة النفسية، فايز محمد الحاج. بيروت: المكتب الإسلامي،
ط ١٩٧٧ .
١٣. - فن الإشراف على الحلقات والمؤسسات القرآنية، د يحي
عبدالرزاق الغوثاني. دمشق: دار الغوثاني، ط ١٤٢٧ .
١٤. فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة، حسن إبراهيم عبدالعال.
الرياض: مكتبة التربية العربي لدول الخليج، ط ١٤٠٥ .
١٥. - القرآن وأثره في تحقيق الأمن النفسي، د أحمد بن موسى
السهلي. ضمن بحوث الملتقى الرابع لجمعيات تحفيظ القرآن
بالمملكة، بعنوان: جمعيات تحفيظ القرآن الكريم ودورها في تحقيق
الأمن ٢٩/٢ - ١/٣/١٤٣٠. المنظمون: الجمعية الخيرية لتحفيظ
القرآن بالمنطقة الشرقية.
١٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبدالحق بن
عطية الأندلسي. تحقيق وتعليق: الرحالة الفاروق، عبدالله بن إبراهيم
الأنصاري، السيد عبدالعال السيد إبراهيم، محمد الشافعي. قطر:
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، إدارة الشؤون الإسلامية، ط: ١٤٢٨ .
١٧. المدارس والكتاتيب القرآنية.. وقفات تربوية وإدارية، كتاب المنتدى،
سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي. الرياض: مطابع دار طيبة،
ط ١٤١٧ .

١٨. مقومات الداعية الناجح، د علي عمر بادحدح. جدة: دار الأندلس
الخضراء، ط١٤١٧.
١٩. مهارات التدريس في الحلقات القرآنية، أ. د.علي بن إبراهيم
الزهراني. المدينة المنورة: مكتبة الدار، ط١٤٢٠.
٢٠. موسوعة الأخلاق، إعداد: القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية،
إشراف: علوي بن عبدالقادر السقاف. الظهران: الدرر السنية،
ط١٤٢٤.



الرحمة بغير المسلمين
وأثرها على مواقفهم تجاه الإسلام
والمسلمين
- في ضوء نوازل الغرب الإسلامي -

إعداد:

محمد المسكيني

المملكة المغربية



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فلقد أصبح الاهتمام في هذا الوقت بقضية المخالف في الدين أكداً من أي وقت مضى في واقع عالمي، تراكمت فيه الأحداث الكبرى الخطيرة، وتصاعدت فيه الحملات والهجمات والإساءات على الإسلام والمسلمين، والتي نعتت الإسلام والمسلمين بالتشدد وبالغضب. وقد توالى ردود الأفعال تجاه هذه الهجمات من شباب مسلم لم يعرف دينه حق المعرفة، فقابل المخالف في الدين بمزيد من العنف والكرهية. لذا فإننا معاشر المسلمين وحتى لا يقع ظلم أو افتراء على غير المسلم، أو منه، في حاجة إلى إبراز المعالم المؤسسة لعلاقتنا مع غير المسلمين، وأبرز تلك المعالم خلق الرحمة.

وقد عني العلماء والباحثون المسلمون قديماً وحديثاً بقضايا أهل الكتاب المقيمين بالدولة الإسلامية، والمصطلح على تسميتهم في الفقه الإسلامي بأهل الذمة، ومن بين أجمع ما أُلّف في موضوع أهل الذمة، كتاب «أحكام أهل الذمة» لابن القيم، الذي جمع فيه الأحكام المتعلقة بهاته الفئة من الناس الذين استوطنوا بلاد الإسلام، بعد أن كانت تلكم الأحكام متفرقة

بين الأبواب الفقهية. وكذلك حرص المعاصرون على التأليف في الموضوع من زوايا مختلفة، منها ما يرتبط بالأحكام الفقهية والعقدية، ومنها ما يتعلق بالسياسة الشرعية. وذلك بهدف تصحيح التصورات حول طبيعة العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين من خلال إظهار تسامح الإسلام وتعايش المسلمين مع غير المسلمين. ونذكر من بين هاته المؤلفات: كتاب «العلاقات الدولية في الإسلام مقارنة بالقانون الدولي الحديث»، لوهبة الزحيلي، و«مواطنون لا ذميون»، لمحمد عبدالهادي المطردي، و«أحكام الذميين والمستأمنين في بلاد الإسلام»، لعبدالكريم زيدان، وغير المسلمين في المجتمع الإسلامي»، ليووسف القرضاوي، و«آثار الحرب في الفقه الإسلامي»، لوهبة الزحيلي. وكذلك صدرت أبحاث في إطار مؤتمرات ترتبط بالموضوع، ومن بينها مؤتمر «موقف الإسلام من الإرهاب» بالمملكة العربية السعودية. حيث قدمت مجموعة من الأبحاث العلمية التي سعت لبيان سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين، وأذكر من بينها: بحث د. حسن بن محمد سفر، الموسوم بـ «نظرات استشرافية في فقه العلاقات الإنسانية بين المسلمين وغير المسلمين». وبحث د. حكمت بن بشير بن ياسين، المعنون بـ «سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين». وبحث د. بدر بن ناصر البدر، والموسوم بـ «إرهاب المستأمنين وموقف الإسلام منه».

وإذا كانت هاته الكتابات وغيرها قد استطاعت أن تبرهن عن سماحة الإسلام من الجانب النظري، فنحن في حاجة أيضاً إلى الكشف عن مدى تحقق خلق الرحمة مع غير المسلمين على مستوى التطبيق العملي في واقع المسلمين، وذلك من خلال استقرار النوازل الفقهية، التي تجلي اجتهادات فقهاء أعلام انخرطوا في الواقع السياسي والاجتماعي للأمم، وعانينا عن كذب واقعها العقدي. فإن ذلك كفيل برد الاتهامات والافتراءات على الإسلام والمسلمين. ثم في حاجة إلى بيان أثر الرحمة بغير المسلمين على



مواقف هؤلاء تجاه الإسلام والمسلمين، للدلالة على أن التزام المسلمين بخلق الرحمة وبقيم الإسلام مع غير المسلمين هو خير السبل في الدعوة إلى الله.

لذلك سنسعى من خلال هذا البحث إلى أمرين:

أولهما: إظهار مدى تأسس تعامل المسلمين مع غير المسلمين على الرحمة، ومدى تمثل العلماء لقيمة الرحمة في فتاويهم، وذلك في ضوء النوازل الفقهية، مؤصلين لذلك بالمنهج النبوي في التعامل مع أهل الكتاب.

ثانيهما: بيان أثر الرحمة بغير المسلمين على مواقفهم تجاه المسلمين في ضوء النوازل الفقهية.

وسنعمد في سبيل تحقيق الأهداف أعلاه المنهج الاستقرائي المتمثل في استقراء النوازل المتعلقة بغير المسلمين في منطقة الغرب الإسلامي، والمظهرة لجوانب من الرحمة، والتنقيب عن مواقف وردود أفعال غير المسلمين تجاه الإسلام والمسلمين، معتمدين أساساً على ما تحفل به مدونات النوازل من وقائع وتساؤلات وأحداث انبرى لحلها فقهاء أعلام، نهلوا من ذلك المعين الصافي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فإن أفضل من ينطق بخلق الرحمة في ويجليها في واقع المسلمين، ومن يكشف عن مدى استحضار العلماء لقيمة الرحمة أثناء اجتهادهم، النوازل الفقهية التي اشتهرت مدوناتها في بلاد الغرب الإسلامي، الذي تميز أيضاً بوجود جاليات من أهل الكتاب تعايشت لقرون مع المسلمين، برغم ما قد شاب هذا التعايش من شوائب في مراحل تاريخية معينة، ينبغي التنبيه إليها، ووضعها في سياقها. وإن تراثاً غنياً كهذا حقيق بأن نستلهم منه الدروس والعبر، تحقيقاً للتكامل المعرفي والحضاري بين أجيال هذه الأمة، وتربية لأجيال اليوم على تمثل قيمة الرحمة في التعامل مع المخالف في الدين. مؤصلين لذلك بتمهيد

يبين من خلال الآيات القرآنية، ومن خلال أقوال وأفعال وسيرة النبي ﷺ، حقيقة تأسس العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين على أساس الرحمة.

وقد التزمت في كتابة البحث ما يأتي:

- عزوت الآيات إلى سورها، ذاكراً اسم السورة ورقم الآية.
 - خرّجت الأحاديث، معتمداً بالأساس الصحيحين، ثم غيرهما مع مراعاة الصحة.
 - ترجمت للأعلام الذين وردت لهم فتاوى بالبحث.
 - عرفت ببعض الأماكن والمصطلحات التي تنتمي إلى الغرب الإسلامي.
 - ذكرت تفاصيل المصادر والمراجع في فهرسة آخر البحث.
- وهكذا سينتظم البحث وفق الخطة الآتية:

تمهيد: دلائل الرحمة في تعامل النبي ﷺ مع غير المسلمين

المبحث الأول: الرحمة بغير المسلمين في ضوء النوازل الفقهية

المطلب الأول: الرحمة من خلال نوازل العلاقة بالدولة والكنائس والأحباس

المطلب الثاني: الرحمة من خلال نوازل المعاملات والأسرة والجوار

المبحث الثاني: أثر الرحمة بغير المسلمين على مواقفهم تجاه الإسلام والمسلمين

المطلب الأول: إسلام أهل الكتاب

المطلب الثاني: لجوء أهل الكتاب إلى القضاء الإسلامي.



تمهيد

دلائل الرحمة في تعامل النبي ﷺ مع غير المسلمين

إن المتأمل في النوازل التي جمعت النبي ﷺ بغير المسلمين، والتي تلونت بألوان الحياة التي يعيشها كل الناس في جميع الأزمنة والأمكنة، بما فيها من لحظات السلم والتعايش، وأيضاً من لحظات الاختلاف والصراع. يدرك حقيقةً وخاصةً لم تتحقق إلا زمن النبوة، وهي تأسس العلاقة مع غير المسلمين على الرحمة في جميع أحوالها. ذلك أن غاية بعثته ﷺ رحمةً العالمين جميعاً: إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم. فمن آمن به فقد دخل في رحمته وفاض بالسعادة الكبرى، ومن أبى أن يؤمن بالحق الذي جاء به من أهل الكتاب فقد عاش بين ظهرائي المسلمين في ذمة نبي الرحمة، آمننا على نفسه وعلى ماله. ومن كان من غير أهل الكتاب، فقد أمهله الله ولم يهلكه كما فعل بالكفار المتقدمين، الذين أهلكهم الله بالطوفان والصيحة وغيرها من صنوف الإهلاك، بعد أن أذوا رسله، وبغوا في الأرض. (١) قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. ومن رحمة النبي ﷺ بهؤلاء أنه أبى أن يدعو عليهم باللعنة والهلاك برغم عنادهم وبرغم إيذائهم له ولأصحابه، وكان يقول لمن يطلب الدعاء عليهم: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة». (٢)

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢ / ٢١)

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب لعن الكافر. حديث رقم: ٢٢١. ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث رقم: ٢٥٩٩.

وتلك هي الرحمة العامة التي وسعت كل شيء، وهي التي دل عليها اسم الرحمن، وامت جميع المخلوقات، فيها تحيا وبها تتعم في الدنيا. وقد حرص النبي ﷺ أن يبين للناس قيمة الرحمة بقوله وبفعله، وأنها قيمة مركزية في الكون، وخلق ثابت عند المؤمن، وأنها رحمة عامة للمخلوقات جميعاً. فعديدة هي المواقف التي يعمل فيها النبي ﷺ على ترسيخ قيمة الرحمة وعلى تصحيح مفهومها في عقول الناس، فيقول في حوار تعليمي مع أصحابه: «والذي نفسي بيده لا يضع الله رحمته إلا على رحيم، قالوا: كلنا يرحم، قال: ليس برحمة أحدكم صاحبه، يرحم الناس كافة»^(١). ويقول عن نفسه: «أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»^(٢). ويقول لبلال: أنزعت منك الرحمة يا بلال، حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟^(٣)

أما الرحمة التي دل عليها اسم الرحيم فهي خاصة بالمسلمين، فالإسلام سبب لها، وهي «تحصل لمن حصل له الهدى، فكلما كان نصيبه من الهدى أتم كان حظه من الرحمة أوفر»^(٤). لذلك كان النبي ﷺ يرد على العاطسين من اليهود، بقوله: يهديكم الله ويصلح بالكم^(٥) وكان يقول للمسلمين يرحمكم الله. وذلك لأن اليهود لم يأتوا بأسباب الرحمة من اتباع الهدى والحق.

ومن دلائل رحمته ﷺ بأهل الكتاب، أن عقد لهم الذمة، فجعلهم أمة مع المؤمنين داخلين في عهده وحمائته، وأن حرص على دعوتهم إلى

- (١) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٢٢١) .
- (٢) صحيح مسلم. كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ . حديث رقم: ٢٣٥٥ .
- (٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٣٣٦) .
- (٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٧٢) .
- (٥) أخرجه أبو داود رقم (٥٠٣٨) في الأدب، باب كيف يشمت الذمي، والترمذي رقم (٢٧٤٠) في الأدب، باب ما جاء كيف تشميت العاطس، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، وإسناده صحيح، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.



الإسلام، وعلى أن يتبعوا الحق، وأن ينجوا في الآخرة. وفيما يلي بيان ذلك.

أولاً: دخولهم في ذمته:

بالرجوع إلى العلاقات الأولى مع اليهود، نجد أن النبي ﷺ إثر قدومه المدينة وقبل غزوة بدر، قام بموادعة يهودها من خلال كتابة وثيقة أقرهم فيها على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم أن لا يعينوا عليه أحداً، وأن ينصروه إن دهمه بها عدو^(١). ومن أبرز ما جاء في هذه الوثيقة كفالة الحرية الدينية لليهود، كما في البند ٢٥ التي نصها: «وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته». والتتصيص على الدفاع المشترك كما في البند ٣٧: «وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة». وإلزام اليهود بالمساهمة في ميزانية الحرب، حيث جاء في البند ٢٤ ما نصه: «وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين»^(٢). وإن هذه المعاهدة لها دلالة عميقة من جهة القيمة الاعتبارية النابعة من الرحمة المحمدية، التي منحتها لليهود، الذين قد عاشوا قروناً من العزلة والتهميش من طرف الدول الكبيرة آنذاك، ولم يجدوا إلا بلاد العرب مأوى لهم.

أما عن العلاقات الإسلامية النصرانية، فبخلاف اليهود لم يكن للنصارى بالمدينة كيان سياسي أو حتى حضور مهم. لكن النبي ﷺ حرص على دعوتهم إلى دين الحق، وأول ما توصلنا إليه بخصوص اللقاء بين المسلمين والنصارى

(١) سيرة ابن هشام، ١ / ٥٠١. أنساب الأشراف، للبلاذري، ١ / ٢٨٦. الأموال، ١ / ٢٦٦. البداية والنهاية، ٣ / ٢٧٣. يرجح أكرم ضياء العمري بأن وثيقة موادعة اليهود مستقلة عن الوثيقة بين المهاجرين والأنصار ومتقدمة زمنياً عليها. انظر: السيرة النبوية الصحيحة، ١ / ٢٧٦، ٢٨١.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ١ / ٦١.

مجادلة أحد المتصرين من سادات الأوس، وهو أبو عامر الراهب النبي ﷺ، ثم خروجه إلى مكة، يحرضها على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين^(١). وفي السنة السادسة أرسل الرسول ﷺ إلى دومة الجندل عبدالرحمن بن عوف يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم ملكهم الأصبع بن عمرو الكلبي وكان نصرانياً، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية. وتزوج عبدالرحمن تماضر ابنة الأصبع^(٢). وعن عدي بن حاتم ﷺ: قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ ﴿ اُنْكَدُوا أَجْرَهُمْ وَرَهْبَهُمْ أَرْكَابًا مِّنْ دُونَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٢١]. قال: إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه^(٣).

ثم أعلن ﷺ الحماية للمعاهدين ودخولهم في ذمته وأمانه، بقوله: «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»^(٤).

وقد نهج المسلمون هذا النهج النبوي الكريم قولاً وعملاً. فيقول علي ﷺ: «إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا»^(٥). هذا

(١) سيرة ابن هشام، ١/ ٥٨٥. السيرة النبوية، لابن كثير، ٤/ ٣٩.

(٢) طبقات ابن سعد، ٦٨/٢. عيون الأثر، ٢/ ١٤٩. تاريخ الطبري، ٢/ ٦٤٢. زاد المعاد في هدي خير العباد، ٣/ ٢٥٤.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٠٩٤) في التفسير، باب ومن سورة براءة. وقال عنه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالسلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث. والحديث من طريقهما فيه لين. قال الذهبي: غطيف بن أعين الجزري وقيل غضيف عن مصعب بن سعد وعنه عبدالسلام بن حرب وغيره لينة بعضهم. الكاشف (١١٧/٢). والحديث أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير من طريق أخرى عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي البخترى عن حذيفة بن اليمان برقم (١٦٦٣٥) (١٦٦٣٦) (١٦٦٣٧) (١٦٦٣٨) ترقى بمجموعها بالحديث إلى مرتبة الحسن.

(٤) سنن أبي داود، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارا. (حديث رقم: ٣٠٥٢). رقم (٣٠٥٢) في الخراج والإمارة، باب في تعشير أهل الذمة. قال الحافظ السخاوي عن هذا الحديث: «وسنده لا بأس به، ولا يضره جهالة من لم يسم من أبناء الصحابة، فإنهم عدد يجبر به جهالتهم، ولذا سكت عليه أبو داود». المقاصد الحسنة (ص: ٦١٦). وقد أفردته ﷺ بالتأليف في جزء خاص.

(٥) بدائع الصنائع، ٧/ ١٥٢.



وإن «الفقهاء في مختلف المذاهب صرحوا بأن على المسلمين رفع الظلم عن أهل الذمة والمحافظة عليهم»^(١) يقول الإمام الشافعي بهذا الشأن: «كان علينا أن نمنع أهل الذمة، إذا كانوا معنا في الدار، وأموالهم التي يحل لهم أن يتولوها مما نمنع منه أنفسنا وأموالنا من عدوهم إن أرادهم، أو ظلم ظالم لهم...»^(٢).

ومن أنواع هذه الحماية حماية الدماء والأبدان، لقوله ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»^(٣). وحماية دور عبادتهم وأموالهم وأبدانهم. وهو من مقتضى التكريم الإلهي للإنسان، فقد جعل الإسلام حماية غير المسلمين المقيمين بالدولة الإسلامية، حقاً واجباً على الدولة، ولم يعدّه من قبيل التسامح أو المجاملة.

وإن من مقتضى دخولهم في الذمة أن يحكم بينهم إذا تحاكموا إليه، وأن يرفع الظلم عنهم، وأن يعدل بينهم ولا يفرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم، وإن المتأمل في نوازل الخصومات والقضاء زمن النبوة يدرك هذا البعد في أعمال قواعد العدالة بصرف النظر عن ديانة الخصوم، ونمثل لذلك بنائلتين:

فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف على يمين، وهو فيها فاجر، ليقتطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان». فقال الأشعث: فيّ والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجددني، فقدمته إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: «ألك بينة»، قلت: لا، قال: فقال لليهودي: «احلف»، قال: قلت: يا رسول الله، إذا يحلف ويذهب بمالي،

(١) أحكام الذميين والمستأمنين في بلاد الإسلام، ص: ٧٩.

(٢) الأم، ٢٤٧/٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم. (حديث رقم: ٢١٦٦،

٩٩/٤).

فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٦] إلى آخر الآية»^(١).

ففي الحديث إقرار منه ﷺ بما قاله الأشعث في حق اليهودي،^(٢) وقد جاء في رواية تصريح الأشعث بفجور اليهودي، فقد «وقع في حديث وائل زيادة بعد قوله: «ألك بينة؟» قال: لا. قال فلك يمينه، قال: إنه فاجر ليس بيالي ما حلف عليه وليس يتورع من شيء. قال: «ليس لك منه إلا ذلك»^(٣). لكن النبي ﷺ حكم بالبينة على المدعي، ولم يقلب الحكم في حق اليهودي. وقد تكرر هذا الموقف من المسلمين في قضية القسامة، حين رفضوا أيمان اليهود، وقالوا: ما يُبَالُونَ أن يقتلونا أجمعين، ثم ينتفلون^(٤). لكنه ﷺ مع ذلك لم يقلب الحكم وحكم بالظاهر تحقيقاً للعدالة وسدّاً للذرائع حتى تستقيم الأحكام، وفق قواعد واضحة لا تفرق بين الناس على أي أساس. وكل ذلك من العدل الذي جاء به، والرحمة التي بعث بها ﷺ.

ثانياً: دعوتهم إلى دين الرحمة واليسر:

حرص النبي ﷺ على دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام حرصاً ظاهراً، حيث كان يستثمر كل المواقف من أجل تيسير أسباب استجابتهم لدعوة الحق، فتجده ﷺ يتألفهم، ويأتي إليهم في بيت المدراس، وهو بيت عبادتهم وتعلمهم التوراة، ويناديهم: «يا معشر يهود، أسلموا تسلموا»^(٥) وصلى أولاً

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض (حديث رقم: ٢٤١٦)، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (حديث رقم: ٢٢٠)

(٢) وقد وقع في بعض الروايات: أن الرجل مسلم، وأنه ابن عم الأشعث، ويحتمل أنه كان يهودياً فأسلم. انظر فتح الباري ١١/ ٦٢٣ ٦٢٤.

(٣) صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ١٧٢ وفتح الباري ١١/ ٦٢٤

(٤) صحيح البخاري، كتاب الديات، باب القسامة (حديث رقم: ٦٨٩٩).

(٥) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الجزية، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب (حديث رقم: ٦٩٤٤). ومسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسر، باب إجلاء اليهود من الحجاز (رقم الحديث: ١٧٦٥).

قبل المسجد الأقصى، وقد كان يعجب اليهود أن يصلي النبي ﷺ جهة بيت المقدس،^(١) ثم إن النبي ﷺ أعلمهم بإيمانه بموسى (عليه السلام)، وقال للناس: «لا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى...»^(٢)، وحرص على إظهار أن دعوته وما جاء به موسى من مشكاة واحدة، فحكم بين أهل الكتاب في قضاياهم فيما وافق فيه القرآن التوراة،^(٣) وقال لليهود الذين جاؤوا يحكمونه: «فأنتوا بالتوراة فأتلوها إن كنتم صادقين»، وقال أيضاً: «أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحسن»^(٤).

وأمر بصيام يوم عاشوراء الذي يصومونه. وأمر زيد بن ثابت بتعلم كتابهم،^(٥) وحرص على تبيين يسر شريعة الإسلام وأن فيه فسحة. وقد عرف اليهود ذلك، وقالوا لما جاؤوه محتكمين: «أذهبوا بنا إلى هذا النبي، فإنه نبي بُعث بالتخفيف»^(٦). ولأن اليهود حرصوا على تعرف معجزاته الدالة على نبوته، وعلى اختباره وسؤاله، فإنه ﷺ تولى الإجابة عن

- (١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان. (حديث رقم ٤٠).
- (٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب الخصومات. باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود (حديث رقم: ٢٤١١). ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ (حديث رقم: ٢٣٧٢).
- (٣) انظر: تفسير ابن كثير، ٥١٨/١، وتفسير ابن عاشور، ٢٢٢/٦. وشرح صحيح البخاري، لابن بطال، ٤٧٥/٨، وأحكام القرآن، لابن العربي، ١٢٦/٢.
- (٤) أخرجه البخاري ١٢/١٤٨ و ١٤٩ في المحاربين، باب أحكام أهل الذمة، وباب الرجم في البلاط، وفي الجنائز، باب الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد، وفي الأنبياء، باب قول الله تعالى: «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم»، وفي تفسير سورة آل عمران، باب «قل فاتوا بالتوراة فأتلوها إن كنتم صادقين»، وفي الاعتصام، باب ما ذكر النبي ﷺ وحض على اتفاق أهل العلم، وفي التوحيد، باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله العربية وغيرها، ومسلم رقم (١٦٩٩) في الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى، والموطأ ٢/٨١٩ في الحدود، باب ما جاء في الرجم، والترمذي رقم (١٤٣٦) في الحدود، باب ما جاء في رجم أهل الكتاب، وأبو داود رقم (٤٤٤٦) و(٤٤٤٩) في الحدود، باب في رجم اليهوديين.
- (٥) صحيح البخاري. كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام، وهل يجوز ترجمان واحد (حديث رقم: ٧١٩٥).
- (٦) أخرجه أبو داود برقم (٤٤٥٠) و(٤٤٥١) في الحدود، باب في رجم اليهوديين، وفي سننه مبهم. ولم أجد من أخرجه إلا من هذه الطريق، وهو في مصنف عبدالرزاق برقم (١٣٣٣٠)، وفي تفسيره (١/١٨٩ - ١٩٠)، ومن طريقه أخرجه الطبري في تفسيره (٦/٢٤٩)، والبيهقي في السنن مختصراً (٢/٤٤٤ - ٤٤٥). وغير أنه يشهد له من جهة المعنى الحديث الذي قبله.

أسئلتهم ومحاورتهم وجدالهم بالتي هي أحسن. وكان يصدق من جاء منهم بخبر صحيح، فبينما هو يحدث أصحابه بنزل أهل الجنة، إذ أتاه رجل من اليهود، فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: «بلى» قال: تكون الأرض خبزةً واحدة، كما قال النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ إلى أصحابه، ثم ضحك حتى بدت نواجذه.^(١) وكان يحرص على أن يكون سؤالهم ليس للاختبار فقط، ولكن للانتفاع، يظهر ذلك في قصة الحبر الذي جاءه وقال: «جئت أسألك، فقال له رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل».^(٢)

إلا أن من يتيقن من اليهود من صدق دعوته فإنه يمنعه الخوف من قومه أن يدخل في دينه ﷺ،^(٣) إلا عبدالله بن سلام الذي لم يمنعه بهت قومه اليهود من أن يسلم، ولهذا السبب كان النبي ﷺ يرجو أن يؤمن عشرة من اليهود، ليكسروا ذلك الطوق المنيع، الذي تحاصر به الجماعة اليهودية من أراد أن يسلم، ويقول: «لو آمن بي عشرة من اليهود، لآمن بي اليهود».^(٤)



- (١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق، باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة (حديث رقم: ٦٥٢٠)، ومسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب نزل أهل الجنة (حديث رقم: ٢٧٩٢).
- (٢) صحيح مسلم. كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل، والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما (حديث رقم: ٣١٥).
- (٣) ولفظ الحديث: «قالوا: إن داود دعا ربه أن لا يزال من ذريته نبي، وأنا نخاف إن تبعناك أن تقتلنا اليهود»، وقد أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٤٠)، والترمذي برقم (٢٧٢٣) في الاستئذان، باب ما جاء في قبلة اليد والرجل، وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي (٧/ ١١١) في تحريم الدم، باب السحر. والحديث كما قاله الترمذي.
- (٤) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه. كتاب المناقب، باب إتيان اليهود النبي ﷺ، حين قدم المدينة (حديث رقم: ٣٩٤١). ومسلم في صحيحه كتاب القيامة والجنة والنار، باب نزل أهل الجنة (حديث رقم: ٢٧٩٣).

المبحث الأول

الرحمة بغير المسلمين في ضوء النوازل الفقهية

المطلب الأول

الرحمة من خلال نوازل العلاقة بالدولة والكنائس والأحباس

إن أول لقاء بين دولة الإسلام وبين غير المسلمين المواطنين في دولة إسلامية هو الذي حدث في المدينة غداة الهجرة النبوية إليها، حيث كتبت صحيفة المدينة التي جعلت غير المسلمين المقيمين في المدينة مواطنين لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين، وعليهم من الواجبات مثل ما على المسلمين. والذمة عقد وجده الإسلام شائعاً بين الناس، فأقره وأضاف إليه تحصيئاً جديداً رحمةً بغير المسلمين، بأن حول الذمة من ذمة العاقد أو المجير إلى ذمة الله ورسوله والمؤمنين، وتمثلها ذمة الدولة الإسلامية نفسها.

وهو من العقود اللازمة التي لا يجوز نقضها. يقول الكاساني: «عقد الذمة لازم في حقنا حتى لا يملك المسلمون نقضه بحال من الأحوال، وأما في حقهم فغير لازم».^(١) فعقد الذمة يلزم المسلمين لزوماً أبدياً (فليس) لهم أن ينقضوه بعد عقده، ولكن أهل الذمة لهم الخيار.^(٢)

(١) بدائع الصنائع، ١٥٢/٧.

(٢) حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية، ص ١٧.

وهكذا نجد العلماء يتدخلون لفرض احترام مقتضيات عقد الذمة على مر التاريخ الإسلامي، يتضح ذلك من خلال النوازل التالية:

ففي سنة ثمان وأربعين وسبع مئة دخل السلطان المريني^(١) أبو الحسن إلى تونس وقضى على آخر الموحدين^(٢) فيها^(٣) وأراد أسر من بها من أهل الذمة فحال بينه وبين ذلك العلماء والعامّة. محتجّين بما عقد لهم الموحدون من الذمة، وهو عقد مؤبد لازم لا يجوز نقضه ما داموا على العهد والذمة لم ينقضوها. وقد كانت تونس يومئذ مشحونة بالعلماء الأعلام^(٤).

ولم يزل العلماء متواطئين على ترك الخوض فيما أحدث من الكناس في بلد الإسلام، التي فتحت عن طريق الصلح مع أهلها،^(٥) ومرد ذلك إلى احترام العهود الأولى لدى دخول الفاتحين إلى الأراضي التي يسكنها أهل الكتاب. ويذكر البرزلي^(٦) أنه كان يراجع ابن عرفة فيما أحدثه

(١) ابتداء ظهور دولة المرينيين بالمغرب الأقصى أواخر سنة ٦١٢/١٢١٩ أيام الأمير الأول عبدالحق ابن محيو، ثم قامت الدولة بصفة حقيقية سنة ٦١٦-١٢١٩، في عهد عثمان بن عبدالحق، وفي ثاني محرم ٦٨٨-١٢٦٩، استولى يعقوب بن عيادالحق على مدينة مراكش، حيث انقضت الدولة الموحدية وتلقب بأمر المسلمين. وقد امتدت دولة المرينيين وتقومت إلى أيام أبي الحسن حين توحد المغرب العربي تحت قيادته من السوس الأقصى إلى مسراتة بليبيا، زيادة على انفساح هذه المملكة إلى (زندة) بالأندلس. انظر تاريخ الدولة المرينية في «الذخيرة السننية» و في «روض القرطاس».

(٢) حكم الموحدون بلاد الغرب الإسلامي كلها بعد أن قامت دولتهم على انقاض دولة المرابطين، وعلى يد مؤسسها الأول محمد بن تومرت الذي ادعى المهديّة ابتداء من عام ٥١٥هـ-١١٢١م، وكانت عاصمتهم بالمغرب هي مراكش واتخذوا إشبيلية حاضرة للحكم ببلاد الأندلس. وقد عرفت دولتهم مشاهد ومآثر عظيمة في الجهاد وال عمران والعلم والدفاع عن الإسلام في الأندلس زمن الحروب الصليبية. انظر «المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين»، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

(٣) الاستقصا، ١٥٧/٣.

(٤) فتاوى البرزلي، ٤١/٢.

(٥) أجوبة أبي مهدي عيسى بن عبدالرحمن السكتاني. تحقيق د عبدالكبير وبراهيم. بحث لنيل دكتوراه الدولة في الشريعة. كلية الشريعة بأيت ملول. ج: ٥٢٩/٢-٥٣١.

(٦) هو أبو القاسم بن محمد بن إسماعيل البلوي البرزلي القيرواني ثم التونسي من حفاظ المذهب، كان إليه المفرغ في الفتوى. أخذ عن ابن عرفة وابن مرزوق الجد. أخذ عنه: الحافظ ابن حجر، وابن ناجي، والرصاص، وحلولو. له ديوان كبير في الفقه، وله نوازل في فنون من العلم جمعها في: «جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالفتين والحكام»، وهو المشهور بنوازل البرزلي أو فتاوى البرزلي، وهو من أهم كتب المذهب. (ت ٨٤٣ أو ٨٤٤). انظر ترجمته في شجرة النور، ص: ٢٤٥.



النصارى في تونس من كنائس، فيتغافل عن ذلك. ويقول: «فيحتمل أن يكون أنه رأى أنه لا يسعف بهدمه لكونهم بمكنة من السلطان أو رآه أمراً محتملاً فترك تغييره. ومنه أيضاً أنهم زادوا في كنيستهم، وعلوها كثيراً وذلك محدث، وإما أن يكون أيضاً في عهدهم، أو بنوها حصناً لا اختلاف الدول خشية العامة، أو وقع التغافل عنهم»^(١).

ومن النوازل الدالة على الرحمة بغير المسلمين في الوفاء لهم بالعهد، جواب ابن الحاج^(٢) على ما طلبه النصارى الواصلون من إشبيلية إلى مكناس أيام المرابطين من بناء بيع أو كنائس في موضع استقرارهم، وذلك أن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين قرّر نقل أهل الذمة من إشبيلية بالأندلس إلى مكناس حاضرة المغرب الأقصى، لما خشى تعاونهم مع النصارى المحاربين. ونص الجواب: «هؤلاء النصارى وصفوا بالمعاهدين، وذلك يقتضي ثبوتهم على ما سلف لهم من العهد والعقد من الذمة، والوفاء لهم واجب مباح لكل طائفة منهم بناء بيعة واحدة لإقامة شريعتهم. ويمنعون من ضرب النواقيس لأن أمير المسلمين أمر بنقلهم من جزيرة الأندلس للخوف منهم والحذر للمسلمين»^(٣).

وهكذا عُرف في بلاد الغرب الإسلامي عدد من دور العبادة لغير المسلمين من أهل الكتاب، تؤدي وظائفها الدينية والاجتماعية، خصوصاً في بلاد الأندلس على اعتبار أن المصادر لم تتحدث عن أي وجود مسيحي في المغرب الكبير منذ عهد الأدارسة، بخلاف اليهود الذين كان لهم وجود بارز في الغرب الإسلامي. وهكذا نجد المسلم يسأل عن جواز مرافقة أمه النصرانية إلى

(١) انظر: فتاوى البرزلي ج: ٢/١٩-٢٠..

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف التجيبي المعروف بابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة بصيراً بالفتيا، له كتاب نوازل الأحكام، توفي في صفر عام ٤٥٨ هـ. انظر ترجمته في تاريخ قضاة الأندلس، ص: ١٠٢.

(٣) فتاوى البرزلي ١٧/٢

الكنيسة، وهل له أن يعطيها نفقة لعيدها، فيجيب ابن وهب^(١) بأن لا بأس بذلك^(٢).

ومن ثم فقد تمكن أهل الكتاب بمقتضى عقد الذمة أن يقيموا شعائرهم في دور عبادتهم، وأن يصلحوا ما تهدم منها، وأن ينشئوا أخرى إذا كان لهم بذلك عهد، أو رأى الإمام في ذلك مصلحة كبيرة. ولهذا وقع خلاف كبير بين علماء الغرب الإسلامي في نازلة يهود توات بالصحراء، لما عزم الشيخ المغيلي^(٣) على هدم كنيسة اليهود بها، وحاول استصدار فتوى بذلك، وكذلك فعل معارضه قاضي توات الشيخ العصنوني، الذي كتب رسالة إلى العلماء، ضمنها ما ادعاه المغيلي، وما يراه هو في النازلة، ومما جاء في رسالته: «والصواب عندي تقريرها اتباعاً لقول الغير لجرى العمل به في كثير من مدن المغرب، وهي مما اختطه المسلمون في صدر الإسلام وبعده، وفيها العلماء متوافرون في كل وقت، وفيهم من لا يسكت على باطل. وكذلك قواعد هذه الصحراء، قد حل بها علماء فضلاء، وقد شاهدوا الكنائس فيها، وهم ممن يمتثل قولهم في الأحيان، وقد أنكروا أشياء على أهل الذمة وعلى خلائفهم، ولم ينكروا الكنائس في جملة ما أنكروه...»^(٤).

(١) هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء، المصري، أبو محمد: فقيه من الأئمة. من أصحاب الإمام مالك. جمع بين الفقه والحديث والعبادة. توفي سنة ١٩٧هـ. انظر ترجمته في ترتيب المدارك (٣ / ٢٢٨)، وفي مقدمة المجموع المذهب في أجوبة الإمامين ابن وهب وأشهب. جمع وتوثيق وتقديم: د حميد لحمر.

(٢) المجموع المذهب في أجوبة الإمامين ابن وهب وأشهب. جمع وتوثيق وتقديم: د حميد لحمر. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية. ٢٠٠٩ ص: ١١٨/١١٩.

(٣) هو محمد بن عبدالكريم بن محمد المغيلي أبو عبد الله التلمساني التواتي. ولد بتلمسان ونشأ بها، ثم رحل منها بعد حفظ القرآن إلى بجاية، وتبحر فيها في العلوم على يد أبي العباس الوغليسي، ثم رحل إلى توات، وهي يومئذ دار علم وإسلام، ودرس على عدة شيوخ، منهم الشيخ أبو زيد الثعالبي، والشيخ السنوسي. قال عنه أحمد بابا السودان: «محمد بن عبدالكريم بن محمد المغيلي التلمساني، خاتمة المحققين، العلامة الدراكة الفهامة القدوة الصالح أحد الأذكياء المتقدمين في الفهم وقوة الإدراك مع محبة السنة وبغض أعدائها، وقع له في ذلك أمور مع معاصريه حين قام على يهود توات...» وكانت وفاته سنة ٩٠٩ للهجرة الموافق لـ ١٥٠٣ للميلاد. انظر ترجمته في البستان في ذكر علماء تلمسان، لابن مريم ص: ٢٥٢. ونيل الإبتهاج بتطريز الديباج، ص: ٥٧٦، وموسوعة أعلام المغرب، ٢ / ٨١٦. ونشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ٣ / ٥٧٦. المعيار ٢ / ٢١٥.

(٤)

المطلب الثاني

الرحمة من خلال نوازل المعاملات والأسرة والجوار

إذا كانت نوازل المبحث الأول قد أضاءت جوانب مشرقة من تاريخ التعايش بين المسلمين وأهل الكتاب، وبيّنت تأسس هذه العلاقة على عقد له حرمة وقيّمته، وأوضحت تفاني العلماء في فرض احترام بنوده ومقتضياته. فإن نوازل هذا المبحث تجلي صورة أكثر ثباتاً للاختلاط بين المسلمين وأهل الكتاب، عنوانها العمل المشترك والعدل والسعي إلى الرزق الذي قسمه الله بين عباده برحمته وفضله وعلمه. بحيث لم يصادر حق أهل الكتاب في الامتلاك والكسب بالبيع والشراء والتصرف، ولم تنقيد تصرفاتهم إلا بالضوابط الشرعية، التي تقيد بها المسلمون إذا كان التعامل بين أهل الكتاب والمسلمين. وقد تنوعت مجالات عمل أهل الكتاب، وقاموا بأدوار مهمة في الحياة الاقتصادية والتجارية، مكنتهم من جمع ثروات هائلة. إلا أن البيئة الإسلامية في بعض العصور وفي بعض الأقطار، ونظراً لعوامل متعددة ذات أبعاد إنسانية واجتماعية، جعلتهم يختصون بأعمال دون المسلمين، ويمنعون من أعمال بعينها. يحكي البرزلي عما رآه في مصر وفي تونس، فيقول: «وقد رأيت بالإسكندرية يهوداً أطباءً عندهم الأشربة يبيعونها، ولعل الناس احتاجوا إليهم في هذه الصنعة. كما احتاجوا في سوق الصياغة بتونس إليهم. فلذلك -والله أعلم- لم يتعرض لهم القضاة»⁽¹⁾.

ومن خلال النوازل التي جمعناها في الباب، يتضح بأنه لم يخل عصر من العصور من سؤال عن جواز معاملة أهل الكتاب المسلمين منهم وكذا المحاربين، مما يدل على قيام هذه المعاملات في واقع الناس وعلى ازدهارها. وجل النوازل تعالج قضايا بعينها، وهي كالتالي:

(1) فتاوى البرزلي ٢/٢٢٢-٢٢٣.

- جواز معاملة أهل الكتاب بالبيع والشراء
 - أخذ العشر على تجارة أهل الكتاب
 - التعامل فيما حرم على أهل الكتاب
- ونذكر نماذج من تلکم القضايا في النوازل التالية:

فقد سئل (أبو عبدالله الحفار)^(١) «هل تجوز معاملة اليهود بالبيع والشراء منهم والاستدانة أم لا؟ وفيمن صلى وبثوبه نجاسة؟ فأجاب رضي الله عنه: الحمد لله؛ إذا اشترى الرجل وباع من اليهود على ما يجوز شرعاً ولا يعمل معه برياً ولا بوجه لا يسوغ في الشرع فذلك حلال طيب سائغ»^(٢).

وقد استمر أهل الكتاب الذميون في مزاولتهم للتجارة على مر الأزمنة وتعاقب الدول في تاريخ الغرب الإسلامي، وتصدى العلماء لكل من يريد مصادرة هذا الحق الطبيعي. فقد «سئل الشيخ محمد بن ناصر الدرعي^(٣) عن قول العامة: إن اليهود يمنعون من كسب النحل واللبن، أي شربه؟ فأجاب: إن ذلك كله كذب وبهتان...»^(٤).

ويبدو أن قوة الاختلاط بين المسلمين وأهل الكتاب وورودهم على مصدر موحد للماء، جعلت بعض المسلمين يتساءلون عن جواز استئقاء

(١) هو أبو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن سعد الأنصاري الشهير بالحفار. الإمام المحدث الفقيه المفتي، نشأ بغرناطة، ولم يتركها قط، قرأ على البيهقي، ولازم أبا سعيد بن لب. وممن أخذ عنه أبو بكر بن عاصم وابن سراج. ت ٨١١ هـ.

(٢) انظر: ترجمته في نيل الأبتهاج، ص: ٤٧٧ وفي شجرة النور، ص: ٢٤٨. الحديقة المستقلة النضرة ص: ٤٧.

(٣) هو محمد بن محمد بن أحمد، ابن ناصر، أبو عبدالله الدرعي: من صلحاء المالكية وعلماؤهم في المغرب. كانت له زاوية وأتباع كثيرون. وهو المدوح بالقصيدة (الدالية) لليوسفي. كان من أهل درعة (قرب سجلماسة جنوب شرق المغرب). عني في أول أمره بجمع الكتب، نسخاً بخطه وشراء، وتصحيحاً ومقابلة، مع كتابة الفوائد على حواشيتها وطررها، على ضيق معيشته. قرأ على بعض علماء الحرمين والأزهر. له تصانيف، منها (فتاوى) في الفقه، و (فهرسة) لشيوخه، وكتاب (الأجوبة الناصرية). ت ١٠٨٥ هـ.

(٤) انظر: ترجمته في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٤ / ٢٢٨، وفي الأعلام، ٧ / ٦٣. تذييل المعيار ١٨٣/٢.



اليهود من النهر الذي يتوضأ منه المسلمون للصلاة ويتطهرون ويغسلون ثيابهم، فيجيب اللخمي^(١) بقوله: «لا أعلم لمنع اليهود من الاستقاء من النهر وجهاً، لأن أعلى مراتبه أن تكون جرتة نجسة، ولا يتعذر النهر ولا ينجسه، أو يكون ثوبه نجسا والمسلمون يغسلون فيه نجاستهم»^(٢).

ومن النوازل الطريفة في الباب التي تبين درجة التجاور بين المسلمين وأهل الكتاب، السؤال الموجه إلى سحنون^(٣) «عن رجل مسلم وكان له جار نصراني، وعنده خنزيرة يحلبها، ثم رضعها عجل أو شاة المسلم: ما الحكم في ذلك؟ فأجاب بأن سبيل ذلك سبيل الجلالة من الأنعام، التي تأكل النجاسة والجيفة»^(٤) وكذا السؤال الموجه إلى العبدوسي^(٥) عن مسجد ملاصق لدرب اليهود، فطلبوا من الناظر أن يجري لهم الماء فيخرج من المسجد لدورهم. فأجاب بجواز استتجار ماء المسجد لليهود بشرط عدم الضرر على المسجد.^(٦)

وإن من سنن الله في خلقه اختلاط الناس في المجتمع الواحد على

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد الربيعي المعروف باللخمي. وهو ابن بنت اللخمي. قيرواني، نزل صفاقس. وكان أبو الحسن فقيهاً فاضلاً دينياً مفتياً متفتناً، ذا حظ من الأدب والحديث، جيد النظر، حسن الفقه، جيد الفهم. حاز رئاسة بلاد إفريقية جملة. صنف كتباً مفيدة، من أحسنها تعليق كبير على المدونة في فقه المالكية، سماه «التبصرة». توفي سنة ٤٧٨ هـ. انظر ترجمته في ترتيب المدارك، ١٠٩ / ٨. وفي الديباج، ١٠٤ / ٢.

(٢) البرزلي ٤ / ٤٥٠، ووردت في النوازل الكبرى ٢٧٠ / ٨.

(٣) هو أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، أخذ العلم بالقيروان عن مشائخها: أبي خارجة وبهلول، وعلي بن زياد وابن أبي حسان. وغيرهم. وقد اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت في غيره. الفقه البارع والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملابس، والمطعم، والسماحة. ولي قضاء إفريقية، سنة أربع وثلاثين ومئتين إلى أن توفي سنة أربعين ومئتين. انظر ترجمته في ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٤٥ / ٤ - ٨٨).

(٤) كتاب الأجوبة لابن سحنون ص: ٢٩٤.

(٥) هو عبد الله بن محمد بن موسى بن معطي الفاسي أبو محمد العبدوسي، العالم البارع الحافظ، مفتي فاس وعالمها الكبير ومحدثها الشهير وكان من أهل الصلاح والخير والإيثار. ولي الفتيا بالمغرب الأقصى وإمامة القرويين، وكان زاهداً، وكان أكثر علمه فقه الحديث. توفي سنة ٨٤٩ هـ. انظر ترجمته في نيل الابتهاج، ص: ٢٣١، وفي شجرة النور، ص: ٢٥٥.

(٦) المعيار ٥٢ / ٧ - ٥٣.



اختلاف دياناتهم، وتعامل بعضهم مع البعض في الأموال ودخولهم في علاقات مصاهرة في الكثير من الأحيان. وإن الله ﷻ لم يمنع المسلم من الزواج بالكتابية، ولذلك فالشواهد التاريخية على الزواج المختلط متعددة. (١) ومن النوازل نذكر شاهداً واحداً يدل على احترام شرط الرضا في الزواج بالكتابية، كما هو الشأن بالنسبة للمسلمة، حيث سئل عبد القادر الفاسي (٢) بما نصه: «مسلم كلف بذمية غير متزوجة، فطلب نكاحها فأبت، هل تجبر على ذلك أو لا؟ فإن بعض الطلبة ذكر أنها تجبر على تزويجها منه...؟» فأجاب بما نصه: «أن هذا باطل، لا يصح، والنساء اللاتي يجبرن على النكاح ومن له الجبر عليهن، مذكرات في كتب الفقه، ولم يعد أحد من الفقهاء ما ذكر من أهل الجبر فلا يتلقى العلم من الأقاويل الملتقطة من أفواه العامة، بل من العلماء ودواوينهم المشهورة، المحصلة المقروءة على أربابها» (٣).

أما النوازل في الموضوع فإنها تتناول قضايا متعلقة بالحضانة، وبإسلام أحد الزوجين، وبشهادة المسلمين على زواج أهل الكتاب. ونمثل لها بالشواهد التالية:

فنذكر من بين النوازل المتعلقة بالحضانة والדالة على خلق الرحمة، نازلة من الأندلس وتتعلق بصبيتين مسلمتين توفيت أمهما وتركت أما نصرانية وللصبيتين جدة لأب نصرانية، فأفتى ابن سهل (٤) بأن «الجدة للأم النصرانية

(١) انظر: أهل الذمة بالأندلس في ظل الدولة الأموية. ص: ٩٤-٩٧

(٢) هو عبد القادر بن علي الفاسي عالم فاس وإمامها، وعلامة المغرب، وشيخ مشايخه، ولد ونشأ بالقصر الكبير ثم انتقل إلى فاس وبها توفي. لم يشتغل بالتأليف، وإنما كانت تصدر عنه أجوبة على أمور يسأل عنها، فجمعها بعض أصحابه فجاءت في مجلد. قال فيها صاحب الصفوة: وهي من الفتاوى التي يعتمد عليها علماء الوقت. منها «الأجوبة الكبرى» و«الأجوبة الصغرى»، و«تعليقات على صحيح البخاري»، وله «رسالة في الإمامة وأحكامها». انظر ترجمته في فهرس الفهارس، ٢/ ٧٦٣، وفي الفكر السامي، ص: ١١٢، وفي الأعلام، للزركلي، ٤/ ٤١.

(٣) الأجوبة الصغرى ١٨٨-١٨٩ ونوازل العلمي: ٢٠٥/٣

(٤) هو عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي القرطبي الغرناطي، أبو الأصبغ: قاضي غرناطة. =

أحق بالحضانة من الجدة للأب وإن كانت مسلمة»^(١). فدلّت النازلة على قيام هذه المصاهرات المختلطة في واقع الناس. وإن في استحقاق الجدة لأم للحضانة دون النظر إلى ديانتها إشارة قوية إلى القبول الاجتماعي لهذه العلاقات المختلطة، وعدم التحرج من نشوء طفلتين مسلمتين في بيت نصراني مدة الحضانة.

أما النازلة الثانية فمماثلة للأولى، إلا أنها وقعت بعدها بقرون في المغرب، وفي السؤال تفاصيل أكثر تبين مدى تدهور العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب، فقد سئل عبدالقادر الفاسي «عن رجل من اليهود أسلم وتحتة يهودية وله منها، بنتان صغيرتان، أبت أمهما أن تسلم فتركها، وتزوج مسلمة وأخذ بنته الكبيرة، منها وترك لها الصغيرة تحضنها، فعاب عليه المسلمون ذلك فقال: إنما تركتها عند أمها لصغرها ومرض بطنها فإذا كبرت بنتي وبرئت من علتها أخذتها ولا نتركها عندها أبداً فبقيت البنت عند أمها: وانقطع خبر الرجل فقام من أخذته حمية الإسلام يريد أخذها وإخراجها عن اليهود قبحهم الله. فقامت أمها تتنازع المسلمين: الذين أرادوا أخذها وقالت أمها إنها على دينها فقال لها النضر من المسلمين الولد تابع لأبيه في الدين والجزية على قاعدة الشرع أعزه الله. فهل لهم أخذها ووضعها عند المسلمين أو إخراجها مع أمها تحضنها بين ظهور المسلمين؟».

إلا أن الحكم لم يختلف عن حكم النازلة الأولى، وذلك رحمة بالولد وبأمه. فأجاب بما نصه: «الجواب والله الموفق ﷺ أن الحضانة للأم ولو كانت كافرة...»^(٢).

= سكن قرطبة. واستكتب بطليطلة ثم بقرطبة، وولي الشوري بها مدة، ثم انتقل إلى سبته، وولاه يوسف بن تاشفين قضاء طنجة، ثم استقضى بغرناطة وتوفي مصروفا عن القضاء سنة ٤٨٦ هـ. أما كتابه المعروف بنوازل ابن سهل فقال فيه صاحب الصلة: «جمع فيها - النوازل والأحكام كتاباً حسناً مفيداً يعول الحكام عليه». انظر ترجمته في الصلة، ص: ٦٣٥/٢.

(١) ديوان الأحكام الكبرى ص: ٢٢٧.

(٢) الأجوبة الكبرى ١١٩-١٢٠.

ثم ظهرت نازلة أوائل محرم الحرام عام ١٣٢١هـ حيث أسلم يهودي عن زوجته اليهودية، وله معها ثلاثة أولاد، وكلهم صغار، فقام الأب الذي أسلم يطالب بحضانة أولاده، وتمسكت بهم أمهم، ولما استفتى العلماء في ذلك أجابوا، بمثل ما أجاب به العلماء في النوازل السابقة من أن الحضانة للأُم، وبأنه لا يشترط الإسلام في الحضانة^(١).

ومن مظاهر الصلات الاجتماعية علاقات الجوار بين المسلمين وأهل الكتاب، والتهادي، والتهنئة في المناسبات والأعياد، التي تبين أقصى صور الرحمة والتعايش، الذي جمع المسلمين وأهل الكتاب. فالنوازل في هذا الباب تجلّي حقيقة سكنى أهل الكتاب بين المسلمين، بخلاف ما عرف في العصور المتأخرة من سكنى أهل الكتاب من اليهود في موضع خاص سمي بالملاح^(٢)، وكان أول ذلك في عهد أبي يوسف يعقوب المريني بعد أن اشتد الاحتقان بين المسلمين واليهود.

ومن تلكم النوازل السؤال الموجه إلى القابسي^(٣) عمّن «بجواره يهودي وَفِيَّ مَعَهُمْ، وَيَتَقاضَى مِنْهُمُ الحوائج وَيَتقاضون منه، ويلين لهم في القول والعشرة، ويقول بَاطِنِي يُبَغِضُهُمْ، ولكن طَبَعِي اللّين، هل يجوز أم لا؟ وإذا سلموا عليه هل يرد عليهم أم لا؟ فأجاب: إن مالت نفسك فلا تخالط من

(١) فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من الجبال. جمع وتنظيم محمد الهبطي المواهي ج ١ ص: ٦١-٦٥. ط ١٩٩٨/١٤١٩. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المملكة المغربية.

(٢) هي تسمية الحي اليهودي بالمغرب الأقصى، مقابل تسمية «حارة اليهود» بالمشرق. وقد تم إسكان اليهود في أحياء خاصة محاطة بأسوار حماية لهم بدءاً من عهد المرينيين، وقد كان أول ملاح قريباً من موقع يجمع فيه الملح في مدينة فاس ومنه جاءت التسمية.

(٣) هو أبو الحسن المعروف بابن القابسي سمع من رجال إفريقية: أبي العباس الإيباني وأبي الحسن ابن مسرور الدباغ وأبي عبد الله بن مسرور ودراس بن إسماعيل ورحل إلى المشرق فحج وسمع من حمزة بن محمد الكناني وأبي الحسن القلباني وأبي زيد المروزي وجماعة. وكان واسع الرواية عالماً بالحديث وعلّله ورجاله فقيهاً أصولياً متكلماً مؤلفاً مجيداً. وكان من الصالحين المتقين، وكان أعمى لا يرى شيئاً، وهو مع ذلك من أصح الناس كتباً وأجودهم ضبطاً وتقييداً يضبط كتبه بين يديه ثقات أصحابه. ت (٤٠٣ هـ). انظر ترجمته في ترتيب المدارك، ٧/ ٩٢. وفي الديباج المذهب، ١٠١/٢.



ليس على دينك فهو أسلم. وجارك من أهل الذمة تقتضيه حاجة يطلبك فيها لا إثم فيها فلا بأس. وأما لئن خطابك له فإن لم يكن فيه تعظيم له ولا تشريف ولا تغبطه في دينه فلا بأس مع ابتلائك به، وإن سلم عليك فترد عليه بقولك: وعليك. وأما السؤال عن حاله وحال من عنده فليس لك فيه فائدة ولا عليك منه إن لم تكثر وتفطر ولكن بقدر حق الجوار، واللّه يعلم المفسد من المصلح»^(١).

وكذا السؤال الموجه للسيوري^(٢) عن «يهودي اشترى دارا من مسلم في درب ليس فيه إلا مسلمون من أهل العافية والخير فسكن اليهودي الدار وأذى الجيران بشرب الخمر وفعل ما لا يجوز وللدرب بئر بإزاء هذه الدار فصار يملأ معهم بدلوه وحلبه وقلته فامتتع أهل الدرب من الامتلاء منها هل يجوز إبقاؤه أن تباع عليه؟ وإذا بقي هل يملأ معهم أم لا؟ فأجاب: يمنع من آذاهم بما وصف من شرب الخمر وفعل ما لا يجوز فإن انتهى وإلا أكرت عليه وأما الاستسقاء من البئر فخفيف»^(٣).

ففي هاتين النازلتين ما يدل بوضوح على علاقة الجوار التي جمعت الطرفين وعلى ضمان الدولة للحرية في السكن، ومراقبة القضاء لهذا الحق الذي يقيد ضابط عدم إيذاء الجيران فقط.

بل نجد بأن اليهود في فاس يسكنون بالقرب من جامع القرويين، وإنه عندما احتيج إلى توسعة الجامع تم تعويض اليهود عن بيوتهم^(٤). وتدل نازلة أخرى على أنهم سكنوا قرب زاوية للمسلمين، قال ابن عثوم^(٥):

(١) البرزلي ٢٣٢/٦، ووردت في المعيار ٣٠٠/١١-٣٠١.

(٢) هو عبد الخالق بن عبد الوارث. قيرواني. خاتمة أئمة القيروان. وذوي الشأن البديع في الحفظ والقيام بالذهب والمعرفة بخلاف العلماء. وكان زاهداً فاضلاً دينياً نظاراً. وكان آية في الدرس والصبر عليه. (ت ٤٦٠). انظر ترجمته في ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٨/ ٦٥).

(٣) المعيار ٤٣٧/٨، ووردت في النوازل الكبرى ٢٧٠/٨.

(٤) الأنيس المطرب لابن أبي زرع ص: ٥٩

(٥) هو أبو الفضل أبو القاسم بم محمد مرزوق بن عبد الجليل القيرواني عرف بابن عثوم. كان من

«الحمد لله، سألني شوغة اليهودي على يدي قاضيهم شالوم في أواسط شهر ربيع الآخر عام ثمانية وتسعين وتسع مئة (٩٩٨هـ/ أوأخر فيفري ١٥٩٠) عن مسألة جماعة من اليهود أهل الذمة استوطنوا بلدة وأسكنهم أميرها داخل البلد في حارة منها، ويقرب الحارة زاوية لبعض الصالحين. فسكن بعض اليهود في دار قرب الزاوية المذكورة، وذلك منذ مدة تزيد على أربعين عاما فارطة من الدولة الأحمدية بتونس، من غير منازع لهم ولا منكر عليهم. فقام بعض المسلمين على اليهود الذين سكنوا بهذه الديار القريبة من الزاوية المذكورة، وأرادوا نقلهم من الديار المذكورة، مدعين أن سكنى اليهود، بهذه الديار لا يجوز لقريهم من زاوية الشيخ المذكور، وامتنع من ذلك اليهود وتمسكوا بالشرع العزيز. فهل يجبر اليهود على الانتقال من الديار المذكورة أو لا يجوز نقلهم من غير رضاهم؟ جوابكم والسلام.

فأجبت (ابن عظوم) بما نصه بعد افتتاحه: إذا كان الأمر كما ذكر، وكان على الزاوية أو على أهلها والقائمين بها من المسلمين ضرر ولو بإظهار شيء من المنكرات الشرعية عليهم فلهم التكلم في ذلك، ولو بإكراء الديار المذكورة على أهلها، ولا حجة في سكوت من سكت عن ذلك في طول المدة المشار إليها في السؤال على ما هو معلوم. والله أعلم، وبه التوفيق»^(١).



عدول تونس ثم تولى فتيا المالكية بها. له تأليف مفيدة منها برنامج الشوارد على الشامل اعتمده المفتون والقضاة وأجوبة على نوازل في الفقه، تراجم مختصر خليل، الإعلام بما أغفله الأعلام. كان حيا سنة ١٠٠٩ هـ. انظر ترجمته في شجرة النور، ص: ٢٩٢.

(١) أجوبة ابن عظوم ٢٢٨/٦-٢٢٩.

المبحث الثاني أثر الرحمة بغير المسلمين على مواقفهم تجاه الإسلام والمسلمين

إن سكنى أهل الكتاب بين ظهرائنا المسلمين في بلد الإسلام، وتعاملهم بالبيع والشراء، وتجاورهم واختلاطهم، وتدافعهم في معترك الحياة، وضمنان الدولة بسلطتها وبقضاتها وفقهاؤها حقوق أهل الكتاب بمقتضى الرحمة والعدل، كان له تأثير بيّن على مواقف أهل الكتاب من الإسلام والمسلمين، ومن أعظم تلكم المواقف دخول أهل الكتاب في دين الإسلام، ولجوء بعضهم إلى القضاء الإسلامي بعد أن لمس الرحمة والعدل في هذا الدين الحنيف.

المطلب الأول إسلام أهل الكتاب

تعد مسألة إسلام أهل الكتاب، من القضايا القديمة قدم الإسلام التي تبين حرص المسلمين على دعوة غيرهم إلى الدين الحق اقتداء بفعل نبيهم ﷺ الذي عُرف من سيرته مدى حرصه على هداية الناس أجمعين. من ذلك ما جاء في الصحيح: أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ، فمرض،

فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعده عند رأسه، فقال له: «أَسْلَمَ»، فنظر إلى أبيه وهو عند رأسه، فقال: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ﷺ من عنده وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار».^(١)

وهذه القضية التي نتناولها بالدراسة من القضايا التي لها حضور كبير في النوازل الفقهية، حيث تعددت الوقائع والأسئلة عمّن أسلم ثم عاد إلى دينه، وعن صحة إسلام صغار أهل الكتاب، وعن حكم من أسلم مكرها ثم ارتد، وعن واجب الدولة في شخص المحتسب في الحفاظ على من أسلم من الصغار ولم يسلم أبويه أو أحدهما، وعن حكم العلاقة الزوجية أو لمن تكون الحضانة بعد إسلام أحد الزوجين، وعن قضية الإسلاميين. كلها تدل على دخول أهل الذمة في الإسلام بعد أن خالطوا المسلمين وعاشوا في أرض الإسلام.

وإن من مظاهر الرحمة في هاته النوازل، أن خلقت كثيراً من أهل الكتاب دخلوا في دين الإسلام، وكان من ذريتهم العلماء والصلحاء، وذلك من الألفاظ الخفية والرحمة الواسعة، التي لحقت بهؤلاء لما عاشوا في بلاد المسلمين. فمن العلماء ذوي الأصول الإسرائيلية، الذين اهتدى أجدادهم وصاروا علماء مرموقين، رفع الله بهم منارة العلم في هذا الصقع من العالم الإسلامي^(٢): أبو العباس أحمد بن علي المنجور (ت ٩٩٥)،^(٣) ومحمد بن أحمد ميارة (ت ١٠٧٢)، ومحمد بن عبدالرحمن ابن زكري (ت ١١٤٤)، ومحمد جسوس (ت ١١٨٢) شيخ الجماعة في وقته الحافظ الضابط المتقن،^(٤) ومحمد بنيس

(١) رواه البخاري برقم (١٢٩٠) في الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصل عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، وفي المرضى، باب عيادة المشرك، وأبو داود رقم (٣٠٩٥) في الجنائز، باب في عيادة الذمي.

(٢) انظر قضية المهاجرين المسمون بالبلديين، لمجهول، وبيوتات فاس قديما وحديثا، لعبد السلام بن سوادة، وتاريخ الدولة السعيدة، للضعيف الرباطي.

(٣) ترجم له في شجرة النور، ص: ٢٨٧.

(٤) ترجم له في سلوة الأنفاس، ١/ ٣٣٠ ٣٣١، وفي الفكر السامي، ص: ٦٢١.

(ت ١٢١٤) الفقيه المتضن المتقن،^(١) وعبد القادر الكوهن (ت ١٢٥٤)^(٢)، ومحمد المدني بن جلون (ت ١٢٩٨)^(٣).

ومن غير المغاربة نجد من أشهر المهتمين أبو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي الإسرائيلي^(٤) الأديب الأندلسي ووزير بني هود (ت ٥٤٠)، والسموأل بن يحيى المغربي (ت ٥٧٠ هـ) صاحب كتاب «بذل المجهود في إفحام اليهود»،^(٥) وعبد الحق الإسلامي السبتي (عاصر الدولة المرينية) صاحب «السيف الممدود في الرد على اليهود»، ورضوان الجنوي (ت ٩٩١) الفقيه المالكي الزاهد، أصله من جنوة، كان أبوه نصرانياً فأسلم وكانت أمه ذات أصول يهودية.^(٦)

وبالرجوع إلى النوازل في موضوع إسلام أهل الكتاب، فإن أول ما يلفت انتباهنا هو إعمال الفقهاء لقواعد الإثبات وطلب البينة وتثبتهم واحتياطهم في مسألة الإسلام أو الردة.

ففي نازلة الراهب الذي ادعى بأنه كان مسلماً، وأنه عرف الإسلام، لكنه رجع إلى النصرانية، لأنه لم ير ديناً خيراً منها، أفتى ابن وهب بأن الراهب لا يعد مرتدًا، ولا يحكم بقتله، لأنه لا توجد بينة تشهد على إسلامه، إلا القول الذي أقر به. وليس ذلك كافيًا للحكم عليه بالردة.^(٧)

وكذلك نجد طلب البينة الواضحة على الردة في جواب ابن رشد عن نازلة الرجل الذي يظهر الإسلام، وادعى الناس بأنه لا زال على دين النصرانية، وفتش القاضي بيته، فوجد به شموعًا وألواحًا وأقراصًا وأشياء

- (١) ترجم له في سلوة الأنفاس، ٢٠٤/١ - ٢٠٥.
- (٢) ترجم له في سلوة الأنفاس، ١٦٩/٢، وفي الأعلام، ٢٧/٤.
- (٣) ترجم له في سلوة الأنفاس، ٣٦٤/٢ - ٣٦٣.
- (٤) المغرب في حلى المغرب، ٤٤١/٢.
- (٥) ترجم له في الأعلام، ١٤٠/٣.
- (٦) ترجم له في شجرة النور، ٢٨٦، وفي الأعلام ٢٧/٣.
- (٧) المجموع المذهب في أجوبة الإمامين ابن وهب وأشهب. ص: ١١٨.

لا تكون إلا عند أساقفتهم. وشهد شاهدان عارفان بعوائد النصرى بأن ذلك مما يتقرب به إلى كنائسهم. وبرغم وجود كل تلك القرائن فقد ذهب ابن رشد^(١) إلى أنها ليست كافية للحكم عليه بحدّ المرتد، فالحدود من القتل وغيره لا تقام بالسماع ولا بغلبة الظنون، وإنما تقام بالبينة العادلة من المسلمين، ومثل لذلك بمن استفاض عليه من المسلمين أنه شارب للخمر، فوجدت في داره، وبين يديه، وعلى مائدته مرة بعد أخرى، أنه لا يجب عليه حد شرب الخمر، ولئن غلب على الظن شربه لها^(٢).

وأيضاً في فتوى الوزاني^(٣) في شأن اليهودي الذي أسلم، ثم ادعى اليهود أنه أحرق، فسُجن حتى يتبين أمره، فمات في السجن. فأخبر صاحب السجن أنه لم يزل على كفره، فحكم القاضي بكفره للشك وللاستصحاب. حيث ذهب الوزاني إلى أن ما أخبر به صاحب السجن ليس بالبينة الشرعية التي على أساسها يُحكم برّدته فلا بد فيها من عدلين^(٤).

وفصل ابن العطار^(٥) القول في كيفية الحكم على المرتد، وأنه يجب النظر إلى كيفية إسلامه أولاً ثم يحكم بعد ذلك هل هو مرتد أم لا. كل ذلك

(١) هو القاضي محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الأندلسي، زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب، ومقدمهم المعترف له بصحة النظر وجودة التأليف ودقة الفقه. نالت مؤلفاته القبول والعناية خصوصاً: النوازل، والبيان والتحصيل، والمقدمات الممهدة. (ت ٥٢٠).

انظر ترجمته في الصلة، ص: ٥٧٧/٢، وفي الديباج المذهب، ٢/ ٢٤٨.

(٢) فتاوى ابن رشد ١٤٦٢-١٤٦٤. ذكر هذه المسألة الونشريسي في المعيار: ٢-٣٤٩-٣٥٠ بعنوان: نصراني أظهر الإسلام، واتهم على بقائه على النصرانية، وظهرت عليه علاماتها. والبرزلي في جامع الفتاوى ٢٦٢-٢٦٧.

(٣) هو أبو عيسى محمد المهدي بن محمد الوزاني الفاسي. ولد بوزان وبها نشأ وقرأ القرآن على والده، وانتقل إلى فاس وأخذ فيها عن أبي عبدالله بن المدني كنون، وأبي عيسى بن سودة، وأبي العباس بن سودة، وجعفر الكتاني وغيرهم. من مصنفاته: «المعيار الجديد»، و«المنح السامية في الأجوبة الفقهية»، وشرحان على العمل الفاسي، وحاشية على لامية الزقاق، والفرق بين الطلاق الرجعي والبائن. (ت ١٣٤٢). انظر ترجمته في شجرة النور الزكية، ص: ٤٣٥-٤٣٦.

(٤) النوازل الكبرى ٩٩/٣-١٠٨.

(٥) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبدالله المعروف بابن العطار القرطبي ت ٣٩٩هـ. فقيه أندلسي عارف بعلم الشروط (الوثائق). انظر ترجمته في المدارك، ٤/ ٧١٥، وفي شجرة النور، ص: ٩٨.

وفي الديباج، ٢/ ٢٣١.



احتياطاً عن سفك الدم بغير حق، فالإسلام الذي يترتب على تركه الحكم بالردة يكون بعد الإقرار بالوضوء والاغتسال والصلاة، أما من أجاب إلى الإسلام مجملًا ثم رجع، فلا يُقتل إلا إذا ثبت عنه أنه قد صلى، وكذلك لا يُحكم بردة من أجاب إلى الإسلام جملةً، فلما عُرضت عليه شرائعه أبى التزامها.

ولذلك اشترط في وثيقة الإسلام التي يُحررها القضاة والعدول، التنصيص على الشهادة لله بالوحدانية ونبِيّه بالرسالة، وعلى أن المعتنق للإسلام قد اغتسل وصلى.^(١)

ومما يبين مدى حرص العلماء على دقة مثل هذه الوثائق المعقودة في إسلام غير المسلمين، ما كتبه القاضي منذر ابن سعيد البلوطي في نقد وثيقة عقدها بعض أهل العلم، وذلك راجع إلى أن عاقد الوثيقة كتب: «وأنه شهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وأن عيسى رسول الله وكلمته». فأنكر القاضي ذلك لأنه لم يصل هذه العبارة بأن يقول: ألقاها إلى مريم وروح منه. لما في عدم الوصل من حكم بأن «كلام الله مخلوق، لأن عيسى مخلوق، وإذا كان عيسى مخلوقًا وهو كلمة الله، فكلمة الله مخلوقة، وتعالى الله عن ذلك علوًا، وفي القول بهذا إيجاب القول بخلق القرآن».^(٢)

وإذا أسلم الذمي ثم رجع وادعى الإكراه فإنه يصدق بذلك، ولا يكون بذلك الإكراه مسلمًا، ومن ثم لا يحكم بردته،^(٣) هذا ما أفتى به المرتيني.^(٤)

(١) الأحكام للشعبي ص: ٣٥٥

(٢) «قاضي الأندلس المهتم وخطيبها المفوه: الإمام منذر بن سعيد البلوطي». مع تحقيق رسالتين مخطوطتين من تراثه. عبدالرحمن بن محمد الهيياوي السجلماسي. دار البشائر الإسلامية. ط: ٢٠٢٠. ص: ١٤٤-١٤٧.

(٣) فتاوى أهل الذمة بسوس: ص: ٢١٢-٢١٣ نقلًا عن نوازل المرتيني ص: ١٠٤.

(٤) هو أبو سالم إبراهيم بن علي بن أحمد المرتيني الإسافتي فقيه ومدرس ونوازلي لامع، انتشرت أوجوبته الفقهية بناحية «أقا» من بلاد سوس بالمغرب الأقصى، توفي رحمه الله أواخر القرن الثاني عشر الهجري. انظر ترجمته في: في سوس العاملة، ص: ١٩٣، وفي فقه النوازل في سوس، ص: ٢٦٣.



وأفتى فقهاء طنجة في الذمي الذي أسلم ثم رجع عن الإسلام واعتذر بالخوف وبالغرم، أن عذره مقبول. مستندهم في ذلك قوله في المختصر: «وقبل عذر من أسلم، وقال أسلمت عن ضيق إن ظهر»^(١). وخالفهم في ذلك ابن الحائك^(٢) وحكم بردته على اعتبار أن ما اعتذر به غير ظاهر من خلال وقائع النازلة.^(٣)

المطلب الثاني لجوء أهل الكتاب إلى القضاء الإسلامي

إن مقتضى عقد الذمة أن لا يعرض لغير المسلمين في شيء، وأن يتركوا لشريعتهم. ويستثنى من ذلك أنه يجب على الحاكم المسلم أن يمنعهم من الإضرار بالناس، كمنعهم من بيع الخمر للمسلمين، ومن التظاهر بالمحرمات. أما إذا تحاكموا إلى الحاكم المسلم، فما كان من القضايا المتعلقة بالجنايات والديون وتظالم الزوجين مما لا يجوز في شريعة وجب الحكم بينهم. وما كان من قبيل الدعاوى المحتملة في المعاملات والأحوال الشخصية والتي تختلف فيها الشرائع، فيردون إلى حكامهم وإلى شريعتهم، إلا أن يرضوا جميعاً بحكم الإسلام. وقد حكى ابن عطية الإجماع بين المذاهب على ذلك فقال: «الأمة فيما علمت مجمعة على

(١) مختصر خليل، ص: ٢٣٨.

(٢) هو عبدالرحمن بن محمد التطواني الحائك: قاض، من نحاة المالكية وأدبائهم بتطوان. ولي قضاءها ثلاث مرات، بين عامي ١٢٠٧ و ١٢٣١ هـ وتوفي بها. كان كثير التأليف. من كتبه (إعراب مختصر خليل)، و (حاشية على تفسير الجلالين) و (شرح شواهد المكودي على الألفية) و (حاشية على وثائق ابن سلمون) و (النوازل). ت. ١٢٢٧ هـ. الأعلام، ٣/ ٣٣٣.

(٣) أثر الفكر الصوفي في النوازل الفقهية بالمغرب الأقصى - القرنين الحادي عشر والثاني عشر نموذجاً- مع تحقيق كتاب النوازل الفقهية للشيخ عبدالرحمن الحائك. رسالة لنيل الدكتوراه للباحث: مصطفى أغزيل. إشراف: عبدالسلام شقور ومحمد الفقير التمساني. ٢٠٠٧/٢٠٠٨. جامعة عبدالملك السعدي. كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان.



أن حاكم المسلمين يحكم بين أهل الذمة في التظالم ويتسلط عليهم في تغييره وينقر عن صورته كيف وقع فيغير ذلك ومن التظالم حسب السلع المبيعة وغصب المال وغير ذلك فأما نوازل الأحكام التي لا ظلم فيها من أحدهم للآخر وإنما هي دعاوي محتملة، وطلب ما يحل ولا يحل، وطلب المخرج من الإثم في الآخرة، فهي التي هو الحاكم فيها مخير»^(١). وقال ابن عاشور: «وقد دلّ الاستقراء على أن الأصل في الحكم بين غير المسلمين، إذا تنازع بعضهم مع بعض أن يحكم بينهم حكماً ملّتهم، فإذا تحاكموا إلى حكّام المسلمين، فإن كان ما حدث من قبيل الظلم كالقتل والغصب، وكلّ ما ينتشر منه فساد، فلا خلاف أنه يجب الحكم بين غير المسلمين فيما كان من التظالم، فالتخيير الذي في الآية مخصوص بالإجماع»^(٢).

ومن النوازل التي أفتى فيها العلماء بوجوب تدخل القضاء لرفع الظلم عن أهل الكتاب، نازلة الذميمة التي أرادت الزواج بنصراني من دينها فمنعها أهلها، حيث أفتى ابن زرب^(٣) بأنه يلزم السلطان أن يجبرهم على إنكاحها لأن منعهم لها من الظلم، ويجب أن يمنعوا من ظلم بعضهم لبعض. لكنه أفتى بأن الذميمة لو ذهبت للزواج بمسلم فإنهم لا يجبرون بخلاف النصراني^(٤). وفي نازلة أخرى سئل ابن أبي زيد^(٥) «عمّن غصب ليهودي

(١) المحرر الوجيز، ٢/ ٢٢٦.

(٢) التحرير والتنوير، ٦/ ٢٠٣-٢٠٤.

(٣) محمد بن يبقى بن زرب، أبو بكر: من كبار القضاة وخطباء المنابر بالأندلس. ولي القضاء بقرطبة (سنة ٣٦٧) في أيام المؤيد الأموي (هشام). وصنف (الخصال) في فقه المالكية. وتوفى بقرطبة عام ٣٨١ هـ وهو على القضاء، ومدته فيه أكثر من ثلاثين عاماً. انظر ترجمته في ترتيب المدارك، ٧/ ١١٤، وفي تاريخ قضاة الأندلس، ١/ ٤٤.

(٤) الأحكام الشعبي ص: ٤٠٧.

(٥) هو عبد الله بن عبدالرحمن، أبو محمد ابن أبي زيد، فقيه القيروان وشيخ المالكية بالمغرب. سمي بمالك الصغير. صنف: النوادر والزيادات، واختصر المدونة، وعلى هذين الكتابين المعول في الفتيا بالمغرب، وله كتاب الرسالة المشهور. ت سنة ٣٨٦ هـ.

انظر: ترجمته في ترتيب المدارك، ٦/ ٢١٥، وفي سير أعلام النبلاء، ١٧/ ١٠١٣، وفي شجرة

النور الزكية، ص: ٩٦.

مألاً ثم فقد اليهودي ولا يدرى من هو، ولا أين هو، وأراد الغاصب التحلل. فأجاب بأنه إن كان من أهل الصلح وهم معروفون وعليهم خراج يؤدونه دفعه إليهم، وإن لم يعلم أو كان من غير ذلك البلد، فليكن في بيت المال ويتصدق به في عدمه»^(١).

وقد تعددت النوازل والسؤالات في اختلاف أهل الكتاب في التحاكم إلى محاكمهم الخاصة أم إلى محاكم المسلمين. أما الجواب فقد كان واحداً لا يخرج عن الضابط المذكور أعلاه، من اشتراط رضا الخصمين معاً، إذا لم تكن المسألة من قبيل التظالم الذي لا يجوز في شريعة. وفيما يلي نص نازلتين في الباب:

الأولى: «في جماعة يهود، يطالبون شخصاً منهم بدعوى، ويذهبون إلى محاكمته عند اليهود، وأن لهم براهين تقتضي تقديمهم عندهم، ويدعي المطلوب أن يكون عند حاكم المسلمين، لأن بيده ما يُبريه بعدول المسلمين. جوابها: لابن العطار: إذا ظهرت الوثيقة، وفيها شهادة من يقبل من المسلمين وجب محاكمته بحكم المسلمين ولا يمكنه من غير ذلك. قلت (البرزلي): لأن اتفاقهم على الشهادة بعدول المسلمين دليل على رضاهم بحكامهم فلا يُقبل رجوع من رجع منهم، وأما لو لم يكن هذا فلا يحكم بحكم المسلمين بينهم في ما لا تظالم فيه إلا برضى الخصمين. وزاد بعض أهل المذهب ورضى أساقفتهم فيخير الحاكم حينئذ...»^(٢).

الثانية: «سئل الشيخ أبو الفضل العقباني^(٣) عن يهوديين بينهما

(١) المعيار ٩/ ٥٤٧، وفتاوى البرزلي، ١٣٩/٥.

(٢) البرزلي ٤/ ١٠٧-١٠٨ ووردت في المعيار ١٢٨/١٠-١٣٠.

(٣) هو قاسم بن سعيد العقباني التلمساني، أبو الفضل: فقيه، بلغ درجة الاجتهاد. ولي القضاء بتلمسان، ثم عكف على التدريس إلى أن مات. له «أرجوزة» في التصوف، وتعليق على ابن الحاجب»ت ٨٥٤ هـ. انظر ترجمته في نيل الابتهاج، ص: ٣٦٥.



معاملات بعقود بشهادة المسلمين وعقود بشهادة اليهود، وتحاكما عند اليهود، وقام أحدهما، ودعا صاحبه إلى شرع المسلمين ويبد المدعي عقد بشهادة المسلمين وأبى المدعى عليه من الرضى بحكم المسلمين، ودعا أن يصرف إلى جماعتهم وزعم أن جماعتهما أقعد بمعاملتهما في جميع الأحوال من الشهادة عليهم بعقود المسلمين وعقود اليهود. فهل يصرفان إلى جماعتهما، ولا يلتفت إلى الحكم بينهما أم لا؟

فأجاب: «لا يحكم بين أهل الذمة في مثل مسألة السائل إلا برضاهم بحكم المسلمين، أما إن لم يرض أحد الخصمين فإنهما يردان إلى أساقفتهم»^(١).

أما إذا كان أحد طرفي الدعوى مسلماً فلا خلاف في أن اختصاص القضاء الإسلامي هنا هو اختصاص إلزامي. قال القرافي: «واتفقوا فيما أعلم على أنه إذا ترفع مسلم وكافر أن على القاضي الحكم بينهم»^(٢). وكل ذلك من أجل رفع الظلم عن المسلم أو إنصاف غير المسلم.

ومن مظاهر الرحمة في هذا الباب الاختلاف الواقع بين الفقهاء في الحكم على اليهودي يوم السبت، حيث «سئل ابن أبي زيد عن أكرى من يهودي دواب، فيأتي يوم السبت، فيريد اليهودي السبت، هل يقضي لليهودي على المسلم بالسبت معه أم لا؟

فأجاب: لا يقضى عليه، وكذلك لو كان بينهما خصومة وجاء يوم السبت، فيقضي على اليهودي بالسبت معه، أو يوكل وكيلاً، لأنه حكم بين مسلم وذمي»^(٣).

(١) أحكام أهل الذمة. جعفر بن إدريس الكتاني. تحقيق محمد بن حمزة بن علي الكتاني. دار الكتب العلمية. بيروت، ٢٠٠٧.

(٢) الذخيرة، ١٠/١١٢.

(٣) فتاوى ابن أبي زيد القيرواني. لأبي محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني. =

فابن أبي زيد لا يعتبر حرمة السبب لدى اليهود لتعلق الأمر بحق المسلم، ويرى بأن في أمر المسلم بالسبب مع اليهودي ظلماً للمسلم، ولأن لليهودي مخرجاً وهو توكيل غيره. والمسألة عند المتأخرين من المالكية فيها قولان قول بالجواز^(١) وقول بالكراهة،^(٢) والذين قالوا بالكراهة ذهبوا إلى أن إلزام الذمي اليهودي بحكم يوم السبت، خرق لما يزعم تعظيمه، وقد كان إقرارهم على مراتب شريعتهم بمقتضى عقد الذمة فلا نخالف مقتضى العقد الذي بيننا وبينهم.^(٣) لكن لما لم يلتزم أهل الذمة بمقتضيات عقد الذمة أفتى بعض العلماء بجواز تحليف اليهودي يوم السبت، كما في فتوى ابن هلال^(٤) حيث قال: «الحمد لله، يحلف اليهودي يوم السبت إذا طلب ذلك خصمه الذي وجب له إحلافه، هذا هو المنصوص لابن القاسم، ولا يأتي هنا خلاف ابن يونس الذي ذهب أن اليهودي لا يحلف يوم السبت، لأنهم لم يلتزموا في هذه البلدة الفاسدة الذمة على وجهها، والله أعلم».^(٥)

وتجدر الإشارة إلى أن اليهود حرصوا على «إبعاد كل تدخل في قضايا

- = جمع وتقديم د حميد محمد لحمر. دار الغرب الإسلامي. ط: ١. ٢٠٠٤. المسألة ٢٦٩ ص: ٢٠٦، وردت في الأحكام للشعبي ص: ٢٧٤، بعنوان: القضاء على اليهودي يوم السبت.
- ووردت في المعيار ٢٨٢/٨، بعنوان: من أكرى دابة من يهودي وسافر فأراد إقامة السبت.
- (١) وهو مذهب الشافعية والحنفية. انظر: تحفة المحتاج في شرح المنهاج، ١٤٥/٦، والدر المختار، ٢٥٠/٦.
- (٢) أما الحنابلة فقد قالوا: «ويحرم إحضار يهودي في سبته وتحريمه أي السبب على اليهود باق فيستثنى شرعاً من عمل في إجارة لحديث النسائي والترمذي وصححه: وأنتم يهود عليكم خاصة أن لا تعدوا في السبت». شرح منتهى الإرادات ١/ ٦٦٩
- (٣) انظر التاج والإكليل، ٦/ ١٢٠، والذخيرة، ١١/ ٧٠، وحاشية الدسوقي، ٤/ ١٤٠.
- (٤) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن هلال بن علي، السجلماسي، مفتي سجلماسة وعالمها، حلاه في دوحة الناشر ب «شيخ الفتيا وإمام أهل التقى، العالم العلم القدوة .. له نوازل وفتاوى مشهورة. وله الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير، وأصل الكتاب أجوبة للشيخ أبي الحسن الزرولبي المعروف بالصغير ت ٧١٩ قيدها عنه تلميذه إبراهيم المعروف بابن أبي يحيى (ت ٧٤٩)، وقام أبو سالم إبراهيم الهلالي بترتيبها على الأبواب وضم كل مسألة إلى مثيلاتها وشرحها وسماها: «الدر النثير على مسائل أبي الحسن الصغير». توفي عام: ٩٠٣ هـ. انظر ترجمته في دوحة الناشر، ص: ٦٧، وفي شجرة النور، ص: ٢٤٤، وفي نيل الابتهاج، ص: ٦٦.
- (٥) النوازل الكبرى ٥٠١/٩-٥٠٣.



الطائفة، وتفادي كل خرق للاستقلالية التي حولها لهم قانون الذمة»،^(١) الذي منح الطوائف اليهودية كامل الحرية في التقاضي لمحاكمها الخاصة، التي تختص بالنظر في مجال واسع من الحياة العامة والخاصة لليهود كمرقبة مدى تطبيق القواعد والعوائد الشرعية، وفي مجال الأحوال الشخصية، وكذا فيما يتعلق بالعقود والالتزامات والعقارات الجارية بين اليهود خاصة والمحرة باللغة العبرية.

وزيادة في حرص اليهود على تأكيد خصوصية الطوائف اليهودية، لم تسمح السلطات العبرية باللجوء إلى القضاء الإسلامي إلا في حالة استثنائية، مهددة كل من لا يمتثل لهذا الأمر بالحرمان (المقاطعة في كل شيء)،^(٢) فنجد في بعض «التقنوت» (الفتاوى) نصوصاً تقضي بالحرمان تجاه من يلجؤون إلى القضاء غير اليهودي. هذا الإجراء العام من السلطات العبرية كان الدافع إليه هو عدم لجوء اليهود إلى القضاء الإسلامي ممثلاً في القاضي والعدول.^(٣) وفيما يلي بعض الأمثلة لحالات اللجوء إلى القضاء الإسلامي الواردة في كتب نوازل اليهود المغاربة التي يؤكدونها ما ورد في فتاوى البرزلي من نوازل تدل على أن أهل الكتاب بتونس وغيرها كانوا يأتون إلى حوانيت الشهود، وكان هؤلاء الشهود يأتون إلى دور اليهود للشهادة^(٤):

أولاً: استعمال الصداق في الزواج اليهودي:

ظهر في مدينة فاس استعمال الصداق محل العقد اليهودي «الكتوبة» في الزواج اليهودي، ويتم ذلك أمام القضاء الإسلامي بمحضر القاضي

(١) يهود الأندلس والمغرب، ٢/٣٥٦.

(٢) Le recours des tributaires juifs à la justice musulmane et aux autorités représentatives de l'état souverain. Haim zafrani. In studia islamica. Paris 1986. N. 63 64. P: 127

(٣) .Ibid. P: 127

(٤) فتاوى البرزلي ٢/٢٩٣-٢٩٤.

والشاهدين العدلين،^(١) أو أمام العدول فحسب، وقد وردت آثار تدل على هذا الاستعمال الذي ظل قائماً حتى نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر، بحيث نجد في كتاب «كرم حرم» مجموعة من النوازل والفتاوى التي تشير إلى هذا الأمر، ومن ذلك النوازل من ٥٢ إلى ٥٥، والتي جاء فيها: «يمكن أن يلزم أب الخطيئة صهره بعقد الصداق أمام السلطات المدنية إذا كان الصهر عنيفاً وغير موثوق به، ويترك تحديد مقدار الصداق لتقدير المحكمة».^(٢)

«وجاء مثل هذا الاستعمال في فتاوى الربى إسحاق بن شيشيت بروفيا والربى شمعون بن صمح دوران، كما جاء ذكر الصداق عشرات المرات في معجم الأحكام المعنون بـ «مفتيح همشبط» لناحيم إلون الجزء الثاني ص: ٦٠٧».^(٣)

ثانياً: تعدد الزوجات:

«أصبح تعدد الزوجات بمقتضى الأحكام القشتالية المؤرخة بـ ١٤٩٤ في حكم المحرم».^(٤) وظل اليهود المهجرون يعملون بهذا النظام، واختفى نظام تعدد الزوجات لديهم، أما اليهود البلديون فإنهم ظلوا متشبثين بالتشريع التلمودي القديم، الذي يجيز التعدد في بعض الحالات المعينة، حتى أرجعوا سنة ١٥٩٣ نظام التعدد بشروط، وقد اتسعت حدود هذه الشروط سنة ١٥٩٩، بحيث أصبح التعدد مسموحاً به إذا لم يرزق الزوج من زوجته الأولى إلا البنات.^(٥) ووافق مجمع الأحرار المنعقد في نفس السنة

(١) ذكر ابن عرفة اختلاف فتوى شيوخه في جواز شهادة المنتصبين للشهادة على أنكحة اليهود. وهذه النوازل تدل على أن الأمر كان معمولاً به. انظر منح الجليل، ٣٦٢/٣.

(٢) haim zafrani. Op. Cité. P: 127

(٣) يهود الأندلس والمغرب، ٢٧٨/١.

(٤) نفسه. ٢٨١/١.

(٥) نفسه ٢٨٢/١.

على هذه الإجراءات والقرارات التي أصبحت تعرف بـ «هسكمه هحدشه هأحرونه»، أي آخر إجماع متفق عليه.

لكن مجمع الأعبار رفض التوسع في حالات إباحة التعدد، مما أدى إلى تدخل السلطان بإيعاز من بعض الأعيان اليهود من ذوي النفوذ الذين اتهموا الأعبار بمخالفة شريعة التلمود، فصدر مرسوم ملكي يسمح للرعايا اليهود بالتعدد، وبرغم إقرار الأعبار بهذا القرار انطلاقاً من المبدأ القائل: حكم السلطان شريعة «دينا دملخيپ دينا»، فإن النساء المتزوجات هددن بالخروج من الدين إذا لم يعد النظر في القضية، فتدخل وفد من الأعبار وأعضاء المجمع لدى القصر لتمكين السلطة الربية من النظر وحدها في مسائل الأحوال الشخصية، ويخول للمحكمة الربية صلاحية النظر في التعدد.^(١)

ثالثاً: النزاعات العقارية:

جاء في كتاب كرم حمر، النازلة ٥٢ ما يلي: «كل تفويت للملكية عقارية، وكل عملية عقارية (بيع، رهن، حيازة) يبرم أمام المحكمة الربية وموقعة من كتاب ضبط يهود، يجب أن يحرر بها عقد آخر يحرره وكيل عدلي مدني، ثم يوضع العقد لدى جهة ثالثة (يهودي موثوق)».

واستناداً إلى هذه الفتوى أجاز صاحب «المشباط» (يعقوب بن سير) اللجوء إلى القضاء الإسلامي في النزاع العقاري، بحيث يكون على الشركاء في عقار معين أن يحرروا التزاماتهم في «عقد الإقرار» الذي يوضع عند جهة ثالثة موثوقة إلى حين النظر في القضية من طرف المحكمة الربية، التي تسمح بتسليمه للدائن في حالة رفض المدين الوفاء بتعهداته.^(٢)

(١) . haim zafrani. Op. Cité. P : 127 128

(٢) . haim zafrani. Op. Cité. P : 141 143

كما نجد في كتاب المشباط الجزء الأول ص: ٢٣٧ مثلاً آخر، وهو أن أخوين يشتركان في عقار قد ورثاه، يمكنهما اللجوء إلى القضاء الإسلامي لتحديد الحقوق والواجبات المشتركة وتوثيقها في عقد يسمى «عقد الفصال» يحتفظ كل واحد منهما بنسخة منه.



الخاتمة

مما سبق يتضح بأن الرحمة قيمة مركزية عند المسلمين، وقد كانت رحمة النبي ﷺ من أسباب التفات الصحابة ﷺ حوله، ومن أسباب إقبال الناس عليه وسماعهم الحق منه، وكان هو نفسه رحمة للعالمين، حريصاً على هدايتهم وعلى نجاتهم في الآخرة، مهتماً بشؤونهم، عادلاً فيهم. ثم نهج المسلمون نهجه ﷺ فكانوا رحماء بأهل الكتاب. وقد ضمنت الدولة بسلطتها وقضائها وعلمائها تلكم الرحمة بضمانات العدل والقضاء والفتوى. فكان أن اهتدى عدد من أهل الكتاب لما رأوا من الرحمة والعدل. والحمد لله رب العالمين.

وقد توصل البحث إلى النتائج والتوصيات الآتية:

- سكنى أهل الكتاب بين ظهراي المسلمين في بلد الإسلام، وتعاملهم بالبيع والشراء، وتجاورهم واختلاطهم، وضمان الدولة بسلطتها وبقضاتها وفقهاؤها حقوق أهل الكتاب بمقتضى الرحمة والعدل، كان له تأثير على دخول أهل الكتاب في دين الإسلام، ولجوء بعضهم إلى القضاء الإسلامي بعد أن لمس الرحمة والعدل في هذا الدين الحنيف.

- الأمة الإسلامية أمة معصومة بعمومها، وهي أمة جعلت من العقيدة أساساً للتعامل مع البشر، ومن العدل القيمة العليا في كل

- أقوالها وأفعالها، مسترشدة في كل ذلك بنصوص الوحي الخالدة. وهي الأمة الوسطية الشهيددة على البشرية التي تحمل مسؤولية هداية الناس إلى عبادة رب الناس، كي يسعدوا في الدنيا والآخرة.
- متى احتكم المسلمون إلى علمائهم واعتصموا بميراث نبيهم، نأوا عن أن يظلموا أو يعتدوا في تعاملهم مع غير المسلمين، وانبنى تعاملهم على أساس الرحمة والعدل مع الجميع والبر مع المعاهدين المسلمين. وما أحوج البشرية اليوم إلى نور الرحمة والعدل الذي حمله المسلمون عدل لا يفرق بين قوي أو ضعيف، ولا بين شريف أو وضيع، ولا بين مسلم أو غير مسلم.
- التراث الفقهي النوازلي زاخر بالمعطيات الصادقة والمهمة، وفي بعض الأحيان النادرة، التي تعبر بصدق عن واقع غير المسلمين بهذا الصقع من العالم الإسلامي، الموسوم بوحدة المذهب الفقهي، بما تزخر به من معطيات وتفصيل حياتية صادقة تدل على مدى مراعاة المسلمين بعمومهم للرحمة في التعامل مع أهل الكتاب، وعلى تحقق التعايش بين الطرفين بما يخدم المصالح العامة، ويعمر الأرض بالخير والسلام.
- الحاجة ماسة إلى نشر التراث النوازلي والاستفادة منه في تعريف الأجيال بسماحة الإسلام والمسلمين. وإلى العمل على ترجمته وتعريف الغرب بالإسلام من خلاله، لأنه يقدم صوراً واقعية صادقة عن الإسلام وأهله. إلا أنه ينبغي تنقيح هذا التراث ووضع ضوابط للتعامل معه والحذر من إسقاط بعض الفتاوى على الواقع المعاصر دون استحضار للظروف والسياق الذي أنتجت فيه.
- ينبغي الاستفادة من مناهج السلف في تعاملهم مع أهل الكتاب،



وذلك بالعمل على إدماج تلکم النماذج المشرقة في المناهج التعليمية،
ليس فقط من الجانب المعرفي، ولكن أيضاً وفق مقاربات وجدانية
وسلوكية تجعل المتعلمين يعتزون بدينهم وبتراثهم، ويلتزمون قيم
التعامل مع غير المسلمين.



فهرس المصادر والمراجع:

• القرآن الكريم

١. الأجوبة الصغرى، لأبي السعود عبدالقادر الفاسي (ت ١٠٩١). دراسة وتحقيق: علي بن أحمد الإبراهيمي. نشرتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية سنة ٢٠٠٧.
٢. الأجوبة الكبرى لسيد عبدالقادر الفاسي. طبعة حجرية بخزانة القرويين بفاس.
٣. الأجوبة، لأبي القاسم بن محمد مرزوق بن عظم المرادي (كان حياً سنة ١٠٠٩هـ). تحقيق وتقديم: محمد الحبيب الهيلة. المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة".
٤. أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢م.
٥. الأحكام، للقاضي أبي المطرف عبدالرحمن بن قاسم الشعبي المالقي. تقديم وتحقيق د. الصادق الحلوي. دار الغرب الإسلامي. ط ١. ١٩٩٢.
٦. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لأبي العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري (ت: ١٣١٥هـ). تحقيق: جعفر الناصري/ محمد الناصري. دار الكتاب - الدار البيضاء.
٧. الأعلام، لخير الدين بن محمود بن محمد الزركلي (ت: ١٣٩٦هـ). دار العلم للملايين. الطبعة: الخامسة عشرة. ٢٠٠٢ م
٨. أنساب الأشراف، لأحمد بن يحيى البلاذري. ج: ١. تحقيق محمد حميد الله، مصر، دار المعارف، ١٩٥٩.



٩. أهل الذمة بالأندلس في عهد الدولة الأموية. ١٣٨هـ/٤٢٢هـ -
٧٥٥م/١٠٣١م. محمد الأمين ولد أن. دار الأوتل. سورية. ط: ١.
٢٠١١.
١٠. البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت:
٧٧٤هـ). تحقيق: علي شيري. دار إحياء التراث العربي. الطبعة:
الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
١١. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لعلاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن
أحمد الكاساني الحنفي (ت: ٥٨٧هـ). دار الكتب العلمية. الطبعة:
الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
١٢. التاج والإكليل لمختصر خليل، لمحمد بن يوسف بن أبي القاسم بن
يوسف العبدري الغرناطي، أبو عبد الله المواق المالكي (ت: ٨٩٧هـ).
دار الكتب العلمية. الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٤ م.
١٣. تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري، لأبي
جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ). دار التراث - بيروت.
الطبعة: الثانية - ١٣٨٧ هـ.
١٤. التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور
التونسي (ت: ١٣٩٣هـ). الدار التونسية للنشر - تونس. ١٩٨٤ هـ.
١٥. تذييل المعيار لعبد السلام بن عثمان التاجوري (ت ١٣٩ هـ). طبع
بدار الكتب الوطنية بينغازي سنة ٢٠٠٨.
١٦. تفسير المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (ت:
١٣٥٤هـ). نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٠ م.
١٧. تفسير مقاتل بن سليمان، لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير
الأزدي (ت ١٥٠ هـ). تحقيق: عبد الله محمود شحاته. دار إحياء
التراث - بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ.

١٨. التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت: ٧٤١هـ). تحقيق: د. عبد الله الخالدي. شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤١٦هـ.

١٩. الحديقة المستقلة النضرة في الفتاوى الصادرة عن علماء الحضرة. اعتنى بها: جلال علي القذافي الجهاني. دار ابن حزم. ط: ١ - ٢٠٠٣. ٢٠. حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية. أبو الأعلى المودودي. دار القرآن الكريم، بيروت. ١٩٨٤.

٢١. خاتم النبيين ﷺ. لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة. (المتوفى: ١٣٩٤هـ). دار الفكر العربي - القاهرة. ١٤٢٥هـ. ٢٢. ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، لأبي الأصبع عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي. تحقيق: يحيى مراد. دار الحديث. القاهرة. ٢٠٠٧.

٢٣. الذخيرة، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي (ت: ٦٨٤هـ) تحقيق: محمد حجي وسعيد أعراب ومحمد بو خيزة. دار الغرب الإسلامي - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٩٩٤م.

٢٤. زاد المعاد في هدي خير العباد، لشمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ). مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت. الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢٥. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. لأبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ). مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض

٢٦. سلوة الأنفاس ومحادثاة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس، لمحمد بن جعفر الكتاني (ت: ١٣٤٥). طبعة حجرية بفاس.



٢٧. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السُّجِسْتَانِي (ت: ٢٧٥هـ). تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.

٢٨. سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرَةَ الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ). تحقيق وتعليق: مجموعة من الباحثين. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر. الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
٢٩. السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمري. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة. ط: ٦. ١٤١٥ - ١٩٩٤.

٣٠. السيرة النبوية لابن هشام، لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت: ٢١٣هـ). تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ الشلبي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

٣١. السيرة النبوية، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤هـ). تحقيق: مصطفى عبدالواحد. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان. عام النشر: ١٩٧٦.

٣٢. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد مخلوف. المطبعة السلفية. القاهرة. ١٩٤٩.

٣٣. صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة. الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٤. فتاوى البرزلي: جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالفتن

والحكام، لأبي القاسم بن أحمد البلوي التونسي المعروف بالبرزلي. تقديم وتحقيق: د محمد الحبيب الهيلة. دار الغرب الإسلامي. ط

٢٠٠٢.١م.

٣٥. صحيح التَّريغيب والتَّرهيب. لمحمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف للنَّشر والتَّوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م
٣٦. الطبقات الكبرى، لأبي عبد الله محمد بن سعد (ت: ٢٣٠هـ). تحقيق: إحسان عباس. دار صادر - بيروت. الطبعة: الأولى. ١٩٦٨م.
٣٧. عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لأبي الفتح محمد اليعمري (ت: ٧٣٤هـ). تعليق: إبراهيم محمد رمضان. دار القلم - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٤/١٩٩٣.
٣٨. فتاوى ابن أبي زيد القيرواني. جمع وتقديم: حميد محمد لحمر. دار الغرب الإسلامي. ط: ١. ٢٠٠٤.
٣٩. فتاوى تتحدى الإهمال في شفشاون وما حولها من الجبال. جمع وتنظيم محمد الهبطي المواهبي. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المملكة المغربية. ط ١٤١٩/١٩٩٨.
٤٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني. دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.
٤١. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، لمحمد بن الحسن الحجوي (ت ١٣٧٦هـ). المكتبة العصرية. صيدا - بيروت. ٢٠٠٩.
٤٢. قضية المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين. مؤلف مجهول، دراسة وتحقيق: محمد فتحة.
٤٣. كتاب الأجوبة، لمحمد بن سحنون. تحقيق ودراسة: حامد العلوي. طبع بدار سحنون للنشر والتوزيع. ٢٠٠٠.
٤٤. مسند الإمام أحمد بن حنبل، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ). تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.



٤٥. كتاب الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤هـ). تحقيق: خليل محمد هراس. دار الفكر - بيروت.

٤٦. كتاب النوازل للشيخ أبي مهدي عيسى بن علي الحسني. تحقيق المجلس العلمي بفاس. مطبعة فضالة. ١٩٨٣/١٤٠٣.

٤٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبدالحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ). تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد. دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

٤٨. المسند الصحيح، لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٤٩. المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقيا والأندلس والمغرب، لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي. نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية. طبع: دار الغرب الإسلامي. ١٩٨١.

٥٠. المغازي، لأبي عبدالله محمد بن عمر الواقدي (ت: ٢٠٧هـ). تحقيق: مارسدن جونس. دار الأعلمي - بيروت. الطبعة: الثالثة - ١٩٨٩/١٤٠٩.

٥١. المغرب في حلى المغرب، لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت: ٦٨٥هـ). تحقيق: د. شوقي ضيف. دار المعارف - القاهرة. الطبعة: الثالثة، ١٩٥٥.

٥٢. نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، لمحمد بن الطيب القادري. تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق. مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ١٩٨٢/١٤٠٢.

٥٣. النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى
المسماة بالمعيار الجديد الجامع المغرب عن فتاوى المتأخرين من
علماء المغرب، لأبي عيسى سيدي المهدي الوزاني. نشر وزارة
الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية. ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.



أحاديث الرحمة بغير المسلمين

إعداد:

د. فهد بن عبد الرحمن الحمودي
أستاذ مشارك بقسم السنة وعلومها
كلية أصول الدين
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد، وعلى أصحابه البررة المتقين، ومن تبعهم وسار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين، أما بعد:

إن دين الإسلام دين الرحمة، ورسول الإسلام رسول الرحمة للعالمين أجمعين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء] ولكننا نجد الكثير من المسلمين لا يبرزون سمة الرحمة مع غير المسلمين في الإسلام ولا في نبي الإسلام، نبي الرحمة. ولقلة المصادر التي أفردت نصوص الرحمة مع غير المسلمين، ولعدم معرفة الكثيرين بتلك المصادر، يتبادر للكثيرين أن العلاقة مع غير المسلمين هي علاقة عداوة واعتداء فحسب. وقد تتسبب كتابات بعض المتأخرين من الجهلة والمتطرفين في الاعتداء والتعدي على من يحرم الاعتداء عليه كالمعاهدين والنساء والأطفال وكبار السن ومن كرس نفسه للعبادة؛ فدعت الضرورة لجمع ونشر أحاديث الرحمة مع غير المسلمين وبيان هدي النبي ﷺ وصحابته الكرام وأتباعهم من خلفاء الإسلام في الرحمة مع غير المسلمين، لحل الإشكالات الناتجة عن الجهل بها. يضاف لقلة المراجع والكتابات في الرحمة مع غير المسلمين أن هذا الموضوع لم يُفرد

بالبحث حتى في كتب السياسة الشرعية، ولا في الكتب المتعلقة بأحكام أهل الذمة على قتلها، و«إحدى الصعاب التي نلقاها هي أن معظم المؤرخين المسلمين كانوا قلما يعنون بشؤون الذميين»^(١).

ولذا يهدف هذا البحث إلى ما يلي:

- بيان المنهج النبوي في الرحمة مع غير المسلمين من خلال الأحاديث الواردة في كتب الحديث والسيرة النبوية.
- تطبيق منهج المحدثين في دراسة الموضوعات المتعلقة بالأحكام بالاعتماد على النصوص الحديثية، في مقابل المدارس الفقهية التي تعتمد بالإضافة لنصوص الكتاب والسنة على أصول أخرى تختلف من مذهب لآخر.
- تأصيل خلق الرحمة في التعامل مع غير المسلمين من خلال نصوص السنة.
- بيان الرحمة بالخلق في الإسلام من خلال الشعائر التعبدية والتكاليف الشرعية.

وقد قسمت هذا البحث إلى سبعة مباحث، وتضمن المبحث السابع ثلاثة مطالب. وقد جمعت في كل فصل منها أهم وأصح الأحاديث الواردة في الباب، ومع أن الكثير منها في الصحيحين إلا أنني عمدت لتخريجها من غيرهما من كتب السنن والمعاجم والمصنفات والمسانيد بقصد التيسير على من أراد التوسع في هذا البحث بالرجوع لشروح أهل العلم وكلام الفقهاء وأئمة الحديث، فيرجع لتلك الأحاديث في مصادرها. وإن لم يكن الحديث في الصحيحين أو أحدهما فإنني أبين درجته من كلام أهل العلم أئمة الحديث. وجاء تقسيم هذا البحث على النحو التالي:

(١) أهل الذمة في الإسلام، ترتون، ص ١٠.

المبحث الأول: عموم رحمة النبي ﷺ مع غير المسلمين.

المبحث الثاني: الرحمة مع غير المسلمين بالدعاء لهم.

المبحث الثالث: الرحمة مع غير المسلمين بإقامة العدل ومنع الظلم عنهم.

المبحث الرابع: الرحمة بالنساء والصبيان وكبار السن ورجال الدين غير المسلمين والنهي عن قتلهم.

المبحث الخامس: الرحمة بالمرضى من غير المسلمين، وعيادتهم، وتمني الخير لهم.

المبحث السادس: الرحمة بذوي القربي من غير المسلمين وصلة رحمهم.

المبحث السابع: الرحمة بالمعاهدين ومن في حكمهم، وفيه عدة مطالب.

المطلب الأول: حفظ أرواحهم، رحمة بهم.

المطلب الثاني: حفظ أموالهم رحمة بهم.

المطلب الثالث: عدم انتقاصهم، أو تكليفهم فوق طاقتهم رحمة بهم.

ثم ألحقت ذلك بالخاتمة ثم المراجع.

هذا وأسأل الله تعالى التوفيق والقبول، وأن يرحمنا ووالدينا برحمته، وأن يهدي المسلمين والعالمين أجمعين لاتباع هدي خير المرسلين، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.



المبحث الأول

عموم رحمة النبي ﷺ مع غير المسلمين

هنالك عدد من الأحاديث التي تفيد عموم رحمة النبي ﷺ مع المسلمين وغير المسلمين صغاراً وكباراً رجالاً ونساءً، وذلك من خلال دعوته للناس بأن يكونوا رحماء وأن يرحموا من في الأرض جميعاً لينالوا رحمة الله. ويبين النبي عليه أفضل الصلاة والسلام أن من لا يرحم يُحرم من رحمة الله. ويصرف النبي ﷺ انتباه الناس من الاتجاه السلبي الذي فيه تعدي على الآخرين من غير المسلمين بالفعل أو بالقول كاللعن إلى الاتجاه الإيجابي بالدعاء لهم رحمة بهم.

ومن أهم الأحاديث الواردة في هذا العموم ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(١) ويؤكد هذا المعنى الحديث الآخر الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من لا يرحم لا يُرحم»^(٢) ولذا نجد أن من أسماء النبي ﷺ نبي الرحمة، وما ذلك إلى لرحمته بأمتة، أمة

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٢٥٣٥٥)؛ وأحمد في مسنده (٦٥٤١)؛ والترمذي في سننه (١٩٢٤) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح؛ ورواه أبو داود في سننه (٤٩٤١)؛ والحاكم في المستدرک (٧٢٧٤)، قال الحاكم: وهذه الأحاديث كلها صحيحة وإنما استقصيت في أسانيدنا بذكر الصحابة رضي الله عنهم لئلا يتوهم متوهم أن الشيخين رضي الله عنهما لم يهملوا الأحاديث الصحيحة؛ والبيهقي في سننه (١٧٦٨٣)؛ وفي شعب الإيمان (١١٠٤٨). قال محقق المسند: إسناده حسن

(٢) رواه أحمد في مسنده (٧١٢١)؛ والبخاري في صحيحه (٥٦٥١)؛ ومسلم في صحيحه (٢٣١٨)؛ وأبو داود في سننه (٥٢١٨)؛ وابن حبان في صحيحه (٦٩٧٥).

الدعوة، قولاً وفِعْلاً، وفي ذلك يروي أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يُسمى نفسه أسماء، فقال: «أنا أحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة».^(١) وروي عن حذيفة مرفوعاً، بمثله.^(٢)

والرحمة صفة كمال في المخلوق يتعاطف بها الخلق، ويشفق القوي على الضعيف، فيحنو عليه بما ينفعه، ويمنع عنه شره، ويتوَادُّ بها بنو آدم، فالرحمة في الفطرة التي خلقها الله، وهي سلوك إيجابي يمنع المؤمن من الدعاء على المشركين موجهاً إياهم إلى الدعاء لهم وهو خلق لهذه الأمة هداهم له نبي هذه الأمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين. قال «إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة».^(٣)

ويبين الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمته الله هذا المعنى في الإسلام بقوله: إن الشريعة كلها مبنية على الرحمة في أصولها وفروعها، وفي الأمر بأداء الحقوق سواء كانت لله أو للخلق، فإن الله لم يكلف نفساً إلا وسعها، وإذا تدبرت ما شرع الله عز وجل في المعاملات والحقوق الزوجية وحقوق الوالدين والأقربين، والجيران، وسائر ما شرع وجدت ذلك كله مبنياً على الرحمة، ثم قال: لقد وسعت هذه الشريعة برحمتها وعدلها العدو والصديق، ولقد لجأ إلى حصنها الحصين الموفقون من الخلق.^(٤)



- (١) رواه أحمد في مسنده، (١٩٥٢٥)؛ ومسلم في صحيحه (٢٣٥٥)؛ والطبراني في المعجم الأوسط (٢٧١٦)؛ وأبو يعلى في مسنده، الجزء ١٣ الصفحة ١٧٦؛ وابن حبان في صحيحه، الجزء ١٤ الصفحة ٢٢٠؛ وانظر: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، للمتقي الهندي (١١ / ٤٦٢). وقال محقق صحيح ابن حبان: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
- (٢) رواه أحمد في مسنده (٢٣٤٩٢)؛ والبزار في مسنده، (٢٥٠٧).
- (٣) رواه مسلم في صحيحه (٢٥٩٩)؛ وأبو يعلى في مسنده (١١ / ٣٥).
- (٤) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة، لعبدالرحمن السعدي، ص. ٦١.

المبحث الثاني

الرحمة مع غير المسلمين بالدعاء لهم

كان النبي ﷺ رحمة للعالمين،^(١) ومن رحمته مع غير المسلمين ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه لما كسرت ربايعيته وشج وجهه في غزوة أحد شق ذلك على أصحابه، وقالوا: لو دعوت عليهم. فقال: إني لم أبعث لعاناً، ولكني بُعثت داعياً ورحمة»،^(٢) «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».^(٣) وإن كانت الزيادة في آخر هذا الحديث قد رويت مرسلة، إلا أن هنالك أحاديث أخرى قد دعا فيها النبي ﷺ بالهداية لقومه ولغيرهم من غير المسلمين، ومن ذلك: ما رواه سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».^(٤) قال الطحاوي: ففي هذا الحديث استغفاره ﷺ لقومه الذين لا يعلمون، وهم الذين لم يؤمنوا به ولم يصدقوه.^(٥)

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم

- (١) رحمة للعالمين، لمحمد المنصورفوري، ص ١٢٣. وهذا الكتاب من ثلاثة مجلدات حول كون النبي ﷺ رحمة للعالمين.
- (٢) سبق تخريجه؛ وانظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، (١/ ٢٥١-٢٥٦).
- (٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٦٤/٢)، رقم (١٤٤٧) وقال: مرسل.
- (٤) رواه مسلم في صحيحه (١٧٩٢)؛ وأبو بكر ابن الضحاك في الأحاد والمثاني (٢٠٩٦)؛ وابن حبان في صحيحه (٩٧٣)، قال ابن حبان: يعني هذا الدعاء أن قال يوم أحد لما شج وجهه قال: (اللهم اغفر لقومي) ذنبهم بي من الشج لوجهي، لا أنه دعاء للكفار بالمغفرة؛ ورواه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٤٨)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٥٦٩٤). قال محقق صحيح ابن حبان: إسناده حسن.
- (٥) مشكل الآثار، للطحاوي (٢٠٧٢).

أحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه، على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن دوساً عصت وأبت، فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس، قال: «اللهم اهد دوساً وأت بهم»^(٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنهم قالوا: يا رسول الله، أحرقتنا نبال ثقيف، فادع الله عليهم. فقال: «اللهم اهد ثقيفاً»^(٣).

وكان هدي الصحابة رضي الله عنهم متابعاً لهدي النبي عليه الصلاة والسلام في الحرص على هداية غير المسلمين والدعاء لهم بذلك، خاصة الأقارب منهم، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: كنت أدعو أمة إلى الإسلام وهي

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣٠٥٩)؛ ومسلم في صحيحه (١٧٩٥)؛ وأبو عوانه في مستخرجه (٩٣/٨)؛ والطبراني في المعجم الأوسط (٣٧٠/٨)؛ والنسائي في السنن الكبرى (٤٠٥/٤)؛ وابن حبان في صحيحه (٥١٦/١٤)؛ وانظر: أخبار مكة، للفاكهي، (١٣٧/٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣١٢/١٦)؛ والبخاري في صحيحه (٤١٣١)، وفي الأدب المفرد (٢١٤/١)؛ ومسلم (٢٥٢٤)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٣٢٧/٨)؛ والحميدي في مسنده (٤٥٣/٢)؛ وابن حبان في صحيحه (٢٥٩/٣)؛ ورواه البيهقي في معرفة السنن والآثار (٤٨/١)؛ وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١٧٤/١١). قال محقق صحيح ابن حبان: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٤١٣/٦)، (٤١١/٧)؛ والترمذي في سننه (٤٠٤٨)؛ وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

مشركة. فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره. فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي. قلت: يا رسول الله، إني كنت أدعو أُمي إلى الإسلام فتأبى علي. فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره. فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة» فخرجت مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ. فلما جئت فصرت إلى الباب. فإذا هو مجاف، فسمعت أُمي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء. قال فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح. قال قلت: يا رسول الله، أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة. فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً^(١).



(١) رواه أحمد في مسنده (٨٢٥٩)؛ ومسلم (٢٤٩١)؛ وابن حبان في صحيحه (١٠٧/١٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن على شرط مسلم؛ ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٤٠/٢٥)؛ وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٣٣٠/١٣).

المبحث الثالث

الرحمة مع غير المسلمين بإقامة العدل ومنع الظلم عنهم

من كمال الرحمة، عدم الظلم، وإقامة العدل، ولذا يبين النبي ﷺ رحمة الله تعالى بالمظلوم وأن دعوته مستجابة سواء كان مسلماً أو غير مسلم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنه ليس دونها حجاب».^(١) ومثل ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال قال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».^(٢) فدعاء غير المسلم قد يستجاب، وخاصة المظلوم. قال ابن تيمية: والخلق كلهم يسألون الله مؤمنهم وكافرهم، وقد يجيب الله دعاء الكفار، فإن الكفار يسألون الله الرزق فيرزقهم ويسقيهم، وإذا مسهم الضر في البحر ضل من يدعون إلا إياه فلما نجاهم إلى البر أعرضوا وكان الإنسان كفوراً.^(٣)

(١) رواه أحمد في مسنده (١٢٥٧١): قال الهيثمي (١٥٢/١٠): فيه أبو عبد الله الأسدي، لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح. ورواه أبو يعلى (كما في إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري ٤٣٧/٨، رقم ٨٢٤٦)، والضياء (٢٩٣/٧، رقم ٢٧٤٨): والطبراني في الدعاء (٤١٦/٣، رقم ١٣٢١). وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: حسن، وله شاهد بلفظ: دعوة المظلوم مستجابة وإن كان كافراً؛ ففجوره على نفسه، انظر السلسلة الصحيحة (٧٦٧). قال محقق مسند أحمد: إسناده ضعيف.

(٢) رواه الترمذي في سننه (٢٠١٤)، قال أبو عيسى: وفي الباب عن أنس وأبي هريرة وعبد الله بن عمر وأبي سعيد وهذا حديث حسن صحيح.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٠٦/١).

وتفسير إجابة الله تعالى لدعاء المظلوم بغض النظر عن دينه واستقامته، تبينه الرواية التي أوردتها الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال: «دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه»^(١) قال ابن تيمية: وأما إجابة السائلين فعامٌ، فإن الله يجيب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وإن كان كافراً^(٢).



- (١) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة (٨٧٨١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والبخاري بنحوه وإسناده حسن. وقال ابن حجر في فتح الباري: إسناده حسن. انظر: فتح الباري ٣/٣٦٠. قال المباركفوري: قال المناوي في التيسير: إسناده صحيح (٢٠١٤). وكذلك الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٢٩)، وانظر صحيح الجامع (٣٣٨٢).
- (٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢٢٣/١).

المبحث الرابع

الرحمة بالنساء والصبيان وكبار السن ورجال الدين غير المسلمين والنهي عن قتلهم

تتأكد الرحمة بالنساء والصبيان وكبار السن وذلك لضعفهم وقلة حيلتهم وكذلك رجال الدين من غير المسلمين لانصرافهم عن أمور الدنيا وتكريس حياتهم لخدمة الآخرين. عن ابن عمر رضي الله عنهما أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة، «فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان»^(١). وقتل النفس من أشد أنواع القسوة، ولذا كان من رحمة النبي ﷺ بالنساء والصبيان وكبار السن نهيه عن التعدي عليهم بالقتل، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيشاً قال: «انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين»^(٢).

وسار على هدي النبي ﷺ صحابته الكرام من بعده عليهم الرضوان، فعن أبي عمران الجوني: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعث يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه إلى

(١) رواه أحمد في مسنده (٦٠٢٨)؛ والبخاري في صحيحه (٢٨٥١)، (٢٨٥٢)؛ ومسلم في صحيحه (١٧٤٤)؛ وأبو داود في سننه (٢٦٧٠)؛ والترمذي في سننه (١٥٦٩) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم وكرهوا قتل النساء والولدان وهو قول سفيان الثوري والشافعي.

(٢) رواه أبو داود في سننه (٢٦١٤)؛ والبيهقي في السنن الكبرى (١٧٩٣٢)، (١٨٦١٧). والحديث وضعفه الألباني كما في ضعيف سنن أبي داود (٤٥٠)، قال إسناده ضعيف، لجهالة ابن الفرز.

الشام فمشى معه يشيعه، فقال له يزيد: إنى أكره أن تكون ماشياً وأنا راكب. فقال الصديق: إنك خرجت غازياً فى سبيل الله وإنى أحسب فى مشيى هذا معك. ثم أوصاه الصديق فقال: «لا تقتلوا صبياً، ولا امرأة، ولا شيخاً، كبيراً، ولا مريضاً، ولا راهباً، ولا تقطعوا مثمراً، ولا تخربوا عامراً، ولا تذبحوا بغيراً، ولا بقرة إلا للمأكل، ولا تفرقوا نحلاً، ولا تحرقوه».(١)

ويؤكد أبو بكر الصديق رضي الله عنه على عدم التعدي على من نذروا أنفسهم للعبادة وتفرغوا لذلك ولم يتعرضوا للناس بالأذى، فعن ثابت بن الحجاج الكلابي قال: قام أبو بكر في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ألا لا يُقتل الراهب في الصومعة».(٢)



(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٧٥٩١)، وبوب له: باب ترك قتل من لا قتال فيه من الرهبان والكبير وغيرهما. قال البيهقي: وقد روي في ذلك عن النبي ﷺ.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦٥٥ / ٧).

المبحث الخامس

الرحمة بالمرضى من غير المسلمين، وعيادتهم، وتمني الخير لهم

الرحمة مع غير المسلمين تتضمن زيارتهم في حال مرضهم، وتفقدهم والسعي في مصلحتهم، ويتأكد ذلك مع الأقربين منهم، وهم الأقارب والجيران فمن دونهم. ومن أشهر ما يروى في ذلك زيارة النبي ﷺ لعمه أبي طالب في مرض موته، حيث روي أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال: «أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية أترغب عن ملة عبدالمطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم على ملة عبدالمطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله، قال قال رسول الله ﷺ «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك». فأنزل الله تعالى ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ١١٣] وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦].^(١)

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٣٧٢٤)؛ والبخاري في صحيحه (٦٣٠٣)؛ ومسلم في صحيحه (١٤١)؛ والنسائي في سننه (٢٠٣٤)؛ وفي السنن الكبرى (١١٣٨٣)؛ والطبراني في مسند الشاميين (٣٠٣٣)؛ وابن حبان في صحيحه (٩٨٢)؛ والحاكم في المستدرک (٣٢٩١) قال أبو عبد الله الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه فإن يونس وعقيلاً أرسلاه عن الزهري عن سعيد. وقال الذهبي في تعليقه على المستدرک: صحيح. وأبو بكر بن الضحاک في الأحاد والمثاني (٧٢٠).

ومن الأحاديث في هذا الباب والتي تبين رحمة النبي عليه الصلاة والسلام بجاره اليهودي وزيارته حال مرضه ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلم». فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم، فأسلم. فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار». (١)

وقد سئل الإمام أحمد عن رجل له قرابة نصراني: يعوده؟ قال: نعم. وسئل: يعود الرجل اليهود والنصارى؟ قال: أليس عاد النبي صلى الله عليه وسلم اليهودي، ودعاه إلى الإسلام؟ (٢)



(١) رواه أحمد في مسنده (١٣٩٧٧)؛ والبخاري في صحيحه (١٢٩٠)؛ وأبو داود في سننه (٣٠٩٥).

(٢) أحكام أهل الذمة، (١/ ٢٠٠).

المبحث السادس

الرحمة بذوي القربي من غير المسلمين وصلة رحمهم

الرحم من الرحمن والرحم وشيخة توجب الرحمة، وهي موصولة بالعرش من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعها الله، ولهذا كانت صلة الرحم من الأخلاق التي دعا النبي ﷺ للتحلي بها مع المسلم وغير المسلم من الأقارب، ونجد الصحابة رضِيَ اللهُ عنهم يلتزمون بهذا الهدي النبوي، فهذه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تحكي فتقول: «قدمت عليَّ أُمِّي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ ومدته مع أبيها فاستفتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أُمِّي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم، صليها»^(١).

وتتضمن الصلة والتراحم بين الأقارب الزيارة والهدية، فعن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى حلة سبراء^(٢) عند باب المسجد فقال: يا رسول الله، لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة وللوفد إذا قدموا عليك، فقال رسول الله ﷺ: «إنما يلبس هذه من لا خلاق له في الآخرة»، ثم جاءت

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٧٠٣٩)، (٢٧٠٤٠)، (٢٦٩٨٤)، (٢٦٩٨٥)؛ والبخاري في صحيحه (٢٤٢٧)، (٥٦٣٤)، (٣٠١٢)، (٥٩٧٨)، (٥٩٧٩)؛ ومسلم في صحيحه (١٠٠٣)؛ وأبو داود في سننه (١٦٦٨)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٨٥/٢٤).

(٢) حلة سبراء: روي بالإضافة كما يقال: ثوب حرير وعن بعضهم بالتوين على الصفة أو البديل. والحلة ثوبان إزار ورداء والسبراء قال في النهاية بكسر السين وفتح الياء نوع من البز يخالطه حرير كالسيور أي الخطوط، أو شرحة بعضهم بالحرير الخالص، كذا ذكره السيوطي في شرح سنن ابن ماجه.

رسول الله ﷺ منها حلل، فأعطى منها عمر منها حلة. فقال عمر: يا رسول الله، كسوتنيها وقد قلت في حلة عطارد^(١) ما قلت! قال رسول الله ﷺ: «إني لم أكسكها لتلبسها»، فكساها عمر بن الخطاب أخاً له^(٢) بمكة مشركاً^(٣). يقوم الإمام النووي معلّقاً على هذا الموقف: «وفي هذا دليلٌ لجواز صلة الأقارب الكفار والإحسان إليهم، وجواز الهدية إلى الكفار»^(٤).

وتتعدى الصلة والرحمة للقريب غير المسلم لتشمل دائرة أوسع لمن كان له قرابة مع قوم من غير المسلمين. وقد أوصى النبي ﷺ بالقبض خيراً، روى أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبض خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً»^(٥). قال النووي: وفي رواية «ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، وفيها: فإن لهم ذمة ورحماً»، وفي رواية «وصهراً»^(٦). أما الذمة فهي الحرمة والحق وهي هنا بمعنى الذمام، وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم^(٧).



- (١) عطارد بضم العين وكسر الراء، ابن حاجب بن زرارة بن عدي التميمي الدارمي. وفد في بني تميم وأسلم وحسن إسلامه وله صحبة وهو صاحب الحلة السيرة كذا في الإصابة (الترجمة ١٣٦٣، ج ١، ص ٦٥٦).
- (٢) عثمان بن عبد حكيم، وهو أخو عمر من أمه، ومُخْتَلَفٌ في إسلامه بعد ذلك، انظر: فتح الباري (١/ ٣٣١).
- (٣) رواه مالك في الموطأ (١٤٣٢)؛ وأحمد في مسنده (٥١٢٥)، (٥٣٦٤)، (٥٧٩٧)؛ والبخاري في صحيحه (٩٠٦)، (١٩٩٨)، (٢٤٧٠)، (٢٤٧٦)، (٥٩٨١)؛ ومسلم في صحيحه (٢٠٦٨)؛ وأبو داود في سننه (١٠٧٦)، (٤٠٤٢)؛ والنسائي في سننه (١٣٨١)، (٥٢٩٥)، (٥٣١٠)؛ وفي السنن الكبرى (٩٥٧١)، (٩٥٧٢).
- (٤) النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٤ / ٣٩.
- (٥) رواه أحمد في مسنده (١٧٤/٥)؛ ومسلم في صحيحه (٢٥٤٣)؛ والحاكم (٦٠٣ / ٢)، رقم ٤٠٣٢ وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (المستدرک ٢ / ٥٥٣)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٧٤)؛ ورواه الطبراني في المعجم الكبير (٦١ / ١٩) رقم ١١١، قال الهيتمي (٦٣ / ١٠)؛ رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح.
- (٦) رواه أحمد في مسنده (٢١٥٦٠)؛ ومسلم في صحيحه (٢٥٤٣)؛ وابن حبان في صحيحه (٦٦٧٦).
- (٧) شرح صحيح مسلم، للنووي (٩٧ / ١٦).

المبحث السابع الرحمة بالمعاهدين ومن في حكمهم

وفيه عدة مطالب

خص النبي ﷺ المعاهدين بمزيد من الأحكام التي توحى بمزيد من التعاطف والرحمة معهم، ابتداء بحفظ أرواحهم، وحفظ أموالهم إلى النهي عن انتقاصهم أو تكليفهم فوق طاقتهم. وفي دراسة موسعة عن أحكام أهل الذمة كتبها المستشرق ترتون أشار لرحمة تشريعات الإسلام بالمعاهدين بقوله: يصير الإسلام على وجوب اصطناع الرفق مع الشعوب المغلوبة على أمرها، ويوصي بحسن معاملتها والتزام العدل معها.⁽¹⁾

المطلب الأول

حفظ أرواحهم، رحمة بهم

يعد قتل النفس أشد أنواع التعدي والقسوة، ولذا نهى النبي ﷺ عنه أشد النهي وحرمه أشد التحريم، روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً».⁽²⁾

(1) أهل الذمة في الإسلام، ترتون، ص ١٥٧.

(2) رواه أحمد في مسنده (٦٧٤٥)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح؛ والبخاري (٢٩٩٥)؛ وابن ماجة في سننه (٢٦٨٦)؛ والنسائي في سننه (٤٧٥٠)؛ وفي السنن الكبرى (٨٧٤٣)، (٨٧٤٤)؛

وفي النصوص الصحيحة غنية عن النصوص غير الصحيحة والمحرفة، فالحديث الصحيح السابق فيه من النهي الصريح عن قتل أهل الذمة المعاهدين ما يعني عن كل قول، ومع ذلك يحرف بعض المستشرقين ومن سار على نهجهم نصوص الشريعة ابتغاء ما فيه حماية لأهل الذمة. ونجد على سبيل المثال ترتون يستدل بنص عن الخليفة أبي بكر الصديق لا يتعلق بأهل الذمة ويحرفه ليستدل به على معاملة أهل الذمة في الإسلام فيقول: وقال أبو بكر: «لا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته، فيكذبك الله على وجهك في النار».^(١) والصحيح أن هذا النص ليس عن أهل الذمة، ففي الطبقات لابن سعد: «واعلم أنه من صلى الصلوات الخمس يصبح في ذمة الله، ويمسي في ذمة الله، فلا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله».^(٢) كما يرويه البلاذري بسنده قال: عن سلمان رضي الله عنه قال: أوصاني أبو بكر رضي الله عنه فقال: «يا سلمان إنه ستكون فتوح فلا يكونن حظك منها ما جعلته في بطنك وألقيته على ظهرك، واعلم أنه من صلى الخمس فإنه يصبح في ذمة الله، فلا يقتلن أحداً من أهل ذمة الله فيطلبك الله بذمته، فيكذبك الله على وجهك في النار».^(٣) ونجد من الباحثين من ينقل عن ترتون هذا النص دون تحقق! وديدن الكتاب الغربيين عند الكتابة في الدراسات الإسلامية أنهم يخطؤون عن سوء فهم أو عن سوء قصد، خصوصاً المستشرقين منهم إلى قرابة نهاية السبعينات من القرن العشرين (١٩٧٠م)، فلا يعتمد على نقلهم ولا على فهمهم للإسلام ومسائله.^(٤)

(١) أهل الذمة في الإسلام، ترتون، ص ١٥٧. ونجد أن ترتون يحيل النص إلى الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣/ ١٢٢).

(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد، (٣/ ١٧٧).

(٣) جمل من أنساب الأشراف، للبلاذري، (١٠/ ٨١). كنز العمال، للمتقي الهندي (٤٤٣٥٧) (مسند الصديق رضي الله عنه) (١٦/ ٢٥٦). يرويه بالنص السابق ويحيله إلى (حم في الزهد، وابن سعد وحشيش ابن أصرم في الاستقامة).

(٤) تبين أن المدارس الاستشراقية وحتى نهاية فترة يوسف شاخت (ت: ١٩٦٩) حيث بدأ عدد من المستشرقين بانتقاد مدرسة شاخت، وصارت الدراسات الغربية لعلم الحديث أكثر موضوعية =



المطلب الثاني حفظ أموالهم رحمة بهم

لا تقتصر الرحمة على حفظ المعاهدين من التعدي البدني عليهم ولكن يشمل النهي عن التعدي على أموالهم، بل يتجاوز النهي عن التعدي على أموالهم إلى الإحسان إليهم حال حاجتهم وكبر سنهم وعجزهم وليس ذلك بعدم أخذ الزكاة منهم بل بإعطائهم من بيت مال المسلمين لسد حاجتهم وعوزهم.

وحديث النبي ﷺ صريح في النهي عن التعدي على أموال المعاهدين، روى خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: غزوت مع رسول الله ﷺ خيبر فأنت اليهود فشكوا أن الناس قد أسرعوا إلى حظائرهم فقال رسول الله ﷺ: «ألا لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها»^(١).

وأما الإحسان إلى المعاهدين ومن في حكمهم حال حاجتهم فقد روي عن الصحابة ما تعلموه من النبي ﷺ في معاملة المعاهدين، ومن ذلك ما روى عمر بن نافع عن أبي بكر قال: مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل، شيخ كبير ضير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية، والحاجة والسن. قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل. ثم أرسل إلى خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضرباه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم: **﴿إِنَّمَا**

= وبعيدة عن الانتقادات التي ليس لها مستند. وللتوسع في مدارس المستشرقين ومواقفهم من السنة النبوية، انظر: الحمودي، فهد. نقد نظرية المدار. الفصل الأول. الطبعة الأولى، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٤.

(١) رواه أحمد في مسنده (١٦٣٧٥)، (١٦٣٧٧)، (١٦٨١٨)؛ وأبو داود في سننه (٣٧٩٤)، (٣٨٠٦)؛ وأبو بكر بن الضحك في الأحاد والمثاني (٧٠٣)؛ والطبراني في المعجم الكبير (٣٨٢٧). والحديث ضعفه الألباني، كما في السلسلة الضعيفة (٣٩٠٢).

الصَّدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴿ [التوبة: 60]، والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه. قال: قال أبو بكر: أنا شهدت ذلك من عمر ورأيت ذلك الشيخ. (1)

ولم تقتصر معاملة المعاهدين بالإحسان بل تبعهم في ذلك التابعين فقد روي نحو ذلك عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. قال أبو عبيد حدثنا محمد بن كثير عن أبي رجاء الخراساني عن جسر (بن فرقد القصاب) قال شهدت كتاب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدي بن أرطاة قرئ علينا بالبصرة: أما بعد... ثم انظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعت قوته وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه... (2)

المطلب الثالث

عدم انتقاصهم، أو تكليفهم فوق طاقتهم رحمة بهم

تبين في المطلبين السابقين رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بالمعاهدين في حفظهم من الجانب البدني والجانب المالي، وفي هذا المطلب نتناول رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بالمعاهدين في جوانب أخرى متعددة حتى الجانب النفسي بعدم انتقاصهم. وهذا ما سار عليه الصحابة رضي الله عنهم من بعده، وتبعهم التابعون وخلفاء الإسلام. روى عدة من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم دنية، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقتة، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة». (3)

(1) الخراج، لأبي يوسف (126)، قال أبو يوسف: حدثني عمر بن نافع عن أبي بكر قال مرّ عمر... الحديث. وعمر بن نافع الكوفي وأبو بكر صلة بن زفر العبسي الكوفي كلاهما ثقة وأبو بكر أدرك كبار الصحابة، والحديث صحيح الإسناد. وانظر: أحكام أهل الذمة، لابن القيم، (1/ 27-28).

الأموال، لأبي عبيد، ص 45، الحديث 119.

(2) أحكام أهل الذمة، لابن القيم، (1/ 27-28).

(3) رواه أبو داود (3052)، والبيهقي في سننه الكبرى (18511)؛ وقال الألباني في صحيح الجامع: صحيح (2655).

وهدي النبي ﷺ سار عليه الصحابة رضي الله عنهم، فمما رواه حصين بن عمرو ابن ميمون عن عمر رضي الله عنه أنه قال عند وفاته «أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم». (١)

وفي وصية أبي يوسف فيما ينبغي أن يكون عليه الخليفة وولي أمر المسلمين، قال أبو يوسف للخليفة هارون الرشيد: «وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتقدم لهم حتى لا يُظلموا ولا يُؤذوا ولا يُكلفوا فوق طاقتهم ولا يُؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم». (٢)



(١) الخراج، لأبي يوسف، ١٢٤. والحديث في البخاري (٢٨٨٧)، (٢٩٩١)، (٣٤٩٧)، (٤٦٠٦)، (٦٨٩٧).

(٢) الخراج، لأبي يوسف، ١٢٤.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبي الرحمة نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، أما بعد: عرض هذا البحث موضوعاً يلزم بيانه ونشره بين المسلمين وغير المسلمين في هذا الزمن الذي تعددت وتتنوعت فيه الفتن، وكثر فيه القتل والقتال بين الدول والطوائف والأفراد. فكانت الإشارة للأحاديث النبوية في الرحمة مع غير المسلمين ضرورة في هذه الأزمان لبيان أن النبي عليه الصلاة والسلام كان نبي الرحمة، وأنه بعث هادياً ورحمة للناس أجمعين.

وبيّن هذا البحث أن النبي ﷺ كان يدعو للمسلمين وغير المسلمين بالهداية رحمة بهم، حتى مع كون بعضهم عاداه وحاربه وآذاه، فلم يكن رده عليهم ما طلبه بعض الصحابة أن يدعو عليهم بالهلاك، بل بيّن أنه نبي الرحمة ودعا لهم بالهداية وحرص على ما ينفعهم.

كان حرص النبي ﷺ على ذوي القربى والجيران، وخص كبار السن والنساء والأطفال ومن نذر نفسه للعبادة، خصهم بالتتويه بأن لا يعتدى عليهم. ونهى عن الاعتداء على المعاهدين في أرواحهم، أو أموالهم، أو ظلمهم أو انتقاصهم.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا اتباع هدي نبينا، وأن يعينا على نشر سنته،

وأن يهدي الناس أجمعين لدين خير المرسلين، وآخر دعوانا أن الحمد
للَّهِ رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين.



فهرس المصادر والمراجع:

١. الإسفراييني، أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (ت: ٣١٦). مسند. بيروت: دار الكتب العلمية. أربعة أجزاء.
٢. الأصبحي، مالك بن أنس (ت: ١٧٩). الموطأ. تحقيق عبد الباقي، محمد فؤاد. دمشق: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٨٥، عدد المجلدات ٢.
٣. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت: ٤٣٠). معرفة الصحابة. تحقيق العزازي، عادل بن يوسف. الرياض: دار الوطن للنشر، ١٩٩٨، الطبعة الأولى، سبعة أجزاء.
٤. الألباني، محمد ناصر الدين (ت: ١٤٢١). سلسلة الأحاديث الصحيحة. بيروت: المكتبة الإسلامية. ستة أجزاء، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٥. الألباني. صحيح الترغيب والترهيب. الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠، الطبعة الأولى، ٣ أجزاء.
٦. الألباني. صحيح الجامع الصغير وزيادته. بيروت: المكتب الإسلامي. أشرف على طبعه الشاويش، زهير. جزءان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٧. البخاري، أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت: ٢٥٦). الأدب المفرد. بيروت: دار البشائر الإسلامية. تحقيق عبد الباقي، محمد فؤاد. الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩.
٨. البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق (ت: ٢٩٢). مسند المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم. تحقيق زين الله، محفوظ الرحمن زين الله (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩)، وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)، وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨).



- ثمانية عشر جزءاً، الطبعة الأولى، بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م.
٩. البستي، أبو حاتم محمد بن حبان (ت: ٣٥٤). صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. تحقيق الأرنبوط، شعيب. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣، الطبعة الثانية، عدد الأجزاء ١٨.
١٠. البخاري. الجامع الصحيح وهو صحيح البخاري. انظر فتح الباري، لابن حجر العسقلاني.
١١. البلاذري، أحمد بن يحيى (ت: ٢٧٩). جمل من أنساب الأشراف. تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي. بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م. الطبعة الأولى، ١٣ جزءاً.
١٢. البوصيري، أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل (ت: ٨٤٠). إتحاف الخيرة المهرة. الرياض: دار الوطن. الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
١٣. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت: ٤٥٨). السنن الكبرى. وفي ذيله الجوهر النقي لابن التركماني، ويليهِ فهرس الأحاديث من إعداد المرعشلي، يوسف. بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٢، الطبعة الأولى، عشرة أجزاء.
١٤. البيهقي. شعب الإيمان. الرياض: مكتبة الرشد. تحقيق الندوي، مختار. أربعة عشر جزءاً، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
١٥. البيهقي. معرفة السنن والآثار. كراتشي: جامعة الدراسات الإسلامية. تحقيق قلعجي، عبدالمعطي أمين.
١٦. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت: ٢٩٧). الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي. تحقيق وشرح شاكر، أحمد محمد. بيروت: دار الكتب العالمية، ١٩٨٧، الطبعة الأولى، خمسة أجزاء.
١٧. ترتون، أ. س. أهل الذمة في الإسلام. ترجمة وتعليق حبشي، حسن. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧.

- ١٨ . الحاكم، أبو عبد الله النيسابوري (ت: ٤٦٣). المستدرک علی الصحیحین . بيروت: دار المعرفة. وبذيله التلخیص للذهبي، بإشراف المرعشلي، يوسف. أربعة أجزاء، دون ذكر رقم الطبعة، دون ذكر التاريخ.
- ١٩ . الحراني، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة (ت: ٧٢٨). مجموع الفتاوى. تحقيق القاسم، عبد الرحمن بن محمد. المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٩٩٥.
- ٢٠ . الحميدي، أبو بكر عبد الله بن الزبير (ت: ٢١٩). مسند الحميدي. حقق نصوصه وخرج أحاديثه أسد، حسن سليم. دمشق: دار السقا، ١٩٩٦، الطبعة الأولى، جزءان.
- ٢١ . السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي (ت: ٢٧٥). سنن أبي داود. إعداد الدعاس، عزت عبيد وعادل السيد. بيروت: دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٦٩، الطبعة الأولى، خمسة أجزاء.
- ٢٢ . ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت: ٢٣٠). الطبقات الكبرى. بيروت: دار صادر. ٩ أجزاء، دون ذكر رقم الطبعة، دون ذكر تاريخ الطبع.
- ٢٣ . السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (ت: ١٣٥٦). الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة (المجموعة الكاملة). عنيزة: مركز صالح بن صالح الثقافي، ١٤١٤هـ. الطبعة الأولى.
- ٢٤ . ابن سلام أبو عبيد القاسم (ت: ٢٢٤). الأموال. تحقيق عمارة، محمد. القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٩.
- ٢٥ . السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال (ت: ٩١١). مصباح الزجاجة شرح سنن ابن ماجة. كراتشي: قديمي كتب خانة، دن، د. ط.



٢٦. الشيباني، أبو عبدالله أحمد بن محمد ابن حنبل (ت: ٢٤١). المسند. القاهرة: مؤسسة قرطبة. د. ط. د. ت.، ستة أجزاء.
٢٧. الشيباني. المسند. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩، الطبعة الثانية، ٥٠ جزءاً.
٢٨. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد العبسي (ت: ٢٣٥). المصنف. بومباي: الدار السلفية. حققه الأعظمي، عامر. خمسة عشر جزءاً، دون ذكر رقم الطبعة، دون ذكر تاريخ الطبع.
٢٩. الضحاك، أبو بكر أحمد بن عمرو الشيباني (ت: ٢٨٧). الآحاد والمثاني. تحقيق الجوابرة، باسم فيصل. الرياض، دار الراجعية، ١٩٩١، الطبعة الأولى، عدد الأجزاء ٦.
٣٠. الطبراني، سليمان بن أحمد (ت: ٢٦٠). مسند الشاميين. تحقيق السلفي، حمدي بن عبدالمجيد. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤، الطبعة الأولى، ٤ أجزاء.
٣١. الطبراني. المعجم الأوسط. تحقيق الحسيني، طارق. القاهرة: دار الحرمين، ١٤١٥، الطبعة الأولى، عشرة أجزاء.
٣٢. الطبراني. المعجم الكبير. الموصل: مكتبة العلوم والحكم. تحقيق السلفي، حمدي بن عبدالمجيد. عشرون جزءاً، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ - ١٩٨٣.
٣٣. الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة (ت: ٣٢١). شرح مشكل الآثار. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤، الطبعة الأولى، ستة عشر جزءاً.
٣٤. العسقلاني، أحمد بن علي ابن حجر (ت: ٨٥٢). إتحاف المهرة. تحقيق مركز خدمة السنة والسيرة، بإشراف الناصر، زهير بن ناصر. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

- ومركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالمدينة، ١٩٩٤، الطبعة الأولى، تسعة عشر جزءاً.
٣٥. الطبراني. المعجم الصغير. بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٥، الطبعة الأولى، جزءان.
٣٦. العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٢٨، الطبعة الأولى، ٤ أجزاء.
٣٧. العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. رقمه عبد الباقي، محمد فؤاد، وقام بإخراجه وراجع تجاربه محب الدين الخطيب. القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٦، الطبعة الأولى، ثلاثة عشر جزءاً.
٣٨. الفاكهي، محمد بن إسحاق بن العباس (ت: ٢٨٠). أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه. تحقيق ابن دهيش، عبد الملك. بيروت: دار خضر للطباعة والنشر، ١٩٩٤، الطبعة الثانية، عدد المجلدات: ستة.
٣٩. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت: ٧٥١). أحكام أهل الذمة. حققه وعلق حواشيه صبحي الصالح. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٣. الطبعة الثالثة.
٤٠. ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٥). سنن ابن ماجة. بيروت: دار إحياء الكتب العربية، تحقيق عبد الباقي، محمد فؤاد. جزءان، دون ذكر رقم الطبعة، دون ذكر تاريخ الطبع.
٤١. المتقي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت: ٩٧٥). كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. تحقيق: حياني، بكري حياني وصفوة السقا. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١، الطبعة الخامسة، خمسة عشر جزءاً.
٤٢. المباركفوري، أبو العلا محمد بن عبدالرحمن (ت: ١٣٥٢). تحفة



- الأحوذى بشرح جامع الترمذي. بيروت: دار الكتب العالمية، ١٩٩٠،
الطبعة الأولى، ١٠ أجزاء.
٤٣. المنصور فوري، محمد سليمان (ت: ١٣٤٨). رحمة للعالمين. بومباي:
الدار السلفية، ١٩٨٩، الطبعة الأولى، ٣ أجزاء.
٤٤. الموصلى، أبو يعلى أحمد بن علي. مسند أبي يعلى (ت: ٣٠٧).
تحقيق أسد، حسين. دمشق: دار المأمون للتراث، ١٩٨٤، الطبعة
الأولى. ثلاثة عشر جزءاً.
٤٥. النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب (ت: ٣٠٣). السنن
الكبرى. تحقيق البنداري، عبدالغفار وسيد حسن. بيروت: دار
الكتب العلمية، ١٩٩١، الطبعة الأولى، ستة أجزاء.
٤٦. النسائي. سنن النسائي. اعتنى به ورقمه وصنع فهرسه أبو غدة،
عبدالفتاح. بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٩٨٨، الطبعة الأولى،
تسعة أجزاء.
٤٧. النيسابوري، مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١). صحيح مسلم بشرح
النووي. إعداد مجموعة أساتذة مختصين بإشراف أبو الخير،
علي. بيروت: دار الخير، ١٩٩٤، الطبعة الأولى، ثمانية عشر جزءاً.
٤٨. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر (ت: ٨٠٧). مجمع الزوائد ومنبع
الفوائد. بتحريه الحافظين العراقي وابن حجر. بيروت: مؤسسة
المعارف للطباعة والنشر، ١٩٨٦، الطبعة الأولى، عشرة أجزاء.
٤٩. اليحصبي، القاضي عياض (ت: ٥٤٤). الشفا بتعريف حقوق
المصطفى. عمان: مكتبة الفارابي، ١٩٨٦. الطبعة الثانية، جزءان.
٥٠. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت: ١٨٣). الخراج. بيروت: دار
المعرفة، ١٩٧٩، الطبعة الأولى.



تجليات قيم الرحمة في الإسلام من خلال سير الصحابة رضي الله عنهم، وتطبيقاتها العملية

إعداد:
د. الحسن البربوشي



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛ فإن الله تعالى، حين اختار نبيه محمداً ﷺ، لتبليغ رسالته؛ اختار له أصحاباً على شاكلته عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، عاشوا تحت راية نبيهم سعداء وماتوا صديقين وشهداء.

فالصحابة رضي الله عنهم، هم حملة الإسلام وحفظته بعد رسول الله ﷺ، اختارهم الله واصطفاهم لصحبة نبيه ﷺ، ونشر رسالته من بعده. عدلهم وزكاهم ووصفهم بأوصاف الكمال في غير ما آية من كتاب الله، فقال تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا بِدِيلًا ۗ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال عز وجل: ﴿رِجَالٌ لَا لِيَهُمْ بَئْرَةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۗ﴾ [النور: ٣٧].

وأثنى رسول الله ﷺ، على منزلتهم فقال، كما في صحيح البخاري: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»^(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه،، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً، رقم: ٢٤٧٠.

قال الحسن البصري: «من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ؛ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما، وأقلها تكلفا وأقومها هديا وأحسنها حالا، قوم اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»^(١). ومن هنا كان لزاما علينا معرفة أخبارهم وسيرهم، ونشرها بين المسلمين عظة وذكرى لمن يريد أن يتعظ، فهم مثال يحتذى ونبراس يقتدى، ليعرف المتأخر للمتقدم فضله ويسعى على دربه ونهجه، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان، والقرى بالجهاد بالسيف والسنان.

ومن القيم السامية التي تعلمها الصحابة من نبيهم ﷺ، وعملوا بها وتمثلوها في حياتهم، أفرادا وجماعات، أحسن تمثيل: قيم الرحمة، فكما كان الرسول ﷺ، أرحم الناس، وأرسله الله رحمة للعالمين، فدعا الناس إلى الإسلام بأخلاقه وتصرفاته قبل أقواله، كذلك أصحابه من بعده، فهم الذين أسلموا على يديه وعايينوا أخلاقه وأفعاله وتربوا عليها فطبّقوها في حياتهم سواء فيما بينهم أو بينهم وبين غيرهم فاستطاعوا بمثل هذه القيم أن يؤسسوا مجتمعات حضارية فاضلة لم تعرف البشرية لها نظيرا في تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن.

وانسجاما مع المحور الخامس من هذه الندوة المباركة، وهو: نماذج وتطبيقات المسلمين للرحمة مع المسلمين ومع غير المسلمين، سنحاول إن شاء الله، من خلال هذا البحث، التعرف على جوانب الرحمة في سير الصحابة ﷺ عبر رصد التطبيقات العملية لهذه القيم سواء فيما بينهم، أو فيما بينهم وبين غير المسلمين. وقد جعلته في محورين:

فجعلت المحور الأول خاصا بتجليات الرحمة في مجتمع الصحابة،

(١) ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١٥٨/٣

تناولت فيه ثناء الله، عز وجل، على الصحابة بالرحمة، وتربية النبي ﷺ أصحابه على قيم الرحمة، ثم تطرقت لتجليات قيم الرحمة عند الصحابة ﷺ المتمثلة في قيم: المحبة وحسن الخلق والرفق بالآخر واليسير والوسطية.

وخصصت المحور الثاني للتطبيقات العملية لقيم الرحمة من خلال سير الصحابة، عبر بيان رحمة الصحابة بعضهم بعضاً، ومنها رحمة الصغير واليتيم والأرملة والمسكين والحيوان، وبيان رحمتهم لغير المسلمين مثل الرحمة بالرهبان والفقراء غير المسلمين وصلة الأرحام منهم وغيرها، ثم ختمت بخاتمة تضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة.



المحور الأول

تجليات الرحمة في مجتمع الصحابة

١. ثناء الله عز وجل على الصحابة بالرحمة

لقد أثنى الله عز وجل في كتابه العزيز على صحابة رسوله ﷺ، فهم حملة الشريعة الذين اختارهم الله ليكونوا أصحاباً لنبيه، فذكرهم الله في كتابه وأثنى عليهم وبين فضلهم في آيات كثيرة؛ فبين سبحانه إلى نصرة الرسول ﷺ، وما أعده لهم في الجنة فقال عز من قائل: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فِي السَّعَادَةِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لَهُمُ ابْنُ مَرْيَمَ مَا لَكُمْ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي بِآيَاتٍ أَنْبَأكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ أَنَّكُمْ أَتَّابُونَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَكَرْهُنَّ وَأَنَّكَ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة] كما أثنى على نصرتهم للرسول في ساعة العسرة فقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة]، وأكد أن مبايعتهم للرسول إنما هي مبايعة لله عز وجل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۗ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَيْدِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح].

ومن الصفات الحميدة والأخلاق الرفيعة التي مدح فيها القرآن الكريم صحابة رسول الله وأثنى عليهم؛ صفة الرحمة، فقد وردت آيات كثيرة تزكي وتنشئ على هذا الخلق الرفيع الذي يمتاز به الصحابة ﷺ فقال عز وجل:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا لِّبِتْعُونَ فُضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرَضُونَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فبينت الآية ما في صدور الصحابة من الرحمة فيما بينهم، وزكت هذه الفضيلة فيهم، ومن زكاه الله تعالى فلا مجال لأحد من الخلق أن يطعن فيه من أي: وجه كان. وقد فسر قتادة ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: «ألقى الله في قلوبهم الرحمة». وقال في التحرير والتنوير: «وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين، الشدة والرحمة، إيماء إلى أصالة آرائهم، وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الرؤية»^(١). ومن الأمثلة على هذا التراحم بين الصحابة ما روي عن عائشة قالت: «حضر رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر، سعد بن معاذ، وهو يموت في القبة التي ضربها عليه رسول الله ﷺ، في المسجد. قالت: والذي نفس محمد بيده إنني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وإنني لفي حجرتي، فكانا كما قال الله! ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾»^(٢).

كما ذكر القرآن الكريم بنعمة الله عليهم بتأليف قلوبهم، ونشر الأخوة بينهم بعد أن كانوا أعداء يضرب بعضهم بعضاً فقال عز وجل: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٣]. قال ابن عاشور: «فصار الذين دخلوا في الإسلام إخواناً وأولياء بعضهم لبعض، لا يصددهم عن ذلك اختلاف أنساب ولا تباعد مواطن ولقد حاول حكماؤهم وأولو الرأي: منهم

(١) ابن عاشور في التحرير والتنوير ١/٤٠٨٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢٨/٤٢ وابن أبي شيبة في مصنفه ٣٧٣/٧ وابن حبان في صحيحه، ٤٩٨/١٥. وأبو نعيم في معرفة الصحابة ٤٤٩/٨ من طريق محمد بن عمرو عن أبيه عن علقمة ابن وقاص، قال: أخبرتني عائشة. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/١٩٨: رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات وقال الإلباني في السلسلة الصحيحة ١/٦٦ رقم: ٦٧: «وهذا إسناد حسن».

التأليف بينهم وإصلاح ذات بينهم بأفانين الدعاية من خطابة وجاه وشعر، فلم يصلوا إلى ما ابتغوا، حتى أَلَفَ اللهُ بين قلوبهم بالإسلام، فصاروا بذلك التأليف بمنزلة الإخوان»^(١). فبهذه المعجزة الإلهية والمنحة الربانية لم يكن أحد يستطيع أن يؤلف بينهم نظراً لشدة العداوة التي كانت بينهم لولا رحمة الله وتوفيقه وسداده.

كما أثنى الله عز وجل على صحابة نبيه بالمحبة التي في قلوبهم فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾﴾ [الحشر]، فهذه الآية تصف حب الأنصار للمهاجرين، وتبين ما في صدورهم من المحبة والصدق والإيثار. قال ابن عاشور: «وهذا ثناء عليهم بما تقرر في نفوسهم من أخوة الإسلام إذ أحبوا المهاجرين، وشأن القبائل أن يتحرجوا من الذين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم»^(٢).

فالقرآن الكريم يثني على الصحابة رضي الله عنهم بكل خصالهم، وأن الله قد أنعم عليهم بخصال وصفات لا يستطيع الإنسان مهما بلغ من العلم والقوة أن يصل إليها، فيكون هذا الثناء الإلهي والتزكية الربانية سداً لأي: ذريعة للطعن في الصحابة الكرام في السابق والحاضر والمستقبل، فـ رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون.

٢. تربية النبي صلى الله عليه وسلم، أصحابه على قيم الرحمة

كان الرسول صلى الله عليه وسلم أرحم الناس على الإطلاق بشهادة القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ

(١) ابن عاشور في التحرير والتوير ١/٧٩٧

(٢) ابن عاشور في التحرير والتوير ١/٤٣٦٢.

حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٦﴾ [التوبة] ، وهذه الرحمة النبوية تشمل كل تفاصيل حياته وجزئياتها، كما شهد له القرآن الكريم بأنه رحمة للعالمين في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٠٧﴾ [الأنبياء] ، وكما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « وإنما بعثني رحمة للعالمين »^(١). والصحابة الكرام ﺭﺯﯨﻤﯘ ﺍﻟﺬﯨﻦ ﻋﺎﺻﺮﻭﺍ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻠﻪ ﺭﺯﯨﻤﯘ وأسلموا على يديه، فعزروه ونصروه واتبعوا الدين الذي جاء به، تلقوا منه هذه القيم وامتثلوها في حياتهم الخاصة والعامة فتخلقوا بأخلاقه، وطبقوا توجيهاته وأوامره، فكان يوجههم إلى خلق الرحمة ويربط بينه وبين كمال الإيمان فقال ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »^(٢). كما كان يدعوهم إلى الرحمة بالجميع صغيراً كان أم كبيراً، فعن ابن عباس قال : « قال رسول الله ﷺ : ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا »^(٣). إضافة إلى ذلك يبين لهم أن الرحمة سبيل إلى النجاة من النار، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس »^(٤). ويبين لهم أن رحمة العباد سبب لنزول رحمة الله، فعن عبد الله بن عمرو ابن العاص أن النبي ﷺ قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء »^(٥).

- (١) أخرجه أحمد في مسنده ٦٤٦/٣٦، وأبو داود في سننه كتاب السنة، باب في النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ رقم: ٤٦٦١/٤ ٣٤٧. من طريق عمر بن قيس عن عمرو بن أبي قرة. قال الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة: ٤/٢٥٧ رقم: ١٧٥٨: «إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات».
- (٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٦٤/١٢. والترمذي في سننه كتاب الإيمان باب استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه رقم ٢٦١٢، ٩/٥. وأبو داود في سننه كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه رقم ٤٦٨٤، ٤/٣٥٤.
- (٣) أخرجه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة باب رحمة الصبيان رقم ١٩١٩، ٤/٣٢١.
- (٤) أخرجه أحمد في مسنده ٥٣/٧ من طريق سعيد بن عبد الرحمن الجمحي عن موسى بن عقبة عن عبد الله بن عمر الأودي. وعبد الله بن عمرو الأودي لم يرو عنه غير موسى بن عقبة ولم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان وبقية رجاله ثقات، وذكر الامام الإلباني في السلسلة الصحيحة ١٢/٣ رقم: ٩٢٨ شواهد للحديث وقال: وبالجملة فالحديث صحيح بمجموع هذه الشواهد، والله أعلم.
- (٥) أخرجه أحمد في مسنده ٣٣/١١، والترمذي في سننه كتاب البر والصلة، باب رحمة المسلمين رقم: ١٩٢٤، ٤/٣٢٣ وأبو داود في سننه كتاب الأدب، باب في الرحمة رقم ٤٩٤٣، ٤/٤٤٠.

كما كان ﷺ، يستغل كل مناسبة ليغرس في نفوسهم القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة، روى عمر بن الخطاب أنه: «قدم على رسول الله ﷺ، بسبي فإذا امرأة من السبي تبتغي إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار. قلنا لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله ﷺ:، الله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(١). فاستغل الرسول ﷺ، فرصة مشاهدة رحمة المرأة بولدها ليذكرهم برحمة الله تعالى بخلقه.

وبعد غزوة خيبر مر الصحابي الجليل بلال بن رباح بامرأتين من أسرى الحصن على قتلاهم، فصاحت إحداهما وحثت على رأسها التراب، فغضب رسول الله ﷺ، وقال له: «أنزعت منك الرحمة يا بلال، حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما»^(٢). فلم تمنعه شدة الحرب وما كان فيها من شأن ضد العدو من تعليم أصحابه أن قيم الرحمة التي جاء بها الإسلام قيم إنسانية عالمية يتصف بها المسلم في حله وترحاله.

وروت عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ، فقالوا أتعلمون صبيانكم؟ فقالوا: نعم. فقالوا لكنا والله ما نقبل. فقال رسول الله ﷺ: وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»^(٣). وروى عروة بن الزبير عن أبيه: أن رسول الله ﷺ، قبل حسناً وضمه إليه وجعل يشمه، وعنده رجل من الأنصار، فقال الأنصاري: «إن لي ابناً قد بلغ ما قبلته»، فقال رسول الله ﷺ: «أرأيت إن كان الله نزع الرحمة من قلبك فما ذنبي؟»^(٤).

- (١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته رقم: ٥٦٥٣، ٢٢٢٥/٥. ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه رقم ٧١٥٤، ٩٧/٨.
- (٢) الطبري في تاريخه ١٣٧/٢، وابن هشام في تهذيب سيرة ابن إسحاق ٣٣٦/٢.
- (٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته الصبيان والعيال رقم ٦١٦٩، ٧٧/٧.
- (٤) أحمد في فضائل الصحابة ٧٦٩/٢، والحاكم في المستدرک ١٨٦/٣. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص..

وكان من هديه ﷺ، أنه إذا أرسل أحداً من أصحابه في بعض أموره، أمرهم بالتيسير ونهاهم عن التنفير؛ فعن أبي موسى قال: «كان رسول الله ﷺ، إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا»^(١).

وبهذا التعليم النبوي والتوجيه والتربية المحمدية تربي الصحابة الكرام على قيم الرحمة وعاشوا بها في حياتهم بكل جزئياتها، وتمثلوها في واقعهم مع كل أطراف المجتمع صغيرهم وكبيرهم، قويهم وضعيفهم، غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم، فأسسوا بذلك مجتمع الرحمة والأخوة والمحبة الذي لم تستطع كل النظريات السابقة واللاحقة أن تؤسس لمثله، فصارت بحق معجزة نبوية في تأسيس المجتمعات الفاضلة.

٣. تجليات قيم الرحمة عند الصحابة رضي الله عنهم

٣-١. قيمة المحبة

من القيم التي ركز الإسلام على ترسخها في نفس الإنسان المسلم، قيمة المحبة بين مختلف أفراد المجتمع، وكان الرسول ﷺ، يربي أصحابه على هذه القيم السامية التي تعتبر الأساس لبناء مجتمع حضاري، فكان يحثهم على نشر المحبة فيما بينهم، فيقول النبي الكريم ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى وجبت محبتي للمتحابين في والمتجالسين في والمتزاورين في والمتبادلين في»^(٢). كما كان، ﷺ، يذكرهم أن نشر المحبة بين المسلمين من موجبات الإيمان، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، خادم رسول الله ﷺ، أن

(١) أخرجه مسلم في صحيح، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير رقم: ٤٦٢٢، ١٤١/٥.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب ما جاء في المتحابين في الله رقم ٣٥٠٧، ١٣٩٠/٥. وأحمد في مسنده ٣٥٩/٣٦.

النبي ﷺ، قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١). ومن أروع الأمثلة التي عرفها التاريخ الإنساني، ما قام به الرسول ﷺ، مباشرة بعد الهجرة النبوية، حيث آخى ﷺ، بين المهاجرين والأنصار، وجعل لكل صحابي من المهاجرين أخا له من الصحابة الأنصار، فسطروا بذلك منهجاً حضارياً لم تشهد الإنسانية له مثيلاً، وطبق الصحابة ﷺ، أوامر نبيهم أحسن تطبيق حتى جاء الثناء الإلهي بوصفهم بأحسن الأوصاف فقال عز من قائل: ﴿وَيُؤْتُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] وقد ورد في الصحيح عن أبي هريرة أن رجلاً من الأنصار نزل به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه، فقال لامرأته: «نومي الصبية، وأطفئي السراج، وقربي للضيف ما عندك، فنزلت هذه الآية»^(٢).

٢-٣. قيمة حسن الخلق

ترتبط قيمة حسن الخلق بقيمة المحبة التي قبلها، فحسن الخلق يحجب العبد إلى الناس، ويحجب الناس إلى العبد، وقد نشأ الصحابة في حب نبيهم الذي كان المثل الأعلى في حسن الخلق، فأصبحوا بذلك مضرب المثل في الأخلاق الرفيعة، عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»^(٣). وكان الرسول ﷺ، يحث أصحابه على كل تفاصيل الأخلاق حتى البشاشة والابتسام، كما قال عبدالله بن الحارث ﷺ: «ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ»^(٤). وعن أبي ذر ﷺ قال:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه رقم ١٣، ١٤/١. ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه رقم ١٧٩، ٤٩/١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة باب إكرام الضيف وفضل إيثاره رقم ٥٤٨١، ١٢٨/٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ رقم ٣٣٦٦، ١٢٠٥/٣. ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب كثرة حياته رقم: ١٦٧٧، ٧٨/٧.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢٩/٢٥٢، والترمذي في سننه كتاب المناقب، باب في بشاشة النبي ﷺ. ٣٦٤١. قال أبو عيسى «هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في مختصر الشمائل صفحة ١٢٠».



قال رسول الله ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة»^(١). وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق»^(٢).

كما أن من حسن الخلق الابتعاد عن الغلظة والعنف، سواء في الأقوال أو الأفعال، لأنها تتفر الناس من العبد، وتهدم ما تبقى من أوامر المحبة والألفة بين المسلمين، وقد بين ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ عَلَى اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

ومن الأمثلة التي سطرها الصحابة في حسن الخلق؛ ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلاً استأذن على عمر رضي الله عنه، فأذن له فقال له: «يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر رضي الله عنه، حتى هم أن يوقع به، فقال الحر بن قيس: يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف] وإن هذا من الجاهلين. فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل»^(٣).

وشتم رجل ابن عباس رضي الله عنهما، فلما قضى مقالته قال: «يا عكرمة، انظر هل للرجل حاجة فنقضيتها؟ فنكس الرجل رأسه واستحي»^(٤).

- (١) أخرجه الترمذي في سننه كتاب البر والصلة باب صنائع المعروف رقم ١٩٥٦. قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب وصححه الإلباني في السلسلة الصحيحة ١١٣/٢.
- (٢) أخرج البخاري صدره في صحيحه، كتاب الأدب باب كل معروف صدقة رقم ٥٦٧٥، ٢٢٤١/٥. وأخرج الحديث كاملاً: أحمد في مسنده ١٦١/٢٣.
- (٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم: ٦٨٥٦، ٢٦٥٧/٦.
- (٤) محب الدين الطبري في ذخائر العقبى ٢٣٤/١ ويوسف بن محمد الصالح الشامي في سبل الهدى والرشاد ١٣٠/١١.

وكان أبو الدرداء يقول: إن العبد المسلم يحسن خلقه حتى يدخله حسن خلقه الجنة، ويسئ خلقه حتى يدخله سوء خلقه النار^(١).

٣-٣. قيمة الرفق

ويقصد بالرفق لين الجانب، وهو ضد العنف، قال القاري: «المداراة مع الرفقاء، ولين الجانب، واللطف في أخذ الأمر بأحسن الوجوه»^(٢). وقد كان الرسول ﷺ، أكثر الناس رفقاً، وكان يوصي أصحابه بالرفق ويدلهم عليه؛ فيقول ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق»^(٣). فيبين لهم ﷺ، أهميته في حياة المجتمع المسلم بقوله: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»^(٤).

لقد كان ﷺ، يتمثل الرفق في كل أحواله وشؤون حياته، مما جعل الصحابة ﷺ، يقتدون به ويتمثلون أقواله وأفعاله وكل أخلاقه، فوضعوا بذلك الأسس المتينة لبناء الحضارة الإسلامية، ومن أمثلة رفق الصحابة: ما رواه زيد بن وهب حيث قال: «خرج عمر ﷺ، ويداه في أذنيه وهو يقول: يا لبيكاه يا لبيكاه، قال الناس: ما له؟ قال: جاءه بريد من بعض أمرائه أن نهرًا حال بينهم وبين العبور ولم يجدوا سفناً، فقال أميرهم: اطلبوا لنا رجلاً يعلم غور الماء. فأتني بشيخ فقال: إني أخاف البرد وذاك في البرد، فأكرهه فأدخله، فلم يلبثه البرد، فجعل ينادي: يا عمراه يا عمراه! ففرق، فكتب إليه فأقبل، فمكث أي: أمماً معرضاً عنه، وكان إذا وجد على أحد منهم فعل به ذلك، ثم قال: ما فعل الرجل الذي قتلته؟ قال: يا أمير المؤمنين، ما تعمدت

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/١٠٨، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/٣٦٥.

(٢) علي القاري في مشكاة المصابيح ٨/٣١٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استنابة المرتدين والمعاندين ومقاتلتهم، باب إذا عرض الذمي بسب النبي ﷺ رقم: ٦٥٢٨، ٦/٢٥٣٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل الرفق رقم ٦٧٦٦، ٨/٢٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب الرفق رقم: ٦٧٦٧، ٨/٢٢.

قتله، لم نجد شيئاً يعبر فيه، وأردنا أن نعلم غور الماء، ففتحنا كذا وكذا، وأصبنا كذا وكذا، فقال عمر رضي الله عنه: لرجل مسلم أحب إلي من كل شيء جئت به، لولا أن تكون سنة لضربت عنقك، اذهب فأعط أهله ديته، واخرج فلا أراك»^(١).

وكان عمر بن الخطاب يذهب إلى العوالي كل يوم سبت، فإذا وجد عبداً في عمل لا يطيقه وضع عنه منه^(٢).

٣-٤. قيمة التيسير

من القيم السامية التي غرسها الرسول ﷺ، في نفوس أصحابه الكرام؛ التيسير، فقد كان الرسول يختار الأبي: سر من الأمور كلها، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «ما خير رسول الله ﷺ، بين أمرين إلا أخذ أي: سرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه»^(٣). ولذلك كان ﷺ، يوصي أصحابه بالتيسير في كل الأمور، ومن ذلك أنه، ﷺ، لما بعث معاذاً وأبا موسى إلي اليمن قال لهما: «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا»^(٤). وسيرا على هذه السنة النبوية، نهج الصحابة رضي الله عنهم، منهج التيسير الذي تعلموه من نبيهم، صلوات ربي وسلامه عليه، فعن عمير بن إسحاق قال: «لما أدركت من أصحاب رسول الله، ﷺ، أكثر ممن سبقني منهم، . فما رأيت قوماً أي: سر سيرة ولا أقل تشدداً منهم»^(٥). وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يسير مع صاحب له فسقط على صاحبه شيء من ميزاب، فقال الرجل: «يا صاحب الميزاب، أماؤك طاهر أو نجس؟ فقال عمر: يا صاحب الميزاب، لا

(١) البيهقي في سننه الكبرى ٢٢٢/٨.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الجامع، باب الرفق بالملوك رقم ٣٥٩٤، ١٤٢٨/٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة الرسول ﷺ، رقم: ٣٣٦٧، ١٣٠٦/٣.

ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب مباحثته ﷺ للأثام رقم: ٦١٩٠، ٨٠/٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب

رقم: ٢٨٧٣، ١١٠٤/٣.

(٥) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب المقدمة، باب كراهية الفتيا، رقم ١٢٦، ٦٣/١.

تخبرنا»^(١). واعتمر يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب مع عمر بن الخطاب في ركب فيهم عمرو بن العاص وأن عمر عرس في بعض الطريق قريباً من المياه، فاحتلم فاستيقظ وقد كاد أن يصبح، فركب وكان الرفع حتى جاء الماء فجلس على الماء يغسل ما رأى من الاحتلام حتى أسفر، فقال عمرو أصبحت ومعنا ثياب البسها ودع ثوبك يغسل، فقال عمر: واعجباً لك يا عمرو، لئن كنت تجد الثياب، أفكل الناس يجدون الثياب، فوالله لو فعلت لكانت سنة، لا بل أغسل ما رأيت وأنضح ما لم أر»^(٢).

٣-٥. قيمة الوسطية

الوسطية خاصية من خصائص الإسلام، وهي من سمات هذه الأمة، كما وصفها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقد كان الرسول ﷺ، يعلم أصحابه أن الإسلام دين الوسطية والاعتدال، فقال: «وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»^(٣). وكان يستغل كل فرص سانحة ليغرس هذه القيمة العظيمة في نفوسهم، ومن ذلك أن النبي ﷺ، آخى بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: «ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء، ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً فقال: كل. قال: فإني صائم، قال: ما أنا بأكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال: نم، فنام ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي

(١) ابن القيم في إغاثة اللهفان ١٥٤/١،

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الطهارة، باب إعادة الجنب الصلاة رقم ١٥٧/٢٦٨. والطحاوي في شرح معاني الآثار ٥٢/١ وعبدالرزاق في المصنف ٣٦٩/١. من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم: ٣٩، ٢٣/١،

حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: صدق سلمان^(١). وقد طبق الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ، هذه القيم تطبيقاً عملياً لما تعلموه من رسولهم ﷺ؛ بل كانوا يأمرون بها بعضهم بعضاً. ومن الأمثلة على وسطية الصحابة، أن ابن عمر مر برجل يكيل كيلاً كأنه يعتدي فيه، فقال له: «ويحك ما هذا؟ فقال له: أمر الله بالوفاء، قال ابن عمر: ونهى عن العدوان»^(٢). وعن الأزرق بن قيس قال: «كنا بالأهواز نقاتل الحرورية، فبينما أنا على جرف نهر إذا رجل يصلي وإذا لجام دابته بيده، فجعلت الدابة تنازعه وجعل يتبعها، قال شعبة: هو أبو برزة الأسلمي، فجعل رجل من الخوارج يقول: اللهم افعل بهذا الشيخ، فلما انصرف الشيخ قال: إني سمعت قولكم وإني غزوت مع رسول الله ﷺ، ست غزوات أو سبع غزوات وثمان، وشهدت تيسيره وإني إن كنت أن أراجع مع دابتي أحب إلي من أن أدعها ترجع إلى مألها فيشق علي»^(٣). والأمثلة على ذلك كثيرة في حياة كل صحابي، حتى عرف عصرهم عند من جاء بعدهم بعصر الوسطية والاعتدال، وصاروا المثل الأعلى للأمة الإسلامية في تطبيق هذه القيمة السامية، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى أحد عماله فقال: بعد أن أوصاه بلزوم طريق الصحابة الكرام: «.. ما دونهم من مقصر وما فوقهم من محسر، لقد قصر دونهم أقوام فجفوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، إنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم»^(٤).



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع رقم: ١٨٦٧، ٦٩٤/٢.

(٢) عبدالرزاق في المصنف ٦٧/٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة، رقم: ١١٥٣، ٤٠٥/١.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب لزوم السنة رقم: ٤٦١٤، ٢٣٢/٤.

المحور الثاني

التطبيقات العملية لقيم الرحمة من خلال سيرة الصحابة

بعث الله عز وجل رسوله محمداً ﷺ، رحمة للعالمين، واختار له أصحاباً ينصرونه ويعززونه، آمنوا به واتبعوا الدين الذي جاء به، فتخلقوا بأخلاقه، وتمثلوا شمائله، فعاشوا بعده على قيم الرحمة التي أسسوا عليها مجتمعهم، وأكملوا مسيرة بنائه التي بدأها الرسول، صلى الله عليه وسلم، حتى أصبحوا بحق مجتمع الأخوة والمحبة والأخلاق، فيرحمون الصغير والكبير والمرأة والرجل والمسلم وغير المسلم، وسنواصل في هذا المحور إن شاء الله تعالى، بإبراز بعض الأمثلة والنماذج لتطبيقات الصحابة لخلق الرحمة، سواء فيما بينهم أو فيما بينهم وبين غير المسلمين، لنبين بذلك كيف كان الصحابة يجمعون بين صفات الشدة في مجابهة الأعداء والرحمة في معاملة المسلمين وغيرهم من أهل الذمة، مصداقاً لقول المولى عز وجل: ﴿أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

١. رحمة الصحابة بعضهم بعضاً.

تشمل رحمة الصحابة ﷺ، حياتهم بتفاصيلها وبكل جزء من أجزائها، فقد كانوا رحماء بالجميع، الصغير واليتيم والفقير والضعيف والمرأة العجوز والمخطئ والمذنب حتى شملت الحيوان والجماد، وفيما يلي نماذج لتطبيقات الرحمة فيما بين الصحابة ﷺ:

١-١. الرحمة بالصغير

نشأ الصحابة رضي الله عنهم، في مجتمع مسلم يقوده الرسول ﷺ، الذي كان أرحم الناس بالأطفال، قال أنس بن مالك: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»^(١). وقد تأثروا بهذه التربية النبوية وتأسوا بها واقتدوا بمنهجها، فكانت هذه الصفحات المشرقة التي تمتلئ بها كتب الرجال عن رأفة ورحمة الصحابة بالأطفال بجميع أصنافهم؛ وسنرى فيما يأتي نماذج لرحمتهم بالصغير والرضيع:

أ. رحمتهم بالرضيع

بلغ من رحمة الصحابة رضي الله عنهم، أنها تشمل كل حياتهم ومعاملاتهم ولا يستثنون من ذلك أحداً، حتى شملت رحمتهم الطفل الرضيع في أحضان أمه الحنون، فهذا عمر بن الخطاب يغير حكماً عاماً من أحكام الدولة الإسلامية لمجرد اطلاعه على أحوال الرضع؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: « قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى، فقال عمر لعبدالرحمن رضي الله عنه: هل لك أن تحرسهم الليلة من الشرق، فباتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله تعالى لهما، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه فقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيك. ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاء فعاد إلى أمه فقال لها: مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان من آخر الليل سمع بكاء فأتى أمه فقال: ويحك إني لأراك أم سوء، مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: يا عبدالله قد أبرمتي هذه الليلة، إني أريغته^(٢) على الفطام فيأبى، قال: ولم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم. قال: وكم له؟ قالت:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته الصبيان رقم ٦١٦٨ ٧٦/٧.

(٢) أريغه على الفطام: أي: أديره عليه وأريده منه. يقال: فلان يريغني على أمر وعن أمر: أي: يراودني ويطلبه مني (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير باب: الرأفة الواو).

كذا وكذا شهرا قال: ويحك لا تعجلية. فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم قال: يا بؤسى لعمر كم قتل من أولاد المسلمين، ثم أمر منادياً ينادي أن لا تعجلوا صبيانكم عن الطعام، فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام^(١)، فهذه هي التربية النبوية الصحيحة التي أخذوها عن نبيهم الكريم، الذي تعلموا منه أنه خفف من صلاته لسماعه لبكاء طفل رضيع في بيت أمه، في مشهد لا نظير له في سير كل عظماء التاريخ.

ب. رحمتهم بالطفل الصغير

ومن رحمة الصحابة رضي الله عنهم، رأفتهم ورحمتهم بالطفل الصغير، ومعاملته بتودد وعطف وحنان، ومن ذلك: أن عمر بن الخطاب، وهو أمير المؤمنين، رآه عيينة بن حصن يوماً يقبل أحد أبنائه، وقد وضعه في حجره وهو يحنو عليه، فقال عيينة: « أتقبل وأنت أمير المؤمنين؟ لو كنت أمير المؤمنين ما قبلت لي ولداً. فقال عمر: الله، الله حتى استحلفه ثلاثاً، فقال عمر: فما أصنع إن كان الله نزع الرحمة من قلبك؟ إن الله إنما يرحم من عباده الرحماء^(٢)».

كما أنه رضي الله عنه، رد ولاية رجل من عماله لعدم رحمته بالأطفال، فقد استعمل عمر رضي الله عنه رجلاً من بني أسد على عمل، فدخل ليسلم على عمر رضي الله عنه، فأتى عمر ببعض ولده، فقبله، فقال الأسدي: «أتقبل هذا يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما قبلت ولداً لي قط، فقال عمر: فأنت والله بالناس أقل رحمة، هات عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً^(٣)، فرد عهده.

(١) محمد بن سعد في الطبقات الكبرى (٣/٢٠١)، وابن عساکر في تاريخ دمشق (٤٤/٣٥٥).

(٢) عبدالرزاق في مصنفه ٢٩٩/١١. من طريق معمر بن عاصم عن أبي عثمان النهدي

(٣) هناد الكوفي في الزهد ٦١٩/٢، والبيهقي في سننه الكبرى ٤١/٩ من طريق أبي معاوية عن عاصم

الأحول عن أبي عثمان،

ومن رحمة نساء الصحابة بالأبناء؛ قول عائشة رضي الله عنها: «جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتها، فشقت التمرة، التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار»^(١).

ج. رحمتهم باليتيم

علم الرسول صلى الله عليه وسلم، أصحابه ضرورة التكفل باليتيم ورحمته والعطف عليه، وقرن كافل اليتيم بنفسه صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً»^(٢). فدأب الصحابة رضي الله عنهم، على منهجه واتبعوا طريقه فاعتنوا باليتامى أي: ما اعتناء، حتى عرف عن أبي برزة أنه كانت له جفنة من ثريد غدوة وجفنة عشية للأرامل واليتامى والمساكين^(٣). ومن الرحمة باليتيم الإحسان إليه بإكرامه وإطعامه، بل والمسح على رأسه والدعاء له، فعن عبدالله بن أبي أوفى، رضي الله عنه، قال: «كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاه غلام معه أضت له، فقال: يا رسول الله، يتيم وله أم أرملة وأخت يتيمة، أطعمنا أطعمك الله، أعطاك الله من عنده حتى ترضى، قال: ما أحسن ما قلت يا غلام، يا بلال، اذهب إلى أهلنا فأتنا بما وجدت عندهم من طعام، فذهب فجاء بواحدة وعشرين تمرة، فوضعها في كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفعها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فيه، فدعا فيها بالبركة ثم قال: يا غلام، سبع لك وسبع لأمك وسبع

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب فضل الإحسان إلى البنات رقم ٦٨٦٣، ٣٨/٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب اللعان رقم ٤٩٩٨، ٢٠٣٢/٥.

(٣) ابن سعد في الطبقات الكبرى ٤/٢٩٩.

لأختك، فتغدى بتمرّة وتعيش بأخرى، فانصرف الغلام، فقام إليه معاذ ابن جبل فوضع يده على رأسه وقال: يا غلام جبر الله يتمك وجعلك خلفاً من أبيك، وكان من أولاد المهاجرين، فقال له رسول الله ﷺ: قد رأيت يا معاذ ما صنعت فقال: رحمة له يا رسول الله»^(١).

كما كان الرسول ﷺ، ينهى عن الإساءة لليتيم، ويعد من يحسن إليه بالجنة، قال الزهري: «أخبرني كعب بن مالك قال: أول أمر عتب على أبي لبابة أنه كان بينه وبين يتيم عذق، فاخصما إلى النبي ﷺ، ففضى النبي ﷺ لأبي لبابة، فبكى اليتيم، فقال النبي ﷺ: «دعه له»، فأبى، قال: «فأعطه إياه ولك مثله في الجنة»، فأبى فانطلق ابن الدحداح فقال لأبي لبابة: بعني العذق بحديقتين. قال: نعم. ثم انطلق إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، رأيت إن أعطيت هذا اليتيم هذا العذق، ألي مثله في الجنة؟ قال: «نعم، فأعطاه إياه»، قال: فكان النبي ﷺ يقول: «كم من عذق دواح لأبي الدحداح في الجنة، مرارا»^(٢).

٢-١. الرحمة بأصحاب المعاصي والذنوب

إن القارئ لسير الصحابة رضي الله عنهم، والدارس لها ليقف متعجباً من قمة الرحمة التي تشبع بها أصحاب رسول الله، وعظم ما غرسه الرسول في نفوسهم من التطبيق العملي الرائع للرحمة في معاملة جميع الناس دون استثناء، حتى

(١) الحارث الهيثمي في مسنده ٨٥٢/٢. وأبو نعيم في معرفة الصحابة ٢٧٠/١١ من طريق يزيد يعني

ابن هارون ثنا فايد بن عبدالرحمن عن عبدالله بن أبي أوفى

(٢) أخرجه عبدالرزاق في المصنف ٤٠٦/٥. من طريق معمر عن الزهري عن كعب بن مالك. قال

الإمام الإلباني في السلسلة الصحيحة ٤٦٣/٦ رقم: ٢٩٦٤: كعب بن مالك صحابي معروف ولم

يدركه الزهري. ولذلك قال الشيخ الأعظمي رحمه الله في التعليق عليه: ولعل الصواب: عبدالرحمن

ابن كعب بن مالك. أي: فهو مرسل أي: أيضاً. والله أعلم. أما قوله ﷺ: كم من عذق دواح لأبي

الدحداح في الجنة، مرارا. قال فيه الهيثمي (٩ / ٢٢٤): رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال

الصحيح.

شملت رحمته المذنبين وأصحاب المعاصي، ومن أمثلة ذلك ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، فقال: «بعثني أبو موسى بفتح تستر إلى عمر رضي الله عنه، فسألني عمر فقال: ما فعل النفر من بكر بن وائل؟ وكان ستة نفر من بكر بن وائل قد ارتدوا عن الإسلام، ولحقوا بالمشركين، فأخذت في حديث آخر لأشغله، فقال: ما فعل النفر من بكر بن وائل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، قوم ارتدوا عن الإسلام، ولحقوا بالمشركين، ما سبيلهم إلا القتل، فقال عمر: لأن أكون أخذتهم سلمًا أحب إلي مما طلعت عليه الشمس من صفراء أو بيضاء، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، وما كنت صانعًا بهم لو أخذتهم، قال: كنت عارضًا عليهم الباب الذي خرجوا منه أن يدخلوا فيه، فإن فعلوا ذلك قبلت منهم، وإلا استودعتهم السجن»⁽¹⁾. فرحمته رضي الله عنه لم تكتف بالمسلمين دون غيرهم، بل امتدت إلى المرتدين عن دينهم، فمن رحمته بهم كان يجب أن يدخلوا إلى الإسلام بدل ان يعاقبهم على تنكروهم لدينهم.

ومن رحمتهم رضي الله عنهم، ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما حيث قال: «كنت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في حج أو عمرة، فإذا نحن براكب، فقال عمر رضي الله عنه: أرى هذا يطلبنا، فجاء الرجل، فبكى فقال عمر: ما شأنك؟ إن كنت غارمًا أعناك، وإن كنت خائفًا أمناك، إلا أن تكون قتلت نفسًا، فتقتل بها، وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم، قال: إني شربت الخمر، وأنا أحد بني تميم، وإن أبا موسى جلدني، وحلقني، وسود وجهي، وطاف بي في الناس، وقال: لا تجالسوه ولا تؤاكلوه، فحدثت نفسي بإحدى ثلاث، إما أن اتخذ سيفًا فأضرب به أبا موسى، وإما أن آتيك فتحولني إلى الشام فإنهم لا يعرفوني، وإما أن ألحق بالعدو، وأكل معهم وأشرب، فبكى عمر رضي الله عنه وقال: ما يسرنى أنك فعلت وإن لعمر كذا وكذا، وإني كنت لأشرب الناس

(1) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٢/٢١٠، وعبدالرزاق في المصنف ١٠/١٦٥.. من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن أنس. وابن أبي شيبة في المصنف ٦/٤٢٨ من طريق داود بن أبي هند عن عامر عن أنس.

لها في الجاهلية، وإنها ليست كالزنى، وكتب إلى أبي موسى: سلام عليك أما بعد، فإن فلان بن فلان التميمي أخبرني بكذا وكذا، وأي: م الله لئن عدت لأسودن وجهك، ولأطوفن بك في الناس، فإن أردت أن تعلم صدق ما أقول لك فعد. وأمر الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه، وإن تاب قبلت شهادته، وحمله وأعطاه مائتي درهم^(١). فالعدل يقتضي عقاب شارب الخمر، لكن الرحمة تقتضي التريث والنظر، إلى الأمور من جهات عدة حتى تتضح ملبساته وحيثياته فيصير الحكم صحيحاً لا ظلم فيه ولا اعتداء.

ولم يتوقف شمول رحمة الصحابة رضي الله عنهم، لأصحاب المعاصي بل شملت المذنبين في حقهم، فكثيراً ما نجد في سيرهم رحمتهم وعفوهم عن أساء إليهم واعتدى عليهم، فعن عمران بن عبد الله بن طلحة: أن عثمان بن عفان رضي الله عنه، خرج لصلاة الغداة، فدخل من الباب الذي كان يدخل منه، فزحمة الباب فقال: « انظروا، فنظروا فإذا رجل معه خنجر أو سيف، فقال له عثمان رضي الله عنه: ما هذا؟ قال: أردت أن أقتلك، قال: سبحان الله!! ويحك، علام تقتلني؟ قال: ظلمني عاملك باليمن، قال: أفلا رفعت ظلامتك إليّ فإن لم أنصفك أو أعديك على عاملي أردت ذلك مني؟ فقال لمن حوله: ما تقولون؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، عدو أمكنك الله منه، فقال: عبد همّ بذنب فكفه الله عني، أتتني بمن يكفل بك، لا تدخل المدينة ما وليت أمر المسلمين، فأتاه برجل من قومه فكفل به فخلى عنه^(٢). فمن رحمته رضي الله عنه عفى على من كان جاء لقتله فرد الإساءة بالإحسان.

٣-١. الرحمة بالمرأة

كان الصحابة رضي الله عنهم، يقدرون المرأة ويظهرون رحمتهم بها في كل المواقف

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢١٤/١٠. قال: أخبرنا أبو الحسن بن الفضل القطان أنبأنا أبو سهل بن زياد القطان ثنا إسحاق بن الحسن الحربي ثنا عفان ابن مسلم ثنا حماد بن سلمة ثنا سماك بن حرب عن عبد الله بن شداد بن الهاد عن ابن عمر، ورجال السنن ثقات سوى أبي سهل فهو صدوق.

(٢) ابن شبة في تاريخ المدينة المنورة ١٨٨/٢.

عملاً بتوجيهات نبيهم ومعلمهم ﷺ، الذي كان دائم الوصية بالنساء، فكان يقول لهم: استوصوا بالنساء خيراً. وفيما يأتي نماذج لرحمة الصحابة للمرأة العجوز والأرملة والفقيرة.

أ. رحمتهم بالمرأة العجوز

روى الأوزاعي أن عمر خرج في سواد الليل فرآه طلحة فذهب عمر فدخل بيتاً ثم دخل بيتاً آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: «ما بال هذا الرجل يأتيك؟» قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى، فقال طلحة: «كلتك أمك يا طلحة، أعترات عمر تتبع؟»^(١).

ب. رحمتهم بالأرملة

رفع الرسول ﷺ، من شأن من يرعى شؤون الأرملة إلى مرتبة الجهاد في سبيل الله فقال ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»^(٢). ولذلك كان الصحابة يسارعون إلى اغتنام هذه الفرصة الكبيرة والمنزلة العظيمة، فكانوا يهتمون بشؤون الأرملة أي: ما اهتمام، فروى زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر ﷺ، إلى السوق، فلحقته امرأة شابة فقالت: «يا أمير المؤمنين هلك زوجي وترك صبية صغاراً والله ما ينضجون كراعاً»^(٣)، ولا لهم زرع ولا زرع، وخشيت عليهم الضياع، وأنا ابنة خفاف بن أي: من الغفاري، وقد شهد أبي الحديدية مع رسول الله ﷺ، فوقف معها عمر ولم يمض، وقال: مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير

(١) أبو نعيم في حلية الأولياء ٤٨/١. من طريق محمد بن معمر عن يحيى بن عبد الله عن الأوزاعي.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل رقم ٥٠٢٨، ٢٠٤٧/٥. ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرفائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم رقم ٧٦٥٩، ٢٢١/٨.
(٣) ينضجون كراعاً: الكراع من الدواب ما دون الكعب، والمقصود ما يطبخون كراعاً لعجزهم وصغرهم يعني لا يكفون أنفسهم خدمة ما يأكلونه فكيف غيره؟ (لسان العرب لابن منظور مادتي: كرع، ونضج).

ظهير^(١) كان مربوطاً في الدار، فجعل عليه غرارتين ملأهما طعاماً وجعل بينهما نفقة وثياباً ثم ناولها خطامه فقال: اقتاديه، فلن يفنى هذا حتى يأتیکم الله بخير. فقال رجل: أكثرت لها يا أمير المؤمنين فقال: ثكلتك أمك، والله إنني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصناً زماناً فاقتحناه، ثم أصبحنا نستفيء سهماهما^(٢)»

ج. رحمتهم بالمرأة الفقيرة

من سمات المجتمع الحضاري أن التآزر والتعاون والتراحم يكون بين مختلف فئاته وطبقاته، وقد شبه الرسول ﷺ، المجتمع الإسلامي المؤمن، بأعضاء الجسد الواحد فقال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٣). فأعضاء المجتمع المسلم يرحم بعضهم بعضاً ويعطف بعضهم على بعض. وإذا اشتكى أحدهم من مشكل ألم به، أو مصيبة أصابته تداعى له كل أفراد المجتمع، ومن أمثلة هذا التآزر والتراحم في عهد الصحابة رضي الله عنهم، رحمتهم لامرأة فقيرة لا تملك قوت أبنائها الذين ألمَّ بهم الجوع ولم يجدوا شيئاً يعيشون به، فروى أسلم قال: «خرجت ليلة مع عمر إلى حرة واقم، حتى إذا كنا بصرار إذا بنار فقال: يا أسلم ههنا ركب قد قصر بهم الليل، انطلق بنا إليهم، فأتيناهم فإذا امرأة معها صبيان لها، وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون، فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، قالت: وعليك السلام. قال: أدنو؟ قالت: ادن أو دع. فدنا فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا

(١) بعير ظهير: يعني شديد الظهر قوياً على الرحلة (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، باب الظاء مع الهاء).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٣٩٢٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب باب تراحم المؤمنين، تعاطفهم وتعاوضهم رقم ٢٠٠٨/٦٧٥١.

الليل والبرد. قال: فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: من الجوع. فقال: وأي: شيء على النار؟ قالت: ماء أعلهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر. فبكى عمر ورجع يهرول إلى دار الدقيق فأخرج عدلاً من دقيق وجراب شحم، وقال: يا أسلم إحمله على ظهري، فقلت: أنا إحمله عنك. فقال: أنت تحمل وزري يوم القيامة؟ فحمله على ظهره وانطلقنا إلى المرأة فألقى عن ظهره وأخرج من الدقيق في القدر، وألقى عليه من الشحم، وجعل ينفخ تحت القدر والدخان يتخلل لحيته ساعة، ثم أنزلها عن النار وقال: إيتيني بصحفة. فأتى بها فغرفها ثم تركها بين يدي الصبيان وقال: كلوا، فأكلوا حتى شبعوا، والمرأة تدعو له وهي لا تعرفه، فلم يزل عندهم حتى نام الصغار، ثم أوصلهم بنفقة وانصرف، ثم أقبل علي فقال: يا أسلم الجوع الذي أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت»^(١).

وروى حزام بن هشام عن أبيه قال: «رأيت عمر بن الخطاب عام الرمادة مر على امرأة وهي تعصد عصيدة لها فقال: ليس هكذا تعصدين ثم أخذ المسوط فقال هكذا»^(٢).

١-٤. الرحمة بالرعية

أمر الإسلام ولاة أمر المسلمين باستشعار ثقل المسؤولية التي يتحملونها، وكان الرسول ﷺ، يحظ من ولي من أصحابه أمر المسلمين برحمتهم والرفق بهم فيقول: اللهم من ولي من أممي شيئاً فشق عليهم فاشقق

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ٢٩٠/١ والطبري في تاريخ الرسل والملوك ٥٦٧/٢، وابن عساكر في تاريخ دمشق، من طرق عن عبد الله بن مصعب عن ربيعة بن عثمان الهديري عن زيد بن أسلم عن أبيه. وعبد الله بن مصعب الزبيري، لئنه ابن معين، وقال أبو حاتم: شيخ باب عبد الرحمن بن أبي الزناد الجرح والتعديل ٢٥٢/٥.

(٢) ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣١٤/٣. من طريق محمد بن عمر الواقدي عن حزام بن هشام عن أبيه.

عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به^(١). ولا تقف هذه المسؤولية عند ولاة الأمر فقط، بل تتعداه إلى جميع أفراد المجتمع، كما ورد عن الرسول ﷺ، أنه قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»^(٢). فالرسول يوصي الأمة كلها بتحمل مسؤولية بعضهم البعض، ومما روي في عهد الصحابة من الرحمة بالرعية؛ قول نافع مولى الزبير: «سمعت أبا هريرة يقول: يرحم الله ابن حنمة، لقد رأيتُه عام الرمادة وإنه ليحمل على ظهره جرابين وعكة زيت في يده وإنه ليعتقب هو وأسلم، فلما رأني قال: من أي: ن يا أبا هريرة؟ قلت: قريباً، قال: فأخذت أعقبه فحملناه حتى انتهينا إلى صرار، فإذا صرم نحو من عشرين بيتاً من محارب فقال عمر ما أقدمكم؟ قالوا: الجهد قال: فأخرجوا لنا جلد الميتة مشويماً كانوا يأكلونه ورمة العظام مسحوقة كانوا يسفونها، فرأيت عمر طرح رداءه ثم اتزر فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا، وأرسل أسلم إلى المدينة فجاء بأبصرة فحملهم عليها حتى أنزلهم الجبانة ثم كساهم، وكان يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك»^(٣).

فاستشعار المسؤولية تجاه الرعية لا تتوقف عند العطايا أو المأكل والمشرب، بل تتعداه إلى خدمة من يحتاج إليها وتوفير كل الشروط لهم، ثم السؤال عنهم حتى يتأكد من زوال محنتهم. وبذلك يسطرون أروع الأمثلة في التراحم بين أفراد المجتمع الواحد التي يتحول فيها الأمير إلى خادم لرعيته وخاصة الضعفاء منهم والمحتاجين، مما لا نجد مثاله في كل التاريخ الانساني.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الامارة باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر رقم ٤٨٢٦/٦، ٧/٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح باب قوا أنفسكم وأهليكم نارا، رقم ٤٨٩٢، ١٩٨٨/٥.
(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣/٣١٤. من طريق: محمد بن عمر عن أسامة بن زيد عن نافع مولى الزبير عن أبي هريرة. وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/٣٤٧. من طريق ابن سعد.

١-٥. الرحمة بالحيوان

تمثل الصحابة توجيهات النبي ﷺ، في الرفق بالحيوان، وذلك بأن تعطى حقها من الطعام والأكل، وألا تحمل أكثر من طاقتها، فيقول ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(١). وعد الرفق بالحيوان وإحسان معاملته من أسباب المغفرة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملاً خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له»^(٢).

وقد شملت رحمة الصحابة رضي الله عنهم، الحيوان كما الإنسان، فكانوا يتقون الله فيها ويخافون أن يسألوا عن سوء معاملتها وعدم الرفق بها، ومن ذلك القول الشهير لعمر رضي الله عنه، حين قال: «لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخفت أن أسأل عنها»^(٣). ومن ذلك أن عمر بن الخطاب انتهى الحوت يوماً، فقال: «لقد خطر على قلبي شهوة الطري من حيتان، فخرج يرفاً، في طلب الحوت لعمر رضي الله عنه، ورحل راحلته، فسار ليلتين مدبراً، وليلتين مقبلاً، واشترى مكتلاً»^(٤)، وجاء بالحوت، ثم غسل يرفاً الدابة، فنظر إليها عمر فرأى عرقاً تحت أذنها، فقال: عذبت بهيمة من البهائم في شهوة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم رقم: ٣١١٠، ١٢٠٥/٣. ومسلم في صحيحه كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله رقم: ٧١٥٨، ٩٨/٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم باب الآبار على الطرق إذا لم يتأذ بها رقم: ٢٣٢٤، ٨٧٠/٢. ومسلم في صحيحه، كتاب السلام باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، رقم: ٥٩٦٦، ٤٤/٧.

(٣) انظر البيهقي في شعب الإيمان ٣١/٦، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٣٧/٦.

(٤) المكنل: الزنبيل الكبير، قيل إنه يسع خمسة عشر صاعاً. ابن الأثير النهاية في غريب الحديث، باب الميم مع الكاف.

عمر، لا والله لا يذوقه عمر، عليك بمكتلك»^(١). فقد امتنع عن الأكل الذي كان يشتهيهِ لما رأى من عذاب الدابة في سبيل إحضار ما كان يشتهيهِ، وإحساسه أنه قد حملها فوق طاقتها، فعاقب نفسه وشهوته حتى لا يعود لمثل ذلك الأمر رحمة بتلك الدابة.

٢. رحمة الصحابة بغير المسلمين

تعلم الصحابة ﷺ، من رسول الله ﷺ، أن يتخلقوا بأخلاق الرحمة في كل شؤونهم، ومنها معاملتهم لغير المسلمين، فقد عاشوا مع رسول الله، ورأوا معاملته لهم ورحمته إياهم، خاصة من كان منهم في موقف الضعيف، قال ابن القيم في زاد المعاد: وهبط عليه في صلح الحديبية ثمانون متسلحون يريدون غرته، فأسره ثم من عليهم، وأسر ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، فربطه بسارية المسجد، ثم أطلقه فأسلم^(٢). ولذلك فإن هذه التربية التي غرسها الرسول في أصحابه سيكون لها الأثر الكبير في نفوسهم ليعملوا بها بعده ﷺ.

٢-١. الرحمة بالأسير

سبق أن نقلنا في مقدمة هذا المبحث قولاً عن رحمة الرسول ﷺ، بغير المسلمين، وخاصة الأسرى منهم، وفي سير الصحابة ﷺ، نجد هذا التطبيق العملي لما عليه كتاب الله وسنة رسول الله في معاملة الأسرى، ومن ذلك ما أثر من أنه لما أسر الهرمزان، ملك الأهواز، وفد أبو سبرة وهو أمير الجيش، أنس بن مالك والأحنف بن قيس وأرسل الهرمزان معهم، حتى إذا دخلوا المدينة... فلما وقف أمام عمر قال عمر ﷺ: «ما عذرك وما حجتك في انتفاضك مرة بعد مرة؟ فقال: أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك قال: لا

(١) احمد في فضائل الصحابة ١/٣١٩ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/٣٠١.

(٢) ابن القيم في زاد المعاد ٣/١١٠.

تخف ذلك، واستسقى ماءً فأتي به في قدح غليظ فقال: لو مت عطشا لم أستطع أن أشرب في مثل هذا، فأتي به في إناء يرضاه فجعلت يده ترعد وقال: إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب فقال عمر رضي الله عنه، لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفأه فقال عمر رضي الله عنه: أعيديا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش فقال: لا حاجة لي في الماء إنما أردت أن استأمن به فقال عمر رضي الله عنه: إني قاتلك. قال: قد أمنتني، قال: كذبت. قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين قد أمنتك قال: ويحك يا أنس أنا أؤمن قاتل مجزاة والبراء بن مالك، والله لتأتين بمخرج وإلا عاقبتك. قال: قلت له: لا بأس عليك حتى تخبرني، وقلت: لا بأس عليك حتى تشربه، وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل على الهرمان وقال خدعتني والله لا انخدع إلا أن تسلم، فأسلم فعرض له على ألفين وأنزله المدينة^(١). فرغم أن الأسير هو ملك قومه، ورغم نقضه العهد مع المسلمين أكثر من مرة، فإن ذلك لم يجعل عمر ولا الصحابة الكرام ينتقمون منه، وعلى العكس من ذلك رحموا ضعفه وألبسوه الجيد من اللباس وكفلوا له كل الحقوق، كأنهم يدعونه إلى الإسلام بأخلاقهم، فأسلم وأصبح واحداً من المسلمين.

٢-٢. الرحمة في الجزية

فرض الإسلام الجزية على غير المسلمين، وهي ليست عقوبة لعدم الدخول في الإسلام، بل ضريبة لانتفاع غير المسلمين بالمرافق العامة، وضريبة الدفاع عنهم من أي: اعتداء خارجي، لأن الإسلام دين العدل والرحمة، وفي سير الصحابة رضي الله عنهم، يلاحظ القارئ كيف يلتزم الصحابة خلق الرحمة في هذه الفريضة ومن الأمثلة على ذلك:

في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه، في عقد الذمة لأهل

(١) أخرجه الطبري في تاريخ الرسل والملوك ٥٠٢/٢، وأورده الكلاعي في الاكتفاء ٢٩٤/٤، وابن الأثير في الكامل ٤٤٥/١، وأسد الغابة ٩٧٤/١.

الحيرة بالعراق وكانوا من النصارى: «وجعلت لهم أي: ما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله»^(١).

وكتب عمر بن الخطاب في أهل الذمة أن «من لم يطق منهم فخففوا عنه ومن عجز فأعينوه، فإننا لا نريد لهم لعام ولا لعامين». وتأكيداً لهذا المبدأ أبصر عمر شيخاً، يسأل، فقال: «مالك؟ فقال: ليس لي مال وأنا تؤخذ مني الجزية، قال: وهو شيخ كبير، فقال عمر: ما أنصفتك إن أكلنا شبيبته، ثم نأخذ منك الجزية، ثم كتب إلى عماله ألا يأخذوا الجزية من شيخ كبير»^(٢). كما كان ﷺ، دائم السؤال عن أحوال أهل الذمة، فقد قدم أحد عماله عليه بأموال الجزية، فوجدها عمر كثيرة، فقال لعامله: «إني لأظنكم قد أهلكتم الناس؟ قالوا: لا والله ما أخذنا إلا عفواً صفواً. قال: بلا سوط ولا نوط؟ قالوا: نعم. قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني»^(٣). وعندما حضرته الوفاة قال لمن اختارهم للخلافة: «أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتلوا من ورائهم، وألا يكلفوا فوق طاقتهم»^(٤). فهذه هي الأخلاق الإسلامية التي سطرها القرآن الكريم والسنة النبوية وطبقها الرسول أحسن تطبيق في سيرته العطرة، فسار أصحابه على نهجه القويم حتى أسسوا بذلك أعظم دولة حضارية عرفتها الإنسانية.

٢-٣. الرحمة بفقرائهم ومساكينهم

- (١) أبو يوسف في كتاب الخراج صفحة: ١٥٧
- (٢) ابن زنجويه في كتاب الأموال ١٦٢/١.
- (٣) أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الأموال صفحة ٥٤.
- (٤) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في السنن الكبرى ٢٠٦/٩. وخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز باب ما جاء في قبر النبي ﷺ رقم ١٣٢٨، ٤٦٩/١. بلفظ: وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم.

شملت رحمة الصحابة رضي الله عنهم، الفقراء، كل الفقراء دون تمييز بين عرقهم أو دينهم، فقد كانوا يحسنون إلى الفقير حتى وإن كان غير مسلم؛ فقد مر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، بباب قوم وعليه سائل يسأل: «شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي: أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألبسك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذه عند الهرم، إنما الصدقات للفقراء والمساكين، والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه»^(١).

٢-٤. الرحمة بصلة الأرحام منهم

من الرحمة بغير المسلمين صلّتهم إذا كانوا من الأرحام، وتعني: الإحسان إلى الأقارب وإسداء الخير لهم، وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم، على صلة الأرحام ولو كانوا غير مسلمين، قالت أسماء رضي الله عنها: «أتتني أمي راغبة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم، أن أصلها؟ قال: نعم. قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ)^(٢).

ومن التطبيقات العملية للرحمة بالأقارب غير المسلمين، ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «رأى عمر حلة سيرة تبع، فقال: يا رسول الله اتبع هذه، والبسها يوم الجمعة، وإذا جاءك الوفود، قال: إنما يلبس هذه من لا خلاق له. فأتي النبي صلى الله عليه وسلم، منها بحل، فأرسل إلى عمر بحلة، فقال: كيف ألبسها وقد قلت فيها ما قلت؟ قال: إني لم أعطكها لتلبسها، ولكن لتبعتها

(١) أبو يوسف الانصاري في كتاب، الخراج صفحة ١٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب صلة الوالد المشترك رقم ٥٦٢٣، ٥/٢٢٣٠.

أو تكسوها . فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم»^(١).

٢-٥. الرحمة بالجار غير المسلم

من رحمة الإسلام أنه لا يترك جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا وأمر فيه بالرحمة، ولم يغفل أي: جانب من جوانبها، فقد أمر الرسول بالاعتناء بالجار فقال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^(٢). قال القرطبي رحمه الله: «قلت: وعلى هذا: فالوصية بالجار مأمور بها، مندوب إليها، مسلماً كان، أو كافراً، وهو الصحيح»^(٣). وروى أبو شريح أن النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: يا رسول الله ومن؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه»^(٤). وعن أنس قال: «كان أحد جيران الرسول من اليهود، وكان الرسول يزوره، وذات مرة وهو في زيارته عرض عليه رسول الله الإسلام فأسلم، فخرج النبي فرحاً وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»^(٥). وهذا عام في كل جار. ومن أمثلة رحمة الصحابة للجار غير المسلم: أن شاة ذبحت في أهل عبد الله بن عمرو فلما جاء قال: «أهديتم لجارنا اليهودي؟ ثلاث مرات، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^(٦). كان هذا الجار مسلماً وغير مسلم.

٢-٦. الرحمة برهبانهم

وردت كلمة الرهبان في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ

- (١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب صلة الأخ المشرك رقم: ٥٦٣٦، ٥/٢٢٣٠.
- (٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الوصاءة بالجار رقم: ٥٦٦٩، ٥/٢٢٣٩. ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه رقم: ٦٨٥٤، ٨/٢٧.
- (٣) القرطبي في تفسيره ٥/١٨٤.
- (٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من لا يأمن جاره بوائقه رقم: ٥٦٧٠، ٥/٢٢٤٠.
- (٥) أخرجه أحمد في مسنده ٧٨/٢١، وأبو داود في سننه كتاب الجنائز باب في عيادة الذمي رقم: ٣٠٩٧، ١٥٢/٣، والنسائي في سننه، كتاب السير، باب عرض الإسلام على المشرك رقم: ٨٥٨٨، ٥/١٧٣.
- (٦) القرطبي في تفسيره ٥/١٨٨.

بأنَّ مِنْهُمْ قَسِيْسِيْنَ وَرُهْبَانًا ﴿ [المائدة: ٨٢] وراهب الكنيسة هو المتعبد المنعزل عن المجتمع، ومن صفتهم التقشف والاستغراق في العبادة، وقد كان الرسول ﷺ، ينهى أصحابه عن قتل كل من لم يشارك في الحرب من النساء والصبيان والشيوخ ونحوهم، ومن رحمة الصحابة رضي الله عنهم بهذه الفئة من غير المسلمين أن أبا بكر رضي الله عنه يوصي الجيوش الإسلامية بقوله: «وستمرون على قوم في الصوامع رهباناً يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم»^(١).

ومن رحمتهم بالرهبان في غير الحرب أن عمر رضي الله عنه، مر براهب فوقف ونودي بالراهب فقيل له: «هذا أمير المؤمنين، فاطلّع فإذا إنسان به من الضر والاجتهاد وترك الدنيا، فلما رآه عمر؛ بكى، فقيل له: إنه نصراني، فقال عمر: قد علمت، ولكني رحمته، ذكرت قول الله عز وجل: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية] رحمتُ نصبه واجتهاده وهو في النار»^(٢).



(١) الواقدي في فتوح الشام ٨/١، وسعيد بن منصور في سننه ٣٩٨/٥.

(٢) عبدالرزاق في تفسيره ٨٠/٨.

الخاتمة

وفي الختام نقول: إن ما قدمناه من نماذج لتطبيقات الصحابة لقيم الرحمة، ما هي إلا قطرة في بحر من سيرة الصحابة، فلا يستطيع الباحث أن يلم بها في بحث أو أكثر، لأن سيرة كل صحابي تمثل مدرسة إسلامية في التربية على خلق الرحمة، وسيجد الدارس لها كل ما يحتاج إليه من مبادئ ونماذج يقتدي بها من يريد أن يصل إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، فردا كان أو جماعات، لنصل إلى تلك الثمرة الطيبة التي هي الإنسان المسلم، وبالنتيجة المجتمع الإسلامي الفاضل. ولقد خلصت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- أن قيمة الرحمة في مجتمع الصحابة قيمة مركزية تنبثق منها مجموعة كبيرة من القيم الفرعية.
- أن الصحابة رضي الله عنهم يلتزمون بقيم الرحمة في كل تجلياتها، ويطبّقونها في كل مجالات الحياة.
- سيرة الصحابة تشتمل على عدد كبير من نماذج عملية لتطبيقات الرحمة التي من واجبنا كشفها للاستفادة منها، سواء في مجال التربية بمجتمعاتنا، أو في مجال دعوة غير المسلمين إلى هذا الدين العظيم.

• سيرة كل صحابي من صحابة رسول الله ﷺ، تمثل مدرسة إسلامية في التربية على قيم الرحمة في مجتمعاتنا .

الاهتمام بدراسة قيم الرحمة في سيرة الصحابة تعرف أجيالنا على فترة من حياة جيل شهد فجر انبثاق الإسلام، اصطفاهم لصحبة نبيه ﷺ ، ونشر رسالته من بعده فاعتبروا بذلك من خيرة البشر والناس ليكونوا قدوة صالحة للاقتداء بها .

وأختم بحمد الله تعالى على الهداية إلى الكتابة في هذا الموضوع، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .



فهرس المصادر والمراجع

١. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري، دار البشائر الإسلامية - بيروت ط٣، ١٤٠٩ - ١٩٨٩.
٢. إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، محمد بن أبي بكر الزرعي تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت ط٢، ١٣٩٥ - ١٩٧٥.
٣. الأموال، لابن زنجويه أبو أحمد ابن زنجويه تحقيق: شاعر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٤. تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٣١٠هـ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ دار المعارف، مصر.
٥. تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساکرت: ٥٧١هـ تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٥هـ.
٦. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤هـ.
٧. الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت.
٨. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.



٩. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني ٤٣٠هـ، دار الكتب العلمية بيروت ط١/١٤٠٩هـ-١٩٨٨.
١٠. الخراج، أبو يوسف الأنصاري، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، سعد حسن محمد المكتبة الأزهرية للتراث.
١١. ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري، مكتبة القدسي عن نسخة: دار الكتب ١٣٥٦هـ.
١٢. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي ٩٤٢هـ، تحقيق: إبراهيم الترزي وعبدالكريم العزباوي ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، لجنة إحياء التراث الإسلامي بوزارة الأوقاف القاهرة.
١٣. سنن أبي داود سليمان بن الأشعة السجستاني ٢٧٥هـ، علق على أحاديثه ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ط٢. ١٤١٧هـ.
١٤. سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١٥. سنن الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي - بيروت ط١، ١٤٠٧هـ.
١٦. السنن الكبرى، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت ٤٥٨هـ، دار المعروفة بيروت. ط١ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الهند ١٣٥٦هـ.
١٧. سنن سعيد بن منصور، أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني ت: ٢٢٧هـ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٢م الدار السلفية - الهند.

١٨. السيرة النبوية بتهديب ابن هشام، مراجعة صدقي جميل العطار وسعيد محمد اللحام، ط ٣ دار الفكر ١٤١٩هـ-١٩٩٨.
١٩. شعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ٤٥٨هـ، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١ / ١٤٢٤هـ-٢٠٠٠م.
٢٠. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لعلاء الدين علي بن بلبان الفارسي ٧٣٩هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ط ٢ ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٢١. صحيح البخاري، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ٢٥٦هـ، ط ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، دار الفكر، بيروت.
٢٢. الطبقات الكبرى، ابن سعد، دار صادر بيروت.
٢٣. فضائل الصحابة، لأبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل ٢٤١هـ، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، جامعة أم القرى، السعودية ط ١ / ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م
٢٤. ابن القيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت ط ٢، ١٢٩٥-١٩٧٥.
٢٥. محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي - بيروت ط: ٣، ١٩٨٥.
٢٦. المستدرک على الصحيحين، للحافظ أبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: حمدي الدمرداش، محمد المكتبة العصرية ط ١ - ٢٠٠٠م.
٢٧. مسند الإمام أحمد بن حنبل ت ٢٤١هـ، شرحه وصنع فهارسه: أحمد محمد شاکر وأکمله حمزة الزین، دار الحديث القاهرة ط ١٩٩٥ / ١٤١٦هـ.



٢٨. مشكاة المصابيح.

٢٩. المصنف، للحافظ أبي بكر عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن أبي

شيبه ٢٣٥هـ، تحقيق: حمد بن عبدالله الجمعة ومحمد بن إبراهيم

اللحيان، مكتبة الرشد، ط ١ سنة ٢٠٠٤م.

٣٠. الموطأ، لمالك بن أنس ١٧٩هـ تحقيق: محمد محمد تامر، مكتبة

الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١ / ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.



عمر بن الخطاب

بين

مثالية الأسس وواقعية السياسة

إعداد:

د. مجدي محمد إبراهيم شفيق

كلية العلوم والآداب للبنات - محايل



المقدمة

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً. ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين.

لا توجد شخصية إنسانية أثرت وأثمرت خيراً في تاريخ البشرية مثل عمر بن الخطاب، فعمر بن الخطاب ليس نبياً مرسلًا معصوماً، لكنه يعد القائد الإنساني المستحق أن يوضع في مكانه التاريخي من جهة سلوكه الأخلاقي، ولقد نال من الغرب هذا الانتباه لهذا الدور لذلك كان عمر من الخالدين المائة في تاريخ الإنسانية عند صاحب كتاب: "الخالدون مائة أعظمهم محمد" إذ يقول عن عمر: "كان عمر خليفة حكيماً وسياسياً بارعاً، وقد رأى أن تظل قوات المسلمين بعيدة عن المدن تعيش في الثكنات، وفرض على المسيحيين الزكاة أو الجزية إذا لم يعتنقوا الإسلام، وهم أحرار في ذلك، ولم يفرض الإسلام على أحد بالقوة، ومن هذا يبدو واضحاً أن حروب العرب كانت حروباً قومية، ولم تكن حروباً دينية تفرض الإسلام بالسيف".⁽¹⁾

هذه نقطة انطلاق هذا البحث ليس عن دفاع بل عن تقرير حقائق التاريخ،

(1) المائة. مايكل هارت. ترجمة أنيس منصور. المكتب المصري الحديث. القاهرة ١٩٨٥م.

وهذا أمر أراه بالغ الأهمية حيث تعددت مقابلاتي مع بعض المستشرقين في داخل العالم الإسلامي وخارجه في مؤتمرات دولية، وتأكدنا من أن التاريخ الإسلامي مغيب لدى الغرب وعن قصد، ليظل حصر الإسلام في أنه مماثل لغزوات التتار، من هنا وجب علينا أن ندرك مدى القصور الذي أوقفنا البعض فيه حين جعلوا تقرير: «أن الإسلام قرآن وسيف» يعارض «أن الإسلام أخلاق ومعاملات» وأنه لم يسع الناس إلا الأخلاق والرحمة والسلام: فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسْعَهُمْ مِنْكُمْ بِسَطِّ الْوَجْهِ، وَحَسَنِ الْخَلْقِ»^(١).

ودائماً ما نقع في تعيين المجرد وتجريد المعين، فنحيل تاريخ عمر بن الخطاب الواقعي الملتزم إلى صورة خيالية مجردة وكأننا نستدعي وهماً، أو نضيف قصصاً نستدل على قوة تأثير عمر في التاريخ الإنساني، ولذلك سنهدف إلى تجاوز تلك المفارقة الخطرة فعمر بن الخطاب ليس مشروعا سياسياً وليس نموذجاً نجعله مقياساً للحكم وما عداه يكون خارج دائرة الإسلام، فهو في هذا البحث هو علامة الرحمة الشاملة، فلا توجد لديه مفارقة [paradox] بين العدل والرحمة، فالعدل لا يتجزأ وإلا يكون سياسة متغيرة نسبية كالدبلوماسية، بمعناها الأصلي في نسبية القيم: ”الذي استعمله الرومان لكلمة دبلوماسية، والذي كان يفيد عن طباع المبعوث أو السفير، وقصدت باللاتينية بمعنى الرجل المنافق ذي الوجهين“^(٢).

فعمر ليس قيمة سياسية بمعناها النفعي، بل هو تجسيد للقيم المطلقة

(١) مسند البزار. رقم ٩٦٥١ وهذا الحديث لَا نَعْلَمُ رواه عن ابن إدريس، عن أبيه، عن جده، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا أَسْوَدُ بْنُ سَالِمٍ وَكَانَ ثَقْفًا بَغْدَادِيًّا. والحديث علق عليه ابن حجر في فتح الباري رقم ٦٠٢٧: عن أبي هريرة سئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال (تقوى الله وحسن الخلق) وللبزار بسند حسن من حديث أبي هريرة رفعه: (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق).

(٢) <https://goo.gl/xt17UN>



في شمولها وفي سيادتها عليه قبل أن تكون على الجميع، والجميع هذا كل من عاش في الدولة العظيمة التي أسست بمنهج سماوي حقه الرسول ﷺ، وسار على خطاه أبو بكر الصديق والفروق، عمر، لذلك فلا مفارقة بين موضوع البحث وتأسيس رؤية في الرحمة عند الفروق وهي رؤية علمية متكاملة الأركان، سامية الأهداف، عنوانها الرحمة، ومنهجها للتحقق: سيادة العدل الناجز. كذلك فإن عنوان البحث لا توجد أية مفارقة فيه بالنسبة لعمر بن الخطاب، قد توجد تلك المفارقة في العالم كله وأقول قد، لكن عند عمر لا توجد، فمثالية الأسس واضحة، فكل فهمه للأصول الدينية الإسلامية ينطلق من مثالية سامية، حيث يرى أن العدل يمكن تحقيقه وتحقيقه من خلال فهم النصوص الإسلامية كنص مقدس وكنهج للحياة، ومن هنا تأتي واقعية السياسة عنده، كما أنه لا يمثل حالة وهمية ولم نضع -نحن- له صورة مثالية تكتب ولا تتحقق، بل هو حقق النص في واقع الحياة على الجميع.



الفصل الأول

أسس الرحمة عند الفاروق

القدوة - العلم - العدل

أولاً القدوة:

الرحمة عطية إلهية يهبها الله لمن يشاء: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُن لَّهُمْ وَلِيٌّ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وكذلك هيمنة إلهية لا يوجد العلم والعدل بغيرها: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحِمَةٌ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف]. فقد دعا أصحاب الكهف الله أن يمن عليهم بالرحمة، لأنها مقدمة العلم والرشد، وهذا ما بينه المولى عز وجل: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف]. فالعبد الصالح آتاه الله الرحمة من عنده ثم علمه من لدنه علماً، ومن ثم فإنه لم يعدل ويحقق العدل إلا بتلك الرحمة وتاليها العلم، فقد منع ظلم الحاكم الذي يأخذ كل سفن الناس غصباً، وأيضاً منع الإرهاق الذي سيصيب أهل الغلام الذي يظلم أهله ولا يبرهما حتى أنه قد يرهقهما طغياناً وكفراً، وكذلك رحمته وعلمه جعلاه يحقق العدل ويمنع ضياع حق الغلامين، وقد نسب فعل الخير لله: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] فأرادة الله هي التي تهيمن على الكون باسم الله الرحمن الرحيم، هكذا أراد سبحانه



وبدأ كتابه الكريم كمصحف خالد بين أيدي الناس بسورة الفاتحة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝۱ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝۲ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝۳﴾ [الفاتحة] فالأصل الأول للقدوة القرآن الكريم، والأصل الثاني الرسول: ﴿أَمَّنْ هُوَ قِنْتُءَانَاءَ الْبَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝۶﴾ [الزمر]. فالرسول يرجو رحمة ربه لأنها أساس العلم الذي هو مكلف بإبلاغه لأنه لا يستوي من يعلم ومن لا يعلم، بل إن الأصل يبين أن الله سبحانه وتعالى ﴿رَبِّنَا وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، فاقتران العلم بالرحمة أمر مقصود لحكمة فلا يمكننا التغافل عن هذه العلاقة، لأننا لا نتكلم عن عمر كفرد ولا كأب ولا كشخص متميز بين أهله، نحن نتكلم عن عمر بن الخطاب الذي تحقق في عهده وجود دولة للإسلام عالمية باقية إلى اليوم، وعمر لم يكن مشهوراً باللين، بل مشهور بالحزم والحزم والشدة، فوجود القدوة أمامه كانت تعده لمسؤولية قيادة أمة ستبقى بفضل الله إلى يوم القيامة، فكيف نظر عمر لقدوته؟ إنه يلتزم بها حتى وإن لم يفهم حكمة القول أو الفعل، فقد ذكر عابس بن ربيعة، عن عمر رضي الله عنه: أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله، فقال: «إني أعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك». (١) وأما فيما يعلم تمام العلم بأنه أساس القيادة، فهو به ألزم، وعلى الاتصاف به أدوم، فالرحمة هي الرسالة الخاتمة التي حدد الله عز وجل للرسول فيها مهمته وصفته ودوره الأساس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝۱۷﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فعالمية الرحمة خاصة القادة، وهذا ما بينه الأسوة الحسنة: «من لا يرحم الناس، لا يرحمه الله عز وجل» (٢)، فمن يرحم خاصته ويقسو على الآخرين مريض بانفصام في الشخصية، ومن يرحم من أعلى منه ويقسو على من أدنى منه

(١) صحيح البخاري رقم ١٥٧٩.

(٢) صحيح مسلم رقم ٢٣١٩. كتاب الفضائل. وهناك أحاديث عديدة في الباب لكن هنا لفظ الناس يشمل العامة.

مريض بالمازوخية، ومن يقسو على الناس مريض بالسادية^(١) فالرحمة من علامات القيادة الناجحة، ودليل اتزان الشخصية في مواجهة الحياة بكل تنوعها بالنسبة للقائد العالمي، فالرسول تعرض لموقف شديد الاختبار حين نال حمزة بن أبي طالب الشهادة في غزوة أحد على يد قاتله وحشي؟ بن حرب، وأسلم وحشي بعد ذلك فقدم على رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: «أنت وحشي» قلت: نعم، قال: «أنت قتلت حمزة؟» قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: «فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني»^(٢) فحمزة مسلم حسن إسلامه دافع عن هذا الدين حتى نال الشهادة، وهو ابن عم رسول الله ﷺ وحببيه ومع تحمل الرسول الموقف كقائد ولم يفعل أي شيء يخالف معنى العدالة وجوهر القيادة العالمية، فتجاوز عن حقه الإنساني لكنه اختار ألا يذكره وجه وحشي بموت حمزة. وفي كل هذا تعليم للقادة من بعده في شمول الرحمة حتى مع من قتلوا أحب وأقرب وأخلص وأصدق الناس. والفاروق عمر تعرض لنفس الاختبار، فكان موقفه هو الالتزام بسنة الرسول، فلم يتجاوز في حق المجتمع ولم ينتقم لنفسه برغم أنه كان ضحية المجوسي الخائن. كما أنه تعرض للطعن في عدالته كما حدث مع رسول الله ﷺ: فعن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ كان يقبض للناس في ثوب بلال يوم حنين يعطيهم، فقال إنسان من الناس: اعدل يا محمد، فقال ﷺ: «ويلك إذا لم أعدل فمن يعدل لقد خبت وخسرت إن لم أعدل» قال: فقال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال

(١) ازدواج الشخصية مرض نفسي عصبي من أعراضه: «أوهام وهلوسة وأفكار غريبة وسلوك غريب. تقلبات فجائية في المزاج مع برودة في المشاعر. عدم القدرة على العمل والاتصال بالمجتمع. هياج واضطراب نفسي. أحيانا نوبات عنف. انسحاب شديد من الحياة. انظر: <http://goo.gl/BHgeds>.

والسادية والمازوخية: هما صورتان من صور الاضطراب النفسي. وتعرف السادية على أنها اضطراب نفسي يتجسد في التلذذ بإيقاع الألم على الطرف الآخر. أي: التلذذ بالتعذيب عامة، بينما المازوخية فهي اضطراب نفسي يتجسد في التلذذ بالألم الواقع على الشخص نفسه. أي التلذذ بالاضطهاد عامة. وعموماً فإن السادية والمازوخية يعتبران من الاضطرابات النفسية التي تستوجب العلاج. انظر: <https://goo.gl/5GVyAZ>.

(٢) صحيح البخاري حديث رقم ٤٠٧٢.



ﷺ: «معاذ الله، أن يتحدث الناس، أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحاباً له، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم»^(١). تكرر هذا الموقف مع عمر فقد «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً»، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: «فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر»، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف]، وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله»^(٢) فعمر كاد أن يقتل الطاعن في عدالة الرسول، فلما رأى عفو الرسول عنه اقتدى هو بذلك حين كان الحكم له فذكره أحد الصحابة بكيف علم الله رسوله العفو فالتزم عمر الأصول الشرعية بطاعة فطاعته للرسول هي طاعة لله^(٣)، فالرسول أمره الله بالعفو وأمره بالرحمة، فالرحمة مع المخالف، والرحمة عند الغضب، والرحمة حين يُظلم الحاكم فيمنع غضبه ويحلم مع الظالم المعتدي^(٤)، فعمر لم يفهم القدوة بالرسول أنها العمل بالنص فقط، بل بفهم تبعات النص كمنهج حياة تختلف للقائد عن رب أسرة يتحرك وينفعل بعوامل غريزية ضيقة الأفق، عمر كان يعد إعداداً إلهياً ليكون قائداً لهذه الأمة في أخرج مراحل وجودها.

(١) صحيح البخاري رقم ٤٨١٩.

(٢) صحيح البخاري رقم ٤٦٤٢.

(٣) العقيدة علم. مجدي محمد إبراهيم ص ١٢٣.

(٤) انظر: مناقب عمر بن الخطاب ابن الجوزي، ص ١٢٦ تقديم عاطف عبدالوهاب. دار الكتب

العلمية. بيروت ٢٠١١م.

ثانياً العلم:

الرحمة كيان شامل من أهم أسسه العلم كأساس لتحقيق الرحمة، فالرحمة من غير علم قد تصبح نسبية، فما يبدو أنه رحمة لفلان قد يكون قسوة لفلان، بينما الرحمة القائمة على العلم تكون عدلاً شاملاً، ولذلك كان عمر عالماً فقد كان ملهماً بالعلم كما كان مشمولاً برحمة الله ممنوحاً تلك الهبة الإلهية، فالعلم عند عمر عمل مكتسب بالتقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ومن تقواه استحق الإلهام والإلهام مصدر من مصادر المعرفة اليقينية: فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحد، فإنه عمر» زاد زكرياء بن أبي زائدة، عن سعد، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال، يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمرو»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من نبي ولا محدث»^(١). فهذا الإلهام يرسخ عقيدة المستحق للإلهام، فمهما حاول الشيطان أن يلقي في أمنية الملهم من الوسوس فإن الإلهام الإلهي عاصم والله غالب على أمره، وهذا ما بينه رسول الله ﷺ مخاطباً عمر: «والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك»^(٢) وذلك من قوة عقيدته وصدق لهجته، وقد اختص رسول الله ﷺ عمر بكثير من الأحاديث التي ذكرت في صحيح كتب الحديث النبوي، تبين قوة الدين في نفس عمر فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «بيننا أنا نائم رأيت الناس عرضوا علي، وعليهم قمص، فمنها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعرض علي عمر وعليه قميص اجتره»، قالوا: فما أولته يا

(١) صحيح البخاري رقم ٣٦٨٩.

(٢) صحيح البخاري رقم ٢٢٩٤.

رسول الله قال: «الدين»^(١)، وهذا الدين علم، ولم يكن من صفة أكثر ذكراً عن الدين الإسلامي مثل صفة العلم: «أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^(١٣) فَأَيُّمُ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَمْ أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»^(١٤) [هود] فالدين عند عمر ليس ظاهريات السلوك فقط، وليس مثلاً راقياً متعالياً، بل هو منهج حياة واستدلال معرفي بحسب تكليف القائم بالفعل وحسب دوره في الحياة فقد قال رجل لعمر بن الخطاب: إن فلاناً رجل صدق، فقال له عمر: هل سافرت معه؟ قال: لا، قال: فهل كان بينك وبينه معاملة قال: لا، قال: فهل اتّمنتته على شيء قال: لا قال: فأنت الذي لا علم لك به، أراك رأيته يرفع رأسه ويخفض في المسجد»^(٢)، العلم هو من يوجب العمل، بالقيم المطلقة، وإلا فإن المعاند للعلم فاقد لوسائل المعرفة على وجهها المستحق، وعمر بن الخطاب جعل العقل محل التكليف أداة فاصلة في وجوب العمل فقد روى أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم، أتيت بقدر لبن، فشربت حتى إنني لأرى الري يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب» قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: «العلم»^(٣). فلقد حدد عمر شرط القيادة والعدالة والرحمة فقال: «تفقهوا قبل أن تسودوا»^(٤)، فالعلم وضده الجهل، والعدل وضده الظلم، والجهل ظلم، إذا فالعلم يؤدي إلى تحقق مناخ العدل، وكلما عمل العالم بالعلم حقق العدل وتحقيق العدل هو عين الرحمة، وإذا عاند العالم العلم فقد انتفى عنه العلم ومن ثم فارتكابه للظلم متيقن. إذاً فهي منظومة متكاملة تحققت في عمر: ديناً، علماً، عدلاً، وقيادة وسيادة وإمارة وخلافة.

(١) صحيح البخاري رقم ٣٦٩١.

(٢) كنز العمال رقم ٢٥٥٦٩. جامع الأحاديث مسند عمر بن الخطاب رقم ٣٠٤٣٣. والحديث ذكر في عدة مصادر ومراجع بألفاظ مختلفة، لكن تجمع معنى يقرن القول والفعل: المثال والتطبيق.

(٣) صحيح البخاري رقم ٨٢.

(٤) صحيح البخاري ج ١ ص ٢٥. باب الاغتباط في العلم. وانظر: الحوادث والبدع. أبو بكر الطرطوشي ص ٨٠.

ثالثاً: العدل:

العدل عند عمر بن الخطاب هو ألزم بالقسط حيث يشمل العدل الظاهر والباطن، فالعدل لا يكون إلا بالعلم كي يكون أقسط، وليس له هدف إلا الرحمة، فالقسط هو العدل البين الظاهر ومنه سمي المكيال قسطاً والميزان قسطاً لأنه يصور لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهراً وقد يكون من العدل ما يخفى ولهذا قلنا: إن القسط هو النصيب الذي بينت وجوهه وتقسط القوم الشيء تقاسموا بالقسط.^(٥) عمر رأى أن العدل المظنون لا يحقق في المجتمع الرضا ويسبب السخط الذي هو باب واسع لفقدان الانتماء للمجتمع ومن ثم يؤدي إلى فقدان المجتمع لهويته: أي: يصبح لا مجتمع، بل يصير شتاتاً متنازلاً في مرحلة ثم متقاتلاً في مرحلة أخرى، ولذلك تيقن العدل في نفس عمر وعقله وقلبه، فقد روى الحسن أن رجلاً قال لعمر: «اتق الله يا أمير المؤمنين، فوالله ما الأمر كما قلت، قال: فأقبلوا على الرجل فقالوا: لا تألت أمير المؤمنين، فلما رأهم أقبلوا على الرجل قال: دعوه، فلا خير فيهم إذا لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم تقل لنا».^(٦)

فلا نسبية في العدل عند الفاروق، فسيادة الشرع على الجميع وقبول النصح ويقينية تحقق العدل فيما يجب العدل فيه وتحقيق المساواة فيما يجب بسط المساواة فيه، فالله وهبه فهم كيفية تحقيق العدل كما جعل الله الفهم نعمة على سليمان نبي الله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾^(٧) فَهَمَّهَا سُلَيْمَانُ وَكَأَلًا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]^(٧) ، وقد جعل الله الحق على لسان عمر

(٥) انظر: معجم الفروق اللغوية رقم ١٧٢٠ الفرق بين القسط والعدل ص ٤٢٨ .

(٦) تاريخ المدينة لابن شبة ج ٢ ص ٧٧٢ .

(٧) انظر: سنن الترمذي حديث رقم ٣٦٨٢ عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» . حكم الألباني: صحيح . انظر: صحيح الجامع الصغير ١٧٣٧ .

وقلبه فلا يوجد لديه أي تناقض أو انفصام أو تردد أو هوى حين يتوجه للحق والعدل، ولقد حفلت كتب التاريخ والسير بالعديد من صور وأمثلة لتطبيق العدل عند عمر، لكننا رأينا أن ننظر في الأسس المؤدية إلى ثبات التوجه بحيث يصبح العدل هو الهدف الثابت الناتج عن إرادة نقية وعلم يقيني بقيمة العدل الذي يحقق مضمون الرسالة الإسلامية، ولذا قيل عن عمر: «كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت إمامته رحمة»^(١)

فبرغم كل ما قيل عن شدة وحزم عمر إلا أن مسيرة حياته كلها تعبر عن الرحمة فبإسلامه رفع التعذيب والاضطهاد عن فقراء المسلمين الذين نالوا من المشركين أنواعاً وأشكالاً من الظلم السادي البالغ العنف، وبهجرته كانت فارقاً بين مرحلة الإعداد إلى مرحلة الدعوة وبشائر قيام دولة الحق والخير والرحمة.

عندما نتكلم عن عمر فلا نقصد أن نضع صورة مثالية ترهق كاهل حكامنا في مجتمع دولي شديد العداء لكل ما هو إسلامي، وكذلك فإننا لا نلمز حكام الأمة إنما نريد الرحمة للجميع، نريد العدل من الجميع، فهذا هو الهدف من ذكر مسيرة الرحمة في سيرة الفاروق عمر، نرحم حكامنا وندعو الله أن يهبهم الحق على لسانهم وفي قلوبهم، فبعض من يطلبون الزهد من الحكام يعيشون في قصور لا يعيش فيها الحكام، ولديهم من الحرية ما ليست للحكام وتحت ولايتهم أعداد قليلة من العمال لم يحققوا

(١) أخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر، وابن سعد عنه أيضاً قال: كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت إمامته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصل إلى البيت حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا وخلوا سبيلنا وأخرج ابن سعد والحاكم عن حذيفة قال: لما أسلم عمر كان الإسلام كالرجل المقبل لا يزداد إلا قوة فلما قتل عمر كان الإسلام كالرجل المدبر لا يزداد إلا بعداً، والطبراني عن ابن عباس بسند حسن أول من جهر بالإسلام عمر ابن الخطاب. وأيضاً ابن سعد عن صهيب قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام ودعي إليه علانية وجلسنا حول البيت حلقاً وطفنا بالبيت وانتصفنا فمن غلظ علينا رددنا عليه بعض ما يأتي به، الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة بن حجر الهيتمي ج ١ ص ٢٦٩. وانظر: تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي. ج ١ ص ٩٣. وانظر: تهذيب الأسماء واللغات. النووي ج ٢ ص ٤.

لهم أدنى درجة من العدل، بينما يرهقون الحكام بطلب الاقتداء بعمر، وعمر وهب من الصفات ما لم يرزق به غيره. فالعدل في تناولنا لشخصية وقيادة ومنهج عمر لا يجعلنا نظلم مخلوقات الله التي لم تتل من نعم الله ما ناله الفاروق، لكن نحن نذكر أنفسنا أولاً وعمامة المسلمين ثانياً بقيم خالدة من التطبيقات العملية التي لم تتعارض مع النصوص الشرعية ولا مع الواقع.



الفصل الثاني ظاهريات الرحمة العامة عند عمر بن الخطاب

الوثيقة الأولى:

المولى عز وجل ذكر اسم وصفة الرحمن في كتابه الكريم ٤٥ مرة، وذكر اسم وصفة الرحمة ٣٤ مرة، وأجمع معظم المفسرين أن (الرحمن) ذي الرحمة العامة الذي وسعت رحمته جميع الخلق، (الرحيم)، بالمؤمنين وهما اسمان من أسماء الله تعالى^(١)، فالرحمة العامة من أهم معالم شخصية القائد العالمي الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، فالقائد العالمي لا يتعامل مع مؤمنين فقط، بل يتعامل مع مساحة عريضة من الأرض بكل من فيها، فقد بلغت الدولة الإسلامية الصين في قلب آسيا وشملت شمال أفريقيا وكل العراق وفارس وكل الشام، وكان ضمن شعوب تلك البلاد من بقي على دينه المخالف لدين الإسلام، فكانت رحمة عمر تاريخاً عالمياً سطرته كتب التاريخ في كل دول، ففي فتح القدس في أبريل ٦٣٧م بعد حصار طويل، وجاء عمر شخصياً لاستلام مفتاح المدينة من قبل بطيريك الروم الأرثوذكس «صفرونيوس»، ودعا عمر إلى تقديم مصلى للمسلمين في كنيسة القيامة، اختار عمر أن يصلي على مسافة من الكنيسة، حتى لا يعرض مكانتها

(١) التفسير الميسر ج ١ ص ١٠١.

للخطر باعتبارها معبداً مسيحياً. وقد سمح عمر لليهود في ممارسة شعائرهم الدينية بحرية والعيش في القدس، وكانت الوثيقة العمرية التي تعد أهم وثيقة تاريخية في رحمة أهل البلاد المفتوحة التي حاربت الدولة الإسلامية بشراسة، وكانت جيوش الفتح بقيادة عمرو بن العاص، وأبو عبيدة بن الجراح تتجه بحزم نحو القدس، وكان اسمها «إيليا» واشتباك جيش الفتح مع الروم في معركة أجنادين، وانتصر فيها بعد قتال شديد، وفر كثير من الروم، وأقام جيش الفتح أربعة أشهر في حصار القدس بثبات وقوة، ورأى أهل القدس أنه لا فائدة من إطالة الحصار، فعرضوا على البطريرك أن يتفاهم معهم، فأجابهم إلى ذلك، فعرض عليهم أبو عبيدة بن الجراح إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو القتال، فرضوا بالجزية، ولكنهم شرطوا شرطاً واحداً أن يكون الذي يتسلم المدينة المقدسة هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لثقتهم في عدله ورحمته، فرحب الفاروق عمر بالسلام وحفظ الدماء، وتوجه إلى بيت المقدس، فدخلها سنة ١٥هـ الموافق ٦٣٦م، وكان في استقباله "بطريرك المدينة صفرونيوس" وكبار الأساقفة، وتفاوض الجميع على شروط التسليم وانتهوا إلى إقرار تلك الوثيقة التي تعد أهم وثيقة تاريخية تحقق العدل والرحمة على جيش محارب مهزوم، وتدل دلالة واضحة على منهج الرحمة الذي جاء به محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين وقد اشتهرت تلك الوثيقة بالوثيقة العمرية وهذا نصّها الذي أجمعت عليه المصادر التاريخية:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم

ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضام أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأماتهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم (ويخلى بيعهم وصلبهم)، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأماتهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة خمسة عشرة هـ.^(١)

هذه الوثيقة تحتوى على ميثاق الرحمة الشاملة التي تحفظ كل حقوق

الإنسان:

١. حق الإنسان في أمنه، ونفسه، وماله، ودار عبادته، وحتى إذا كانت تلك العقائد مخالفة لعقيدة المنتصر الفاتح، وأمان لكل من في الأرض المفتوحة: لمريضهم وصحيحهم وكل ما يتلق بملتهم، ولا تهدم دور عبادتهم ولا تصادر.

(١) انظر: تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٦٠٩. هذا المصدر الأساس للوثيقة الموجودة في معظم مكتبات العالم. اطلعت على مئات المراجع لم تذكر معظمها المصدر ومن ذكر لم يوثقه. وانظر: <http://goo.gl/buzaCl>. وانظر: قول ابن القيم رحمه الله بعد أن ذكر الشروط العمرية: وشهرة هذه الشروط تغني عن إسنادها فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكرها في كتبهم واحتجوا بها ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذهها بعده الخلفاء وعملا بموجبها. "أحكام أهل الذمة" (٣/ ١١٦٤). وانظر: <http://goo.gl/JN2R1m> ذكر في هذا الموقع أهل الحديث: ملاحظة: مازالت هذه الوثيقة محفوظة في كنيسة القيامة بالقدس.

٢. لا يكره أهل الأرض المفتوحة على الدخول في عقيدة الفاتح.

٣. من أراد أن يخرج من الأرض المفتوحة بماله فله ذلك، ويؤمن على نفسه وماله حتى يخرج بكل ما يملك.

وبتدبر تلك الشروط الجامعة لا يمكن لنا أن نجد في أي موثيق دولية تلك القيم العادلة التي تجسد الرحمة في أجل صورها التطبيقية، فلقد أرسى عمر بتلك الوثيقة منهجاً طُبق في العالم الإسلامي إلى اليوم، فلا توجد دولة إسلامية تعتدي على أي صاحب عقيدة أو ملة، أو تجبر أحداً منهم على اعتناق الدين الإسلامي حال احتياجه للعمل في تلك الدول، وهذه الصورة واضحة تماماً في المملكة العربية السعودية، حيث يوجد بعض العاملين من خارج المملكة ويعتقون ديانات أخرى غير الإسلام، ومع ذلك لا يتعرض لهم أي مواطن سعودي بالأذى ناهيك عن التزام الدولة بذلك في كل مؤسساتها بصورة مثالية لا توجد في أي بلد في العالم الغربي الذي يدعي الحرية والعدل والمساواة.

ومع عدالة ورحمة تلك الوسيلة إلا أن بعض المرضى من المستشرقين والمنصرين يرونها مجحفة بحقوق النصارى، والرد على هؤلاء يتلخص في كلمات قليلة نوجهها إليهم: قدموا لنا أي ميثاق تعاملتم به حين حاربتهم أية دولة إسلامية؟ فلا يوجد أية وثيقة شرف لتقارن بما أفاد به عمر البشرية جمعاء، بل عاثت تلك الدول خراباً في العالم الإسلامي، ولم تترك حرمة إلا وقد انتهكتها.^(١)

ومن المفارقات الغربية حول تلك الوثيقة أن بعض المسلمين ينفي

(١) انظر: تعسف موريس رمسيس - العهدة العمرية

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp%3Faid%3D232514>

وأيضاً عزت اندراوس <http://goo.gl/BJ3fQC>

وجودها أصلاً معتمداً على مقدمات باطلة^(١) حيث يذكر (د.عبادة كحيله) أن الوثيقة لم تذكر في كتب المؤرخين مثل الطبري وهذا خطأ، لأن الطبري ذكرها في تاريخ الرسل والملوك، وقد وثقنا ذلك سابقاً، لكن الباحث لم يستطع الوصول للمصدر، لأنه اعتمد على كتب لم تستطع الوصول للمصدر.

كما أن الباحث يرى أن الوثيقة العمرية لم تطبق إلا سنة ٧٠٠ هجرية، وهذا غير صحيح بدليل وجود عدة كنائس ومعابد قديمة قبل الحملات الصليبية تدل على أن عمر بن الخطاب حافظ على تلك الدور تطبيقاً لتعهدة بذلك في تلك الوثيقة، وهي التي طبقها معاوية في كل البلاد المفتوحة، ومن بعده كل الملوك الأمويين والعباسيين، وكل ذلك كان قبل التاريخ الذي ذكره الباحث.

كما أن نصوص الوثيقة لا تخالف الأصول الإسلامية، بل إن الرسول ﷺ بين منهج التعامل في مثل هذه الحالة حين تجاوز عن مشركي مكة وقال: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن"^(٢)، وبرغم أن الكلمة الشهيرة التي نسبت للرسول ﷺ وهي: "أذهبوا فأنتم الطلقاء" قد أشار علماء الحديث بأنها ضعيفة الإسناد، إلا أن الواقع الذي حدث هو عفو ﷺ عن المشركين، وهذا هو ما خطه عمر في وثيقته فقد وضع الخليفة عمر بن الخطاب شروط العهد العمري بشكل متسق مع روح الشريعة الإسلامية.^(٣) التي تؤكد قيمة العفو في بناء

(١) انظر: كتاب «عهد عمر.. قراءة جديدة» للدكتور عبادة كحيله: «العهد العمرية غير موجودة أيضاً في كتابات كبار المؤرخين المسلمين أمثال الطبري» وقوله: «رغمًا عن قدم العهد (بعهد سيدنا عمر) فإن أول تطبيق واضح له يعود إلى سنة (٧٠٠هـ). القاهرة. مركز عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. ٢٠١٠م.

(٢) صحيح مسلم رقم ١٧٨٠ ج ٣ ص ١٤٠٧.

(٣) ج ١١ ص ٤٥. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. عبدالوهاب المسيري. انظر: عن حديث «أذهبوا فأنتم الطلقاء» رواه ابن إسحاق في «السيرة» (٢١/٤ - ٣٢)، =

الأمم وتماسكها، وهذا ما بينه الطبري في تفسيره لما أنزل الله على نبيه: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩١]. قال النبي ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله يأمرك أن تعفو عن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك. فمن "المعروف" صلة رحم من قطع، وإعطاء من حرم، والعفو عن ظلم. وكل ما أمر الله به من الأعمال أو ندب إليه، فهو من العرف. ولم يخص الله من ذلك معنى دون معنى^(١).

الوثيقة الثانية:

وثيقة الصلح مع أهل مصر قيمة هذه الوثيقة أنها تؤكد صحة الوثيقة العمرية، لأنه ما كان لعمر بن العاص أن يشرع عهداً يلزم الدولة بتبعات إلا ويكون لديه فهم تام لمنهج عمر الخليفة الراشد المسؤول عن الدولة وهذا نص الوثيقة:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر، الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لُصوتهم (جمع لُصت، وهو اللص)، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رُفَع عنهم الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى، رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل في صلحهم من الروم

= وعنه الطبري في التاريخ (١٢٠/٣). انظر: السنن الكبرى للبيهقي رقم ١٨٢٧٦. «قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: «ضعيف» وسنده ضعيف مرسل. رقم ١١٦٣. (١) جامع البيان في عن تأويل أي: القرآن. أبو جعفر الطبري. وقد رجح الطبري: «فالحق فيه أن يقال: قد أمر الله نبيه أن يأمر عباده بالمعروف كله، لا ببعض معانيه دون بعض. قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال: معناه: خذ العفو من أخلاق الناس، واترك الغلظة عليهم. وقال: أمر بذلك نبي الله ﷺ في المشركين. انظر: ج ٣١ ص ٣٣٠: ٣٣١



والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا، عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم، على ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمته وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً، على ألا يُعزّوا، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه، وكتب وردان وحضر.^(١)

وهذه الوثيقة كانت بعد الصلح مع أهل مصر، حيث إنه من قبل كان هرقل قد رفض الصلح الذي عقده المقوقس، وأمدّه هرقل بمدد عسكري لكن جيش الفتح انتصر، ثم تم الصلح دون تدخل هرقل، ورأى المصريون من حسن المعاملة والأمن ما لم يرونه من دولة الروم التي كانت تستغلهم وتعاملهم كمستعمرة لا حق لهم فيها ما هم إلا كعبيد يعملون عند مستعمر غاصب، هذا برغم أن الروم كانوا نصارى مثل قبط مصر.

وقد بين عمرو بن العاص أصل تلك الوثيقة بأنها من أصول إسلامية واضحة المعالم، فقال لوفد الرهبان الذي كان يفاوضه أن الرسول أوصى بأهل مصر: «ثم مضى، وقد قضى الذي عليه وتركنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الاعتذار إلى الناس، فنحن ندعوكم إلى الإسلام، فمن أجابنا إليه قبلناه، ومن لم يجبنا إليه عرضنا عليه الجزية، وقد أعلمنا أننا مفتحوكم، وأوصانا بكم حفظاً لرحمنا فيكم، فإن لكم إن أحببتمونا إلى ذلك ذمة إلى ذمة، ومما عهد إلينا أميرنا «استوصوا بالقبطيين خيراً» فإن رسول الله ﷺ أوصاني بالقبطيين خيراً، لأن لهم رحماً وذمة.^(٢) فلقد أظهر

(١) تاريخ الرسل والملوك. الطبري ج٤ ص ١٠٩. وانظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. محمد حميد الله الحيدر آبادي ج٥٢. ٥٠٢.

(٢) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. أبو الفرج الجوزي. ج٤ ص ٢٩٢.

عمرو أصل وثيقته وأنها منطلقة من أمر الرسول ومن أمر أمير المؤمنين: «ومما عهد إلينا أميرنا» عمر بن الخطاب، فالرسول أوحى الله له بالفتح ومن ضمنه فتح الدول ومنها مصر فقال ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحماً» أو قال «ذمة وصهرًا»^(١)، ومن ثم فإن واقع الحياة السياسية في الدولة الإسلامية كانت مؤصلة إسلامياً بحيث لم تكن اجتهاداً من الخلفاء والأمراء والولاة، ولذلك فإن تلك الوثائق متنا موثقة بفعل وقول الرسول، قبل أن نبحت عن أسانيد أفعال الخلفاء والولاة.

الوثيقة الثالثة:

العدل أساس الملك والرحمة أساس العدل، فلقد كان من عادة المصريين الفراعنة أن يقدموا بنتاً بكرًا كعروس للنيل يقونها فيه في شهر الفيضان حتى -بزعمهم- يفيض بماء يكفيهم لعامهم التالي، ولم تغير المسيحية تلك العادة، لأن المسيحية التي دخلت مصر لم تكن كلها مسيحية عيسى، بن مريم الموحى إليه من ربه، بل كانت بها عقائد مشوشة أدخلها بولس الرومي وصارت ديناً وضعياً لا علاقة له بالدين الإلهي، ورأى عمرو بن العاص رغبة المصريين في استمرار التضحية بتلك العروس، وقد رفض عمرو تلك العادة ورأى أن هذا لا يكون في الإسلام، فأرسل عمرو بن العاص إلى أميره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستفتيه في هذه العادة، ومن منطلق الرحمة أرسل إليه عمر تلك الرسالة: «إنك قد أصبت، لأن الإسلام يهدم ما كان قبله»، وكتب بطاقة داخل كتابه، وكتب إلى عمرو: «إني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي، فألقها في النيل»، فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو بن العاص أخذ البطاقة، فإذا فيها: «من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر،

(١) صحيح مسلم رقم ٢٥٤٢.

أما بعد : فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك»^(١) ، فعمر بن العاص والي مصر من قبل أمير المؤمنين عمر يعلم أن الرحمة في الإسلام أساس كل عدل فلم يهتز عمرو من عادة جاهلية قد يتوافق مخالفتها مع قحط يهلك الحرث والنسل، ورفض أن يضحى بفتاة لا ذنب لها، وأقره الفاروق على ذلك، فهي فتاة ليست من العرب وقد تكون على دينها المسيحي، لكن الرحمة هي الرحمة العامة التي تشمل الموافق لدينك والمخالف لك مادام ليس محارباً، فهذه الوثيقة من أعظم الوثائق دلالة على أن الإسلام دين العلم يحارب الشعوذة، وهو دين رحمة للعالمين، فلا يقر الناس على جهلهم وظلمهم وقسوتهم .

الوثيقة الرابعة:

هي أهم الوثائق التي تبين حقيقة المنهج الذي ترسخ في عقول وقلوب ووجدان الصحابة ومن أولهم الخلفاء الراشدين، فالإنسان الطبيعي تظهر ملامح شخصيته عند الفتن: المرض، الفشل، الهزيمة، فقدان الأهل، خسارة المال، فقدان المناصب، التعرض لمغريات الحياة من نساء وأموال وجاه وسلطان، أما القادة فإن فتنتهم الكبرى لحظة الغضب، ف لحظة الغضب عند القائد قد تذهب بكيان أمة، وقد تهلك وطناً وتفتن شعباً وتنال من مقدراته وحرية وكيانه، ولم يتعرض لتلك الفتنة مثل الفاروق الذي جاهد في سبيل تحقيق العدل لكل من يقع ضمن دولة الإسلام التي اتسعت ربوعها في عهد الفاروق، ومع ذلك فقد تعرض عمر للقتلة غيلة!! وذكر البخاري هذا الحدث الجلل بمقدمات في غاية الأهمية: «عن عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة، ووقف

(١) المنتظم في التاريخ ج ٤ ص ٢٩٤. وانظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. محمد حميد الله الحيدر آبادي ص ٥٠٥.

على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال: كيف فعلتما؟ أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قالوا: حملناها أمراً هي له مطيقة، ما فيها كبير فضل، قال: انظرا! أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قالوا: لا، فقال عمر: لئن سلمني الله لأدعن أرامل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً، قال: فما أتت عليه إلا رابعة حتى أصيب^(١)، فعمر كان مشغولاً بتحقيق العدل ورحمة الناس جميعاً الذين ولاه الله عليهم، ومنهم نساء العراق، فقد كان هناك أرامل كثيرات بسبب كثرة حروب الفرس مع المسلمين، وتآمر على عمر من لم يدرك من هو عمر، لكن يعي من أرسله أن عمر هو من قضى على الدولة الفارسية إلى الأبد، لقد أرسلوه بحقد الكافرين بحقد أولياء الشيطان، وكان عمر في إمامته للصلاة يحقق العدل: «إذا مر بين الصفين، قال: استووا، حتى إذا لم يرفيهن خلا تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف، أو النحل، أو نحو ذلك، في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلني -أو أكلني- الكلب، حين طعنه، فطار العالج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يمينا ولا شمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً^(٢)» إنه حقد على المسلمين، وأصلاً هو حقد على الإسلام، فقد طاح المجرم في المسلمين إخراجاً لكل حقد من أرسله ومن شحنه بالغل والحقد الأسود، ومع ذلك قال عمر: «يا ابن عباس، انظر: من قتلني، فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصنع؟ قال: نعم، قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفاً، الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، -وكان العباس أكثرهم رقيقاً- فقال: إن شئت فعلت، أي: إن شئت قتلنا؟ قال: كذبت، بعد ما تكلموا بلسانكم، وصلوا قبلكم، وحجوا

(١) صحيح البخاري رقم ٣٧٠٠.

(٢) ن.م ونفس الأثر.

حجكم»^(١)، فحتى هذا المجرم شمله عمر برحمته وعدله، ولما رأى عبدالله بن عباس أن عمر كان يرى هؤلاء الفرس من داخلهم ومع ذلك رضيهم بإسلام اللسان وإعلانهم أنهم من المصلين وأراد عبدالله بن عباس أن يقتلهم جميعاً لظهور خيانتهم بهذه المؤامرة، رفض عمر هذا الأمر عدالة منه ورحمة برغم الموت الذي يقترب منه والدماء الغزيرة التي تتهمر منه فإنه لم يغضب ولم يظلم ولم يأمر بأية قسوة حتى تجاه من أصابه، الذي ذبح نفسه بعد جريمته النكراء، ثم قال عن خلافته: «وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا علي الغلام، قال: يا ابن أخي ارفع ثوبك، فإنه أبقى لثوبك، وأتقى لربك يا عبدالله بن عمر، انظر: ما علي من الدين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه، قال: إن وفي له، مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش»^(٢) والموت يقترب منه يعدل مع الغلام الذي أتى على صحبته للرسول وخلافته، فعدل معه ورحمه بنصح صادق رداً لحقه في نصح رعيته ورحمته بهم، وكذلك سداد ديونه فهي حق للعباد، وهذا عدل فيهم ورحمة بهم، فمن العدل أن تسدد ما عليك ومن الرحمة أن تعيد حقوق الناس فقد يكونون في حاجة ماسة إليها.

ثم أوصى عمر بالوصية الجامعة التي تعد مفخرة العدالة على مر التاريخ الإنساني وهي في صحيح البخاري وثيقة صادقة صحيحة الإسناد جليلة المتن:

أوصي الخليفة من بعدي، بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، أن يقبل من محسنهم، وأن يعفى عن مسيئتهم، وأوصيه بأهل

(١) ن.م ونفس الأثر.

(٢) ن.م ونفس الأثر.

الأمصار خيراً، فإنهم رءء الإسلام، وجباة المال، وغيظ العدو، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم. وأوصيه بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، أن يؤخذ من حواشي أموالهم، ويرد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله، وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم»^(١).

هذه الوصية الجامعة تظهر لنا أن كل الوثائق السابقة صحيحة المتن فهي تشمل ما يلي:

١. الوصية بالمهاجرين، فقد أثنى الله عليهم، وثأؤه وصية بهم.
٢. وصية بالأنصار، فإنهم قوة الإسلام، وقد أثنى الله عليهم لحبهم للإسلام ولأن هاجر إليهم، وأوصى عمر بهم خيراً إذا أحسنوا وأن يرحموا إذا أساء بعضهم.
٣. أوصى بأهل الفتوح من الأمصار الذين صاروا قوة للإسلام من أسلم منهم بنفسه أو بمال من لم يدخل الإسلام، فوجب حمايتهم وأن يعاملوا بالرحمة فلا يؤخذ منهم إلا الفضل وعن رضاهم.
٤. أوصى بالأعراب، لأنهم أصل العرب ومادة الإسلام، وأن يعاملوا أيضاً بالرحمة، وما يؤخذ منهم يرد على فقرائهم.
٥. وأوصى وصية مؤكدة مرة أخرى بأهل الذمة: ذمة الله وذمة رسوله فلا ينقض عهداً عقده المسلمون معهم فيوفي لهم بحقوقهم، ويدافع عن أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم، ولا يكلفوا بالجزية إلا بقدر طاقتهم.

تلك الوصايا تمثل ميثاقاً متكاملًا للرحمة والعدل، ومع ذلك كان

(١) ن م ونفس الأثر الأسبق.



الرفض لتلك الوثائق من قبل أعداء الإسلام، فتلك المواثيق هي في سجل شرف الأمم، من يكتب منها بندا يرى أنه الرائد في مواثيق حقوق الإنسان، ومن يحقق منها بنداً يرى في نفسه أهلية قيادة العالم! إذاً لماذا تم رفض الاعتراف بتلك الوثائق؟

لأن تلك الوثائق تخالف ما يحاول به أعداء الإسلام من نفي الرحمة من منهج الإسلام ومن سلوك المسلمين.

وهذه الوثائق بالنسبة للتاريخ الإنساني تمثل ذكراً حياً لقيمة الإنسان إذا ما التزم قيم الأخلاق تجاه نفسه وتجاه الآخرين، فالرسول ﷺ بالخلق العظيم وثق للقيم المطلقة، فرفع الله ذكره، كذلك عمر كان وثيقة بذاتها ولذا سبقت سيرته أقلام الموثقين، العالم كله يعرف من هو عمر، بعضنا يحاول أن يبحث عن وثائق القيم عند عمر، ولكن الله تولى حفظ سيرة من كان ملهماً، ولذلك لا أشك لحظة أن هذا أمراً إلهياً فإن كان الله قد كتب له الشهادة على يد مجوسي فإنه حفظ سيرته من السنة المجوس الذين لا يعرفهم العالم إلا بالكذابين فاقد العقل. سيرة عمر أصدق من أقلام وأوراق الموثقين، ووثائق عهده حفظها الله ليظل الأمل لدى كل مسلم أنه من الممكن عودة قوتنا وعودة وحدتنا إذا ما التزم منهج هؤلاء الشهداء والصديقين.



واقعية السياسة

العديد من المحللين السياسيين والاجتماعيين والنفسيين يرون أن السياسة عالم متغير يخضع للواقع، أي: أن الواقع يقود السياسي، وهذا يتنافى مع مفهوم القوة التي يرى السياسي أنها رصيده في كل مفاوضاته وجولاته ومعاركه، وذلك لأن القوة (Power) تعني بوضوح: القدرة على التأثير على الآخرين، لذلك فالساسة الأقوياء هم من يفرضون رؤيتهم وإرادتهم في جميع المواقف السياسية والاجتماعية، ويقودون الحياة كما يرون وكما يريدون وطبقاً لمصالحهم الخاصة، أو كما يقولون وفقاً لمصالح الدولة العليا⁽¹⁾، لكن السياسة في الإسلام ليست الخضوع للواقع، وذلك لأنها تقوم على أسس مجردة عن الأهواء البشرية، لكنها تنفذ كمنهج بعقل بشر وبأيدي بشر وبفكر بشر وبوجدان بشر، وطالما هي منهج فإن نسبة تجاوز الحق أقل كثيراً من نسبته لو كانت الأسس نصاً فقط.

عمر بن الخطاب ليس أسطورة تاريخية نحاول أن نزين ملامح عظمة تكوينها وقوة تأثيرها، أو بالأيام تخرج عن الواقع فتصبح وهماً، فهذا خطر على التاريخ بشكل عام لكنه -أيضاً- خطر عظيم الأثر بالنسبة للدين الخاتم، فعمر ليس حاكماً قائداً جاء ومر! إنما هو جزء من الدين فهو من حملة هذا الدين نصاً ومنهجاً، ومن هنا خطورة دراسة الفاروق عمر فلا

(1) انظر: العلاقات السياسية الدولية. إبراهيم صبري مقلد. ص ١٦٣. ط ٥. ذات السلاسل للطباعة والنشر. الكويت. ١٩٨٧م.

تصح معه المبالغة ولا الخضوع لكثرة كذب الروافض بشأن أعظم قائد في التاريخ، عمر بن الخطاب هو الواقع السياسي الذي يثبت أن منهج الإسلام ليس مثالياً متعالياً عن الواقع، لا يمكن تحقيقه، عمر بن الخطاب هو المعنى الذي يغيب أحياناً في أسانيد بعض العلماء، عمر بن الخطاب تطبيق حي نابض دال على مراد الرسالة الإسلامية العالمية، التي جاء بها الرسول أمانة وتحقيقها أمانة، ولقد بين أحد الكتاب من غير المسلمين أهمية هذا الدور حين قال: «فبعد وفاة الرسول ﷺ كان عمر هو الشخصية التي نشرت الإسلام، فغير هذه الغزوات السريعة، ما كان من الممكن أن ينتشر الإسلام في هذه المساحات الشاسعة من الأرض. ومعظم البلاد التي غزتها الجيوش الإسلامية ظلت عربية إسلامية إلى يومنا^(١)»، ولم يكن ذلك بشيء من المثالية المتعالية، بل كان بالرحمة مع كل عناصر الدول المفتوحة، وبعدل شامل، يبدأ بالأصول الإلهية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَٰٓيْ ءَلَّا تَعْدِلُوْا ءَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰٓيِ وَاَتَّقُوا اللّٰهَ ۚ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿٨﴾ [المائدة] فهذه رحمة عامة مثلما حاول أسامة بن زيد أن يشفع لامرأة من أشرف المسلمين سرقت فقال له الرسول: «أتشفع في حد من حدود الله؟»، ثم قال: «إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(٢)، ولذلك لم تكن قصة عمر مع عمرو بن العاص بأحادية التطبيق تشمل المسلمين بل تشمل كل من هم في ذمة أمير المؤمنين أو نادرة لا تتكرر، فعندما اعتدى ابن عمرو بن العاص بالسوط على رجل من النصارى في مصر^(٣)، لأنه سبقه في سباق

(١) الخالدون مائة أعظمهم محمد ص ٢١١ ..

(٢) صحيح البخاري رقم ٣٤٧٥.

(٣) عن أنس أن رجلاً من أهل مصر أتى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين! عائد بك من الظلم.= قال: عدت معاذاً، قال: سأبقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم ويقدم بابنه معه، فقدم، فقال عمر: أين

خيل، وعلم عمر بن الخطاب بالواقعة فاقتص من ابن عمرو بن العاص، ثم أصدر أمراً بتعزيز عمرو بن العاص بإمرار السوط على رأسه حتى لا يتعدى أحد بسطة الأمرء على أي فرد في ولايتهم، فالآية تأمر بالعدل حتى مع الأعداء، والرسول يحقق القصاص ولو مع أحب الناس إليه، وعمر يحقق العدل والرحمة مع غير المسلمين يحققه قصاصاً ففي القصاص رحمة، لأنه في الأصل: حياة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ وَالْحَرْبُ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأَنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَإِنْبِاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ [البقرة: ١٧٨-١٧٩] فالقصاص رحمة من الله وهو كذلك عدل، وهذا هو النص المتحقق من إنسان ليس نبياً معصوماً لكنه حاكم وقائد سياسي، ومهما حاول البعض أن ينفي عن عمر أنه قائد دولة باعتبار أنه زعيم أمة، فهذه ألفاظ ترتفع بتحرير المصطلح، فما نهدف إليه أن نبين أن الرحمة لم تصدر عن مثالية مستحيلة التحقق، بل صدرت عن قائد سياسي يتعامل مع بشر وليس مع ملائكة، فهو يحقق بهم رؤية إنسانية قابلة للتطبيق في كل زمان ومكان بشرط فهم المنهج السماوي

المصري؟ خذ السوط فاضرب، فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين. قال أنس، فضرب، فوالله لقد ضربه ونحن نجب ضربه، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع السوط على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين! إنما ابنه الذي ضربني وقد استقدت منه، فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ قال: يا أمير المؤمنين! لم أعلم ولم يأتني. «ابن عبدالحكم»

كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ج ١٢ ص ٦٦٦. وانظر: الكتاب: جامع الأحاديث (ويشتمل على جمع الجوامع للسيوطي والجامع الأزهر وكنوز الحقائق للمناوي، والفتح الكبير للنبهاني) ج ٢٥ ص ٤٧١. هذا الأثر اشتهر في كتب التاريخ، ولكن بعض كتب الحديث ذكرته بإسناد ضعيف. انظر: جامع الأحاديث (ويشتمل على جمع الجوامع للسيوطي والجامع الأزهر وكنوز الحقائق للمناوي، والفتح الكبير للنبهاني) ج ٢٥ ص ٤٧٢ رقم ٢٨٢٩٢.

والأثر لا سبب من عمر، وقد كان يشد في حساب نفسه وأهله، ومنهج الإسلام هو العدالة وسيادتها ووارد حدوث هذا الأمر من ابن عمرو بن العاص بعيداً عن افتراء الشيعة عليه، فلا الشيعة يترضون عن عمر ولا عن الأمويين ومن ثم فالقصة ممكنة الوقوع وممكنة العلاج من خلال فهم شخصية عمر. وهي مكررة الذكر في كتب التاريخ. ولو رفضنا كل ما في التاريخ بقينا أبناء اليوم.



على أنه جاء من أجل الحياة وضبط حركتها: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا
لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]^(١) فإننا نقرأ ونسمع مقالات من
يسمون أنفسهم بالنخبة أن ما فعله عمر مثالية مطلقة لا يمكنها التحقق
في واقع الحياة، وأن الزمان مختلف، هؤلاء يضعون حاجزاً بين الإسلام
والحياة التي تعيشها اليوم وبدلاً من أن يجهروا بما يؤمنون به بعدم صلاحية
الإسلام لإدارة الحياة يقولون تقية: إنه شيء أفلح في الماضي ولا يمكن
ضمان نجاحه في الحاضر، ويعلنون صراحة أن الإسلام لم يتحقق إلا في
عهد الرسول والصديق والفاروق!! ومن ثم لا داعي لاستحضاره مرة أخرى
فهو غير واقعي!!! هذا الأمر كان في منهج الإسلام مقررًا، فكثير من الآيات
في القرآن تبين ما سيواجهه الرسول ومن بعده المسلمون من تحديات تقلل
من قيمة هذا الدين، فعن النعمان بن بشير، قال: صحبنا النبي ﷺ، وسمعناه
يقول: «إن بين يدي الساعة، فتناً كأنها قطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها
مؤمناً، ثم يمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ثم يصبح كافراً، يبيع أقوام خلاقهم
بعرض من الدنيا يسير، أو بعرض الدنيا» قال الحسن: «والله لقد رأيناهم
صوراً ولا عقول، أجساماً ولا أحلام، فراش نار وذبان طمع، يغدون بدرهمين،
ويروحون بدرهمين، يبيع أحدهم دينه بثمن العنز»^(٢) وكانت من أهم هذه
الفتن الطعن في عالمية هذا الدين، وفي المكر على الدين وأتباعه بأن يقال
هو دين الحق لكنه مثالي صعب التطبيق، وأدرك عمر بن الخطاب ذلك فكان
يبين في نفسه القدوة ويرسخها في نفوس المسلمين وغير المسلمين، فما
كانت قصته مع ابن عمرو بن العاص إلا لأنها الحق في ذاته، ولأنها ستبقى
صورة واقعية لقيم العدل والرحمة في الإسلام.

ومن منهجه في الرحمة العامة فقد ذكر يزيد بن الأصم: «أن رجلاً كان

(١) فهذا الرجل شارب خمر، وعمر هو من عرف عنه الحزم في حدود الله لكنه وقاف عند المنهج الإسلامي، فالله عز وجل ليس المنتقم.

(٢) مسند الإمام أحمد مخرجا رقم ١٨٤٠٤.

ذا بأس وكان يوفد على عمر لبأسه، وكان من أهل الشام، وأن عمر فقده فسأل عنه فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فدعا كاتبه فقال: اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ﴿عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر]، ثم دعا وأمن من عنده، ودعوا له أن يقبل على الله بقلبه، وأن يتوب عليه، فلما أتت الصحيفة الرجل جعل يقرأها ويقول: ﴿عَافِرِ الذَّنْبِ﴾ قد وعدني الله أن يغفر لي، و﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ قد حذرني الله عقابه، ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ والطول الخير الكثير، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، فلم يزل يرددتها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزاع، فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحاً لكم زل زلة فسدوده، ووقفوه، وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا عوناً للشيطان عليه ^(١)، فهذه الواقعة تبين بجلاء كيف كان عمر يرسخ لواقعية الإسلام السياسية في الداخل، حيث كان يعلم أنه لا يحكم عالماً من الملائكة أو عالماً من الأخيار لا يجوز عليهم الخطأ وارتكاب بعض المعاصي، وأنه إذا غفل عن ذلك صارت القسوة تجاه المخالفين منهجاً، وتكثر المخالفات السرية التي تهدم كيان الأمة، وتفت في عضدها، وتعجل بفنائها. إن الله ليس فقط منتقماً، بل هو ﴿عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وهنا تكون الرحمة العامة التي لا تخص من مرضى عنهم ولا هم من ديننا فحسب، فلقد جاءه رجل نصراني يشكو من تعدي المسلمين على كرم من العنب يملكه، فغضب عمر وتعجب من فعل الصحابة لذلك، وقد قالوا: إن السبب معاناتهم من الجوع الشديد والجهد المضني، فطلب منه عمر تسعير كرمه وأوفاه ثمنه حرصاً منه على حقوق غير المسلمين ^(٢)،

(١) حلية الأولياء ج ٤ ص ٩٨: ٩٧. هناك حذف في النص فتم ضبطه: [يقبل على الله بقلبه]

(٢) كما تجلى حرصه [عمر] على أموال النصارى في تصرفه - لدى وصوله القدس - عندما علم بأن المسلمين قد استولوا على كرم من العنب يقع قرب المدينة، =

= وكان تحت يد الروم وقد غلبهم المسلمون عليه، وكان الكرم لرجل من النصارى، فأخذ المسلمون يأكلون من عنب ذلك الكرم، فأسرع النصراني إلى عمر بن الخطاب شاكياً، فدعا عمر ببردون له فركبه عريانياً



سواء في التشريع العام لكل من يعيش في الدولة الإسلامية من المسلمين وغيرهم أو في التشريعات الواضحة بأنها تختص بمن اعتنق الإسلام ديناً.

وقد رفض عمر عند دخوله بيت المقدس أن يصلي في كنيسة القيامة وصلى على مقربة منها، وعندما فرغ من الصلاة قال للبطريرك: أيها الشيخ لو أنني أقمت الصلاة في كنيسة القيامة لوضع المسلمون عليها أيديهم بحجة أنني أقمت الصلاة فيها، وإنى لأبي أن أمهد السبيل لحرمانكم منها، وأنتم بها أحق وأولى⁽¹⁾ فهو يفعل ذلك كقدوة، ولم يكن الرسول ﷺ داعياً بغير قدوة يقدمها للناس من خلال فهمه لمنهج الإسلام، وهذا الأمر كان له الاعتبار الأول عند عمر، ولذلك فإن صاحب الكرم أعلن إسلامه من خلال رؤية الدين واقعياً في حياة أتباعه ومن خلال حاكم أكبر دولة في ذلك التاريخ يلتزم بما يلزم به أتباعه من المحافظة على حقوق الناس، فالواقعية منهجاً سياسياً ثابتاً في الأصول الإسلامية: مسلم يقع في معصية بشرب الخمر، ومسلم صحابي يشتد عليه الجوع وشارف ومعه العديد على الموت فأكلوا من حديقة لا يملكونها درءاً للموت هلاكاً، عالج عمر الأمر بواقعية وليس بمثالية مفارقة للصدق، فساعد العاصي على التوبة، و عوض المضار من ضياع ثماره بالثمن والسعر الذي حدده صاحب الحديقة، هو منهج يبدو يسير التحقق، لكنه قوبل بعنف شديد من الذين

من العجلة، ثم خرج يركض به ليرد المسلمين عن الكرم، فلقى في طريقه أبا هريرة يحمل فوق رأسه عنقاً، فقال له الخليفة عمر: «وأنت أيضاً يا أبا هريرة؟». فقال أبو هريرة ﷺ: «يا أمير المؤمنين، أصابتنا مخمصة شديدة، فكان أحق من أكلنا من ماله من قاتلنا». وعند ذلك استدعى عمر ﷺ صاحب الكرم، وطلب منه أن يقدر ثمن محصوله، لأن الناس كانوا قد أكلوه، فقدره الذمي، ودفع له عمر ثمنه، فما كان من الذمي إلا أن أسلم. انظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. أبو اليمن مجير الدين ج ١ ص ٢٥٢. وانظر: الفتح العمري للقدس نموذج للدعوة بالعمل والقدوة. شفيق جاسر ص ١٩١.

انظر: تاريخ الحروب الصليبية، المجلد. الأول: الحملة الصليبية الأولى وأسس مملكة القدس (تاريخ الحروب الصليبية. ستيفن رونسيومان).

A History of the Crusades· Vol. I: The First Crusade and the Foundations of the Kingdom of Jerusalem (A History of the Crusades #1)by Steven Runciman.

يروجون لفقدان الإسلام والمسلمين الرحمة فيرفضون كل ما يذكر عن وقائع ومظاهر الرحمة في مسيرة عمر، فقد ذكر أحد النصارى المرضى بالتعصب والعمى عن رؤية الحق أن عمر لم يكن ذلك العادل المثالي الواقعي، وهذا المريض وغيره يحاولون طمس معالم الحق، إنما رغبة في هدم صورة القدوة الحسنة التي تؤثر في فتاعة الناس بقيمة الإسلام، فالطعن المباشر في الإسلام يجد رفضاً مباشراً من بعض العدول من أصحاب الديانات الأخرى الذي تعاملوا بعلمية مع النصوص الإسلامية فتأكدوا من شمولها لضبط حركة الحياة بلا تطرف المنع ولا تطرف في الإباحة^(١)، وسواء في التشريع العام لكل من يعيش في الدولة الإسلامية من المسلمين وغيرهم أو في التشريعات الواضحة بأنها تختص بمن اعتنق الإسلام ديناً.

ولقد كان إصرار عمر على عدم الصلاة في كنيسة القيامة^(٢) تقريراً لحقوق حرية العبادة خارج الجزيرة العربية، حيث ثبتت نصوص تخص

(١) انظر: مقالات يعقوب الأورشليمي، وهي مقالات لا تستند إلى أية أدلة تاريخية أو علمية، إذ يقول رافضاً رحمة عمر في عدم الصلاة في كنيسة القيامة خوفاً منه أن يتخذ بعض المسلمين تلك الصلاة حجة في ضم الكنيسة إلى أوقاف المسلمين الدينية: «ألا يستطيع عمر أن يصلي في كنيسة القيامة، وبعدها يأمر المسلمين أمراً قاطعاً بأن لا يصلوا فيها من بعده، أو حتى لا يقربوها؟ وهم سيطيعون كلامه بالتأكد. وفعلاً لقد كتب المؤرخ إيتيخيوس، وهو من كبار مؤرخي القرن العاشر، أن عمر حرر صقلاً للبطريك يسمح للمسلمين بأن يصلوا حيثما صلى كأفراد، وليس كجماعة، وها هم يطيعون وصيته إلى اليوم؛ فمسجد عمر لا يؤمُّ به كباقي المساجد بصلاة الجماعة إلى اليوم!! إذاً كان بإمكانه أن يمنعهم أن يقربوا لكنيسة إذا أراد، دون أن يمتنع عن الصلاة فيها» <https://goo.gl/WsCxHy> وانظر: "هجوم على السعودية أم هجوم على الإسلام؟" مجدي محمد إبراهيم. الزهراء للإعلام العربي. القاهرة ١٩٩٥م، حيث تعرضنا لأسلوب المستشرقين والمستغربين في طعنهم للمسلمين والرغبة الأساسية هي الطعن في قيم وعدالة الإسلام فالسعودية ليست هي الإسلام ولا عمر هو الإسلام لكنهما وهما يطبقان المنهج الإسلامي بمثاليته الواقعية يعبران عنه بصدق ومن ثم فالهجوم عليهما هو في الواقع هجوم على الإسلام.

(٢) تاريخ القدس ودليلها. خليل طوطح، وبولس شحادة ص ٢٣/٩. نشرة الآباء الفرنسيسكان. انظر: تاريخ الحروب الصليبية، المجلد الأول: الحملة الصليبية الأولى وأسس مملكة القدس (تاريخ الحروب الصليبية، ستيفين رونسيومان.

A History of the Crusades, Vol. I: The First Crusade and the Foundations of the Kingdom of Jerusalem (A History of the Crusades #1) by Steven Runciman



وحدة الدين في الجزيرة العربية، لكن البلاد المفتوحة كانت تحتاج تقريراً منهجياً رسخه الإسلام بمراعاة الجوانب الإنسانية لدى المسلم وغير المسلم، فمن ذلك إدراك عمر أنه يتعامل مع بشر من المسلمين يلتزم بعضهم بوضع كل إنسان في مقامه، لكن قد يتغلب الوجدان على معنى الالتزام، فيرون صلاة عمر في الكنيسة مدعاة لتحويلها إلى مسجد، وهذا أمر يتناقض مع واقع الدولة الإسلامية، فلم تعد الدولة الإسلامية هي الجزيرة العربية بل توسعت وشملت أغلب بقاع العالم -قبل الكشوف الجغرافية-⁽¹⁾، توسعت الدولة وعمر بن الخطاب الملمهم يعلم أن الشراكيات التي كانت قبل الإسلام قد تعود في شكل إطرء للرسول أو للصحابة، وقد صدق إلهامه فقد غالى البعض في علي بن أبي طالب، لذلك واقعية عمر جعلته ينظر للمسلمين على أنهم بشر قد يصدر منهم ما يخالف الإسلام، لذلك رفض الصلاة، ولكن النقد الحاقد والهدام لا يرى في هذه فضيلة لعمر، وقد ظهرت وثائق وأفلام وثائقية على أجهزة التواصل الاجتماعي تثبت كيف عمدت المخابرات الصهيونية إلى زرع بعض الصهاينة في العالم الإسلامي كدعاة دين، وذلك ليشوهوا صورة المسلمين بعامّة ومن ثم يسهل عليهم الطعن في عالمية الرحمة في الدين الإسلامي، والغريب أن تلك الوثائق منتشرة لكن بعض الدول الإسلامية لا تنتبه لمن لديها من هؤلاء العملاء، ولأن تلك الأجهزة تخشى ردة فعل المسلمين فهي تحاول الانتصار مثلاً -لعلي بن أبي طالب على بقية الصحابة، وتهاجم عمر بن الخطاب، وذلك لأنهم عادوا الإسلام أصلاً ورأوا أن مسيرة عمر العادلة من أخطر أدبيات الدعوة إلى الإسلام، وأنها صورة وثائقية لصلاحية وجدارة

(1) أرجو من الباحثين العرب والمسلمين خاصة أن يتجنبوا مصطلح: «العالم القديم» إشارة إلى قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا، وهي القارات التي يسميها البعض العالم القديم تمييزاً لها عن القارات التي اكتشفت بعد الكشوف الجغرافية الحديثة، لأن كلمة القديم قد يقصد بها -عند البعض- عالم قديم وجد أبدياً، وهذا أمر مخالف للعقيدة الإسلامية.

وأهلوية المسلمين بمنهج السماوي الحق في قيادة العالم. وما يؤيد تلك الأهلوية وخوفهم منها أنه من المواقف النادرة والمؤثرة في التاريخ البشري أن (لافاييه) خطيب الثورة الفرنسية تفاعاً، بل صُدم عند قراءته البيان الأول للثورة وقرأ: «يولد الرجل حراس ولا يجوز استعباده» وهذا جزء من التوراة، فرفع (لافاييه) رأسه وقال: «أيها الملك العربي العظيم عمر بن الخطاب، أنت الذي حققت العدالة كما هي» فلافاييه يستحضر كلمة عمر "اضرب ابن الأكرمين، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"^(١).

فعند ما يرى الغرب أن عمر حقق العدالة فهو لم يحققها كما حدثت في فرنسا فضحايا الثورة الفرنسية تجاوزوا النصف مليون، إن عمر كان يعلم أن الفوضى تؤدي إلى الهرج والمرج، وأن الغوغاء والسوقة هم خوارج كل زمان وهم يرسخون للفوضى وشيوع العنف الدموي وهو ما يسميه البعض بالديمقراطية في عصرنا الحالي، فالديمقراطية وهم لم يتحقق أبداً^(٢) لأنه بغير شرع إلهي لا تستقر أحوال البشر، وكل النظم الفوضوية تدعي أن الإنسان هو المشرع، وهذه تسبب هيمنة النسبية التي هي ضد العدل وضد الرحمة.

عمر لم يكن دكتاتوراً عندما حقق العدل، فمن يحكم بالشرع لا مجال لوصفه بالدكتاتورية إلا إذا حكم الهوى، وهذا ما لم يحدث من الفاروق، الذي يراه المنصفون أفضل من رحم شعبه بالعدل المؤسس على دين وسطي لا يطفئ على الفرد من أجل الجماعة، ولا على الجماعة من أجل الفرد، ولا

(١) <http://goo.gl/pjwDCT>. البيان الأول للثورة الفرنسية كان يشمل العديد من مطالب صاغاها اليهود الذين وجدوا كراهية واضحة من الفرنسيين تجاههم، ففي أغسطس ١٧٨٩م صدر البيان وفيه وثيقة حقوق الإنسان والتي منها "يولد الناس أحراراً ومتساوين في الحقوق وبذلك يضمن اليهود المساواة" ولم يدرك الفرنسيون ذلك كما لم يدرك العرب مؤامرات الربيع العربي.

(٢) فلسفة التغيير والتغيير. مجدي محمد إبراهيم. ص ٢٢٤.



بمثالية متعالية لا علاقة لها بالواقع ولا وضعية نسبية لا تفهم كيف تطبق
العدل الشامل والرحمة للعالمين. كان الإسلام دين الرحمة وسيظل بشرط
فهم المنهج الذي فهمه عمر من خلال معاشته للرحمة المهداة محمد ﷺ .



الخاتمة

لم أجد قيمة لبحث في مناسبة الزمان والوقائع مثل هذا البحث الذي اقترحته إدارة المؤتمر بمجلسها العلمي بعنوان شامل: «الرحمة في الإسلام» فالعالم اليوم يعاني من العنف والقسوة والإرهاب وبدلاً من أن يوجه العالم جهوده نحو مواجهة العنف والإرهاب نسب كل ما يحدث للإسلام قبل المسلمين!! ونحن كعالم إسلامي كنا حسني النية، فلم نتهم غيرنا بأنهم دبوا كل خطط المؤامرة وتركوا بعض عناصرها ينفذونها تحت مسميات عديدة، فمن تلك العناصر تقصيرنا في فهم المنهج الإسلامي، فجعلنا الحق المجرد هو رؤيتنا!! وجعلنا الحكم لنا؟ وقلنا: إنه لله. ورفعنا شعارات الرسول قدوتنا، ولم نفتح كتاباً في السنن لنستقي منه ملامح تلك القدوة، ورأينا الجهاد هو جلد الذات كأمة لا كفر، فلا نجد من يعيب فهمه! أو يتراجع عن رأي ثبت مخالفته للشرع، ورأينا البعض يرى أن طاعة ولاة الأمر خوفاً، وأن المحافظة على مقدرات الشعوب جيناً وحباً للعالم، ووجهنا كل سهام القسوة تجاه أبناء الأمة، ولم يمس عدونا بقص شعرة من رأسه، ومن ثم غابت الرحمة عن مسلكنا، ورأيت استحضر تاريخاً حياً قوياً مثمراً رحيماً عادلاً عالماً من سيرة بشر ساهم بنصيب عظيم في بناء

أمة الإسلام، فكان الفاروق عمر ذلك الاستحضار الذي يحيي الأمل في عودة وحدتنا بعودة تمسكنا بالمنهج الشامل لا النص فقط.

عمر بن الخطاب من خلال بحثنا الذي تجنبنا فيه أي قصص برغم أن ما قيل في حب عمر وفي فضل عمر لم يكتب في التاريخ لمثله، وعلى جانب آخر جانب العدا لعمر من قاتله ومن مؤيدي ذلك القاتل ومن ذاكري جريمته على أنها نصر للشيطان للتخلص ممن كان الشيطان يتجنب الطريق الذي يسير فيه، فعمر بن الخطاب مسيرة رحمة ملامحها كالتالي:

- أسلم عمر لرحمة وهبها الله إياه فقد سمع آيات من سورة طه، فتلاقى السهم والقابل، وشاهد مسرح إسلامه بكل عناصره أخت اختارت الإسلام ومستضعفون لا يخافون التزامهم بذلك الدين، فتحرك عقل وقلب عمر، عمر الحازم العقل الرحيم القلب يعلن إسلامه.
- عمر يهاجر فتكون هجرته فارقاً مهماً في مسيرة الدعوة.
- عمر يشحذ كل كيانه لتعويض ما فاتته من تلقي الخير من الرسول وفهم الوحي منه، فيعي من الرسول معنى الرحمة المهداة ومعنى رحمة للعالمين.
- عمر بقلبه الرحيم لا يصدق أن الرسول مات وأن على الأمة أن تعي ذلك فيذكره الصديق بالقرآن فيستجيب لقول الرحمن الرحيم.
- من أهم نتائج هذا البحث التتبع الجغرافي والتاريخي لكل الشعوب والدول التي دخلها الإسلام في عهد عمر، حيث ثبت خلود الإسلام في تلك الدول ما عدا دولة قاتله، ففي عصر الرحمة تكون القوة والمنعة والفلاح وانتشار الدين وزيادة الرزق ودخول الناس في دين الله أفواجا، ويشهد بذلك الواقع وبحوث المؤرخين المحايدون- ولا

نحسب غير المحايدين أعداءً مطلقاً ما عدا أتباع قاتله الذين لم يدخلوا الإسلام أصلاً بدليل أنهم مجدوا سيرة قاتل عمر.

- أما في عهد القسوة والعنف يكون الضعف والذلة والخنوع والفشل وذهاب الريح ونقص الأرض ونزع المهابة وانتشار الفقر وكثرة الردة وابتعاد الناس عن التفكير في الدخول للإسلام، بل ارتد بعض الشباب والنساء، وقد رأيت ذلك بنفسني في بعض الدول الإسلامية وفي أوروبا. وهذا ما ننبه عليه، لقد اهتزت أوروبا وأمريكا من جراء دخول مواطنيهم في الدين الإسلام، فكان خلق العنف من قبلهم واتهام الإسلام به.

- الرحمة ضرورة معرفية وضرورة علمية ومطلب إنساني تهفو كل الكائنات نحوها، وعلينا تدارك ذلك مهما نالنا الجهد، ذلك أننا بالرحمة ندافع عن دين الله الرحمن الرحيم، ونواصل جهود المبعوث رحمة للعالمين، ونواصل جهاداً بين الملامح في مسيرة عمر، هذا الجهاد كانت رأيته تلك الرحمة التي وثقت بمعاهدات ستظل نوراً في تاريخ الإنسانية.

- أثر الرحمة في سيرة الأمة في عهد عمر ليست في المواثيق التاريخية فقط، ولا في صدق الأسانيد وسلامة المتن وعدم مخالفتها الشرع فقط، بل في النتائج التي لا تتكرر في واقع التاريخ الإنساني، فكثير من المؤرخين الأجانب يقرون بأنه لولا عمر لما بقي الإسلام بنفس القوة التي بقيت إلى اليوم برغم فترات الاستعمار التي حاربت الإسلام واقتطعت العديد من بلاده، وخاصة في جنوب شرق آسيا ووسط آسيا وجنوب أوروبا، وهذا الذي يجب ترسيخ مفاهيمه لجيل جديد من أبناء أمتنا يعاني حرباً شرسة



تصل إلى مسامعه داخل غرف النوم، ويشاهد ملامحها ويتأثر بها من شاشات وسائل التواصل الاجتماعي.

- تحتاج الأمة اليوم فهم مسيرة الرحمة في سيرة عمر، لا أن تجعل من سيرة عمر سيفاً تكفر به جميع الحكام في العالم الإسلامي مما يؤدي إلى الخروج عليهم وانتشار الفوضى التي هي الهرج والمرج والتي فيها ضياع البقية الباقية من الأمة الإسلامية. إن تذكير الأمة بسيرة عمر يجب أن يكون من أجل نهضتها لا من أجل القضاء عليها. نجد بعض الدعاة الذين يذكرون عمر كسيف على رقاب الحكام تمتلئ حقائب هؤلاء الدعاة بأموال الغرب من محاضرات في بلادهم لا يقدمون فيها شيئاً من قيمة الرحمة في الإسلام بل يتكلمون عن السيف وقيمته في نشر الدعوة، وهذا أمر يرضي الغرب كثيراً الذي يكذب على الإسلام حين يدعي أن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف، وهم لا يفعلون ذلك إلا لينفروا الأوربيين من الإسلام بسبب أن معدلات من كان يدخل في الإسلام سنوياً من أوروبا كان يبلغ ثلاثة ملايين خاصة من النساء والعلماء، وهذا كان يشكل خطراً بالغاً على التركيبيية السكانية لأوروبا.

- الرحمة في الإسلام أول أسباب العلم، وعلى العلماء أو من يدعي أنه من العلماء، وعلى طلاب العلم أن يفهموا هذا الأمر فأدلتته الشرعية كثيرة وبينة، ولقد كان عمر بن الخطاب صورتها المثلى، فلا يوجد عالم حقيقي ويكون قاسياً ولا يوجد أحد قساة القلب يمكن أن يعرف طريق العلم.

الطالب الذي يكون فيه القسوة على زملائه، بل وأحياناً على معلميه لن يجد مسلكاً إلى العلم مهما أوتي من العناصر الأخرى المسببة

لحصول العلم: فمن نتائج هذا البحث تبين قيمة الرحمة كأصل من أصول العلم، ومن ثم فإن شحذ ملكات الشباب نحو أصول العلم جدير بنشر نور الرحمة ليعي الشباب أن الجهاد بالعلم أمضى أثراً في ظهور طاقاتهم البناء بدلاً من وهم تفجير النفس في مساجد المسلمين.

• الرحمة طريق استقرار الحكم، فلا يعتقد أي حاكم مسلم أن القسوة هي السبيل إلى المحافظة على كيان الدولة، فهناك فارق دقيق بين الرحمة مع الحزم، وبين العنف والقسوة مع الفوضى، فالحقيقة أن هذه الصورة موجودة في بعض البلاد الإسلامية: تجد عنفاً في تتبع المخالفات السياسية مع فوضى في تتبع الأحكام الشرعية، وهذا أدى إلى ضياع دول عربية كاملة ذهبت خارج التاريخ، كان عمر مثلاً للرحمة فاستقرت الدولة وانتشر الإسلام، ولولا العداء الأبدي بين الشيطان وأولياء الله ما كان المجوسي نال من عمر بنهاية استحقتها عمر ليكون شهيداً مع النبي والصديق: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء].

• تبين لنا من خلال البحث محاولة أعداء الإسلام وصف المسلمين بالقسوة والظلم والجهل والعنف، فعلينا دائماً الانتباه إلى أن هذا الوصف، فهو أخطر سلاح يقدمه الغرب للعالم ضدنا، فمن الجهل المركب أن نساعدهم في شحذ هذا السلاح دائماً، كلما ضعف ترتكب جماعات أو أفراد أعمال العنف والقسوة ما يعيد بعث هذا السلاح ضدنا مرة أخرى، ورأينا كيف ينفي البعض الوثائق التاريخية الدالة على قوة طاقة الرحمة لدى الفاروق التي مكنته من دخول بلاد العالم فاتحاً بالخير.



- ما تناولناه من سيرة الفاروق عمر يعادل القراءة المقبولة لبحث شامل، لكننا لم نحاول أن نسير مع بعض القصص بغير أدلة شرعية، ولذلك أثبتنا ما صح عنه لنقدم دلالة علمية دقيقة لشباب أمتنا عن شخصية قدمت المنهج الإسلامي واقعاً حياً مؤهلاً لقيادة البشرية في إطار سوي يحقق للإنسان طموحاته في حياة آمنة. عادلة يشملها الرحمة التي هي محل رصد حقوق الإنسان في كل مكان وزمان ومع كل إنسان، بل ومع كل كائن.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

• القرآن الكريم.

كتب التفسير:

١. تفسير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. محمد بن جرير أبو جعفر الطبري. تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. ط ١ - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
٢. التفسير الميسر. نخبة من أساتذة التفسير. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. السعودية ط ٢. ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
٣. مفاتيح الغيب. أبو عبد الله محمد بن عمر التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ط ٣ - ١٤٢٠ هـ

كتب الحديث النبوي:

١. جامع الأحاديث. يشتمل على جمع الجوامع للإمام السيوطي. الجامع الأزهر وكنوز الحقائق للمناوي، والفتح الكبير للنبهاني. قام بضبط نصوصه وتخريج أحاديثه فريق من الباحثين بإشراف د. علي جمعة. طبع على نفقة. حسن عباس زكي. ط ١ - ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م.
٢. سنن أبي داود. أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السُّجِسْتَانِي. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت. بدون تاريخ.
٣. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري). محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي. تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر. دار طوق النجاة (مصورة عن



- السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي). ط ١.
٤. سنن الترمذي. محمد بن عيسى بن سَوْرَة بن موسى بن الضحاك، الترمذي. تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج ٤، ٥). شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر. ط ٢. ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
٥. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالملكي. تحقيق: بكري حياني، وصفوة السقا. مؤسسة الرسالة. ط ٥ - ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.
٦. المستدرک علی الصحیحین. أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري. تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
٧. مسند الإمام أحمد بن حنبل. أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون. إشراف د. عبد الله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة ط ١. ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
٨. المسند الجامع. تحقيق: محمود محمد خليل. دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات. الكويت. ط ١. ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
٩. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي - بيروت. ١٩٨٥ م.

١٠. مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار. أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خالد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرون. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة. ط١. ٢٠٠٩م.

١١. المعجم الكبير. سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني. تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. مكتبة ابن تيمية. القاهرة. ط٢. بدون تاريخ.

ثانياً المراجع:

١. أحكام أهل الذمة. محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية. تحقيق: يوسف بن أحمد، شاكر بن توفيق العاروري. رمادى للنشر. الدمام. ط١-١٤١٨هـ.

٢. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. عبد الرحمن العليمي. تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة. مكتبة دنديس. عمان. بدون سنة نشر.

٣. تاريخ الرسل والملوك. محمد بن جرير أبو جعفر الطبري. دار التراث. بيروت. ط٢-١٣٨٧هـ.

٤. تاريخ المدينة لابن شبة. عمر بن شبة. حققه: فهيم محمد شلتوت. جدة ١٣٩٩هـ.

٥. تاريخ دمشق. أبو القاسم علي المعروف بابن عساكر. تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٥هـ.

٦. تهذيب الأسماء واللغات. أبو زكريا محيي الدين النووي. دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. بدون تاريخ.

٧. السياسة الشرعية والقضاء. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. محمد حميد الله الحيدر آبادي. دار النفائس.

بيروت. ط٦-١٤٠٧م.



٨. الحوادث والبدع. محمد بن الوليد أبو بكر الطرطوشي. تحقيق: علي بن حسن الحلبي. دار ابن الجوزي. ط ٣ ١٩٩٣هـ - ١٩٩٨م.
٩. الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة. أحمد بن محمد بن حجر الهيتمي. تحقيق: عبدالرحمن بن عبدالله التركي- كامل محمد الخراط. مؤسسة الرسالة. لبنان. ط ١ - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
١٠. العلاقات السياسية الدولية. إبراهيم صبري مقلد. ط ٥. ذات السلاسل للطباعة والنشر. الكويت ١٩٨٧م.
١١. العقيدة علم. مجدي محمد إبراهيم. الزهراء للإعلام العربي. القاهرة. ط ٢. ١٩٩٥م.
١٢. عهد عمر. قراءة جديد. عبادة كحيله. لقاهرة. مركز عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠١٠م.
١٣. الفتح العمري للقدس نموذج للدعوة بالعمل والقُدوة. شفيق جاسر أحمد محمود. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. السنة السادسة عشرة، العدد الواحد والستون محرم - صفر - ربيع الأول ١٤٠٤هـ.
١٤. فلسفة التغير والتغيير. مجدي محمد إبراهيم. دولارس للآداب والفنون والإعلام. القاهرة. الطبعة العربية - ٢٠٠١م.
١٥. المائة. مايكل هارت. ترجمة أنيس منصور. المكتب المصري الحديث. القاهرة ١٩٨٥م. وطبع الكتاب بعنوان آخر في نسخته العربية: «الخالدون مائة أعظمهم محمد».
١٦. معجم الفروق اللغوية. أبو هلال العسكري. تحقيق: الشيخ بيت الله بيات. مؤسسة النشر الإسلامي. ط ١ ١٤١٢هـ.
١٧. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. جمال الدين أبو الفرج بن محمد الجوزي. تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عبدالقادر عطا. دار الكتب العلمية، بيروت. ط ١ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

- ١٨ . مناقب عمر بن الخطاب، ابن الجوزي . تقديم عاطف عبدالوهاب .
دار الكتب العلمية . بيروت .
- ١٩ . موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية . عبدالوهاب المسيري . أعدها
للموسوعة الشاملة : أسامة بن الزهراء .
- ٢٠ . هجوم على السعودية أم هجوم على الإسلام ؟ مجدي محمد
إبراهيم . الزهراء للإعلام العربي . القاهرة ١٩٩٥ م .

المواقع الإلكترونية:

- ١ . الموسوعة الشاملة . المملكة العربية السعودية .
- ٢ . <http://www.islamweb.net/ver2/Fatwa/ShowFatwa.php?lang>
- ٣ . <https://ar.wikipedia.org/wiki>
- ٤ . www.neelwafurat.com/itempage.aspx?id=lbb202181173976&search=books
- ٥ . <http://forum.khleeg.com/9543.html>
- ٦ . <http://www.ahlalhdeeth.com/vb/archive/index.php/t-52561.html>
- ٧ . http://www.coptichistory.org/new_page_181.htm
- ٨ . A History of the Crusades، Vol. I: The First Crusade and... Goodreads
- ٩ . http://www.goodreads.com/book/show/428519.A_History_of_the_Crusades_Vol_II: The First Crusade and the Foundations of the Kingdom of Jerusalem” as... History. Sir Steven Runciman’s three-...volume history of the Crusades، one of the
- ١٠ . <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp%3Faid%3D232514>
- ١١ . <https://www.linga.org/varities-articles/NDg5NQ>
- ١٢ . <http://www.almeshkat.net/vb/showthread.php?t=123687#gsc.tab=0>



فتح القدس بين الرحمة والقسوة

دراسة مقارنة

بين منهج المسلمين وغيرهم

إعداد:

د. خالد بن محمد الشنير

أستاذ مقارنة الأديان وحوار الحضارات المشارك

قسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية - جامعة الملك سعود



المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد .

اهتم المسلمون بدراسات مقارنة الأديان منذ وقت مبكر، وبرز في هذا الفن عدد من أعلام المسلمين مثل ابن حزم الأندلسي، والشهرستاني، وابن تيمية، وغيرهم كثير في تاريخ الإسلام، ممن برع واهتم بالمقارنة في باب العقائد والكتب المقدسة خصوصاً .

لم تكن هذه سمة بارزة في المسلمين فقط، بل كان هناك أيضاً كتابات جدلية يهودية ونصرانية ضد الإسلام وغيره. وقد أولى الباحث الألماني «موريتس شتينشneider» المختص بالعلاقات الإسلامية اليهودية عبر التاريخ اهتماماً كبيراً بحصر هذا الجانب وجمعه، وكتب في ذلك كتابه «أدب الجدل والدفاع في العربية بين المسلمين والمسيحيين واليهود»، ساعياً إلى عرض "الجدل اللاهوتي بين المسيحية والإسلامي واليهودية عامة"^(١).

ويمكننا ملاحظة أن الاهتمام الديني عبر التاريخ ينصب على العقائد والكتب المقدسة، بينما اتجهت الرؤى المعاصرة في عدد من الأحيان إلى تناول «القيم» المرتبطة بالإنسان أكثر من تلك المرتبطة بالاعتقادات، لذا

(١) أدب الجدل والدفاع في العربية بين المسلمين والمسيحيين واليهود، موريتس شتينشneider، ص ١١.

بدا الحديث واضحاً في الكتابات الدينية المعاصرة تأثرها بمبادئ الحريات وحقوق الإنسان. كما نلاحظ أيضاً أنه في ناحية العلاقات بين الإسلام وغيره، حدثت عدة تغيرات، لكن (الذي تغير أخيراً هو المنظور الغربي للمسائل، بسبب تغير الاهتمامات من جهة، وتغير المناهج العلمية من جهة ثانية. فقد ظهر مجال بحثي جديد، هو ما عُرف بصراع الحضارات أو حوارها)^(١).

لذا فإعادة النظر في الأحداث التاريخية المرتبطة بالأديان فيما يتعلق بقضايا الرحمة والإنسانية بات أمراً مهماً لبيان القيم التي يحملها الإسلام، إذ الفاتح المسلم تميز بالرحمة والحكمة، لأجل نشر دين الإسلام. وهذا يبدو واضحاً في منهج تعامل الفاتحين.

تعد مدينة القدس إحدى أشهر المدن في العالم، والتي دار حولها صراع تاريخي طويل، وتتنازعها حضارات مختلفة ومتنوعة، بعضها وثني وبعضها كتابي. وكان كل هؤلاء يحلمون بالسيطرة عليها، مع اختلاف بينهم في التعامل مع الساكنين، ومصيرهم، والتي ظهر فيها قدرة الفاتح المسلم في البحث عن الهدف الأساس في نشر دعوته، وهو أن ترضخ الأمم لدين الإسلام، سواء قبلت الدخول فيه، أو رضيت بحمايته فقط.

ومن هذه المقارنات يتبين لنا تلك الجاذبية الأخلاقية والرحيمة للإسلام مقارنة بغيره^(٢)، ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتبين كيف تعاملت الجيوش العالمية في دخولها المدينة المقدسة مع بعضها، أو مع شعوب تلك المدينة. وقد رأيت أن تكون بعنوان: فتح القدس دراسة مقارنة بين رحمة المسلمين وغيرهم عبر التاريخ.

(١) مقدمة د. رضوان السيد في ترجمته كتاب: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى. ل. ريتشارد سودرن، ص ٦.

(٢) من الإلماحات الجادة في منهج عقد المقارنات بين الإسلام والاتجاهات الغربية وأصولها الدينية: كتابات صالح الحصين، ومنها: العلاقات الدولية، ص ٥٧ وغيرها. ونحو ذلك في كتابه الآخر: التسامح والعدوانية ص ١٧٦.



مشكلة البحث

تسعى عدد من الأمم لإثبات قيمها من خلال ما قدمته في تاريخها أو ما تقدمه الآن. ونظراً لأن مفاهيم الرحمة والتعامل الإنساني هي من القيم الكبرى التي تسعى بالتظاهر بها كل أمة؛ جاءت هذه الدراسة للمقارنة بين تلك الأمم فيما يتعلق بالدخول إلى مدينة القدس، وذلك لما تحمله هذه المدينة المقدسة من قيمة وشهرة على مر التاريخ، وهي في نفس الوقت ما زالت محل صراع بين عدة ديانات. من هنا جاءت هذه الدراسة لتقارن بين الحضارات العالمية عند دخول جيوشها إلى هذه المدينة المقدسة، سواء تلك الجيوش الوثنية، أو جيوش أهل الكتاب، لنرى إلى أي مدى وصلت له تلك الجيوش في قيمها التي تحملها.

منهج البحث

اعتمدت في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي الوصفي، حيث ركزت على استقراء الأحداث التاريخية في وصف حالة الجيوش الفاتحة، وتقديم وصف موجز لها، يظهر من خلاله المعالم الخلقية الرحيمة من عدمها.

أهداف البحث

1. مقارنة القيم الخلقية الحربية الإسلامية عبر التاريخ مع الحضارات الأخرى عند دخولها للقدس.
2. إبراز تطبيق التعاليم الشرعية على السلوك الخلقى للجيوش الإسلامية.
3. تعزيز القيم الخلقية في الحرب ليمثل بها من يجاهد في سبيل الله.

خطة البحث

المقدمة، وتشمل على مشكلة البحث، ومنهجه وأهدافه.

المبحث الأول: مكانة القدس في الحضارات

المبحث الثاني: الصراع على القدس قبل الإسلام، وفيه مطالب:

المطلب الأول: الدخول الإسرائيلي للقدس (١٣٧٥ق.م.)

المطلب الثاني: الدخول البابلي (٥٨٦ق.م.)

المطلب الثالث: الدخول اليوناني الوثني (١٦٨ق.م.)

المطلب الرابع: الدخول الروماني الوثني (٧٠م)

المطلب الخامس: الصراع الفارسي الرومي على القدس

المبحث الثالث: القدس خلال الحضارة الإسلامية

المطلب الأول: الفتح الإسلامي الأول (العمري) (١٧هـ)

المطلب الثاني: الغزو الصليبي (٤٩٢ هـ / ١٠٩٩م)

المطلب الثالث: الفتح الأيوبي للقدس (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)

المبحث الرابع: شهادات الدارسين للحضارات حول سلوك الفاتحين



المبحث الأول

مكانة القدس في الحضارات

مدينة القدس من المدن الموغلة في التاريخ، وبحسب بعض المصادر المتخصصة فقد كانت تُسمى أولاً «بيوس» ثم «أورشليم» ثم «إيلياء»، حتى وصل اسمها إلى بيت المقدس، ثم القدس. وهي المدينة التي كانت ولا تزال مرتكزاً للنزاع بين أتباع الأديان الكتابية، وخاصة اليهود والمسلمين في العصر الحديث.

لا يوجد -حسبما تقول دائرة المعارف الكتابية- (رأي قاطع فيما يختص بمعنى الاسم الأصلي، ولكن أقدم الصور المعروفة للاسم وهي «أورو-سالم»، قد اعتبره الكثيرون أنه يعني إما «مدينة السلام» أو «مدينة (الإله) سالم». ولكن مفسرين آخرين يعتبرونه اسماً من أصل عبري يعني «امتلاك السلام» أو «أساس السلام». ومن سخريات التاريخ^(١)، أن مدينة لم تر إلا القليل من السلام عبر تاريخها الطويل، والتي من أجل الاستيلاء عليها أريقَت أنهار من الدماء، يمكن أن يكون لاسمها مثل هذا المعنى^(٢).

في الرؤية اليهودية واستناداً للعهد القديم؛ فإن اليهود يرون في القدس مكاناً وهبة الله لهم، ويستدلون على تلك الرؤى بنصوص كتابهم المقدس^(٣)،

(١) العبارة فيها نظر، وما حدث هو بقدر الله، والتاريخ ليس صانعاً بنفسه.

(٢) دائرة المعارف الكتابية، جماعة من اللاهوتيين، مادة: أورشليم، وقد احتل الحديث في هذه الدائرة صفحات طويلة، في المجلد الأول، من: ٥١١-٥٥٠.

(٣) المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، الخوري: بولس الفغالي، مادة: أورشليم.

والذي تنطلق منه المعتقدات اليهودية في الزعم بأن فلسطين والقدس عاصمة أبدية لليهود. فحين احتل داود مدينة أورشليم، جعلها عاصمة سلالته التي وعدها الرب بملك أبدي كما في نصوص العهد القديم (٢ صموئيل ٧: ٨-١٦). وبحضور تابوت العهد^(١) صارت أورشليم مركز اسرائيل الديني (٢ صموئيل ٦: ١٦؛ ١٥-١٦؛ مزامير ٢٤: ٧-١٠؛ ١٣٢)، بل وصفت بأنها مسكن الإله اليهودي "يهوه" (خروج ١٥: ١٣، ١٧؛ تثنية: ٣٣: ١٢). وعليه فعلى كل القبائل أن تحجّ ألى أورشليم (مزامير ١٢٢: ٤)، مدينة الله (مزامير ٨٧: ٣)، حيث نصب الله خيمته (مزامير ٧٦: ٣؛ ٨٤).

وكل هذا يبين منزلة القدس لدى اليهود، وحفاوة كتبهم المقدسة بذلك، ولكنه لا يعني ضرورة حقهم التاريخي الدائم بها، وقد تمت مناقشة هذه الفكرة في دراسات متعددة يمكن للمهتم الرجوع لها^(٢).

أما في الرؤية النصرانية للقدس وانطلاقاً من استقراء نصوص الكتاب المقدس (كانت أورشليم نقطة انطلاق من أجل تبشير العالم بالمسيحية «لوقا ٢٤: ٤٧؛ أعمال الرسل ١: ٨». ففيها تأسست الكنيسة.... ويجعلنا رؤيا يوحنا ١١: ٨ نفكر أنه خلال حكم الألف سنة الذي يسبق ملء الخلاص، ستكون أورشليم الأرضية قلب مملكة يسوع المسيح الشاملة... يكرّس يوحنا القسم الأكبر من إنجيله لرسالة يسوع في أورشليم. في نظره: الهيكل «يوحنا ٢: ١٩»، وبركة سلوام «يوحنا ٩: ٧»، وإضاءة الهيكل «يوحنا ٨: ١٢»، هي رموز عن المسيح. ومع هذا فهو يرى في يسوع المسيح أورشليم الجديدة التي تبدأ مع قيامته)^(٣).

(١) تابوت العهد: عبارة عن صندوق صغير يودع فيه "لوحا الشهادة" (أي لوحا الشريعة). ويرمز لدى اليهود- إلى حضور الله في وسط إسرائيل، وكانوا ينقلونه معهم في تنقلهم وحربهم، ويوضع في الهيكل (خروج ٢٥: ١٠-٢٢، عدد ١٠: ٣٢-٣٦). راجع: معجم اللاهوت الكتابي، مادة: تابوت العهد.

(٢) من الدراسات: الوعد الإلهي في العهد القديم بعودة الفلسطينيين إلى أرض فلسطين، محمد منصور، مجلة المؤرخ العربي، ص ١٦٩، وأيضاً: عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين، محمد آل عمر، ص ٢١٧.

(٣) المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، مادة: أورشليم.



أما في الإسلام، فعلاقة المسلمين بالقدس تبدو واضحة بربطها بحدث هام ذكر في القرآن الكريم، وهو الإسراء إلى بيت المقدس ثم المعراج من هناك إلى السماء. لذا تبدأ سورة الإسراء في القرآن بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مَن آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء].
وقد صلى النبي ﷺ نحو بيت المقدس بعد الهجرة ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ثم حُوِّلت القبلة^(١).

والمسجد الحرام بني قبل المسجد الأقصى، كما روى أبو ذر: (قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام. قال: قلت ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة)^(٢).
ومن كرامة هذه المدينة أن يكون مسجدها "المسجد الأقصى" هو أحد المساجد الثلاثة المفضلة، والتي يضاعف فيها الصلوات، وقد اختلفت الروايات في تحديد حجم المضاعفة^(٣).

ولقد بلغ اهتمام المسلمين ببيت المقدس والقدس وفلسطين أن بلغت المؤلفات حولها المئات من الكتب القديمة والحديثة، وهو ما يبين المكانة التي تحظى بها تلك المنطقة لدى المسلمين^(٤).



(١) صحيح البخاري (٤٢١٦).

(٢) صحيح البخاري (٣١٨٦).

(٣) راجع: إسلام ويب (islamweb.net) (كم تعدل الصلاة في بيت المقدس).

(٤) قام الباحث شهاب بهادر في كتابه: معجم ما أُلّف في فضائل وتاريخ المسجد الأقصى والقدس وفلسطين ومدنها من القرن الثالث الهجري إلى نكبة فلسطين، بإحصاء المؤلفات من القرن الثالث إلى العام ١٩٤٨/١٣٦٧م وبلغت ٢٢٠ مؤلفاً. ولم يضم إلى هذا الكتاب العشرات بل يمكن المئات من الكتب التي أُلّفت بعد هذا التاريخ.

المبحث الثاني الصراع على القدس قبل الإسلام

المطلب الأول الدخول الإسرائيلي للقدس (١٣٧٥ق.م.)

إن علاقة القدس باليهود تظهر واضحة في طلب موسى (عليه السلام) من فرعون أن يأخذ بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة في فلسطين. الرواية القرآنية تذكر طلب موسى من فرعون: ﴿ فَأَنبَأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَىٰ ۗ ﴾ [طه].

ويذكر العهد القديم تولي يوشع (ويسمى يشوع) قيادة جيش إسرائيل بعد وفاة موسى (عليه السلام)، وذلك لدخول الأرض المقدسة (٤٠٦ ق.م.)، وهذه المرحلة تمثل إحدى أهم المراحل في تاريخ اليهود، حيث نجد فيها تفاصيل دخولهم إلى هناك، وكيفية التعامل مع سكان تلك الأرض بما تحكيه الكتب اليهودية المقدسة، وخاصة سفر يشوع، فقد فصل في هذه الحوادث^(١)، ويذكر العهد القديم نماذج عديدة كدخول مدينة أريحا، حيث (٢١ قتلوا بحد السيف إكراماً للرب جميع ما في المدينة من رجال ونساء وأطفال وشيوخ، حتى البقر والغنم والحمير... ٢٤ وأحرقوا المدينة وجميع ما فيها

(١) يمكن مراجعة ترتيب هذه الأحداث أيضاً في كتاب: تاريخ إسرائيل، متى المسكين ص ٥٢-٥٨.

بالنَّارِ إِلَّا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَأَنِيَةَ النُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ، إِذْ وَضَعُوهَا فِي خَزَانَةِ بَيْتِ الرَّبِّ) يشوع ٦. ونحو هذه النصوص [يشوع ٨: ٢٥-٢٦، و ١٠: ٢٨-٤٠، و ١١: ١٤-١٥] وغير ذلك من المواطن التي تشهد لهذه السياسة^(١).

والذي يهم الباحث هنا هو وصف طريقة الدخول، وليس أهداف ذلك الدخول، ونحن لا نملك تأكيد وقوع هذا القتل الجماعي إلا من خلال نصوص اليهود المقدسة، لكن في نفس الوقت يمكننا التأكيد بأن جيشاً مؤمناً بقيادة يشوع كان يجاهد في فلسطين، وفي الحديث النبوي (إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليشوع ليالي سار إلى بيت المقدس)^(٢).

أما الجانب المتعلق بعلاقة اليهود بالقدس واكتساحها، يظهر ذلك في زمن القضاة الإسرائيليين (١٣٧٥ ق.م). عندما رجعت القدس «أورشليم» إلى سيطرة الكنعانيين، ويذكر سفر القضاة كيفية استرداد اليهود لها مرة أخرى من أيدي الكنعانيين: (٨) وهاجم بنو يهوذا أورشليم فاحتلُّوها بحد السيف وأحرقوها بالنار) قضاة ١.

ويتناول «معجم اللاهوت الكتابي» هذ القوة في دخول أرض كنعان «فلسطين» وأن (لها ما يبررها في تطلعات العهد القديم: كنعان بحضارته الفاسدة، المقرونة بعبادة لقوى الطبيعة، يُشكل فخاً لإسرائيل [تثنية ٧: ٣-٤]، ولذا يوافق الله على إفنائه [تثنية ٧: ١-٢]. وهكذا ستصبح حروب إسرائيل القومية حروب الله، ويقع الحرم^(٣) على ما تسفر عنه من غنيمة [يشوع ٦])^(٤).

(١) راجع في ذلك جمعاً نصياً للحروب اليهودية المقدسة في فلسطين، في كتاب: الأصول الدينية للحرب والسلام في اليهودية والنصرانية والإسلام، نبيل أمير، ص ٩٥ وما بعدها، وأيضاً مناقشة للمفاهيم اليهودية للحرب الدينية في الدراسة المعنونة ب: الحرب في اليهودية عرض وتقد، خالد الشننبر، ص ٢٣٠-٢٦٠.

(٢) مسند أحمد (٨٣١٥)، وصححه ابن حجر في: فتح الباري ٦/ ٢٢١.

(٣) التحريم أو الحرم: هو ما يسمى بشريعة الحرام في الحرب المقدسة، وكانت تتنوع بتنوع الظروف. منها: قتل الناس وتدمير الممتلكات، ومنها: قتل الناس وإبقاء الممتلكات، ومنها: قتل الذكور فقط. وكان المحاربون يعتبرون هذا العمل بمثابة ذبيحة تقدم لإلههم، فيندرون له العدو، وكل من يخالفه يعاقب أشد عقوبة. راجع: من سيناء إلى مواب، للخوري بولس الفغالي، ص ٢٦٥.

(٤) معجم اللاهوت الكتابي، مادة: حرب.

المطلب الثاني

الدخول البابلي (٥٨٦ق.م.)

كانت المملكة البابلية دولة عظمى غامضة التاريخ حتى جاءت الكشوف والحفريات المتأخرة وأظهرت كثيراً من تاريخها، وهي ما يمكن الاصطلاح عليه بأنها تقع في العراق الآن، بشكل غير دقيق^(١).

كانت تبعية مدينة القدس والتي كانت عاصمة لـ «مملكة يهوذا» اليهودية، تتبع مرة اليهود، ومرة كانت هذه المملكة اليهودية تتخطب بين العبودية والسيادة، وبين التبعية لمصر ثم لبابل، حتى جاء سقوطها المريع وتدميرها بواسطة البابليين^(٢).

في الغزو البابلي -القادم من منطقة العراق- للقدس (٥٨٦ق.م.)، قام البابليون بمذابح كبرى ضد اليهود، ويصور سفر الأخبار الحالة: (١٧) فأرسل الربُّ ملكَ بابلٍ لمُحارَبَتِهِمْ^(٣)، فقتلَ خيرةَ شُبَّانِهِم بالسَّيفِ حتى في بيتِ مَقْدَسِهِم، ولم يُشْفَقْ على فِتَى أو عذراءٍ، ولا على شيخٍ أو كَهْلٍ مُقْعَدٍ، بل أسلمَ الربُّ الجميعَ إلى يَدِهِ. ١٨. ونهَبَ جميعَ آنيةِ الهَيْكَلِ، الكبيرةِ والصَّغيرةِ، وكُنُوزَهُ وكُنُوزَ الْمَلِكِ وأَعوانِهِ وأخذها إلى بابلَ. ١٩. وأحرقَ بالنَّارِ هَيْكَلَ اللَّهِ وجميعَ قُصُورِ أُورُشَلِيمَ، وهدَمَ سُورَ المدينةِ، وأتلفَ كُلَّ نَفْسٍ فيها. ٢٠. والذينَ نَجَوْا مِنَ السَّيفِ سَبَّاهُم إلى بابلَ حَيْثُ صاروا عبيداً له ولبنِيهِ حتى قيامِ دولةِ الفُرسِ (٢ أخبار ٣٦، ونحوه: [إرميا ٣٩: ٨-١٠، و٥٢: ١٢، و٢ ملوك ٢٥: ٨].

(١) راجع: تاريخ بابل وآشور، جميل أفندي نخلة المدور، ص ٨.

(٢) راجع: تاريخ إسرائيل من واقع نصوص التوراة والأسفار وكتب ما بين العهدين، متى المسكين، ص ١٨٣.

(٣) تُصور الكتب المقدسة اليهودية هذا الغزو بأنه عقوبة إلهية لليهود نظير إعراضهم عن تعاليم ربهم، وعدم اتباعهم أقوال أنبيائهم.

المطلب الثالث

الدخول اليوناني الوثني (١٦٨ ق.م.)

رجعت الحياة للمدينة المنكوبة - بعد سقوط الحكم البابلي - بشكل أفضل، ودارت السنون واستولى اليونان وزاد ملكهم واتسع، وحكموا فلسطين وغيرها، وكانت معاملتهم لليهود كغيرهم من الأمم، وقد لاقوا احتراماً من اليونان في أوقات كثيرة. وبعد وفاة القائد اليوناني المشهور "الإسكندر الأكبر" (٣٢٣ ق.م.) انقسمت المملكة إلى ممالك مستقلة، وكانت فلسطين من نصيب ملك مصر "بطليموس"، وبعد سنين طويلة استولى "أنطيوكس" (١) الكبير ملك سوريا على المنطقة بأسرها، وبدأ بمهاجمة القدس في العام: (١٦٨ ق.م.)، وأرسل "أنطيوكس" جيشه، الذي هاجم القدس بقوة كبيرة، ودخل القدس ونهبها، وأشعل فيها النار وهدم الأسوار والبيوت، وذبح الرجال، وباع الكثير من النساء والأطفال في سوق الرقيق. ومن بقي من اليهود على قيد الحياة أرغم على العبادات الوثنية، وحظر أي ذبيحة في الهيكل اليهودي، بل وضع الإله اليوناني "جوبيتر" في داخل الهيكل، وأرغم اليهود على أكل الخنزير المحرم عندهم بشكل قطعي (٢).

يقول المؤرخ اليهودي "يوسيفوس" عن هذا الملك: (وسار إلى أورشليم بعسكر عظيم، فوصل إلى المدينة وليس عند اليهود خبر منه ولا علم، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وسبى خلقاً عظيماً، وهرب من بقي منهم إلى البلاد والبراري والجبال، فأقاموا فيها... يطالب اليهود بالسجود لأصنامهم، ويأمرهم بأكل لحم الخنزير، ويمنعهم من الختان ومن حفظ السبت، وأن يقتل كل من خالف أمره) (٣).

(١) أنطوكيوس أيفاناس: ويختلف هجاء اسمه في الكتب بحسب المترجمين: انطيوكس، أنتيوكسوس، أنطيوكسوس.

(٢) راجع: كل الملوك والمملكات في الكتاب المقدس، هربرت لوكير، ص ٦٤-٦٥.

(٣) تاريخ اليهود، يوسيفوس، ص ٣١.

ولقوة النكبة على اليهود في زمن ذلك الملك؛ نجد أن الكتب اليهودية أرخت لتلك الفترة، وأشارت إلى قساوة هذا الملك. وقد فصل سفر المكابيين^(١) ذلك الواقع، وعلى ذلك الإكراه الديني الذي مورس عليهم، جعل كثيراً من اليهود يتحولون عن التوحيد لله إلى عبادة آلهة اليونان، واستمر هذا الاضطهاد عليهم ثلاث سنين [١ مكابيون ١: ٢٩-٣٥، ٢ مكابيون ٥: ٢٤].

ويرى بعض الباحثين أنه ليس بمقدورنا تأكيد ما قام به اليونان، إذ جاءت من روايات إسرائيلية، مع عدم استبعاد صحة الأمر^(٢). وفي الحقيقة أن معاملة الرواية التاريخية بمثل روايات الحديث النبوي أمر لا يبدو دقيقاً، وأيضاً لا يوجد إثبات يعارض الروايات التاريخية الإسرائيلية. فليس هناك أي مانع من كون اليونان دخلوا القدس وعاثوا فيها فساداً، خاصة أن تاريخ اليونان معروف وعريق في المنطقة. والروايات الإسرائيلية هنا ليست تشريعاً، وليس فيها مغالطات، بل تكشف أنهم كانوا يدافعون عن الهيكل من أجل عبادة الله وحده. وهم أصحاب الرسالة في ذلك الوقت بلا شك.

المطلب الرابع

الدخول الروماني الوثني (٧٠ م)

سقطت الدولة اليونانية، ثم سيطر الرومان الوثنيون على المدينة وعلى تركة الدولة اليونانية. لقد كانت منطقة القدس وما حولها تسمى منطقة

(١) سفر المكابيين من الأسفار اليهودية التي لا ترتقي لأن تضاف لكتب العهد القديم اليهودي، والذي يحوي ٣٩ كتاباً. وهذه الأسفار المنحولة في نظر اليهود ويلحقهم في ذلك البروتستانت النصارى؛ لا تدل على أنها لا قيمة لها مطلقاً، بل جعلوها ملحقة بالكتاب المقدس، وهي عندهم لا تصلح أن يُبنى عليها الإيمان الصحيح، مع أنها مفيدة في تغذيته.

راجع للتوسع: مقدمة الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس، (ط. المشرق)، ص ٤٧.
(٢) راجع: المدخل إلى المسجد الأقصى المبارك، عبدالله معروف، ص ٧٦.

«اليهودية»، أو «أرض اليهودية»، إذ كانت الدولة الرومانية تحتوي على عدة مقاطعات، ومنها أراضي مملكة يهوذا من أرض فلسطين^(١). وبعد سنين انفجر غضب اليهود -الذي طال كفته ضد الرومان- عن ثورة عارمة في ٦٦م، نتج عنها فيما تصفه دائرة المعارف الكتابية: (حصار "تيطس- تيتوس" ابن الإمبراطور ب "فسباسيان" للمدينة (٧٠م). لقد كلف هذا الانتصار اليهود غالباً في نهاية الأمر، ولا وجه للمقارنة بين النكبات الكثيرة التي حلت بالمدينة على مدى تاريخها الطويل، وتلك النكبات التي حلت بها في هذا الحصار المريع... فكانت الخسائر في الأرواح فادحة، وقد قدر عدد القتلى بستمائة ألف نسمة، ولكن يبدو أنه عدد مبالغ فيه^(٢)... أُحرق الهيكل والمدينة السفلى، ولم يأت اليوم الأخير إلا وكانت المدينة كلها شعلة من النيران، ولم يبق منها سوى أبراج هيرودس الثلاثة الكبيرة... التي لم تحرق، وذلك لحماية معسكر الفرقة العاشرة التي تركت لحراسة الموقع... أما سائر المدينة فقد هدم إلى الأساسات)^(٣).

ويبدو أن هذا العمل من الرومان كان شنيعاً بالقدر الذي جعل المؤرخ اليهودي يوسيفوس (١٠٠م) يفرده له صفحات طوالاً في تاريخه عن اليهود، ويورد أوصافاً مروعة من القتل وسفك الدماء، وتقصد إحراق الهيكل اليهودي وإتلافه تماماً بالنار وجعلته ركاماً، بعد مقاومة اليهود للهجوم الروماني، ويذكر إحصاء من مات منهم بأنه بمئات الألوف من اليهود^(٤).

إن سقوط القدس وخراب الهيكل يمثل تاريخاً مؤلماً، (وهو من جهة التاريخ الشعبي والأثر الديني والاجتماعي لليهود يساوي تماماً سقوط أورشليم وخراب الهيكل على يد نبوخذنصر سنة ٥٨٦ ق. م)^(٥).

(١) راجع: المحيط الجامع، مادة: يهودية، ومادة: يهودي.

(٢) نص عليه "يوسيفوس"، المؤرخ اليهودي، وقد كان معاصراً للحادثة، في كتابه تاريخ اليهود، ص ١٤٤.

(٣) دائرة المعارف الكتابية، جماعة من اللاهوتيين، مادة: أورشليم/ الفقرات: ٤٨-٥٠.

(٤) راجع: تاريخ اليهود، يوسيفوس، ص ١٢٠-١٤٨.

(٥) تاريخ إسرائيل، متى المسكين، ص ٣٣٢.

المطلب الخامس

الصراع الفارسي الرومي على القدس

مما يميز هذه المرحلة هو قربها من زمن الرسالة الإسلامية. لقد كانت الدولة الفارسية والدولة الرومانية النصرانية في تلك الفترة تُعدان أقطاب القوة في العالم، ولطالما تقاسمتها الأراضي الشاسعة، وكانت منطقة الشام والعراق من مناطق الصراع الكبرى بينهما. وقد أشار القرآن الكريم لهذا الأمر: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ ۚ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۚ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۚ بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾ [الروم].

لقد فرح المسلمون بهذا النصر الذي حققه الله للروم النصارى على الفرس الوثنيين، وذلك لكون ديانة النصارى أقرب للإسلام من ديانة الفرس، وقد جاء في ذلك روايات كثيرة عن النبي ﷺ وأصحابه، تناولها المفسرون المسلمون عند هذه الآية.

من ذلك ما رواه الطبري عن ابن عباس، قال: كان المسلمون يحبون أن تغلب الروم أهل الكتاب، وكان المشركون يحبون أن يغلب أهل فارس؛ لأنهم أهل أوثان، قال: فذكروا ذلك لأبي بكر، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ فقال: «أما إنهم سيهزمون»، قال: فذكر ذلك أبو بكر للمشركين، قال: فقالوا: أفنجعل بيننا وبينكم أجلا فإن غلبوا كان لك كذا وكذا، وإن غلبنا كان لنا كذا وكذا، وقال: ففعلوا بينهم وبينه أجلا خمس سنين، قال: فمضت فلم يغلبوا، قال: فذكر ذلك أبو بكر للنبي ﷺ، فقال له: «أفلا جعلته دون العشر»، قال سعيد: والبضع ما دون العشر، قال: فغلب الروم، ثم غلبت^(١).

(١) تفسير الطبري (جامع البيان)، ٢٠ / ٦٨، ط. مؤسسة الرسالة.

أولاً: الفرس المجوس (٦١٦م).

كان القدس في يد الرومان النصارى، وفي عام (٦١٦م) تعرضت القدس لهجوم جيش الفرس، والذي مازال في عراق طويل مع الروم، ووصف المؤرخون نتيجة انتصار الغزاة بأعمال همجية: إحراق المدينة، ونهبها، وجريان دم سكانها النصارى في مذابح مروعة، وإحراق كنائسها، وأخذ النفائس والمقدسات غنائم حرب. وقد ذكر البعض مشاركة اليهود للجيش الغازي في النهب والذبح بسبب عدم رضاهم عن سيطرة النصارى واضطهادهم لهم.

يعد المؤرخ المقرئزي (٨٤٥هـ—١٤٤٢م.) من قلائل من تناول هذه الحوادث من المؤرخين المسلمين، وذكر أنه: (في أيام «فوقا» ملك الروم، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر، فخرّبوا كنائس القدس وفلسطين وعمامة بلاد الشام، وقتلوا النصارى بأجمعهم... وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم، وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل وقرية الناصرة ومدينة صور وبلاد القدس، فنالوا من النصارى كل منال، وأعظموا النكاية فيهم، وخرّبوا لهم كنيسةين بالقدس، وحرّقوا أماكنهم، وأخذوا قطعة من عود الصليب، وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه)^(١).

ثانياً: الرومان النصارى (٦٢٩م / ٧هـ).

الرومان في الأصل وثنيون يملكون دولة عظمى، سبق الإشارة لتحطيمهم القدس عام (٧٠م)، ثم تنصروا في القرن الرابع الميلادي، وأصبحت النصرانية هي الديانة الرسمية للدولة.

بعد أن استغل الفرس الضعف الذي أصاب الدولة الرومانية البيزنطية

(١) المواعد والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط)، تقي الدين المقرئزي ٧٦٢/٣، ط. مكتبة مدبولي.

وهجموا على القدس التي تحمل قيمة دينية كبرى لدى هؤلاء الرومان النصارى، قام هؤلاء باستجماع قواهم مرة أخرى، وفي أقل من عشر سنوات تمكن الجيش الرومي من استعادة القدس، وقد نال الفرس واليهود من انتقام البيزنطيين النصارى قدرًا لا يقل في الفظاعة عما فعله الفرس واليهود بهم سابقاً؛ إذ لما انتصرت الروم، ودخل "هرقل" إلى القدس، أعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس، وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس، وقاموا قياماً كبيراً في قتلهم عن آخرهم. وحث القساوسة هرقل على الوقيعة بهم، وحسّنوا له ذلك... فأوقع "هرقل" باليهود وقيعة شنعاء، أبادهم جميعهم فيها، حتى لم يبق في ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى^(١).

وتذكر دائرة المعارف الكتابية: (وعندما أصبحت المسيحية هي ديانة الدولة، بدأ اضطهاد اليهود، فعندما انتصر هرقل على الفرس في عام ٦٢٩م، أعقب ذلك مباشرة مذبحة لليهود)^(٢).



(١) المصدر السابق ٣/٧٦٢.

(٢) دائرة المعارف الكتابية، مادة: اسكندرية/ ٢- اليهود في الإسكندرية.

المبحث الثالث

القدس خلال الحضارة الإسلامية

المطلب الأول

الفتح الإسلامي الأول (العمري) (١٧هـ) (١)

يعد الفتح الإسلامي للقدس حدثاً هاماً في التاريخ العالمي، نظراً للأهمية الدينية لهذه المدينة المقدسة في عدة أديان، ولأجل الطريقة الإنسانية الرحيمة التي عامل بها المسلمون أهل تلك المدينة، وتلك القيم المتسامحة التي نشروها للعالم في ذلك. لذا بدا واضحاً أن ذلك الفرق على مستوى الأديان الكتابية بين دخول المسلمين لتلك المدينة من جهة؛ وبين فتح اليهود لها على يد يشوع، وفتوح المسيحيين لها بعد ذلك. كما تبدو الأهمية أن هذا الفتح جاء من الخلافة الراشدة بعد النبوة، والتي تعد مصدراً مُلهماً في تاريخ الإسلام وتشريعاته. لذا جاء النص النبوي: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ)^(٢).

بدأ فتح القدس عندما قام جيش المسلمين بقيادة أبي عبيدة بمحاصرة القدس في شهر شوال ١٥هـ الموافق شهر نوفمبر ٦٣٦م، وأرسل أبو عبيدة

(١) ثمة خلاف في تحديد دقيق لفتح القدس بين المؤرخين المسلمين. راجع: الفتح العمري للقدس نموذج للدعوة بالعمل والقُدوة، شفيق جاسر محمود، ص ١٨٨ (مجلة الجامعة الإسلامية).

(٢) السنن، أبو داود (٤٦٠٧)، سنن الترمذي (الجامع الكبير) (٢٦٧٦)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

إلى السلطات في القدس كتاباً يدعوهم فيه إلى الإسلام أو إلى دفع الجزية، وكتب في الوقت ذاته كتاباً إلى عمر بن الخطاب في موضوع فتح القدس يشير فيه إلى فتوحاته في الشام، ثم إلى مفاوضات مع المسؤولين والسلطات في القدس، ويؤكد إصراره على فتح القدس سلماً، أو عنوة إذا لزم الأمر، وبعد ستة أشهر وافق البطريرك صفرونيوس للاستسلام بشرط أن يقدم مفاتيح القدس بنفسه إلى الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، فوافق عمر على ذلك، وسار إلى القدس لتسلم مفاتيح المدينة^(١).

نتذكر هنا المعاهدة بين المسلمين وأهل القدس، إذ أبرمت معاهدة الصلح بشروط لا يمكن لأحد -لم يعلم عن ظروف إبرامها- أن يتصور أنها كانت معاهدة صلح بين جيش منتصر وجيش مهزوم. لقد تضمنت المعاهدة -والمسلمون لا يزالون في حالة حرب مع البيزنطيين النصارى- تخيير الجيش البيزنطي المهزوم ومن يرغب من السكان الأصليين أن يبقوا في القدس ويكون لهم ما للسكان الأصليين (الفلسطينيين) وعليهم ما عليهم، أو أن يلحقوا بالدولة البيزنطية، وفي هذه الحالة يتعهد المسلمون بضمان حياتهم وأموالهم وأسلحتهم، حتى يبلغوا مأمنهم^(٢).

لقد دخل جيش المسلمين القدس فحافظوا على حياة السكان وأموالهم، وتركوا لهم الحرية في قوانينهم الخاصة وقضائهم، والحرية الكاملة لدينهم، وعقدوا في ذلك معاهدة، جاء فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما أعطى عبدالله^(٣) عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء [القدس] من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أن لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم. ولا يُكرهون على

(١) حول أحداث الفتح وتفصيله: انظر: تاريخ الطبري: ٦٠٧/٣.

(٢) العلاقات الدولية بين منهج الإسلام ومنهج الحضارة الغربية، صالح الحصين، ص ٥٨.

(٣) عبدالله: عمر هنا يصف نفسه بأنه عبدالله، وليس المراد اسمه، أو اسم ولده.

دينهم، ولا يُضارُّ أحد منهم... وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين^(١).

وهذه معاهدة لها قيمتها في تاريخ القدس، ولذا حرص عدد من المؤرخين المسلمين على ذكرها، أو الإشارة لها. فقد ذكرها خليفة بن خياط (٢٤٠هـ) بإسناده (خرج أهل إيلياء إلى عمر فصالحوه على الجزية وفتحوها)^(٢)، ونقل المؤرخ الواقدي (٢٠٧هـ) أن عمر (كتب لأهل بيت المقدس كتاباً - أي عهداً- وأقرهم في بلدهم على الجزية)^(٣)، ونقل ابن طاهر (٣٥٥هـ) بالألا يهدم كنائسها ولا يجلي رهبانها وبنى بها مسجداً^(٤).

وهذه المعاهدة في أصلها ليست غريبة عن أسلوب تعامل المسلمين مع أهل الكتاب في فتوحاتهم، بل هي منطلقة من روح المعاهدة النبوية مع نصارى نجران، والتي جاء فيها: (ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ، على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وبيعتهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهنته)^(٥).

لقد صاحب هذا الفتح مواقف متعددة تنبئ عن رقي ورحمة بالأمم المغلوبة، مع جعل غير المسلمين ينبهرون من تلكم الأخلاق الرحيمة والعالية. ومن ذلك ما نقله المقرئ عن «المؤرخين النصارى» أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، لما فتح مدينة القدس كتب للنصارى أماناً على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم، لا تهدم ولا تسكن، وأنه جلس في وسط صحن كنيسة القيامة، فلما حان وقت الصلاة خرج

(١) تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٦٠٩/٣.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ص ١٣٥.

(٣) فتوح الشام، الواقدي ٢٣٥/١.

(٤) كتاب البدء والتاريخ ١٨٥/٥.

(٥) أوردتها الفقيه أبو يوسف في كتابه: الخراج ص ٨٥.

وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التي على بابها بمفرده، ثم جلس وقال للبطرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي، وقالوا: هاهنا صلى عمر. وكتب كتاباً يتضمن أنه لا يُصلي أحد من المسلمين على الدرجة إلاّ واحد واحد، ولا يجتمع المسلمون بها للصلاة فيها، ولا يؤذنون عليها، وأنه أشار عليه البطرك باتخاذ موضع الصخرة مسجداً^(١).

وبعد أن ساقّت "دائرة المعارف الكتابية" - المتخصصة في شأن الكتاب المقدس - تاريخاً حافلاً بالمآسي والعظائم التي أصابت (القدس - أورشليم)، جاء ذِكر الفتح الإسلامي، التي قالت فيه: (عدالة عمر: استسلمت المدينة بعد حصار قصير، وعامل الخليفة عمر بن الخطاب المسيحيين معاملة كريمة، فاستثنيت الأماكن المسيحية، ولكن أقيم مسجد خشبي فوق موقع الهيكل، والذي لم يكن حتى ذلك الوقت قد أقيمت عليه مبان مسيحية ذات أهمية، ولكن كانت له قداسة خاصة عند المسلمين مرتبطة بقصة الإسراء والمعراج... ظلت العلاقة بين المسلمين والمسيحيين علاقة صداقة ومودة على مدى قرون. وكتب المؤرخ "المقدسي" في ٩٨٥م. أن المسيحيين واليهود كانت لهم اليد العليا في أورشليم)^(٢).

المطلب الثاني

الغزو الصليبي (٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م)

بعد عدة قرون؛ هاجم الصليبيون مدينة القدس ودخلوها منتصرين (١٠٩٩م)، وسجل المؤرخون الصليبيون الفظاعات والسلوك الوحشي

(١) المواظ والاعتبار (الخطط)، المقريزي ٧٦٥/٣. ط. مكتبة مدبولي، وجاءت أيضاً في: تاريخ ابن خلدون ٢٦٦/٢.

(٢) دائرة المعارف الكتابية، جماعة من اللاهوتيين، مادة: أورشليم/ فقرة: ٧٥.

للمنتصرين من حَمَلَة الصليب، فقد قُتل الرجال والنساء والأطفال صبراً ودون مقاومة ودون تمييز، وسبق نقل عدد من الصور التي كان يُفاخر بفعالها الصليبيون .

لم يعد ما صنعه الصليبيون شيئاً خافياً في ظل تفاخر رجالاتهم بما اقترفوه، لذا نجد «وليم الصوري» (١١٨٥ م.)، الذي عايش الحروب الصليبية ونشأ في منطقتها، وكان مستشاراً لملكة القدس النصارانية آن ذاك، يفرد كتاباً يؤرخ فيه لتلك المرحلة، ويؤرخ لدخول الصليبيين للقدس، فيقول: (... ومشت هذه الجموع... وانتشرت في كل ناحية من نواحي وسط المدينة، وليس لها من هدف سوى بث الدمار المخيف... وشهدت أرجاء المدينة مذبحه فظيعة الشناعة، وكان الدم المسفوك مخيفاً، حتى إن المنتصرين [الصليبيين] أنفسهم ساورهم الإحساس بالخوف وشعروا بالتقزز... أما القادة الآخرون فقد ترامى إلى علمهم -بعد فتكهم بكل من صادفهم في شتى نواحي المدينة- أن الكثيرين قد فروا إلى أطراف المسجد الطاهر، فأسرعوا كما لو كانوا على اتفاق فيما بينهم، وانطلقوا يتعقبونهم. ودخل المسجد حشد من الفرسان والمشاة، فذبحوا ذبح الشاة كل من لجأ إلى هنا يبتغي الحماية، وأعملوا القتل فيهم، لم تأخذهم رحمة بأحد ما، حتى فاض المكان كله بدماء الضحايا)، ثم يسترسل «وليم الصوري» مبرراً هذه الأفعال: (وكان ذلك قضاء عادلاً من الرب، أمضاه فيمن دنسوا هيكل السيد بشعائرتهم الخرافية، وحرّموه على شعبه المؤمن، فكان لا بد لهم من أن يكفّروا عن خطيئتهم بالموت، وأن تُطهّر الأماكن المقدسة بدمائهم. كان من المستحيل أن يطالع المرء كثرة القتلى دون أن يستولي عليه الفزع، فقد كانت الأشلاء البشرية في كل ناحية، وغطت الأرض دماء المذبوحين، ولم تكن مطالعة الجثث -وقد فارقتها رؤوسها- ورؤية الأعضاء المتبورة المبعثرة في جميع الأرجاء وحدها هي التي أثارت الرعب في نفس جميع من شاهدها،

بل كان هناك ما هو أبعث على الفزع، ألا وهو منظر المنتصرين أنفسهم وقد تخضبوا بالدماء، فغطتهم من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، فكان منظراً مروعاً، بث الرعب في قلوب كل من قابلوهم. ويقال: إنه قُتل في داخل ساحة المسجد وحدها عشرة آلاف من المارقين، بالإضافة إلى أن القتلى الذين تناثرت جثثهم في كل شوارع المدينة وميادينها لم يكونوا أقل عدداً ممن ذكرناهم.

وانطلق بقية العسكر يجوسون خلال الديار بحثاً عن ما زال حياً من التعساء الذين قد يكونون مختفين في الأزقة والدروب الجانبية فراراً من الموت... وجعل بعض العسكر من أنفسهم عصابات انطلقت تسطو على البيوت، ممسكين بأصحابها ونسائهم وأطفالهم، وأخذوا كل ما عندهم، ثم راحوا يقتلون البعض بالسيف، ويقذفون بالبعض الآخر من الأمكنة العالية إلى الأرض، فنتهشم أعضاؤهم ويهلكون هلاكاً مروعاً...).

ثم يتحدث أخيراً عن هؤلاء القتلة بأنهم أخيراً (وضعوا السلاح جانباً وخرجوا مرتدين من الثياب جديدها، ومضوا بأيدٍ نظيفة، وساروا حفاة في خشوع ومذلة يطوفون بالأماكن الطاهرة... وراحوا يقبلون هذه البقاع قبيلات ممزوجة بالزفرات والدموع...)^(١).

لقد مارس الصليبيون الذين يحملون لواء الدفاع عن ديانة المسيح القتل البشع حتى مع الأطفال والنساء، وأصبحوا يقدمونه كمفاخر تاريخية لهم، الأمر الذي جعل مؤرخهم "روجر ويندوفر" (١٢٣٧م) يقول في وصف ما فعلوا: (... وأخرجوا كل من وجدوه من سادة وسيدات مع أطفالهم وأسرههم... وقتلوهم إما بالسيف، أو أطاحوا بهم من الأعلى على رؤوسهم، فدقوا أعناقهم!)^(٢).

(١) الحروب الصليبية، وليم الصوري، ١٢٦ / ٢ - ١٢٨.

(٢) ورود التاريخ، روجر أوف ويندوفر، ص ٨٥ (وهذا الكتاب هو الجزء ٣٩ من الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية).



أما مؤرخي المسلمين فيصفون بعض ما حدث في المسجد الأقصى، فيقول ابن الأثير: (وقتل الفرنج، بالمسجد الأقصى، ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعبادهم، وزهادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف)^(١).

ويبدو أن اليهود على قلة عددهم بالقدس، لحقهم ما لحق بالمسلمين. وبحسب المؤرخ اليهودي "ماكس مارجوليز" أن الأهالي اليهود الذين كانوا بالقدس وعلى اختلاف طوائفهم قد جمعوا جميعاً في معبد واحد ثم أشعلت فيهم النار^(٢).

هذه الأحداث جاءت بغطاء ديني وسياسي، لذا تجد في كتابات القس "ريموند أوف أغويلر" والمشهور بـ "ريمند الإجيلي"، استعجاباً وتعاضماً لها، وقد شهد تلك الأحداث؛ إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، وقتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الآخر يعذبون عدة أيام، ثم أحرقوا في النار. وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيول^(٣).

ويصور المؤرخ والقس الفرنسي "فوشيه الشانترى" (١١٢٧م) -الذي شارك في الحملة الصليبية الأولى- لجوء المسلمين إلى قبة الهيكل (يقصد المسجد)، وأنه (قد أطلقت عليهم السهام وخرروا صرعى يتساقطون على رؤوسهم. وقد قُطعت رؤوس ما يقرب من عشرة آلاف شخص في هذا الهيكل، ولو كنت هناك لتطلخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى... لم يبق منهم أحد، ولم يرحموا امرأة ولا طفلاً. كم كانت تصيبك الدهشة

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ٤٢٥/٨.

(٢) راجع: تاريخ الشعب اليهودي، ماكس مارجوليز، ألكسندر ماركس، ص ١١٠.

(٣) نقلها عنه: ول ديورانت، في كتابه: قصة الحضارة ٢٥ / ١٥.

لو أنك شاهدت رجائنا من المشاة وحملة الترس، بعد أن اكتشفوا الأعيب الشرقيين [أي: المسلمين]، يبقرون بطون من ذبحوا ليستخرجوا من أمعائهم الدنانير الذهبية التي كانوا قد ابتلعوها وهم على قيد الحياة. وللسبب ذاته، وبعد بضعة أيام، جمع رجائنا كومة عظيمة من الجثث وأحرقوها رمادا لكي يسهل عليهم الحصول على هذا الذهب^(١).

العجيب في الأمر: هو في لغة القتل المدعوم، والذي تبدو فيه مظاهر الفرح والغبطة والسرور، رغم الحديث الكثير عن سلام المسيح، وسلمية المسيحية. من نماذج ذلك ما يُعقب به القس "ريمند الإجيلي" بأن فعلهم بالمسلمين (كان حكماً ربانياً عادلاً ورائعاً، أن يمتلئ المكان بدماء غير المؤمنين)^(٢). ومثله ما ذكره المؤرخ الصليبي "روجر ويندوفر" بأنه بعد هذه الأحداث العظيمة (ذهب الصليبيون بعد ذلك وشرعوا مع الآهات والدموع والتواضع والخشوع لزيارة كل مكان مقدس)^(٣). وأيضاً "فوشيه الشارترى" يذكر أن هذا الإنجاز (سوف يخلد وتجري ذكره على السنة جميع الأمم إلى أبد الأبد)^(٤).

وصدق "فوشيه"، فقد بقي هذا العمل لطحخة سوداء كلما نُطقت كلمة "الحرب الصليبية" في كتاب أو لقاء أو نقاش؛ فإنك لا تتذكر معها سوى الأعمال الهمجية التي قام بها أولئك.

هذه روايات المؤرخين النصارى، وهي تتضح بالقسوة، بل والتباهي بالدماء. هنا نتذكر نفس الفترة تقريبا عندما يكتب نموذج المؤرخ المسلم، كابن كثير مثلا عن العلاقة مع هؤلاء الغزاة، حيث تحدث عن الشهامة والمروءة التي يكون عليها الجندي المسلم، ومن ذلك ما حدث بين ملك

(١) تاريخ الحملة إلى القدس، فوشيه الشارترى ٧٥/١.

(٢) نقلته الباحثة: هيلين إيليري في كتابها: الجانب المظلم من التاريخ المسيحي، ص ٧٩.

(٣) ورود التاريخ، روجر أوف ويندوفر، ص ٨٥.

(٤) تاريخ الحملة إلى القدس، فوشيه الشارترى ٧٦/١.

الإنجليز في الحملة الصليبية "ريتشارد قلب الأسد" وما دار بينه وبين صلاح الدين، حيث قال ابن كثير: (وبعث ملك الإنكلتير^(١) إلى السلطان صلاح الدين يذكر أن عنده جوارح [طيور صيد] قد جاء بها من البحر، وهو على نية إرسالها إليه [إلى صلاح كهديّة] ولكنها قد ضعفت، وهو يطلب لها دجاجاً وطييراً لتتقوى به، فعرف [صلاح الدين] أنه إنما يطلب ذلك لنفسه بتلطف، فأرسل إليه بشيء من ذلك كرمّاً وسجّية وحشمة، ثم أرسل [ريتشارد] يطلب فاكهة وثلجاً، فأرسل إليه أيضاً، فلم يفد معه الإحسان، بل لما عوفي عاد إلى شر مما كان^(٢)).

المطلب الثالث

الفتح الأيوبي للقدس (٥٨٣هـ/١١٨٧م)

وبعد عدة عقود يرجع الحكم الإسلامي مرة أخرى، إذ هزم «صلاح الدين الأيوبي» جيوش الصليبيين في موقعة حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م)، وبعدها توجه المسلمون لفتح القدس، فدخلوها بعد هجوم قوي بهدف إسقاط حصونها القوية المنيعة، والتي زاد من قوتها استبسال النصارى في الدفاع عنها. لقد كانت حرباً قوية بين الطرفين، أبلى فيها المسلمون بلاءً كبيراً، ويصف ذلك ابن شداد الموصلّي، والذي عاصر الحروب الصليبية، بقوله: (ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع عنهم، وظهرت لهم أمارات نصره الحق على الباطل، وكان قد ألقى في قلوبهم الرعب، مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر، وما

(١) الإنكلتير: كذا تكتب في كتب المؤرخين المسلمين (كابن كثير في البداية والنهاية)، ويراد بهم الإنجليز، ومملكة انكلترا أو انجلترا. وربما كتبت أيضاً بطريقة أخرى، مثل: الأنكتير (الذهبي في: تاريخ الإسلام ٨٨/٤١). وأحياناً: الإنكلتار، (الكامل لابن الأثير ١٠/١٠٥).

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير ١٦/ ٦٣٠ (ط. هجر). وما بين المعكوفين [...] من الباحث، للتوضيح.

جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون. وبالسيف الذي قتل به إخوانهم مقتولون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين^(١).

لم يقبل صلاح الدين طلب الصلح في البداية، ورفض إلا الانتقام للمسلمين الذين تنكروا بوحشية الصليبيين قرابة ٩٠ سنة، وقال مذكراً الصليبيين ما فعلوه بأهل القدس سابقاً: (لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها)^(٢). وبعد مداوات طويلة اصطح معهم على فداء أنفسهم أو الاسترقاق، ومن يفدي نفسه من الصليبيين فإنه يخرج من القدس أو يُسترق. فوافقوا على ذلك، ودخلها صلاح الدين من غير أن يهرق دماء أكثر مما أهرق^(٣).

لقد كان بإمكان السلطان صلاح أن يفتك بهؤلاء شر فتك، وأن يحرق أرضهم وديارهم، ولكنه أثار العفو والحكمة، وأن الاستمرار في القتال (رغم أنه كان في الجانب الأقوى) سيزيد من إهراق الدماء.

سبق أن عرضنا كيف كان يتغنى المؤرخ الصليبي بكثرة ما قتلوهم من المسلمين، وهنا سنرى كيف يتناول المؤرخ المسلم للحادثة، فيقول ابن الأثير مثلاً: (وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار)، مع أن المفترض أن يكون الثمن ١٨٠,٠٠٠ لأنه على كل رجل ١٠ دنانير بحسب اتفاق الصلح).

ويذكر ابن الأثير أيضاً: (وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ابن شداد الموصلية، ص ١٣٥.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ٣٥/١٠.

(٣) راجع وصفا أدبيا للحوادث: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، أبو شامة

المقدسي ٣/ ٢٣٨.

قد ترهبت وأقامت به، ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم، فطلبت الأمان لنفسها ومن معها، فأمنها وسيرها. وكذلك أيضاً أطلق ملكة القدس التي كان زوجها الذي أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها، ونيابة عنها كان يقوم بالملك، وأطلق مالها وحشمها، واستأذنته في المصير إلى زوجها، وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس، فأذن لها، فأتته وأقامت عنده.... وخرج البطرک الكبير الذي للفرنج، ومعه من أموال البيع؛ منها: الصخرة والأقصى، وقمامة وغيرها، ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له صلاح الدين، فقبل له ليأخذ ما معه يقوي به المسلمين، فقال: لا أغدر به، ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير، وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور^(١).

هذه الحوادث لم ينفرد بذكرها مؤرخو المسلمين، بل كان المؤرخون النصارى يتحدثون عنها، وعن الفروسية التي كان يتحلى بها صلاح الدين، والذي أصبح نجماً عبر القرون في الأدبيات الأوروبية التي تلت فترة الحروب الصليبية، إعجاباً به وبشهامته. لقد بدت شخصيته من الشخصيات القوية والأسطورية في الوعي الأوربي لاحقاً^(٢).



(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١٠/٣٦-٣٧.

(٢) كتب المستشرقة البريطانية: كارول هيلينبراند Carole Hillenbrand ورقة علمية بعنوان: [تطور

أسطورة صلاح الدين في الغرب] The Evolution of the Legend of Saladin in the West

تجد نصها وترجمتها ناصر عبدالرزاق الملا جاسم، في مجلة الحوار، عدد: ٤ يناير، ٢٠١٥.

المبحث الرابع شهادات الدارسين للحضارات حول سلوك الفاتحين

عند تصفح المدونات التاريخية التي كتبها غير المسلمين؛ يلفت انتباهنا حجم ذلك الثناء على تعامل المسلمين ورفيهم ورحمتهم بالشعوب، وذلك الكم من الشهادات حول السماح في علاقات المسلمين السلمية مع الشعوب الأخرى، والتي لم يعرف التاريخ "تقعيداً وتقنيناً" لها كما هو في الإسلام. لقد بات الإسلام حتى في طريقة حروبه جذاباً بشكل واضح، ولم يعد الأمر مستغرباً أن تسمع أو تقرأ مقالة المستشرق الفرنسي "غوستاف لوبون": (أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم)^(١).

تلك السمة التسامحية الرحيمة جعلت المستشرق اليهودي "جولد تسيهر" - المعروف بطعنه في عدد من الشرائع الإسلامية- لا يستطيع إخفاء إعجابه بمنهج الإسلام، وأن مبادئه ضاربة في التاريخ؛ حيث يقول: (وروح التسامح في الإسلام قديماً، تلك الروح التي اعترف بها النصارى المعاصرون أيضاً، كان لها أصلها في القرآن: (بَلَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) البقرة: ٢٥٦، وقد جاءت الأخبار عن السنين العشر الأولى للإسلام بمثلٍ للتسامح

(١) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص ٦٠٥.

الديني للخلفاء إزاء أهل الأديان القديمة، وكثيراً ما كانوا يوصون في وصاياهم للفاتحين بالتعاليم الحكيمة^(١).

عند تناول الحروب الصليبية، نلاحظ أن عقد المقارنات عادة ما يكون بين الإسلام والمسيحية أكثر من غيرهما؛ ويظهر أن ذلك لعمق جذورهما في دول وحضارات التاريخ، بخلاف اليهودية التي زالت دولتها وتشتت شعبها في الأمم منذ قرون طويلة، أضف إلى ذلك أن موقف الديانة اليهودية واضح الصرامة فيما يتعلق بالأقليات، وقد عبر عن ذلك «غوستاف لوبون» بقوله: (من أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد عدم التسامح العالم عدة قرون، وأن صبغته بصبغه بما لم تعرفه ديانة، خلا اليهودية، بصبغة القسوة والجور)^(٢).

وفي سبيل المقارنة بين سلوك الصليبيين والمسلمين بهذه المناسبة كتبت الباحثة زيجريد هونكه: (نذكر هنا الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد، الذي نشأ في الغرب تتشئة الملوك الشرفاء. فقد مرغ تلك السمعة الطيبة في العار، ودأب على تلويثها بشكل مخز دائماً أبداً، فبينما أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربي أن حياتهم آمنة، فإذا هو فجأة منقلب المزاج، فيأمر بذبحهم جميعاً، ويحذو قائد الجيش الفرنسي حذوه سريعاً. وهكذا لطح بفعلته النكراء وسفكه تلك الدماء سمعته إلى الأبد، وضيع ثمرة انتصاره في أذيال الخزي والهوان.

وعلى العكس من هذا عرفنا صلاح الدين الذي أخزى قوَّاد جيوش النصارى، فلم ينتقم قطُّ من أسراهم النصارى الذين كانوا تحت رحمته، رداً على خيانتهم وغدرهم وفضاعتهم الوحشية، التي ليس لها حد. ولقد أخزاهم صلاح الدين مرةً أخرى حين تمكَّن من استرداد بيت المقدس، التي

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام، جول تسيهر ص ٤٦.

(٢) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص ٢٣٤.

كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل، بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحه لا تدانيها مذبحه وحشية وقسوة، فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقاماً لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضارباً المثل في التخلق بروح الفروسية العالية. على العكس من المسلمين؛ لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خلقي يفرض عليها أن تسمح لأولئك "الكفار" بممارسة حقوقهم الطبيعية... كما شعرت تلك الفروسية النصرانية بأنه ليس لزاماً عليها أن تلتزم بكلمة الشرف التي تعطيها لغير النصراني... والحق أن الفروق الحاسمة مع أتباع الملة الأخرى راسخة في تفهم كل من الإسلام والنصرانية لطبيعته، وفي اختلاف تفهم كل منهما للبشر^(١).

وكتب المؤرخ البيزنطي "نيقيطياكونياتس": (إنه حتى المسلمين أكثر رحمة وشفقة مقارنة بهؤلاء الرجال الذين يحملون صليب المسيح على أكتافهم)^(٢).

وفي مسألة المقارنة الواضحة بين الفاتحين المسلمين والنصارى الصليبيين يؤكد المستشرق الإنجليزي "إميل درمنغم" على تلك الرحمة للجيوش الإسلامية، ويؤكد على عظمة (الفرق بين دخول المسلمين القدس فاتحين ودخول الصليبيين الذين ضربوا رقاب المسلمين، فسار فرسانهم في نهر من الدماء التي كانت من الغزارة ما بلغت به ركبهم... وعقدوا النية على قتل المسلمين الذين تفلتوا من المذبحة الأولى)^(٣).

لا شك أن رحمة الفاتح المسلم أصبحت مؤثرة وتحمل إبهاراً ذاتياً لمن يقرأ فيها. نجد مثلاً المؤرخ العالمي «ول ديورانت» بيدي - بعد عقد عدة مقارنات - شيئاً منها، فيقول: (غير أن المسلمين، كما يلوح، كانوا رجالاً أكمل

(١) الله ليس كذلك، زيجريد هونكه، ص ٣٤-٣٥.

(٢) نقلاً عن: الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، هيلين إيليربي، ص ٨١.

(٣) حياة محمد، إميل درمنغم، ص ٣٣١.

من المسيحيين؛ فقد كانوا أحفظ منهم للعهد، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين، وقلما ارتكبوا في تاريخهم من الوحشية ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس في عام ١٠٩٩م. ولقد ظل القانون المسيحي يستخدم طريقة التحكيم الإلهي بالقتال أو الماء، أو النار، في الوقت الذي كانت الشريعة الإسلامية تضع فيه طائفة من المبادئ القانونية الراقية، ينفذها قضاة مستثيرون^(١).

وتقول "إيفلين كوبولد" حول تصرف المسلمين إزاء الصليبيين في القدس، وكيف كانت أفعالهم رحيمة إزاء ما قام به الصليبيون، فتقول: (مما يجدر أن يُصار إلى ذكره أن صلاح الدين لما افتتح القدس وكانت أفعال الصليبيين الدامية بأهلها لا تزال ملء السمع وملء البصر، أبى أن يعامل المغلوبين إلا بالحسنى والرفق، ورفض الانتقام من الذين أساءوا وأحرقوا ودمروا، وزاد ندىً فسمح لجميع المسيحيين بمغادرة المدينة تحت رعاية رجاله ومحافظه قواده)^(٢).

ويذكر المؤرخ النصراني «جورج حنا» بأنه: (لم يرو المؤرخون المسيحيون أنفسهم مثل هذه الوحشية [التي مارسها الصليبيون] على المسلمين. لم يكن هؤلاء [المسلمون] وحشيين في معاملة الأسرى الأهليين المسيحيين. فإذا انتصروا كانوا يكتفون بضرب الجزية على أعدائهم ولا يفظعون بهم.

بعد معركة طبرية التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على خصمه الملك "غي ده لوسينيان" ... عفا صلاح الدين عن التظطيع بالأسرى الذين نجوا من الموت المرعب أثناء المعركة، وجردهم من السلاح، وضرب عليهم الجزية، وأطلق سراحهم مع قائدهم الملك "غي". وليست هذه الحادثة وحدها هي الدليل على الفرق الكبير بين معاملة الغزاة لأعدائهم، وبين معاملة

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ١٣/٢٨٣.

(٢) البحث عن الله، إيفلين كوبولد، ص ١٠٨-١٠٩.

أعدائهم... هي واحدة من المئات التي جاءت في كتب التاريخ عن الحروب الصليبية ومعظمها من تأليف المؤرخين المسيحيين من الفرنج بالذات^(١).

لقد كان المسلمون -إجمالاً- كثيراً ما يتميزون بهذه الروح عبر التاريخ، ولم يكن ذلك في الحروب الصليبية فحسب، بل كان جزءاً من السلوك الحربي الإسلامي، وقد يخالفه أحياناً بعض الحوادث التي لها ظروفها الخاصة. وكما عبرت عنه المستشرقة الإسرائيلية "حافا لزرورس" بأن (هذا -قبل كل شيء- لأسباب دينية)^(٢).

إن تعامل المسلم ينطلق من تعاليم دينية، لها أصولها عميقة الجذور في آداب الحرب وأخلاقياتها، وهي بلا شك أثرت إيجابياً في نفوس أعداء المسلمين. يشهد لذلك ما ذكره عالم الفلسفة اللاهوتية «أوليفروس» بعد خروجه من أسره نظراً لمشاركته في الحروب الصليبية، فقد كتب رسالة عام ١٢٢١م يقول فيها: (إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم وأذقتهم مر العذاب، لما غدونا أسراهم وكدنا نموت جوعاً راحوا يؤثرونا على أنفسهم على ما بهم من خصاصة، وأسدوا إلينا كل ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان)^(٣).

هذا الفيلسوف بلا شك يجهل السبب. ويبدو أنه لم يهتد لرسالة القرآن الكريم ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان].

بعد هذا الوصف، يبدو التساؤل الجدلي: هل كانت الأديان المجوسية والنصرانية واليهودية هي مبعث العدوانية التي أظهرها الغزاة من أتباع

(١) قصة الإنسان، جورج حنا، ص ٩٢-٩٣، نقلاً عن: قالوا عن الإسلام، ص ٢٨٠.

(٢) أحاديث أخرى عن الإسلام، حفا لزرورس، (نقلاً عن: الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، ص ٢١٠).

(٣) الله ليس كذلك، زيغريد هونكه، ص ٣٣-٣٤.

هذه الديانات للمدينة المقدسة، أم أن مبعثها الطبيعة البشرية التي أخفقت
تلك الأديان المذكورة في ترويضها في حين نجح الإسلام في ترويض هذه
الطبيعة لدى جيش عمر وجيش صلاح الدين⁽¹⁾؟



(1) راجع: التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب، صالح الحصين، ص ١٨٤.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد :
في ختام هذا البحث، يسرني أن أخص للقارئ أهم ما توصلت إليه
من أهم النتائج والتوصيات .

- اكتسبت القدس عبر التاريخ قيمة عالية، وخاصة لدى الأديان الكتابية، نظراً للأهمية الدينية التي أخذتها . فاليهود يرون فيها مكان المعبد العظيم الذي بناه داوود، والنصارى يرون فيها مكان صلب المسيح، وكنيسة القيامة، والمسلمون يرون فيها موطن الإسراء والمسجد الأقصى .
- يلاحظ أن الدول الوثنية السابقة كانت تعرف أهمية القدس، ولذا من يقرأ في الروايات التاريخية يلحظ أن قادة تلك الجيوش كان لديهم تردد في بعض الأحيان من اجتياح المدينة، وعدم إرادة لذلك، ظناً منهم أن هناك قيمة لهذه المدينة .
- مرت المدينة الشريفة عبر تاريخها بأحداث مروعة عبر القرون، كان من أشهرها دخول نبوخذنصر البابلي سنة ٥٨٦ ق. م. وبعده

دخول الرومان الوثنيين سنة ٧٠م. لقد كان دخولها تخريبياً لنقض أركان المدينة.

- من جانب دخول جيوش الأديان الكتابية (اليهودية، النصرانية، الإسلام) فقد هُوجمت المدينة أربع مرات، كان الشعب الذي كان يسكن المدينة مخالفاً لديانة الجيش الغازي. فكانت المرة الأولى بواسطة الجيوش اليهودية بقيادة النبي يشوع، ونتج عنها قتل كل البشر بالمدينة، ثم إحراقها بالنار. والمرة الثانية: في الفتح الإسلامي العمري، إذ فُتحت سلمياً وأمن الأهالي على أرواحهم ومعابدهم. والمرة الثالثة: كانت بواسطة النصارى بما يعرف بالحروب الصليبية، حيث تفاخر المؤرخون آنذاك بإبادة المسلمين الذين في القدس. والرابعة: الفتح الأيوبي، بواسطة صلاح الدين، وأيضاً كانت لاستردادها من النصارى الذين طردوا أو قتلوا من كان يسكنها من سواهم. فاستردها صلاح الدين صلحاً، ولم تهرق فيها الدماء كما فعل الصليبيون قبل ٩٠ سنة من الفتح الأيوبي.
- يظهر تأثير التعاليم الإسلامية في حروب المسلمين على طريقة دخولهم القدس وغيرها. إذ كان من أهدافها نشر الديانة قبل أي شيء، وما دام أن ذلك حاصل بلا قتل ولا تدمير؛ فهو الأولى دائماً.
- يوجد هناك مادة علمية ضخمة كتبها مؤرخون نصارى في الحروب الصليبية تبين الرؤية للأخر، ولذا فتوصي هذه الدراسة بالبحث في تلك المادة وتحليلها.



فهرس المصادر والمراجع:

١. أدب الجدل والدفاع في العربية بين المسلمين والمسيحيين واليهود، موريتس شتينشيدر، ترجمة: صلاح إدريس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
٢. الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٦/١٩٩٥.
٣. البحث عن الله، إيفلين كوبولد، ترجمة: محمد أحمد خالد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.
٤. البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.
٥. البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٦. تاريخ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، دار القلم، بيروت، ط١. الخامسة، ١٩٨٤م.
٧. تاريخ إسرائيل من واقع نصوص التوراة والأسفار وكتب ما بين العهدين، للأب متى المسكين، دير القديس أنبا مقار، ط٢، ٢٠٠٣م.
٨. تاريخ الحملة إلى القدس، فوشيه الشارترى، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.
٩. تاريخ الشعب اليهودي، ماكس مارجوليز، ألكسندر ماركس، دار ومكتبة بيبليون، بيلوس - لبنان.
١٠. تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

١١. تاريخ اليهود، يوسيفوس اليهودي، شركة الطباعة المصرية، ط١، ٢٠٠٦م.
١٢. تاريخ بابل وآشور، جميل أفندي نخلة المدور، تصحيح: إبراهيم اليازجي، بيروت، ١٨٧٩م.
١٣. تاريخ خليفة بن خياط، خليفة بن خياط العصفري البصري، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة - دمشق، بيروت، ط٢، ١٣٩٧هـ.
١٤. التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب، صالح الحصين، نشر: كرسي الأمير سلطان بن عبدالعزيز للدراسات الإسلامية المعاصرة، الرياض، ١٤٢٩هـ.
١٥. تطور أسطورة صلاح الدين في الغرب، كارول هيلينبراند، ترجمة: ناصر عبدالرزاق الملا جاسم، مجلة الحوار، كردستان العراق - أربيل، يناير، ٢٠١٥، ع١٤٢.
١٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، مصر، (ومثلها: ط. مؤسسة الرسالة الأولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م).
١٧. الجانب المظلم في التاريخ المسيحي، هيلين إيليري، ترجمة: سهيل زكار، دار قتيبة، دمشق-بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ.
١٨. الحرب في اليهودية عرض ونقد، خالد الشننير، مجلة الدراسات الإسلامية، كلية التربية، م. ٢٥، ع. ٢، ٢٠١٣م.
١٩. الحروب الصليبية، وليم الصوري، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.
٢٠. حياة محمد، إميل درمنغم، ترجمة: محمد عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي).

٢١. الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، تحقيق: طه عبدالرؤف سعد، سعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر.
٢٢. دائرة المعارف الكتابية، جماعة من اللاهوتيين، دار الثقافة، مصر، مختلفة الطبعات بحسب أجزاء السبعة.
٢٣. السنن (الجامع الكبير)، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد شاکر وعبدالباقي وعطوة، الناشر: البابي الحلبي، مصر، ط ١٣٥٦/١هـ.
٢٤. السنن، أبو داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، العصرية، بيروت، ١٤١٦هـ.
٢٥. السنن، أبو داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، العصرية، بيروت، ١٤١٦هـ.
٢٦. صحيح البخاري، الإمام البخاري، تحقيق: مصطفى البغا، ابن كثير، دمشق، ط ٢، ١٤٠٧هـ.
٢٧. صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ريتشارد سوزرن، ترجمة رضوان السيد، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٨م.
٢٨. عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين، محمد آل عمر، مجلة البيان، ط ١، ١٤٢٤-٢٠٠٣.
٢٩. العقيدة والشريعة في الإسلام، إجناس جول تسيهر، ترجمة: محمد يوسف موسى، وآخرون، دار الكتب الحديثة، مصر، ط ٢.
٣٠. العلاقات الدولية بين منهج الإسلام ومنهج الحضارة المعاصر، صالح الحصين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط ١، ١٤٢٨-٢٠٠٧م.
٣١. عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل الدمشقي، المعروف بأبي شامة، تحقيق: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.



٣٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، تحقيق: ابن باز
وعبدالباقي والخطيب، دار المعرفة، بيروت.
٣٣. الفتح العمري للقدس نموذج للدعوة بالعمل والقدوة، شفيق جاسر
أحمد محمود، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، م. ١٦، ع. ٦١،
محرم - صفر - ربيع الأول ١٤٠٤هـ.
٣٤. فتوح الشام، محمد بن عمر بن الواقدي، دار الكتب العلمية،
بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
٣٥. قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل، الندوة العالمية للشباب
الإسلامي، السعودية، ط ١، ١٤١٢هـ.
٣٦. قصة الحضارة، ول ديورانت xe "ض: ول ديورانت"، ترجمة: زكي
نجيب محمود، دار الجيل، المنظمة العربية للتربية، بيروت-تونس.
٣٧. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري،
دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٣٨. الكتاب المقدس، أي: كتب العهدين القديم والجديد (الترجمة
الكاثوليكية - الآباء اليسوعيين) دار المشرق، بيروت، ط ٧، ٢٠٠٤م.
٣٩. كل الملوك والملكات في الكتاب المقدس، هربرت لوكير، ترجمة:
إدوارد وديع عبدالمسيح، دار الثقافة، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٥م.
٤٠. لأصول الدينية للحرب والسلام في اليهودية والنصرانية والإسلام،
نبيل أمير النصرى، دار الدراسات العلمية، مكة المكرمة، ط ١،
١٤٣٣/٢٠١٢م.
٤١. الله ليس كذلك، زيجريد هونكه، دار الشروق، القاهرة، ط ٢،
١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.
٤٢. المدخل إلى دراسة المسجد الأقصى، عبد الله معروف، دار العلم للملايين،
بيروت، ط ١، ٢٠٠٩م.

٤٣. المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم، الخوري بولس الفغالي، المكتبة البولسية، جمعية الكتاب المقدس، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
٤٤. المسند، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.
٤٥. معجم اللاهوت الكتابي، كزافييه ليون اليسوعي، دار المشرق، بيروت، ط٥، ٢٠٠٤م.
٤٦. معجم ما ألف في فضائل وتاريخ المسجد الأقصى والقدس وفلسطين ومدنها من القرن الثالث الهجري الى نكبة فلسطين، شهاب بهادر، مركز جمعة الماجد، دبي، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
٤٧. من سينا إلى موآب xe "ذذ: موآب"، للخوري: بولس الفغالي xe "ض: بولس الفغالي"، المكتبة البولسية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٤٨. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقرزية)، تحقيق: محمد زينهم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
٤٩. موقع إسلام ويب islamweb.net: فتوى: (كم تعدل الصلاة في بيت المقدس).
٥٠. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ابن شداد الموصلية، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
٥١. ورود التاريخ (ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية)، روجر أوف ويندوفر، ترجمة: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٠م.
٥٢. الوعد الإلهي في العهد القديم بعودة الفلسطينيين إلى أرض فلسطين، محمد منصور، مجلة المؤرخ العربي، المورخ العربي ع. ٤٣، ذوالحجة ١٤١٠هـ.



قيم الرحمة في الإسلام ودور المرأة المسلمة في تعزيزها

إعداد:

د. أسماء بنت راشد الرويشد

المشرفة العامة على

مركز أسية للاستشارات التربوية والتعليمية



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فلم تكن (المرأة) في القرون الثلاثة الأولى من رسالة الإسلام وما تلاها من عصوره الذهبية، تمثل مشكلة تتطاحن حولها الآراء، بل كانت جوهرة مكنونة لها احترامها، كأم وأخت وزوجة وابنة، وكان لها كذلك حقوق، وعليها واجبات معروفة، بل عاش الرجال والنساء وقد تحقق بينهم مفهوم (الرحمة) الحقيقية، وانتشرت قيمها لديهم من المودة والتفاهم وغيرها، ليكون بعضهم مكملاً للبعض، دون أن يقف أحدهم في طريق الآخر.

فلما جاء العصر الحاضر، إذ بالمرأة تغدو ممثلة لمشكلة مفتعلة، جعلتها تواجه الرجل وتقف في طريقه، بل وتشتبك معه في جوانب كانت في غنى عنها، فكثرت الحديث عنها، وتضاربت فيها الآراء حتى كادت حقوقها أن تضيع، فهذا يُنادي بـ (الرحمة) بها، وذاك يُطالب بمنحها حقوقها المسلوبة -على حد تعبيره-، وثالثٌ ينعق بأنها مظلومة، وأن (الحضارة الغربية) لم تأت إلا للرحمة بها، ورفع الظلم -المزعوم- عنها!

وانطلاقاً مما سبق، جاء هذا البحث بعنوان: (قيم الرحمة في الإسلام

ودور المرأة المسلمة في تعزيزها) يُبرز الدور الحقيقي الذي قامت به المرأة المسلمة في تعزيز قيم الرحمة في المجتمع الإسلامي، وبيان هذه القيم وما أحدثته من أثر كبير في الأفراد والمجتمعات على مدى عهود الإسلام المختلفة.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

- المقارنة بين رحمة التشريع الإلهي والتشريعات الوضعية في تعاملها مع المرأة.
- إبراز دور المرأة المسلمة في تعزيز (الرحمة) اسرياً ومجتمعياً.
- ذكر تجربة تطبيقية لتعزيز مفهوم وقيم الرحمة اسرياً ومجتمعياً (مركز آسية نموذجاً).

مشكلة البحث:

تعتبر (الرحمة) أحد المفاهيم المهمة التي قام عليها البناء الحضاري في الإسلام، لكنها استثمرت اليوم من قبل التشريعات الوضعية كحجة في محاربة هذا النسيج الحضاري، واستهداف أسسه المتين: (المرأة المسلمة)، من خلال إظهار أنّ هذه التشريعات الوضعية هي أرحم بالمرأة من التشريع الإلهي، وأن (الرحمة) في التشريع الإلهي ليست إلا تقييداً لحريتها وكبتاً لإرادتها. فجاء البحث ليجيب على الأسئلة محل مشكلة الدراسة:

س ١: ما الفرق بين رحمة التشريع الإلهي والتشريعات الوضعية في

تعاملها مع المرأة؟

س ٢: ما الدور الذي تقوم به المرأة في تعزيز الرحمة اسرياً ومجتمعياً؟
س ٢: هل هناك نماذج واقعية لتطبيق (الرحمة) بمفهومها في الإسلام
اسرياً ومجتمعياً؟

منهج البحث:

اعتمدت الباحثة في هذا البحث على المنهج الوصفي القائم على الاستقراء وتحليل الواقع، مع جمع المادة العلمية من المراجع، ومقارنة الأدلة الشرعية بالنصوص الوضعية في موضوع البحث.

خطة البحث:

يشتمل هذا البحث على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس: المقدمة في أهمية البحث، وأهدافه، ومشكلته، ومنهجه، وخطته. المبحث الأول: مفهوم الرحمة وقيمها بين التشريع الإلهي والتشريعات الوضعية، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الرحمة وقيمها في التشريع الإلهي

المطلب الثاني: الرحمة في التشريعات الوضعية

المطلب الثالث: الرحمة بالمرأة ما بين التشريع الإلهي والتشريعات الوضعية

المبحث الثاني: دور المرأة المسلمة في تعزيز مفهوم الرحمة اسرياً ومجتمعياً، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: دور المرأة المسلمة في تعزيز مفهوم الرحمة اسرياً

المطلب الثاني: دور المرأة المسلمة في تعزيز مفهوم الرحمة مجتمعيًا

المبحث الثالث: تجربة تطبيقية لتعزيز مفهوم وقيم الرحمة اسرياً
ومجتمعياً (مركز آسية نموذجاً)، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الدور الفاعل للمراكز الاستشارية والمتخصصة في
تعزيز مفهوم الرحمة في المجتمع.

المطلب الثاني: الدور الرائد الذي يقوم به مركز آسية للاستشارات
التربوية والتعليمية في تعزيز مفهوم الرحمة اسرياً ومجتمعياً.

الخاتمة: في أهم توصيات البحث.

الفهارس: وتشمل: فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.



المبحث الأول

مفهوم الرحمة وقيمها

بين التشريع الإلهي والتشريعات الوضعية

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول

مفهوم الرحمة وقيمها في التشريع الإلهي

مفهوم الرحمة لغة واصطلاحاً:

قال صاحب اللسان: الرحمة: الرقة والتعطف، والمرحمة مثله، وقد رحمته وترحمت عليه. وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضاً. والرحمة: المغفرة^(١).

والمعاجم لم تختلف في أن هذا المبنى (الرحمة) يرجع في جميع أصوله إلى الرقة والعطف وما في معناهما. جاء في مقاييس اللغة ما نصه: (رحم) الرأء والحاء والميم أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الرِّقَّة والعطف والرأفة. يقال من ذلك رَحِمَهُ يَرَحِّمُهُ، إذا رَقَّ له وتَعَطَّفَ عليه. والرُّحْم والمرحمة والرَّحْمَة بمعنى^(٢).

(١) محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر - بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ، (١٢ / ٢٣٠).

(٢) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، (٢ / ٤٩٨).

أما في الاصطلاح: فالرحمة معنى دقيق، ينصرف إلى تشكيل رؤية خاصة تجاه الإنسان، والكون، والحياة، وعرفها صاحب الكليات بأنها: «حالة وجدانية تعرض غالباً لمن به رقة القلب، وتكون مبدأً للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان»^(١)، وعرفها بعضهم بأوجز من هذا، مع ملاحظة معنى الشمول الذي تتسم به، فقال: «الرحمة: إرادة إيصال الخير للغير»^(٢).

الرحمة وقيمها في (التشريع الإلهي):

لما كان إشاعة الرحمة مقصداً عظيماً من مقاصد الشريعة الإسلامية، تجلى ذلك في تضافر النصوص من القرآن والسنة على تأكيد أهميتها، مع كونها من ملامح المؤمن الصادق.

ومن أبرز ما يُؤكِّد هذا المعنى ويُظهره، أن أول السور التي نراها في ترتيب القرآن الكريم^(٣)، وهي الفاتحة، قد افتتحت بالبسملة - وفيها صفتا الرحمن الرحيم - كبقية السور، ثم نجد فيها صفتي الرحمن الرحيم قد تكررنا في السورة ذاتها، وهذا التصدير للقرآن الكريم بهذه السورة بالذات له دلالاته الواضحة أيضاً، وكما هو معلوم فسورة الفاتحة هي السورة التي يجب على المسلم أن يقرأها في كل ركعة من ركعات صلاته كل يوم، ومعنى ذلك أن المسلم يُرَدِّد لفظ الرحمن مرتين على الأقل، ويُرَدِّد لفظ الرحيم مرتين على الأقل، فهذه أربع مرات يتذكر فيها العبد رحمة الله ﷻ في كل

(١) أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ): الكليات، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت، لبنان، بدون طبعة، وبدون تاريخ نشر، (٤٧١).

(٢) علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ): كتاب التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، (ص: ١١٠).

(٣) ترتيب سور القرآن الكريم توقيفي، بمعنى أن الله ﷻ أوحى لرسوله ﷺ أن يرتب القرآن هذا الترتيب الذي بين أيدينا اليوم، مع أن الآيات والسور نزلت بترتيب مختلف. انظر: أبو عبدالله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١/٢٦٠.



ركعة من ركعات الصلاة، وهذا يعني ترديد صفة الرحمة في كل يوم ثمان وستين مرة في خلال سبع عشرة ركعة تُمثّل الفروض التي على المسلم؛ مما يُعطي تصوّراً جيداً لمدى الاحتفاء بهذه الصفة الجليلة: صفة الرحمة.

ولأهمية هذا الخلق، فإن الله ﷻ قد بعث رسول الإسلام ﷺ رحمة للعالمين، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقد أوضح ذلك في شخصه ﷺ، وفي تعاملاته مع أصحابه وأعدائه على السواء؛ فلم يكن خلق (الرحمة) يوماً حكراً على القريب دون البعيد، ولا على البر دون الفاجر، ولا على المسلم دون الكافر غير المحارب. ولهذا بادر ﷺ أول ما قدم المدينة إلى إرساء دعائم التراحم بين مكونات المجتمع الإسلامي، فضرب المهاجرون والأنصار أروع الأمثلة في التآخي والتراحم، فلا الغني يستمتع بثروته دون الفقير، ولا القوي يسلم الضعيف أو يخذله، فضلاً عن أن يبطش به أو يؤذيه.

بل إن الرحمة لم تكن تخص البشر وحسب، فللحيوان منها حظ ونصيب. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «أن بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف بيئر، قد أدلّع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها فغفر لها»^(١)

وبهذا قدم الصحابة ﷺ للعالم كله نموذجاً للحياة الطيبة التي تحلق فيها الأخلاق بصاحبها بعيداً عن حظوظ نفسه الصغيرة، وأطماعه الهابطة. والتي يعتبر العالم اليوم أحوج ما يكون إليها، وإلى إشاعة آداب الرحمة والتراحم في المجتمعات. فالقلوب العامرة بالرحمة، والرافة، والشفقة تثمر سكينه، وطمأنينه، وأنساً، وتبني مجتمعات متكافلاً متعاطفاً، تسوده المحبة والمودة والوئام.

وانطلاقاً من ذلك كله، فقد كان للرحمة مفاهيمها القيمية المختلفة،

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها، برقم (١٥٤/٢٢٤٥).

التي انعكست من خلالها على كل فئات المجتمع المسلم وأفراده، فتغلغت في نسيجه الحضاري، لتصبح له سمة وعلامة. قال ﷺ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البدر]، وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومن مفاهيم الرحمة القيمية في المجتمع المسلم:

١. مفهوم (الرفق)، فالرفق والرحمة مفهومان متلازمان، والإنسان الرحيم هو رقيق القلب الرقيق الذي يفعل الخير دائماً، روى مسلم عن عائشة، أن النبي ﷺ قال لها: «إن الله رقيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»^(١).

٢. مفهوم (المودة)، وهي أرقى أنواع المحبة، يقول الإمام ابن القيم: "وأما الودّ فهو خالص الحبّ وألطفه، وأرقّه وأصفاه، وهو من الحبّ بمنزلة الرأفة من الرحمة"^(٢). ومن مظاهره: "أن جعل أزواج بني آدم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة، وهي: المحبة. ورحمة، وهي: الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة، إما لمحبه لها، أو لرحمة بها؛ بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق"^(٣).

٣. مفهوم (الرأفة)، وهو خاص بدفع المكروه عن المرحوم، بينما الرحمة تشمل هذا المعنى وغيره. قال ابن عاشور: (والرأفة: رقة تنشأ عند حدوث ضرر بالمرؤوف به. يقال: رؤوف رحيم. والرحمة:

(١) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، حديث رقم (٢٥٩٢).

(٢) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ): روضة المحبين ونزهة المشتاقين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢ م، ص (٤٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، (٣٠٩/٦).



رقة تقتضي الإحسان، بينهما عموم وخصوص مطلق^(١)

وأختم هذا المطلب بذكر طائفة من النصوص التي تحض على ترسيخ مفهوم الرحمة وتؤكد أهمية هذا الخلق العظيم:

- قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».^(٢)
- وقال: «ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم».^(٣)
- وقال: «من لا يرحم لا يُرحم، ومن لا يغفر لا يُغفر له، ومن لا يتب لا يُتَب عليه».^(٤)
- وقال: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس».^(٥)

المطلب الثاني

الرحمة في التشريعات الوضعية

تحدثت في المطلب السابق عن قيمة الرحمة في الإسلام، وكيف غدت سمة بارزة من سمات التشريع الإسلامي الخالد، فما من حكم تشريعي، من تحليل أو تحريم، ترغيب أو ترهيب، ثواب أو عقاب إلا وفيه مصلحة المجتمع المسلم دينياً ودنياً، في المعاش والمعاد، أراد الله لنا به اليسر لا

- (١) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ): التحرير والتطوير، (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، دار التونسية للنشر - تونس، ١٩٤٨م، (١٠ / ٢٣٩).
- (٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، برقم (٤٩٤١)، والترمذي في كتاب البر، برقم (١٩٢٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن إبي داود برقم (٤١٣٢).
- (٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٩٩/١١)، برقم (٦٥٤١)، وحسنه الأرئووط.
- (٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (١/١٨٠/١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (١٨٧١) برقم (٤٨٣).
- (٥) متفق عليه. أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، برقم (٧٣٧٦)، ومسلم في كتاب الفضائل برقم (٢٣١٩).

العسر، مصداقاً لقوله ﷺ: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ»

[البقرة: ١٨٥].

فالأسير لا يعامل على أنه مجرم حرب، بل تحفظ له كرامة الإنسان حتى ينفذ فيه الحكم بالمن، أو الفداء، أو الإعدام. والأجير له الحق في الحصول على أجره ممن استأجره بمجرد انتهاء عمله، وقبل أن يجفّ عرقه، دون من صاحب العمل أو اعتداء. والمرأة تتمتع بالمودة والرحمة معاً، فهي مصونة محفوظة، أما وأختاً وزوجة وابنة، لا تمتد إليها أيدي العابثين بأي حال. بل إن جميع أفراد المجتمع المسلم -بلا استثناء- يتعمون في ظل هذه القيمة، ودون تمييز، أو تفرقة. تماماً كما قرر ذلك النبي ﷺ حين قال: (لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى)^(١).

وما ذاك إلا لأن التشريع الإسلامي سماوي لا وضعي، إلهي لا بشري، فليس فيه سمات التشريعات الوضعية، من تفاوت واختلاف وتناقض، ولهذا كانت (الرحمة) في التشريعات الوضعية مختلفة تمام الاختلاف عن (الرحمة) في التشريع الإلهي، فمنذ خمسة قرون هي تاريخ انطلاق الحضارة الأوروبية -التي رمت بالتشريع السماوي عرض الحائط، واستبدلته بالقوانين الوضعية- والبشرية تواجه ضربات صاعقة، وهزائم شديدة، وأزمات مريرة، أكدت لها فشل كل تلك القوانين وعجزها عن العطاء الحقيقي للنفس الإنسانية، المتطلعة إلى الجمع بين روحها وماديتها، بين قلبها وعقلها، بين دنياها وآخرتها، بل وأصبحت المجتمعات الغربية تشهد تصدعاً ملحوظاً في منظومة القيم لديها، بعد أن نُزعت منها (الرحمة) نزحاً؛ وتقطعت أوصال المجتمع، وتحولت حياة الناس إلى جحيم لا يطاق!^(٢)

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ١٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح».

(٢) أحمد أنور سيد أحمد الجندي (المتوفى ١٩١٧هـ/٢٠٠٢م): قضايا الدعوة الإسلامية من اليقظة إلى الصحو، دار الاعتصام، (٧/ ٣١).



ومن الأمثلة على انعدام (الرحمة) في التشريعات الوضعية:

١. فقدان أنظمة التكافل الاجتماعي، كالزكاة وغيرها، والتي تسهم في سد حاجات الفقراء بدون من ولا أذى. مما نتج عنه عدم الاهتمام بمشكلات الطبقة الفقيرة، وقد «نشرت جريدة الشرق الأوسط خبراً مفاده أن امرأة مطلقة من بريطانيا تدعى "مانيس جاكسون"، عرضت ابنها الوحيد للبيع بمبلغ ألف جنيه، والمبلغ يشمل ملابس الطفل وألعابه، وقالت: إنها تبيع ابنها؛ لأنها لا تستطيع الإنفاق عليه، وليس لديها دخل لإعاشته».

٢. انتشار العقوق حتى غدا ظاهرة عامة في المجتمعات الغربية، بعد أن تجمدت لدى أفرادها العواطف، ونضبت معاني الرحمة، وفسدت الفطرة لديهم. وقد «حدثني أخ أثق بدينه» كان يدرس الطب في بريطانيا أن صديقاً له، كان يعمل مناوباً في أحد المستشفيات هنالك، وكان قد توفي رجل مسن في تلك الليلة عنده، فأحب أن يعزي أسرة المتوفى، واتصل بولده في الساعة الثانية عشرة ليلاً، وعزاه بوفاة والده على وجل. فما كان من الابن العاق إلا أن امتعض من هذا الاتصال وقال: أتتصل بي في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لتخبرني بوفاة والدي؟! وماذا تنتظر مني أن أفعل؟! أنا مسافر صباحاً لمدة ثلاثة أيام، وضعوه في الثلجة، وسأراجعكم حين عودتي، من أجل استلام الجثة».

٣. انتشار الحروب واستعباد الشعوب ومصادرة الحريات والتمييز العنصري على أساس اللون والعرق والقومية وغيرها.

٤. حدوث الانحرافات الاجتماعية الخطيرة: ومنها إهانة المرأة، واعتبارها سلعة تباع وتُشتري.

وقصص القوم ببؤسها وشقائها، لا تكاد تنتهي، وهذا هو الجحيم المعاصر في حضارة الضياع^(١).

المطلب الثالث الرحمة بالمرأة ما بين التشريع الإلهي والتشريع الوضعي

من أبرز الأمثلة على الرحمة في التشريع الإلهي، تلك العناية الكبرى بالمرأة، والتي أجمع العلماء والمفكرون، والمؤرخون على أنها قد حظيت في الإسلام بحقوق لم تحظ بها من قبل في أي حضارة سابقة. ومن يتأمل تشريعات الدين الإسلامي التي تحكم شؤونها، سيدرك -تماماً- أنها إنما جاءت كلها لتكون رحمة بها.

وفي عصرنا الحالي؛ باتت (الرحمة بالمرأة) أكثر الموضوعات إلحاحاً، ذلك أن أعداء الإنسانية استطاعوا -بمساعدة من بعض المنتسبين إلى الإسلام- أن يروجوا لفكرة أن «المرأة المسلمة مظلومة»، وأنهم إنما يسعون لتحقيق: "الرحمة الحقيقية" بها، والتي لم يُحقّقها لها -في زعمهم- التشريع الإلهي! فلزم تسليط الضوء على الرحمة بالمرأة في التشريعات الوضعية، والحضارات التي تعتبر نفسها رائدة. ومقارنتها بوضع المرأة في التشريع الإلهي، من خلال تركيز الحديث في ذلك على بعض المعالم التي تؤكد هشاشة الرحمة بالمرأة في تلك القوانين؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة!

أولاً: المجتمع العربي الجاهلي:

كان العرب الجاهليون لا يورثون المرأة، ولا يرون لها حقاً في الميراث، بل

(١) علي بن نايف الشحود: الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، ١٤٢٧هـ، (٥/٦٤).



جعلوا المرأة نفسها من المتاع والمال، وجعلوها تورثت مع ما يورث؛ ولذلك فإن الولد يمكن أن يرث عن أبيه نساءه، بل ويمكنه أن يتزوجهن كما حدث مع بعض الجاهليين. ولم يكن للمرأة حق على زوجها، ولا ينظر إليها إلا على أنها خادمة في بيت زوجها، وظيفتها إنجاب الأولاد، وليس لها حرية اختيار الزوج، ولم يكن هناك ما يمنع الزوج من إيذاء زوجته، وإهانتها، واحتقارها، بل كان زوجها يمسكها ضاراً للاعتداء، وكانت تلاقي من بعلمها نشوزاً أو إغراضاً، فيتركها معلقة، لا هي ذات زوج، ولا هي مطلقة.

ثانياً: المجتمع الفارسي:

عاشت المرأة الفارسية في ذل ومهانة واحتقار، إذ لم تكن بأحسن حالاً من أختها العربية، فكانت التقاليد الفارسية تستوجب إهانة المرأة، وعدم الرحمة بها، إذ يعتقد الفرس أنها أداة الشيطان التي يسيطر بها على الناس، ويعتقدون أنها منبع الشرور.

ثالثاً: المجتمع الروماني:

لم تكن المرأة في المجتمع الروماني بحالة أفضل من حالة أختها في المجتمعين العربي والفارسي، فلم يكن للمرأة أي عمل كريم، أو دور إصلاحي رشيد، سوى وظيفة الإنجاب، بل كانت المرأة في نظر الرومان متاعاً، يعرضونها في السوق للبيع، ويبيعونها، وكانت في أذل حال^(١).

رابعاً: في العصر الحديث:

أقرت هيئة الأمم المتحدة ما يعرف بـ (وثيقة المرأة)، رغم أن البنود الواردة فيها مصادمة للفطرة، قبل أن تكون مصادمة لنصوص الشرع، ولا يشك منصف في أنها أبعد ما تكون عن مفهوم الرحمة بالمرأة، وأكثر

(١) مصطفى بن حسني السباعي (المتوفى: ١٣٨٤هـ): المرأة بين الفقه والقانون، دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، (ص: ١٦).

بنودها تشكل تهديدا للأسرة، ومن أهم المحطات التي تعرضت لها هذه الوثيقة، ولم تتل منها المرأة إلا ظلم التشريعات الوضعية، بدعوى تحريرها، وتحت زعم الرحمة بها، وأذكرها هنا كأمثلة:

- تعدد الزوجات.
 - المساواة مع الرجل.
 - الحقوق العامة.
- أولاً: تعدد الزوجات:

يزعم واضعو القوانين الوضعية أن ضم امرأة أخرى إلى عصمة رجل متزوج يعد هدراً لكرامة المرأة وهضماً لحقها، وجرحاً لمشاعرها. ولا أدري كيف خفي على هؤلاء أنه ليس من الرحمة أن يستأثر عدد قليل من النساء بالرجال، وتظل الغالبية العظمى منهن يعانين من ويلات العنوسة، رغم أن هؤلاء يعرفون أن عدد الإناث في العالم يفوق عدد الذكور أضعافاً مضاعفة. يقول الشنقيطي رحمته الله: «فالقُرآن أباح تعدد الزوجات؛ لمصلحة المرأة في عدم حرمانها من الزواج، ولمصلحة الرجل بعدم تعطل منافعه في حال قيام العذر بالمرأة الواحدة، ولمصلحة الأمة؛ ليكثر عددها، فيمكنها مقاومة عدوها لتكون كلمة الله هي العليا، فهو تشريع حكيم خبير لا يطعن فيه إلا من أعمى الله بصيرته بظلمات الكفر. وتحديد الزوجات بأربع تحديد من حكيم خبير، وهو أمر وسط بين القلة المفضية إلى تعطل بعض منافع الرجل، وبين الكثرة التي هي مظنة عدم القدرة على القيام بلوازم الزوجية للجميع، والعلم عند الله تعالى»^(١).

(١) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٢٩٣هـ): أضاء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، (٣/ ٢٤).



ويقول سيد قطب رحمته: ”إذا استصبحنا معنا هذه الخصائص الأساسية في النظام الإسلامي، ونحن ننظر إلى مسألة تعدد الزوجات.. فماذا نرى؟ نرى.. أن هناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة -تاريخية وحاضرة- تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج، على عدد الرجال الصالحين للزواج. فكيف نعالج هذا الواقع، الذي يقع ويتكرر وقوعه، بنسب مختلفة؟ عندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات:

١. أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج.. ثم تبقى واحدة أو أكثر -حسب درجة الاختلال الواقعة- بدون زواج، تقضي حياتها -أو حياتهن- لا تعرف الرجال!

٢. أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زواجاً شرعياً نظيفاً. ثم يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر، من هؤلاء اللواتي ليس لهن مقابل في المجتمع من الرجال. فيعرفن الرجل خديناً أو خليلاً في الحرام والظلام!

٣. أن يتزوج الرجال الصالحون -كلهم أو بعضهم- أكثر من واحدة. فتعرف المرأة الرجل، زوجة شريفة في وضح النور، لا خدينة ولا خلية في الحرام!

الاحتمال الأول ضد الفطرة، ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدد به المتشددون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب.

والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام النظيف، وضد قاعدة المجتمع الإسلامي العفيف، وضد كرامة المرأة الإنسانية.!

والاحتمال الثالث هو الذي يختاره الإسلام. يختاره رخصة مقيدة. لمواجهة الواقع. يختاره متمشياً مع واقعيته الإيجابية، في مواجهة الإنسان

كما هو -بفطرته وظروف حياته- ومع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر، ومع منهجه في التقاط الإنسان من السفح، والرقي به في الدرج الصاعد إلى القمة السامقة.^(١)

ثانياً: المساواة مع الرجل

أخطر الدعوات التي أطلقها من يزعمون أنهم يناضلون عن حقوق المرأة -رحمة بها-! هي دعوى (مساواتها مع الرجل)، وهي دعوى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب؛ لأنهم ينادون بها دون أن يدركوا معنى المساواة التي يطالبون بها، وما ستجره آراؤهم في هذه المساواة على المرأة من ويلات هي في غنى عنها، تماماً كما لم يدركوا ما أعطاه الإسلام للمرأة من حقوق وامتيازات، فأطلقوا هذه الدعوى ليقوموا من خلالها ب:

١. تحرير المرأة من كل القيود الدينية والاجتماعية، وإطلاق حريتها لتفعل ما تشاء، متى تشاء، وكيفما تشاء! وما لهذا خلقت المرأة، وما هذا دورها في المجتمع!
٢. جعل تعليم المرأة على قدم المساواة مع الرجل، في أي مجال ترغب فيه أو تهفو إليه نفسها، دون نظر إلى ما ينفعها بوصفها امرأة، لها رسالة خاصة في الحياة، ولها مهمة عظيمة يجب أن تعد لها.
٣. المطالبة بأن تعمل المرأة مثل ما يعمل الرجل، تحت أي ظرف وفي أي مجال، دون النظر -أيضاً- لما يتناسب مع طبيعتها الأنثوية وتكوينها الجسدي والنفسي.

ثالثاً: الحقوق العامة:

كل القوانين والتشريعات والأعراف التي حددت حقوق المرأة كان

(١) سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ): في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت - القاهرة، الطبعة: السابعة عشرة - ١٤١٢هـ، (١/ ٥٧٩)

واضعوها يعتقدون أنهم سنوها رحمة بالمرأة، ولا أحد من هؤلاء وضع شيئاً من تلك القوانين مجاهراً بعدائه للمرأة، أو معتبراً نفسه خصماً لها.

هذا في زعمهم. أما في الواقع فقد انعكست تلك الرحمة على المرأة جحيماً لا يطاق، وقد شهد بذلك حتى النساء الغربيات أنفسهن، تقول السيدة «حرفية بال حلیم» -بعد إسلامها-: «ما حدث في الغرب هو أن تيار الأنوثة (تقصد: حركة تحرير المرأة) قد سلب المرأة حقوقها كامرأة، فقد أجبرها على الذهاب إلى العمل، وقلّ عدد الزيجات تدريجياً»^(١).

وتؤكد السيدة البريطانية «ميشيل» -التي أسلمت وتسمت بـ«جميلة»- هذا المعنى، قائلة: «يجب أن تعرف المرأة المسلمة أن حرية المرأة في أوروبا ليست حرية حقيقية، فليس لها حقوق متساوية في الأجر والعمل مثل الرجل، كما أن الرجل هنا لا ينظر إلى المرأة نظرة تقدير واحترام»^(٢).

والمنصف يرى رأي العين أن الغرب جنى من هذه التشريعات والقوانين المصادمة للفطرة أسوأ الثمار، حيث ارتفعت نسب التفكك الأسري، وأصبحت المرأة سلعة رخيصة يعبث بها العابثون، ولم يعد للارتباط الأسري المشروع في تلك المجتمعات أي قيمة.

الرحمة بالمرأة في التشريع الإلهي:

لم تستعد المرأة كرامتها وحقوقها المسلوقة إلا في ظل دولة الإسلام، ويتجلى حسن اعتناء الإسلام بها، وتأمينه

حقوقها في المبادئ التالية:

أولاً: أن المرأة كالرجل في الإنسانية سواء بسواء، يقول الله تعالى:

(١) صحيفة «الصنداى تليجراف» البريطانية نقلاً عن مجلة «الرسالة» المصرية، عدد ٢، ص ٧٦، ذي الحجة ١٤٢٢هـ.

(٢) محمد كامل عبد الصمد: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، الدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، (٣/ ٧٠).

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ [النساء: 1] ويقول الرسول ﷺ: (إنما النساء شقائق الرجال) (١).

ثانياً: جعلها أهلاً للتدين والعبادة ودخول الجنة إن أحسنت، ومعاقبتها إن أساءت، كالرجل سواء بسواء، يقول الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ثالثاً: حارب التشاؤم بها والحزن لولادتها كما كان شأن العرب، فقال تعالى منكراً هذه العادة السيئة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨) يَتَوَرَّى مِنَ الْغُومِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٥٩) [النحل].

رابعاً: أمر بإكرامها: بنتاً، وزوجة، وأماً. ومن ذلك قوله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً؛ فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج» (٢). يقول د. محمد عزت في التعليق على هذا الحديث: (فإنه قد جاء على سبيل توصية الرجال بالنساء خيراً، ورعايتهن والإغضاء عما قد يقع منهن من هنات) (٣).

نعم المرأة كالرجل تماماً، هي مساوية له، لكن بنيتها الجسمية والعقلية، والانفعالية تختلف عن بنية الرجل، لا اختلاف نقص، ولكن اختلاف تكامل،

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، وصححه الألباني. ينظر: صحيح أبي داود: (٤٣١/١)، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني أيضاً: (٢١٩/٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، (١٠٩١/٢)، حديث رقم (١٤٦٨/٦٠). ولفظ مسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، إن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، استوصوا بالنساء خيراً».

(٣) محمد عزت دروزة: المرأة في القرآن والسنة مركزها في الدولة والمجتمع وحياتها الزوجية المتنوعة وواجباتها وحقوقها وآدابها: المكتبة العصرية، لبنان - بيروت، ١٩٨٠م (ص: ٤٧).



هي تكمله وهو يكملها. هذا الاختلاف الذي بين الزوجين يجعل كل منهما سكناً للآخر، ويجعل كلاً منهما يكمل نقصه في الآخر، وهو سرُّ المودة والرحمة التي جعلها الله بين الزوجين، ويهيء المرأة لتكون منبعاً لا ينضب للرحمة، ولتُسهم ذلك الإسهام الكبير في تعزيز هذا الخلق اسرياً ومجتمعياً - كما سيظهر لنا في المبحث الثاني من هذا البحث بإذن الله.



المبحث الثاني دور المرأة المسلمة في تعزيز مفهوم الرحمة اسرياً ومجتمعياً

وفيه مطلبان:

المطلب الأول دور المرأة المسلمة في تعزيز مفهوم الرحمة اسرياً

من تجليات رحمة الله بخلقه في خلقه: أن زود المرأة بمشاعر الرقة، والحنان، والعطف. وجعلها مهياً بالفطرة لاحتضان الجنس البشري في أضعف مراحل حياته. وقد أثبتت التجارب أن ما تفيضه المرأة على أولادها من الحنان ليس قرصاً تقدمه لتلقى عليه جزاء بعدما يكبر أبناءها، بل هو حالة وجدانية وقفت أقلام البلغاء عاجزة عن وصفها. ولأجل تهيئة المناخ الملائم لتحقيق: إسهام المرأة الفاعل في تعزيز (الرحمة) على مستوى أسرتها، وتمكينها من توظيف هذه المشاعر، فقد جعل الإسلام المرأة مسؤولة عن رعاية الأسرة والمنزل، مع القيام على تربية الأطفال وتنشئتهم، بعد أن خصها بالمؤهلات الخلقية والفطرية

التي تؤهلها للتربية، وبث روح الرحمة في البيت. ومن تلك المؤهلات والخصائص:

أولاً: أن المرأة مجبولة على العاطفة الفياضة، والحنان المتدفق.. وقد صور النبي ﷺ تلك العاطفة عندما اطلع على ذلك المشهد المؤثر، الذي تتشقق له القلوب رحمة وحناناً. إنه مشهد أم فقدت ولدها بين الأسرى، فانتابها من مشاعر الرحمة به ما أنساها ألم الأسر، ومعاناة الموقف!

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي، تبتغي، إذ وجدت صبياً في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله ﷺ: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»^(١). فبيّن ﷺ أن الرحمة الإنسانية في أعلى صورها، إنما هي عند المرأة الأم.

وذكر لنا النبي ﷺ موقفاً آخر يبرهن على المشاعر الفياضة للأم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود عليه السلام فقاضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليه السلام فأخبرتهما، فقال: اتنوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله! هو ابنها، فقاضى به للصغرى. قال أبو هريرة: والله إن سمعت بالسكين قط إلا يومئذ، وما كنا نقول إلا المدية»^(٢).

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، (٨/٨)، حديث رقم: (٥٩٩٩)، ومسلم في كتاب الرقاق، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه: (٤/٢١٠٩)، حديث رقم: (٢٢/٢٧٥٤).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الفرائض، باب إذا ادعت المرأة ابنان (٨/١٥٦)، حديث رقم

ثانياً: طبيعة الاستقرار في المرأة، ولذلك تجد أن المرأة الموظفة تبقى في البيت وقتاً أطول من زوجها؛ لأن في طبيعتها الاستقرار؛ ومن هنا جاء التوجيه الرباني، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فليس ذلك تحريماً للخروج أو للعمل في صورته وصيغته الشرعية! ولكنه ذكرٌ للطبيعة المناسبة للمرأة تغليباً. إن مهمة المرأة الرئيسة تتمثل في رعاية أركان الأسرة، وتدعيم جوانبها، والعمل على تدريب جيل جديد تقدمه إلى المجتمع قادراً على مواجهة متغيرات العصر مع الحفاظ على ثوابت وأصول دينه ومبادئه. وهي بذلك تؤدي عملاً مركباً أشبه ما يكون بعمليات البناء؛ فهي من خلال حفظ التوازن النفسي لأفراد الأسرة، والرحمة بهم، تقوم بتدعيم أساس البناء ليصير قادراً على حمل أعباء أكثر، لتغدو بذلك مفتاح سعادة البيت وبهجته؛ والقدرة -بإذن الله- على إشاعة الرحمة فيه، بطلاقة وجهها، وجميل حديثها، وحسن عشرتها، وجودة رأيها، وحكيم تصرفها.

المطلب الثاني

دور المرأة المسلمة في تعزيز مفهوم الرحمة مجتمعياً

منذ أن نزل الوحي على نبينا محمد ﷺ أول مرة في غار حراء؛ لم تكن المرأة في معزل عنه، ولم تكن مستبعدة على مدى التاريخ الإسلامي المشرق من المبادرة أو المشاركة في مسيرة الأمة بكل أحداثها.

(٦٧٦٩)، ومسلم في كتاب الأفضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، (١٣٤٤/٣)، =
= حديث رقم: (١٧٢٠/٢٠). واللفظ لمسلم.

وإذا تتبعنا دور المرأة منذ بداية الوحي فإننا نلمحه واضحاً بلا غموض، بارزاً بلا توهم، لقد عاد ﷺ من غار حراء خائفاً مما رأى، فإذا بزوجه تطمئن قلبه، وترت على كتفه، بل وتستشرف الخير مما رأى، فتحيل خوفه أمناً وسكينة، ساعية لدى ابن عمها (ورقة بن نوفل) لتستوثق لزوجها مما رأى فتزيده ثقة وتأكيداً وتكون بذلك أول إنسان يوحد الله بعد محمد ﷺ، متحملة بعد ذلك عبء الرسالة على نحو لم يعرفه تاريخ امرأة من قبل.

وإذا كانت المرأة قد اضطلعت بمثل هذه الأدوار التي عكست جديتها وحزمها منذ مطلع الرسالة، فإن دورها في النهوض بالمجتمع، وتعزيز خلق الرحمة فيه يُصبح لمن يبحث أكثر وضوحاً وبيانا، وفيما يلي استعراض لبعض المجالات التي ساهمت من خلالها المرأة في تعزيز الرحمة مجتمعياً، وذلك على وجه التمثيل لا الحصر:

أولاً: الطب

لما كانت العناية بالمرضى، وتقديم الرعاية لهم، هي المجال الأبرز لتفعيل خلق (الرحمة) على مستوى المجتمع، مع كونهم بحاجة إلى من يقترب منهم، ويسمع شكواهم، ويرحم ضعفهم، فقد انتدبت لهذه المهمة نساء المسلمين منذ فجر الإسلام، ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك، قال: «كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء، ويداوين الجرحى»^(١).

فإذا تعاملن مع المرضى بمفهوم الرحمة انعكس ذلك إيجاباً عليهن وعلى المرضى، ومن ثم على المجتمع أجمع.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال، (٢/ ١٤٤٣)، حديث رقم:

ثانياً: التعليم

المرأة مربية أجيال، سواء في البيت، أو في المدرسة، لأنها تغدو قدوة مؤثرة لمن تربيتهم، ولذلك كان مجال (التعليم) ميداناً خصباً لتفعيلها خلق (الرحمة) مجتمعياً.

فالمعلمة تعلم طالباتها الرحمة، وتغرس في نفوسهن قيمها المختلفة، والطالبات يتأثرن بها، ويتخذن منها قدوة، فإن تعاملت معهن بالرفق والحنان، أصبح ذلك عادة لهن، يمارسها مع الغير، وينقلنها إلى الأجيال اللاحقة بكل أمانة.

ثالثاً: الجمعيات الخيرية والمراكز الاستشارية

إن الدافع الأساسي نحو العمل الاجتماعي (تطوعياً كان أو لا) هو الشعور بالرحمة نحو الآخر، فإذا عرفنا أن مشاعر الرحمة عند المرأة فياضة - كما سبق الحديث عنه - فإن دورها في نشر ثقافة العمل الاجتماعي، وممارسته، وتسويقه، يكون محورياً.

ولقد كانت المرأة المسلمة في عهد النبي ﷺ قدوة حسنة في المسابقة إلى الخيرات، والعطف على الضعفاء والمساكين، والإحسان إليهم، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن النبي ﷺ: «قام يوم الفطر فصلى، فبدأ بالصلاة، ثم خطب، فلما فرغ نزل، فأتى النساء، فذكرهن وهو يتوكأ على يد بلال، وبلال باسط ثوبه يلقي فيه النساء الصدقة، قلت لعطاء: زكاة يوم الفطر، قال: لا، ولكن صدقة يتصدقن حينئذ، تلقي فتحها، ويلقين، قلت: أترى حقاً على الإمام ذلك، ويذكرهن؟ قال: إنه لحق عليهم، وما لهم لا يفعلونه؟»^(١).

أما في وقتنا الحالي، فقد أصبحت المرأة تضطلع بالقيادة الناجحة في

(١) أخرجه البخاري في أبواب العيدين، باب موعظة الإمام النساء يوم العيد، (٢ / ٢١)، حديث رقم: (٩٧٨).



هذا المجال، وأصبح الكثير من الجمعيات الخيرية، والمراكز الاستشارية بوابة ضخمة، تُفتح أمام خلق الرحمة الذي تشيعه المرأة فيها، فإذا هو ينعكس بإيجابيته على المجتمع كله، متمثلاً في الخدمات المتنوعة التي تقدمها تلك المراكز، وتنهض بها، فيما بات المجتمع لا يستغني عنها، بل ويُظهر حاجته المسيسة لها.

وهذا ما سأطرق له بإذن الله في المبحث الثالث من هذا البحث، متضمناً عرض تجربة تطبيقية واقعية.



المبحث الثالث

تجربة تطبيقية لتعزيز مفهوم وقيم الرحمة اسرياً ومجتمعياً (مركز آسية نموذجاً)

وفيه مطلبان:

المطلب الأول

الدور الفاعل للمراكز الاستشارية والمتخصصة في تعزيز مفهوم الرحمة في المجتمع

كان البوح بالمشاكل النفسية والأسرية للأقربين في السابق خطأ أحمر لدى الكثير من الناس لا يمكن تجاوزه؛ حتى أجبرت المتغيرات المتسارعة أفراد المجتمع الذهاب إلى مراكز الاستشارات النفسية والأسرية؛ ومع ظهور مثل هذه المراكز، ظهرت الحاجة إلى مشاركة المرأة الفاعلة فيها، كونها الوحيدة القادرة بإذن الله، على تفهم الأوضاع، وتقصي الحقائق عن كذب، إلى جانب أنها مهياة بالفطرة -من عند الله- لاحتضان الجنس البشري، وذلك من خلال اضطلاعها بالتعامل مع القضايا الحساسة التي لا يمكن للرجل التعامل معها، لارتباطها المباشر بالأم، والزوجة، والأخت، والابنة.

وقد أسهمت تلك المراكز بشكل فاعل في تعزيز مفهوم الرحمة في المجتمع، حيث باتت تستقطب الكثير ممن يبحثون عن حلول لمشاكلهم،

وتقدم لهم الاستشارات والتوجيهات في جو من الخصوصية والستر، مما أدى إلى إعادة الانسجام إلى حياة أولئك الأفراد، بعد أن كان الكثير منهم يتخبطون طلباً لحل مشاكلهم الأسرية، ويتصرفون تصرفاً قد لا يقره دين ولا عقل. ومن أمثلة هذه الإسهامات:

- إسهام مركز الإصلاح في محكمة الضمان والأنكحة في التدخل لعلاج عدد من حالات الطلاق والإصلاح بين الزوجين بما نسبته ١١,٤٪ من الحالات التي راجعت المحكمة خلال عام ١٤٢٨هـ، في مدينة الرياض^(١).
 - جهود مركز التنمية الأسرية في الأحساء، والتي أسهمت في تراجع نسبة الطلاق في مدينة الأحساء من ٢٥ إلى ١٤ بالمائة^(٢). وغيرها من الإسهامات التي أثبتت نجاحها -بتوفيق الله- كونها تستند إلى المرجعيات العلمية والخبرات التراكمية في كل المجالات الإرشادية والنفسية والاجتماعية.
- وفي المطلب القادم، سأعرض لنموذج تطبيقي لواحد من هذه المراكز الاستشارية المتخصصة.

المطلب الثاني

الدور الرائد الذي يقوم به مركز آسية للاستشارات التربوية والتعليمية في تعزيز مفهوم الرحمة اسرياً ومجتمعياً

تعريف موجز بمركز آسية للاستشارات التربوية والتعليمية:

- (١) عبدالله بن ناصر السدحان: مقال: الإرشاد الأسري في المجتمع السعودي ضرورة أو ترف؟، جريدة الجزيرة، العدد (١٤٤١) الخميس ٢٠ جمادى الأولى ١٤٢٣هـ.
- (٢) عادل الذكر الله: حوار صحفي: الهاتف الاستشاري يقلص حالات الطلاق، جريدة اليوم، عدد الثلاثاء ٢١ يونيو ٢٠١١، رقم (١٣٨٨٥)

يعتبر مركز آسية أحد أبرز مراكز الاستشارات النسائية المتخصصة بمدينة الرياض، حيث إنه معني بتقديم مجموعة متكاملة من الخدمات والبرامج المتخصصة التي تسهم في تنمية الفتاة والمرأة، والأسرة المسلمة ككل، كالاستشارات النفسية والزوجية، وبرامج تطوير الذات، وتنمية العلاقات الأسرية، والتربوية. وقد تم افتتاح المركز مطلع عام ١٤٢٦ هـ، واستطاع بفضل الله جذب جمهور واسع من النساء بمختلف فئاتهن العمرية.

تتمثل رؤية المركز في أن يكون (المركز الرائد في تطوير وتنمية المرأة)، وتتركز رسالته في: (تقديم مجموعة متكاملة من الخدمات والبرامج التطويرية المتخصصة في تنمية الفتاة والمرأة والأسرة، فكرياً، وتربوياً، ومهارياً، على منهج القرآن والسنة). وذلك من خلال سعيه الدؤوب لتحقيق: الأهداف التالية:

١. توعية المرأة بالقيم والمبادئ المنبثقة من تعاليم الشريعة ومقاصدها.
٢. تنمية المهارات الحياتية للمرأة.
٣. الإسهام في معالجة مشاكل المرأة.
٤. تفعيل دور المرأة في خدمة دينها ووطنها.

ونتيجة لذلك، فقد تمكّن المركز -بتوفيق الله- من إجراء دراسة ميدانية متخصصة، لأبرز (الاضطرابات النفسية)، و(الظروف البيئية) التي قد تخلّ بتطبيق مفهوم (الرحمة)، وتم رصدتها من واقع الاستشارات النفسية التي يقدمها المركز على يد نخبة من المتخصصات، لدى عدد من الأفراد المستفيدين خلال عام واحد، شكّلوا عينة الدراسة التي تمّ إجراؤها.

والمركز إذ يقدم هذه الدراسة النوعية، ليرجو أن تكون بذرة تثمر توجّهاً حقيقياً تجاه ربط مخرجات الدراسات النفسية والاجتماعية في المراكز



الاستشارية المتخصصة، بسبل تعزيز وتعميق المفاهيم القيمة لأخلاق ديننا الإسلامي الحنيف، ولعل هذا المؤتمر يعكس أولى البوادر لتحقيق: هذا الهدف، والوصول إليه بإذن الله.

وفيما يأتي بيان ملخص الدراسة الأنفة الذكر:

هدفت الدراسة إلى رصد واقع (الاضطرابات النفسية)، و(الظروف البيئية) التي تعرّض لها الأفراد محلّ الدراسة، وأسهمت في الإخلال بمفهوم الرحمة لدى هؤلاء الأفراد، على الصعيدين الشخصي والأسري. ومحاولة معرفة (الفنيات النفسية) المفترض استخدامها لمواجهةها.

وقد تم إجراء الدراسة على عينة عشوائية من الحالات الاستشارية الواردة إلى المركز، بلغ عددها (٢٢٥) حالة استشارة، منها (٣٧) حالة استشارة عبر الهاتف، و(١٨٨) استشارة حضورية، ولتحقيق: أغراض الدراسة، تم استخدام أداتين:

١. (المسح الإحصائي) لملفات الحالات الواردة، وفرز ما فيها من أسباب، وتصنيفها وفق عدد من التصنيفات التي اعتمدها فريق العمل على الدراسة.
 ٢. (المقابلة الموجهة) لأغلب هذه الحالات، عدا من تم استقبالهن (هاتفياً) للاستشارة.
- وفي الجدول الآتي بيانٌ بالحالات الواردة مصنفة حسب قائمة الفرز المعتمدة:

م	نوع الاستشارة	تكرارها	م	نوع الاستشارة	تكرارها
١	اكتئاب	١٠	٦	مشكلات الطلاق	٢٦
٢	رهاب اجتماعي	٩	٧	مشكلات التعدد	٣٠
٣	مشكلات مراهقة	١٣	٨	مشكلات العمل المختلط	٤
٤	ضغوط نفسية	٥	٩	الانحراف الأخلاقي	١٣
٥	العنف الأسري	٣٥	١٠	عدم التوافق	٨٠
المجموع			٢٢٥ حالة		

وقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

- جميع الحالات الواردة، تشكّل لديها ابتداءً اختلال في مفاهيم قيمية رئيسة، ترتبط بمفهوم (الرحمة)، مما أدى بالتالي -من ناحية نفسية- إلى حدوث المشكلة محل الاستشارة. وقد تركزت هذه المفاهيم حول:

١. مفهوم (الرفق والإحساس بالآخر)، وما حدث بعد اختلاله من الأنانية، وتضخم الأنا.

٢. مفهوم (المودة والمحبة)، وما حدث انعكاساً لاختلاله من الوحدة والانعزالية والكراهية.

٣. مفهوم (الرأفة) المتضمن حب الخير للغير، والذي حلّ بدلاً عنه الشعور بالعدوانية والإفراط في الشدة والقسوة.

- تمثلت أسباب حدوث الخلل في (الرحمة)، ومفاهيمها القيمية المختلفة، ومن ثم تفاقمها لتظهر كمشكلات نفسية وسلوكية، في ثلاثة جوانب مهمة هي:

١. الجانب الشخصي: وكانت أهم الأسباب فيه: عدم الاستبصار بمفهوم الرحمة الحقيقية، وضعف الحصيلة الشرعية بشكل عام.

٢. الجانب الأسري: وكانت أبرز الأسباب فيه: أساليب التنشئة الأسرية الخاطئة، وقطع الأرحام، والفهم الخاطئ لمعنى القوامة، وحدوث انفصال الوالدين، ووجود قسوة مضاعفة على أفراد الأسرة.

٣. الظروف البيئية المحيطة: وكانت أبرز الأسباب في هذا الجانب: الانعزال عن المجتمع، كذلك وقوع حالات عدوان بنسب متفاوتة من قبل أفراد من المحيطين بصاحب المشكلة، الإعلام وما أحدثه من تغيير خطير في مفهوم الرحمة وقيمها.

وقد نجح مركز آسية - بفضل الله - ثم بوجود نخبة من الأخصائيات اللواتي يحملن رؤية عميقة تؤمن بأثر الإرشاد المرتبط بالقرآن وأخلاقه وقيمه، في التعامل مع أغلب الحالات الواردة إليه، من خلال انتهاجه مسارين أساسيين في ذلك:

أولاً: مسار البرامج والأنشطة:

وقدّم من خلاله العديد من البرامج والأنشطة التوعوية، خلال السنوات الماضية، أبرزها:

- برامج المقبلات على الزواج، والتي تم الحرص فيها على تناول مفهوم (الرحمة) في الإسلام، ومن ثمّ تدعيمه بالآليات المناسبة لترجمته واقعاً في حياة الزوجين. وقد عقد المركز في هذا الباب شراكة نوعية مع مركز التنمية الاجتماعية بحي الملك فهد.
- برامج الأمومة والتربية، والتي هدفت إلى تأهيل الأمهات،

ومساعدتهن على تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة في التربية،
وتدعيم مفهوم (الرحمة) وكيفية إشاعته داخل الأسرة.

- برامج التطوير الشخصي، وهي تقدم مهارات مختلفة لتحقيق:
استبصار الفرد بفاعليته داخل أسرته ومجتمعه.

ثانياً: مسار العلاج السلوكي والإرشادي:

وفيه يتم اختيار البرنامج العلاجي المناسب للحالة وفق معطياتها
الخاصة، وقد تم استخدام العديد من الفنيات العلاجية التي أثبتت
-بتوفيق الله- نجاعتها في إصلاح الخلل الحاصل:

- فنية العلاج التدعيمي والتفريغ الوجداني، وهي تقوم على مفهوم
الحوار والإنصات الفعال، وإبداء التعاون مع صاحبة المشكلة، حتى
تستطيع التصرف بفعالية تجاهها.

- فنية العلاج المعرفي القائم على جدول تعديل الأفكار التي تعيق
انسجام المستفيدة مع مفهوم الرحمة في تصرفاتها، ومع من له صلة
بمشكلتها.

- فنية العلاج بالاستبصار، وفيه يتم تبصير الحالة بوضعها، لتدرك
الخلل لديها، وتسهم في تعزيز مواطن ضعفها وإصلاحها.

- جلسات تأكيد الذات، والتي تتعلم فيها المستفيدة كيف تعبر عن
آرائها، ورغباتها، وكيف تحقق مفهوم الرحمة الحقيقي في حياتها،
من خلال محافظتها على حقوقها، وعدم تعديها على حقوق الآخرين.

وإذ يتم عرض (مركز آسية) في هذا البحث كنموذج تطبيقي على
الدور المهم الذي تلعبه المراكز الاستشارية الأسرية في تعزيز مفهوم
الرحمة اسرياً ومجتمعياً، فإنّ هذا العرض، يعكس الحاجة الماسة من



مجتمعنا إلى تضافر الجهود، بين كافة المراكز الاستشارية للوصول إلى
إشاعة حقيقية لمفهوم الرحمة فيه، وبين أفرادها، من خلال استثمار كل
الوسائل والآليات الممكنة لتحقيق: ذلك.



الخاتمة

استهدف هذا البحث تسليط الضوء على رحمة التشريع الإلهي والتشريعات الوضعية في تعاملها مع المرأة، والمقارنة بينها، كما سعى إلى التعريف بدور المرأة المسلمة في تعزيز (الرحمة) اسرياً ومجتمعياً، وذكر تجربة تطبيقية لتعزيز مفهوم وقيم الرحمة اسرياً ومجتمعياً، تمثلت في طرح تجربة أحد المراكز الاستشارية (مركز آسية للاستشارات)، ودوره الفاعل من خلالها. وقد أظهرت نتائج هذا البحث: كيف جاء الإسلام بالرحمة الحقيقية للبشر، ومدى العجز الذي وقعت فيه القوانين الوضعية حين سعت إلى تشريع قوانين تزعم الرحمة بهم، مقارنة بالتشريع الإلهي الذي جعل لكل فرد من أفراد المجتمع دوره الفاعل في تحقيق: هذه الرحمة وتعزيزها على مستوى أسرته، ومجتمعه، ومن ضمنهم: (المرأة). كما أبرز البحث الحاجة الماسة إلى تفعيل حقيقي لدور مراكز الاستشارات.

وبناء على النتائج فإنه يُوصي بما يلي:

١. تكثيف الجهود في عقد مثل هذه المؤتمرات على جميع المستويات، لإبراز حقيقة الدين الإسلامي، وكيف أن تشريعاته جاءت متوافقة مع فطرة الخلق، باحثاً عن ما فيه نفعها، وصلاحها.
٢. رعاية الدراسات والبحوث التي تُظهر الدور الفاعل للمرأة المسلمة،



وكيف أنها استطاعت أن تُسهم في بناء مجتمعتها، وتعزيز قيم وأخلاق الدين الإسلامي الحنيف فيه، دون تنازل عن ثوابتها وقيمها.

٣. عقد الشراكات، وتقديم الدعم، لمساندة المراكز الاستشارية والأسرية في القيام بدورها الرئيس في تعزيز المفاهيم القيمة مجتمعيًا واسريًا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.



فهرس المصادر والمراجع

١. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة: بدون طبعة، تاريخ النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
٢. أحمد أنور سيد أحمد الجندي (المتوفى ١٩١٧هـ/٢٠٠٢م): قضايا الدعوة الإسلامية من اليقظة إلى الصحو، دار الاعتصام، (٣١ / ٧).
٣. أيوب بن موسى الحسيني القريني الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ): الكليات، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت، لبنان، بدون طبعة، وبدون تاريخ نشر.
٤. سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ): في ظلال القرآن، دار الشروق - بيروت - القاهرة، الطبعة: السابعة عشرة - ١٤١٢هـ.
٥. علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ): كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٦. علي بن نايف الشحود: الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، ١٤٢٧هـ.
٧. محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ): أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٨. محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء



من فقها وفوائدها .

٩. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ): التحرير والتنوير، (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٤٨م، (١٠ / ٢٣٩).
١٠. محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ): روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تحقيق: محمد عزيز شمس، مجمع الفقه الإسلامي بجددة، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ.
١١. محمد كامل عبدالصمد: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، الدار المصرية اللبنانية للنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م، (٣ / ٧٠).
١٢. محمد عزت دروزة: المرأة في القرآن والسنة مركزها في الدولة والمجتمع وحياتها الزوجية المتنوعة وواجباتها وحقوقها وآدابها؛ المكتبة العصرية، لبنان - بيروت، ١٩٨٠م (ص: ٤٧).
١٣. مصطفى بن حسني السباعي (المتوفى: ١٣٨٤هـ): المرأة بين الفقه والقانون، دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.



قيمة الرحمة وأثرها الفعال في نجاح العمل الدعوي

إعداد:

أ.د. أحمد محمود علي عيسوي

أستاذ الدعوة والإعلام والفكر الإسلامي المعاصر

كلية العلوم الإسلامية جامعة باتنة الجزائر



المقدمة

تدور تفاصيل هذه الدراسة الدعوية الوصفية التحليلية الاستنتاجية حول دور قيمة الرحمة -وما كان مرادفاً لها في دراستنا كالرفق والرأفة والشفقة واللين والتؤدة والإحسان- في نجاح العمل الدعوي الإسلامي، وأثرهما البالغ في جذب جمهور المدعويين المتميزين بلين وتؤدة إلى سماحة ويسر ورفق وسعادة.. الإسلام، كما تسعى لإبراز قيمة الرحمة والرفق ومشتقاتهما من خلال ممارسة الداعية للعمل الدعوي، وأثرها الفعال في نجاح وانتشار الإسلام بين جمهور المدعويين، تأسيساً بكتاب الله، واقتداء بسنة رسول الله ﷺ وعمل السلف والخلف الصالح من الأمة، وذلك من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: (المدخل والتعاريف: القيمة، الرحمة، الأثر، الفعال، العمل الدعوي، مدعويين، داعية، الأدلة الشرعية،).

المحور الثاني: الجانب العملي في قيمة الرحمة وأثره في نجاح العمل الدعوي:

١. الرحمة كقيمة مركزية في هذا الدين.

٢. الرحمة كقيمة مركزية لإنجاح العمل الدعوي.
 ٣. الرحمة كقيمة مركزية بالنسبة لنجاح الداعية.
 ٤. الرحمة كقيمة مركزية لدى أصناف وفئات المدعويين: (حقيقيين، مُستقبلين، مرتقبين، متشككين، مناوئين..).
- الخاتمة: النتائج والتوصيات.

حيث سأعالج -بعون الله تعالى وتوفيقه- في المحور المدخلي الأول، التعريف بكل المفاهيم والمصطلحات والمعاني الأساسية في البحث، بهدف ضمان السلامة المنهجية والمعرفية للموضوع المراد معالجته. كما سأنتقل في المحور الثاني إلى التعريف بالجانب العملي لقيمة الرحمة وأثره في نجاح العمل الدعوي، من خلال إظهار الرحمة كقيمة مركزية في الإسلام والدعوة إليه، وفي نجاح الداعية والعمل الدعوي، والمرور الآمن والفعال والمُجدي إلى نفوس المدعويين على اختلاف أصنافهم وفئاتهم. خالصاً إلى بعض النتائج، ومُوصٍ بوصية واحدة. وسأبدأ في ذلك -بعون الله وتوفيقه- وفق الخطة المرسومة آنفاً.



المحور الأول المدخل والتعاريف

القيمة، الرحمة، الأثر، الفعال، العمل الدعوي، مدعوين، داعية

المدخل:

اندفعت المجتمعات البشرية مع مطالع الألفية الميلادية الثالثة - بسرعة فائقة وبعزيمة صلبة - لتعريف بدياناتها وعقائدها وقيمها وثقافتها وتاريخها... وللترويج والدعاية لها على أنها أفضل القيم والمناهج لإنقاذ البشرية التائهة، مستغلة في ذلك جيل الموجة الاتصالية الإلكترونية الحديثة، ومؤكدة حضورها القوي والفاعل والمؤثر عبر مواقع ووسائط التواصل الاجتماعي، محاولة إطباق الحصار على المسلمين والإسلام وقيمه الحنيفية السمحة.

وعلى الرغم من تأسيس الإسلام على أعظم وأفضل القيم الإنسانية ذات الأصل والمنشأ الرباني، إلا أن أتباعه يوسمون اليوم - للأسف - عبر وسائط الإعلام والاتصال والثقافة بأنهم: أهل عنف وشدة وقسوة وغلظة وإرهاب.. وهم - والله - غير ذلك البتة: منطلقاً وممارسة ووسيلة وهدفاً.

فدينهم الإسلامي: محضن القيم الفاضلة، ومجمع المثل الرائدة، وموئل المبادئ السامية، وما قيمة الرحمة ومشتقاتها ومترادفاتها، إلا أمثلةٌ واحدة

من تلك التشكيلة القيمية الرائدة، التي عجزوا -للأسف- عن التعريف بها بين الناس. فحياتهم بقيم دينهم تتأسس على الرفق والرحمة والرأفة والشفقة: عقيدة وعبادة وسلوكاً وأخلاقاً وآداباً واجتماعاً وتربية وتفاعلاً..

ولهم في رسولهم الكريم محمد ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين خير أنموذج في عرض قيم الإسلام الفاضلة بين الناس، ومن هذا العرض القيمي العظيم سيتم التركيز على خلق وقيمة الرحمة ومشتقاتها كالرفق والشفقة واللين والرأفة، ودورها الفعال في نجاح العمل الدعوي.

ولذا تنطلق هذه الدراسة الدعوية القيمية الوصفية التحليلية الاستنتاجية من إشكالية مركزية مفادها: هل أثر غياب إبراز قيمة الرحمة على نجاح العمل الدعوي؟ كما تفرع عنه سؤال إشكالي محوري آخر مفاده: هل لحضور قيمة الرحمة أثره في نجاح العمل الدعوي؟

كما تهدف إلى تتبع واقع وحال المنهج النبوي الشريف، وهو يرسم المعالم الكبرى والخطوط العامة لخلق الرفق وقيمة الرحمة، وأثرهما في نجاح العمل الدعوي وكسب المدعويين إلى حضيرة الإسلام⁽¹⁾.

وبعد هذه التوطئة الضرورية، ننتقل نحو محور المفاتيح اللغوية والاصطلاحية لإشكاليتنا لنضمن الانطلاقة السليمة لارتداداتنا المنهجية والمعرفية لقيمة الرحمة والرفق وأثرهما في نجاح العمل الدعوي.

(1) ثمة تأليفات كثيرة جداً تزخر بها المكتبة الإسلامية، تناولت موضوع الرحمة ومشتقاتها من جوانب شتى، اطلعنا عليها أثناء إعدادنا لهذه الدراسة، كموسوعة نضرة النعيم وغيرها التي ستبدو في هوامش الدراسة، غير أننا لن نكرر غيرنا البتة، وسنتناول فكرة أساسية تضيف للمعرفة الإسلامية ملمحاً غُضت الأطراف عنه بقصد أم من دون قصد، وهي فكرة ذات ملمح واحد، تتمثل في عرض أثر قيمة خلق الرحمة والرفق ومشتقاتهما في نجاح العمل الدعوي، وجذب المدعويين نحو سماحة وسعادة الإسلام. انظر: مجموعة من المؤلفين، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الرابعة، دون تاريخ. موقع المكتبة الشاملة تاريخ الزيارة ٢٠١٥/٠٦/١٢م، وغيرها. كخلق المسلم لمحمد الغزالي، دار الشهاب، الجزائر، دون طبعة وتاريخ. عبدالله بن جار الله الجار الله، أسباب الرحمة. ومحمد ابن علي المطيري، نبي الرحمة محمد. وعلي فضل الله، الأخلاق الإسلامية. وعادل العوضي، جواهر الأخلاق والآداب الإسلامية..



التعريف والمفاهيم اللغوية والاصطلاحية:

القيمة لغة واصطلاحاً:

يعني فعل (ق، وَ، مَ) و(ق، يَ، مَ) ^(١): القيام بالشيء. وقيَمَ: عَيَّرَ. وأمر قيَمٌ وخلق قيَمٌ، أي: حسن ذو قيمة. ودين قيَمٌ، أي: مستقيم. وكتب قيَمَةً، أي: مستقيمة، ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة:٥] أراد الملة الحنيفية. والقيمة: ثمن المتاع. وتأتي بمعان عدة كالاستقامة والاعتدال، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء]، أي: يهدي للأمر القيمة ^(٢).

وما يُشار إليه أن معجم «تاج العروس» لم يُعرِّ مصطلح «القيمة» المتعارف عليه في الأدبيات الفكرية الحديثة أهمية ^(٣). ما عدا ما أشار إليه «القاموس المحيط»، في مادة (قيم) - وهو الذي يعيننا من مقاربتنا اللغوية - قوله: ”.. والقيَمَةُ بكسر القاف واحدة القِيم وهو ما له قيمة“ ^(٤).

ولها تعريفات اصطلاحية كثيرة، لعل أقربها لدراستنا هذه التعريفات. فقد عرفها ”معجم علوم التربية“ بأنها: (أحكام يصدرها الفرد بالترفضيل أو عدمه على أشياء معينة، فهي بمثابة النظرة الكلية إلى العالم) ^(٥).

(١) الزبيدي، محمد المرتضى (ت ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الجيل، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج ٩، ص ٣٦ و ٣٧، مادة [قوم، قيم]. والفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت ٨١٧هـ)، قاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج ٤، ص ١٦٨، مادة [قوم، قيم].

(٢) انظر: طهطاوي، سيد أحمد، القيم التربوية في القصص القرآني، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص ٣٩. نقلًا عن: فؤاد علي العاجز وعطية العمري، القيم وطرق تعلمها، دراسة مقدمة إلى مؤتمر كلية التربية والفنون تحت عنوان «القيم والتربية في عالم متغير» والمنعقد في جامعة اليرموك في الفترة من ٢٧-٢٩/٧/١٩٩٩م إربد، الأردن، ص ٤. على موقعهم في شبكة النت تاريخ الدخول ٢٠١٤/٠٥/١٠م.

(٣) انظر: الزبيدي، محمد المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٩، ص ٣٦ و ٣٧، بتصرف.

(٤) انظر: الفيروز آبادي، قاموس المحيط، ج ٤، ص ١٦٨، مادة [قوم]. ولم يُشر كتاب التعريفات إلى مصطلح «القيمة» انظر: الجرجاني (ت ٨٢٦هـ)، علي بن محمد الحنفي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م، ص ١٢٨.

(٥) معجم علوم التربية، سلسلة علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص ٩.

كما عرفها عبدالسلام الأحمر بأنها: (معتقدات راسخة تملئ على الإنسان سلوكاً معيناً في ظروف اجتماعية معينة، بحيث تخلق السلوك وتوجهه الاتجاه الذي يتوافق معها)^(١).

فالقيمة معيار مرجعي للجماعة، تعمل على توجيه الأفراد وإراداتهم لتحقيق: غايات سلوكية محددة،^(٢) وهي: [١. القيم العقديّة الروحية، ٢. القيم الوجدانية، ٣. القيم العقلية، ٤. القيم الجمالية والرمزية، ٥. القيم الأخلاقية والسلوكية]، وذلك عبر منظومات وأنساق تواصلية لصيقة بالبناء الأساس لآليات الاتصال الشرعي للفرد وشبكة تواصله الجمعي والكياني، وتبدو تمظهراتها وتطبيقاتها في سائر الجوانب الحياتية الأخرى^(٣). فهي إذن: كل ما تعارف وتواطت له قيمة في مخيال الجماعة، وصار يُحتكم ويُرجع إليه.

الرحمة لغة واصطلاحاً:

تشير المادة اللغوية لـ (ر، ح، م) بالفتح والتحرك إلى عدة معاني، أهمها^(٤): الرقة والمغفرة والتعطف، وأصل فعلها «رَحِمَ» كَعَلِمَ، وعلى هذا قوله ﷺ ذاكراً عن ربه أنه لما خلق الرحم قال: «أنا الرحمن وأنت الرحم شققت اسمك من اسمي فمن وصلك وصلته ومن قطعك قطعته»^(٥). فالرحمة منطوية على معنيين: الرقة، والإحسان^(٦).

فيما قسم شيخ الإسلام ابن تيمية ت ٧٣٢هـ ﷺ صفات المولى تبارك

- (١) الأحمر، عبدالسلام، المسؤولية أساس التربية الإسلامية، مطبعة طوب بريس، الرباط، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص ٣٨.
- (٢) المرجع نفسه، ص ٣٨.
- (٣) انظر: عزي، عبدالرحمن، منهجية الحتمية القيمية في الإعلام ومقياس (ع. س. ن) للإعلام والقيم، الدار المتوسطة للنشر، تونس، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، ص ١٠.
- (٤) انظر: المرجع نفسه، ص ١٠.
- (٥) أخرجه الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، تحقيق: كمال الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ج ٤، ص ٢٨٧، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم، حديث رقم ١٩٠٧.
- (٦) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: د محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ص ١٩١. وانظر: فديرة سليم، معنى الرحمة والثقافة لغة واصطلاحاً وعلاقتها، بحث قدم للجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، دون تاريخ، ص ٤.



وتعالى إلى صفات جلال وجمال، فصفات الجلال هي الصفات التي نُعت بها الرب عز وجل بجلاله وعظمته وقهره وجبروته، وهي التي تجلب في قلب الموحد الخوف منه، مثل صفة القوة والقدرة والجبروت. وصفات الجمال هي التي تبعث في قلب الموحد الإنس بالرب عز وجل وبلقائه وبمناجاته وبالإنابة إليه، وهذه صفات كثيرة لله عز وجل، مثل صفة الرحمة والرأفة والمغفرة وقبول التوبة والسلامة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "من أمن مكر الله، ويأس من رحمته، فذلك من كبائر الذنوب"^(١).

وهي عند أهل السنة والجماعة - كما يذكر الشيخ محمد بن صالح العثيمين - عند ذكره لأسماء الله وصفاته وموقف أهل السنة منها، صفة حقيقية ثابتة لله دل عليها اسم الرحيم، وليست إرادة الإحسان والإحسان نفسه، وإنما إرادة الإحسان والإحسان نفسه من آثار هذه الرحمة، كذلك يؤمنون بأثر هذه الرحمة من يستحقها كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت]. وهذه قاعدة أهل السنة والجماعة بالنسبة للأسماء: يؤمنون بأنها أسماء يسمي الله بها فيدعون الله بها، ويؤمنون بما تضمنه الاسم من الصفة، لأن جميع أسماء الله مشتقة، والمشتق كما هو معروف يكون دالاً على المعنى الذي اشتق منه^(٢).
والرحمة لها معانٍ ومترادفات كثيرة جداً، فهي بمعنى: القرآن، والجنة، والرزق، والرياح، والمطر، والخير، والمودة، والعصمة، والسعة، والتوفيق، والشفاعة، و...^(٣). وما يعيننا في دراستنا المترادفات القريبة منها: (الرفق، الشفقة، الرأفة، اللين، التؤدة، الإحسان، حسن الظن).

(١) انظر: صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، إتحاف السائل بما في العقيدة الطحاوية من مسائل شرح العقيدة الطحاوية، ج ١، ص ١٧٠. عن الشبكة المعلوماتية. وفي شرحه نسب هذا التقسيم لشيخ الإسلام ابن تيمية. وانظر: عبدالله بن محمد الغنيمان، شرح العقيدة الواسطية، ترقيم آلي، درس رقم ٢١. وانظر: سليمان بن محمد الهميد، شرح كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب، ج ١، ص ٢٤٧.

(٢) انظر: أسماء الله وصفاته وموقف أهل السنة منها، محمد بن صالح العثيمين على هذا الرابط: <http://goo.gl/6HDBj6>

(٣) عمران عزت يوسف بخيت، الرحمة الإلهية - دراسة قرآنية - رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، فلسطين، إشراف: د محسن سميح الخالدي، ٢٠٠٩م، ص ١٧.

الأثر:

محركة بقية الشيء، وما بقي من رسم الشيء، وجمعه آثار وأثور. الأثر: هو ما يؤثره الرجل بقدمه في الأرض، وكذا كل شيء مؤثر. يُقال: جئت على أثر فلان، أي: جئتك أطأ أثره^(١). ومن خلال هذه المقاربة اللغوية نتبين معنى الأثر الذي نريده من إشكاليتنا البحثية في العنوان.

الفعَّال:

من الفِعْل بالكسر، وهو حركة الإنسان، كما أنه هو إحداث كل شيء من عمل أو غيره. فهو أخص من العمل. قال الراغب الأصفهاني: "الفاعل التأثير من جهة مؤثر وهو عام لما كان بإيجاد أو بغيره، ولما كان بعلم أو بغيره، ولما كان بقصد أو بغيره، ولما كان من الإنسان أو الحيوان أو الجماد. والعمل والصنع أخص منه"^(٢). ومن خلال هذه المقاربة اللغوية نتبين المعنى المراد لإشكاليتنا، وهو الحركة البشرية النافعة.

العمل:

من فعل عَمَلَ، كَفَرَحَ، من العمل، والعمل أخص من الفعل، لأن الفعل يصدر عن الإنسان والحيوان. والعمل حركة البدن كله أو بعضه، ويُطلق على حركة النفس، فهو إحداث أمر كان قولاً أو فعلاً بالجراحة أو القلب^(٣). ومنه، نتبين المعنى المراد لإشكاليتنا، وهو الحركة الكاملة والشاملة للإنسان.

الدعوة لغة واصطلاحاً:

تفيد المادة اللغوية: (دعا، يدعو، دعاء، دعوة، داعي) المعاني التالية^(٤):
نادى، أذن، صوت، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا

(١) انظر: الزبيدي، محمد المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٣، ص ٤، بتصرف.

(٢) انظر: الزبيدي، محمد المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٨، ص ٦٤، بتصرف.

(٣) انظر: المصدر نفسه، ج ٨، ص ٣٤، بتصرف.

(٤) انظر: المصدر نفسه، ج ١٠، ص ١٢٦، بتصرف.

حَزْبُهُ، لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ [فاطر]، وكقوله ﷺ: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينتقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من ذلك..^(١))
فالدعوة هي: النداء، ويقال: (دعا فلان فلاناً) إذا ناداه. وهي الدعاء للشئ أو للأمر والحث على قصده. وقد عرفها (الطيب برغوث) بقوله: "ذلك الجهد المنهجي المنظم، الهادف إلى: تعريف الناس بحقيقة الإسلام وإحداث تغيير جذري متوازن في حياتهم على طريق الوفاء بواجبات الاستخلاف، ابتغاء مرضاة الله تعالى، والفوز بما ادخره لعباده الصالحين في عالم الآخرة"^(٢).

المدعون:

هم الجهة التي يتوجه الداعية إليها برسالاته ومضامينه الدعوية، وقد تكون هذه الجهة المدعوة فرداً، أو جماعة، أو مجتمعاً، أو أمة، أو الإنسانية جمعاء..^(٣)

الداعية:

لغة، هو: المنادي والمؤذن. والتاء فيه زائدة، تعود على طبيعة دعوته، وهو المنادي في الناس، وقد سمي الله محمد ﷺ بـ [داعياً] في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴿٤٦﴾ [الأحزاب] ^(٤).

(١) أخرجه مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، حديث رقم ٢٦٧٤. والترمذي ٢٦٧٤. وأبو داود ٤٦٠٩، وأحمد (٤ / ١٢٠)، وراه ابن أبي عاصم في السنة ج ١، ص ٥٢، وابن ماجه في سننه ٢٠٦.

(٢) انظر: الطيب برغوث، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ص ٦٧.

(٣) انظر: عيساوي، أحمد محمود، دراسات وأبحاث في تاريخ الدعوة والدعاة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠١١م، ج ١، ص ٣٦.

(٤) انظر: المرجع نفسه، ج ١، ص ٤٤.

وعليه، فالداعية هو الإنسان المؤهل روحياً، ووجدانياً، وعقلياً، وجسدياً، للاضطلاع بمهمة التبليغ والدعوة لرسالة الله تعالى إلى الأفراد والمجتمعات والأمم، بقصد حملهم طواعية على اتباع تعاليمه، والعمل على ما جاءت به من: عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق، وآداب^(١).

وبعد أن تبين لنا التعريف الإجرائي الذي سنتبناه لدراستنا عن العمل الدعوي الفعال، حيث الدعوة هي: تعريف الناس بالإسلام، والداعية هو الفرد الكفاء المؤهل لحمل الخطاب الدعوي الإسلامي الذي نزل على محمد ﷺ، والمدعوون هم الجهة التي تتلقى الدعوة الإسلامية، عبر مجموعة من الأساليب والطرق والمناهج النبوية، فالدعوة عملية ذات أربعة أركان (داعية، مدعوين، دعوة، طرق ووسائل وأساليب^(٢))^(٣)، ننتقل لتبيين أثر قيمة الرحمة في نجاح العمل الدعوي، ولكن قبل ذلك كله، نود أن نبين مكانة قيمة الرحمة كقيمة مركزية في هذا الدين من خلال بعض التأسيسات المرجعية من القرآن والسنة.



(١) انظر: المرجع نفسه، ج ١، ص ٥١.

(٢) آثرنا استخدام مصطلح ركن للدلالة على ضرورة وأساسية هذه الأركان في هذه العملية الرباعية، فهي أركان أساسية لا يمكن الاستغناء عن واحد منها في قيام واستمرار ونجاح العملية، فهي كأركان الحج الأربعة الرئيسة إن فسد منها واحد بطل حج صاحبه، وهكذا أركان العملية الدعوية.

(٣) انظر: عيساوي، أحمد محمود، منهجية البحث في عملية الاتصال الدعوي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، ج ١، ص ٥٨. وثمة منهجيات لدراسة العملية الدعوية، كان الباحث قد فضّل القول فيها في كتابه الأنف الذكر، فثمة المنهج الاتصالي الإعلامي والفكري والاجتماعي.

المحور الثاني

الجانب العملي في قيمة الرحمة وأثره في نجاح العمل الدعوي

ثبت بسائر طرق المعرفة النقلية والعقلية، وبمختلف أشكال الخبرة والتجربة أن نجاح أي عمل من الأعمال في الحياة الدنيا، وارتقائه إلى درجة المنجزات الحضارية الكاملة والمعطاءة، إنما يكون مقرونًا بمدى تأسسه على مجموعة من القواعد والأسس الضرورية واللازمة لكماله وتمام عطائه. والدعوة إلى الله وإلى دينه الإسلام قمة هذه الأعمال، وتمام هذه المنجزات، ويُعد النجاح فيها قمة وأعظم هذه المنجزات والنجاحات. ولذا فقد أوكل الله ﷻ هذه المهمة للأنبياء والمرسلين ﷺ دون غيرهم، الذين تَفَانُوا في تبليغها وتوفيئها وإيصالها للناس، وحَمَلُوا بدورهم - بكل إخلاص وتضحية وتفانٍ- إلى أتباعهم الأمثل فالأمثل، حتى وصلت نبينا محمد ﷺ، فأداها حقها خير تأدية، وبلغها مأمونها وأسكنها صدور أصحابه ﷺ أجمعين بكل سكينة وحب، فبلغوها مأمونها ورعوها حق رعايتها، فكانوا نموذجاً فذاً في أتباع الأنبياء جميعاً، وحفظوها عن نبينهم ﷺ، وتركوا لنا تراثاً دعوياً باذخاً، وأثناء نشرهم الإسلام في أصقاع الأرض، ودعوة الناس إليه قدموا أعظم تفسير وأفضل شرح لقيمة الرحمة والرفق واللين والشفقة والإحسان، وجمَلُوا الإسلام وأخلاقهم بها للناس، فعطفوا ولانوا ورحموا وأحسنوا.. وكانوا أحسن معرض وأبهى مهرجان قيمي يعرض الإسلام إلى اليوم.

وما هذا النجاح والتألق كله، إلا لأنهم عرفوا حق المعرفة تأسس هذا الدين على قيمة الرحمة ومشتقاتها، فهي السبيل الوحيد لتقديمه للناس في زمن يُوسم به المسلمون بالعنف والغلظة والشدّة والتخلف، وهو ما تجلّت به تعاليم الإسلام الرحيمة الغراء.

ولعل في وصف ابن القيم لهم ما ينير طريق الدعاة للاهتداء والاقتران بهم، فهم ”.. أصحابه الذين حازوا قصبات السباق، واستولوا على الأمد، فلا طمع لأحد من الأمة بعدهم في اللحاق، ولكن المبرز من اتبع صراطهم المستقيم، واقتفى منهاجهم القويم، والمتخلف من عدل عن طريقهم ذات اليمين وذات الشمال، فذلك المنقطع التائه في بيداء المهالك والضلال، فأى خصلة خير لم يسبقوا إليها؟ وأي خطة رشد لم يستولوا عليها؟ تالله لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذباً صافياً زلالاً، وأيدوا قواعد الإسلام، فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالاً، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان، والقرى بالجهد بالسيف والسنان، وألقوا إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصاً صافياً، وكان سندهم فيه عن نبيهم ﷺ عن جبريل عن رب العالمين سنداً صحيحاً عالياً، وقالوا: «هذا عهد نبينا إلينا قد عهدنا إليكم، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا وهي وصيته وفرضه عليكم»، فجرى التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم، واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم، ثم سلك تابعو التابعين هذا المسلك الرشيد، (وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد)، وكانوا بالنسبة إلى من قبلهم كما قال أصدق القائلين: ﴿ثَلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الواقعة]..^(١).

ومن هنا ننطلق لتبيين الرحمة كقيمة مركزية في هذا الدين، وأثرها -بعد ذلك- في نجاح انتشاره بين مختلف الشعوب في كافة أصقاع الأرض.

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، (ت ٧٥١هـ)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الجيل، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج ١، ص ٦.



الرحمة كقيمة مركزية في هذا الدين:

إن الإسلام دين الرحمة والرفق، وقد ازدان صدره بهذه القلادة العظيمة، لأنه من لدن رب رحيم، وسعت رحمته كل شيء ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»^(١). فهي صفة أزلية في حقه ﷻ، يجب أن تسترعي انتباه المتوسمين لا للتأسي والنظر فحسب، بل لغرض التخلق والتحلي والعمل بها.

فرحمته ﷻ وسعت الصغير والكبير، والخفي والجلي، والقريب والبعيد، والحسن والذميم، كما وسعت الإنسان والحيوان والنبات والجماد.. وقد جاء في الكثير من الأحاديث الصحاح أن الله خلق مئة رحمة^(٢)، أنزل واحدة إلى الأرض، واستأثر عنده بالباقي، فبتلك الرحمة يتراحم أهل الأرض إنسيهم وحيوانهم وهوامهم وحشراتهم ودوابهم وبهائمهم، وهذه الرحمة إنما هي من آثار رحمة الله ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنِجٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم].

بل هي أهم صفاته ﷻ، لقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، بله هي أخص صفة لازمة به ﷻ، لقوله: ﴿قَالَ عِدَائِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ﴾

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، ج ٤، ص ٧٤، حديث رقم ٢٣٤٦. وفي روايات أخر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو عنده مكتوب فوق العرش»، أخرجه أحمد في مسنده، ج ٢، ص ١٢١، حديث رقم ٨١١٢.

(٢) وهذا الحديث أخرجه مسلم، الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله، ج ٤، ص ٢٠١٨، حديث رقم ١٩. كما أخرجه غيره.

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فرحمته وسعت كل شيء في الوجود سعة مطلقة. والآيات التي وصف بها نفسه ﷺ بالرحمة في القرآن الكريم كثيرة جداً، سواء المصريح بها لفظاً ومعنى كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٦-٥٧]، أو التي تدل بمعانيها ودلالاتها كقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وما صفتا الرحمن الرحيم الواردتين في مطالع السبع المثاني وسائر السور القرآنية، إلا اشتقاق مبني على المبالغة في صفة الرحمة ومشتقاتها، أي: هو الله ذو الرحمة التي لا نظير له فيها^(١).

وتأكيداً لهذه الحقيقة الإلهية الناصعة البياض يصف محمد الغزالي (ت ١٩٩٦م) الرحمة الإلهية بقوله: ".. الرحمة في أفقها الأعلى وامتدادها المطلق، صفة المولى تباركت أسماؤه، فرحمة الله شملت الوجود وعمت الملكوت، فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء أشرق معه شعاع الرحمة، كما أن كثيراً من أسماء الله تبارك وتعالى ينبع منه الرحمة والعفو، ولذلك كان من صلاة الملائكة لله عز وجل ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]"^(٢)

(١) انظر: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ، ج ١، ص ٩.

(٢) الغزالي، محمد، خلق المسلم، دار الشهاب، الجزائر، دون طبعة وتاريخ، ص ٢١٦.



وقد وردت مفردة (الرحمة) -مكانتها وقيمتها وأهميتها- في القرآن الكريم ثلاث مئة وثمان وثلاثين مرة، يُضَاف لها ورودها في مطلع سورة الفاتحة -على القائلين بالبسملة آية من الفاتحة- يصير تكرارها في القرآن الكريم ثلاث مئة وتسع وثلاثين مرة، على كافة البناءات والوجوه والصيغ الصرفية العربية^(١). فضلا عن ارتباطها بفواصل الآيات ك(الغفور، الرؤوف، التواب، الودود، البر، العزيز)، وتنوعات وتشكيلات المعاني والدلالات^(٢). وجاء ذلك التكرار المنسجم والمنسق، وذاك التنوع البديع والمشرق على وجوه وصيغ لغوية متعددة، لتوسيع معنى الرحمة الإلهية، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن من مترادفات الرحمة: (اللين والرفق والرقّة والرأفة والشفقة والإحسان وحسن الظن..)^(٣)، وهي المعاني المطلوبة في بحثنا، حيث حاجة الدعوة والدعاة الماسة لهذه الأخلاق الأساسية عند ممارسة العمل الدعوي وتبليغ المدعوين رسالة الإسلام.

بله إن قيمة الرحمة من أخص مقاصد بعثة نبي الإسلام محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٧-٥٨]. وقد سمي الله عز وجل نبيه الكريم محمد ﷺ رحمة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]. وهو الذي جمع خصال الرحمة كلها، وقد شهدت له السيدة أم المؤمنين خديجة ﷺ بجوامع الرحمة، حين قالت له لما جاءه الوحي وخشي على نفسه: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»^(٤).

(١) انظر: عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون طبعة ولا تاريخ، ص ٢٠٦.

(٢) عمران عزت يوسف بخيت، الرحمة الإلهية - دراسة قرآنية-، ص ١٧.

(٣) انظر: ساسي، عمار، المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص ٢٠١.

(٤) أخرجه البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، دار الفكر العربي،

وهو الذي كان يصرح به علانية وجهرًا ﷺ بين الفينة والفينة لأصحابه بأنه بعث رحمة لهم وللعالمين، فقال ﷺ: «إني لم أبعث لعاناً، وإنما بعثت رحمة»^(١).

ف”الرحمة سمة من سمات هذا الدين من كل جوانب الحياة، في عقيدته وشريعته، في أخلاقه وعبادته ومعاملاته وعقوبته، فهي رحمة امتدت لتشمل الدنيا والآخرة، ولذلك فما أحوج الإنسانية في كل زمان ومكان أن تستشعر معالم هذه الرحمة وتترجمها إلى واقع حي في حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية... وذلك حتى تكون أهلاً لنزول رحمة الله عليها“^(٢)، وكيف يمكنها أن تُعرف رحمة الإسلام من غير دعاة الإسلام الداعين لله بالرحمة والرفق والخير؟

وتبدو آثارها ومظاهرها في معاملة الإنسان للإنسان، ومعاملة الإنسان للحيوان، ومعاملة الإنسان للنبات، فمن صورها وآثارها البادية في الواقع ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فوجد بئراً فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، قالوا يا رسول الله: وإن لنا في البهائم لأجراً؟ قال: في كل كبد رطبة أجراً»^(٣).

= بيروت، دون طبعة وتاريخ، كتاب بدء الوحي، ج ١، ص ٥، حديث رقم ٢. كما أخرجه غيره كالبيهقي في سننه الكبرى، ج ٩، ص ٦، حديث رقم ١٧٤٩٩. وأحمد في مسنده، ج ٦، ص ٢٢٣، حديث رقم ٢٦٠٠١. وللزميد انظر: ابن هشام، أبو عبد الله عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، دار الفجر، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م، ص ٢١٥.

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب النهي عن لعن الدواب، ج ٤، ص ٢٠٠٧، حديث رقم ٨٧. كما أخرجه غيره كالبيهقي في سننه الكبرى، تحقيق: أحمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، ١٩٩٤م، ج ١٠، ص ٢٢٣، قال الألباني في السلسلة الصحيحة حديث رقم ٩٢، ص ٢٨. ١٧٤٩٩. وأحمد في مسنده، ج ٦، ص ٢٢٣، حديث رقم ٢٦٠٠١.

(٢) عمران عزت يوسف بخيت، الرحمة الإلهية، ص ٢.

(٣) أخرجه البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، دار الفكر العربي، بيروت، دون طبعة وتاريخ، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ج ٣، ص ٧٧. وفي الأدب المفرد،



فالإسلام جاء وكله رحمة خالصة، في عقائده وعباداته وتشريعاته ومعاملاته وآدابه وأخلاقه وعلاقاته، وإن نظرة مقارنة بين حدوده وعقوباته تبين مدى رحمته ورفقه بالناس، فقانون العقوبات الجزائي الجزائري لسنة ١٩٩٢م يضم أكثر من مائة وسبعين عقوبة بالإعدام، في حين لا يتعدى حد القتل في الشريعة الإسلامية بضعة جرائم (الردة، القتل، الخيانة، الزاني المحصن، الساحر، الحراة)^(١).

وعن هذه الرحمة الشاملة يقول محمود شلتوت: ”.. لقد جاء الإسلام وقلوب كثير من الناس خالية من معاني الرحمة، فالقوي يأكل الضعيف، والغني يستغل الفقير، فتكدست الأموال بين يدي طائفة قليلة من المتنفذين، فنشأت الرأسمالية الطاغية، فمزقت الإنسانية، وجعلت أفرادها أشبه بحيوانات الغابة، الغني يطمع بالفقير، والفقير يحقد على الغني، ولكل منهما سلاحه الذي يقتل به أخاه، في ظل هذه الأجواء جاء الإسلام بمبادئه الاقتصادية، ليرد البشر إلى الحياة التي أرادها لهم الله جل وعلا، فدعا إلى التراحم والتعاون والبر والإحسان، ثم أخذ ببناء المجتمع الفاضل والمتماسك، فحرم الربا والرشوة والاحتكار والبخل والشح“^(٢).

ومن تمام رحمته ﷺ بعباده رفع الحرج والمشقة عنهم في العقائد والعبادات والمعاملات، فجعل العقائد والعبادات توقيفية، حتى لا يتكلف بعض المتعنتين فيشقون على أنفسهم وغيرهم بالتشدد والزيادة والنقصان، كما فعل أهل الكتاب بأنفسهم حين شهد الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِنَاءَ يَتَدْعَوْنَهَا مَا كُنِبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ

ج ١، ص ١٣٨، حديث رقم ٣٧٨.

(١) انظر: قانون العقوبات الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون طبعة،

١٩٨٩م، ص ١٨.

(٢) شلتوت، محمود، الإسلام عقيدة وشريعة، دار القلم، القاهرة، الطبعة الثانية، دون تاريخ، ص ٢٩٣.

رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٧﴾ [الحديد]، ورحمته التشريعية ﷻ في المسلمين وهو يقرر مبدأ الرحمة ﷻ بقوله: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء»^(١)، وهكذا سائر العبادات، فالصلاة والصيام تجب على العاقل البالغ المكلف، وتسقط عن الصبي والمجنون والنائم والسكران، وكذلك الزكاة التي تجب في حق الغني بشروطها الشرعية، وتسقط عن الفقير، والحج الذي يكون مرة واحدة في العمر لمن استطاعه، ومن تمام الرحمة تجد هذه العبادات محفوفة بالرخص كالتييمم والقصر والجمع والتخفيف..^(٢).

ومن مظاهر الرحمة في هذا الدين الاقتصاد في العبادة، وترك التتبع وتحريم الابتداع والزيادة في الدين بغرض اكتساب الثواب، فقد أثر عن رسول الله ﷺ قوله: «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا»^(٣). وهكذا الدين كله يسر واقتصاد.

ومن عظيم رحمته ﷻ بعباده تنزيل القرآن عليهم منجماً طيلة ثلاث وعشرين سنة تربية وتأديباً وتعويداً لهم لاعتبارات ومنافع ومقاصد كثيرة جداً، ف”ليس من السهل على النفس البشرية أن تتخلى عن ما ورثته من عادات وتقاليد، حيث كان عرب الجاهلية قد توارثوا الكثير من العادات والتقاليد الوثنية والجاهلية، التي لا تتفق وشريعة الإسلام، كأد البنات وشرب الخمر، وحرمان البنات من الميراث، وغير ذلك من العادات التي جاء الإسلام وحاربها، فاقتضت رحمة الله تعالى أن يُنزل أحكامه شيئاً

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب سواك الرطب واليابس للصائم، ج ٢، ص ٢٤٣. حديث رقم. وأحمد في مسنده، ج ٢، ص ٢٥٨، حديث رقم ٧٥٠٤. وأبو داود في سننه، ج ١، ص ١٢، حديث رقم ٤٦. وغيرهم.

(٢) انظر: ابن حميد، صالح بن عبد الله، رفع الحرج عن الشريعة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص ١٢٣. والفرضاوي، يوسف، العبادة في الإسلام، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، دون طبعة وتاريخ، ص ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأيمان، باب الدين يسر، ج ١، ص ١٥، حديث رقم ٣٩. وأحمد في مسنده، ج ٢، ص ٢٥٨، حديث رقم ٧٥٠٤. وأبو داود في سننه، ج ١، ص ١٢، حديث رقم ٤٦. وغيرهم.



فشيئاً، تهيئةً للنفوس وتدرجاً بها لترك ما تعلقت به من عادات، فكان الإسلام كلما نجح معهم في هدم باطل، انتقل إلى هدم آخر حتى طهرهم منها دون حرج ولا عنت^(١).

وبناءً على ما سبق، ومن خلال هذا التأسيس المرجعي السريع من كتاب الله وسنة رسوله الكريم وبعض الإطلاقات المقاصدية لهذا الدين، نتبين قيمة الرحمة كصفة وكخلق مركزي وأساسي في هذا الدين الرحيم. ونتساءل هنا: هل لقيمة الرحمة ومرادفاتها مكانة مركزية في الدعوة والتبشير بهذا الدين؟ وهو ما سنبينه في الجزئية القادمة إن شاء الله.

الرحمة كقيمة مركزية لإنجاح العمل الدعوي:

لا تعد الرحمة ومشتقاتها قيمة عقدية أو تصورية أو تعبدية مركزية يتحلى بها هذا الدين، أو المنتسب إليه فحسب، بل هي قيمة دعوية وتبشيرية وعملية مركزية فيه، وهي سبب وجيه ورئيس في نجاح العمل الدعوي، لأنها ”.. سبب واصل بين الله وعباده، بها أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم وأسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم ﷻ“^(٢).

وهي التي تحقق تمام الصلة بين الخالق ومخلوقيه، تلك الصلة التي تقوم على العدل والإنصاف والحق، وتحقق الطمأنينة في قلوب ونفوس المخلوقين تجاه خالقهم العطوف الرؤوف الرحيم الشاهد على نفسه بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]، وهي قاعدة الحكم الأساسية في الطاعة والانقياد والعبادة والقضاء والاحتكام والتعامل بين الله ومخلوقاته جميعاً، فقد حلت رحمته ﷻ في كل تعاليم دينه، وصارت علامة بارزة فيه.

(١) عمران عزت يوسف بخيت، الرحمة الإلهية، ص ١٣٤.

(٢) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت ٨١٧هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف

الكتاب العزيز، تحقيق: محمد النجار، المكتبة العلمية، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج ٢، ص ٥٤.

وكما أنها صلة الوصل الصحيحة والمفيدة والناجحة بين المخلوقات جميعاً وخالقهم، فإنها أيضاً صلة الوصل السوية والسبيل الصحيح للتعامل بين المخلوقات وبعضهم، فقد جاء عن السيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت على بعير فيه صعوبة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عليك بالرفق فإنه لا يكون في شيء إلا زانه ولا يُنزع من شيء إلا شانه»^(١).

ولطالما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بالتحلي بخلق الرحمة الرفق واللين، إيماناً ودعوة وتوجيهاً وتعلماً منه صلى الله عليه وسلم بهذه القيمة المركزية في جلب الناس بسلام إلى حظيرة الحنيفية السمحة، فقد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، قائلاً يا عائشة: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»^(٢).

فضلاً عن كون الرحمة ومشتقاتها مظهراً جلياً من مظاهر سنته الشريفة صلى الله عليه وسلم، وملحاً واضحاً وأكيداً في سلوكه الدعوي صلى الله عليه وسلم، حيث كانت عنده صلى الله عليه وسلم الخيار الأوحى والأفضل والأسلم في دعوة المخالفين للإسلام، فقد جاء عن السيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قولها: «دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا السام عليك، ففهمتها فقلت: السام عليكم واللعنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله»، قلت يا رسول الله: ألم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد قلت عليكم»^(٣). فقد فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم استخدام أسلوب الرقة واللين والإحسان لمن زاره من اليهود رحمة بهم، لأنهم لو عقلوا وجوده وبعثت كنيه لآخروا دين في الأرض بينهم لما ناصبوه العدا، ولما حادوا عنه.

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ج ١، ص ١٦٦، حديث رقم ٤٦٩. كما أخرجه غيره..

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ج ١، ص ١٦٨، حديث رقم ٤٧٥. كما أخرجه غيره..

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ج ١، ص ١٦٨، حديث رقم ٤٦٢. وأخرجه النسائي في السنن الكبرى، ج ٦، ص ١٠٣، حديث رقم ١٠٢١٤. وقد أخرجه بألفاظ متقاربة أصحاب الصحاح والسنن والمسائيد. أبو يعلى في مسنده، ج ٧، ص ٣٩٥، حديث رقم ٤٤٢١. وغيرهم. وفي سنن النسائي الكبرى إضافة حرف العطف واو "وعلَيْكُمْ"، ج ٦، ص ١٠٣، حديث رقم ١٠٢١٥. وكذلك في البخاري "وعلَيْكُمْ"، الأدب المفرد، ج ١، ص ١٦٤، حديث رقم ٤٦٢.



وهي قيمة دعوية مركزية في سائر تعاليمه ومبادئه ومُثله، وقد نبّه إلى هذه الحقيقة شيخ الأزهر العلامة محمد الخضر حسين (١٨٧٤-١٩٥٨م) بقوله: "فالحق أن الإسلام لم ينتشر بالسيف، وإنما انتشر بالدعوة والحجة، وإذا كان للفتح أثر في انتشار الإسلام، فمن جهة أن فتح البلاد يستدعي قصد كثير من المسلمين للرحلة إليها، والإقامة في ربوعها، فيكثر اتصال أهل البلاد بالمسلمين فيقفون في محادثتهم ومعاملتهم على جانب حقائق الدين، ولو لم يتعمدوا البحث عنها، ثم إن ظهور الدعوة بمظهر العزة والوجاهة يجعل العيون ترمقهم بإجلال، فتقرب منهم النفوس، حتى إذا وجدتهم على دين أفضل من دينها، وشريعة أحكم من شريعته، وآداب أرفع من آدابها، آمنت بما يؤمنون، وسارت في حياتها على ما يسيرون"^(١). وهو ما تم بالفعل من خلال الاختلاط بالمسلمين في الجوار والسكنى، والزواج والمصاهرة، والاحتكاك المباشر في البيع والشراء، وسائر الأعمال والنشاطات^(٢).

ومادام لهذه القيمة المكانة المهمة والصدارة المرجعية في المنظومة التشريعية الإسلامية، فلم يتجافى عنها الرعيل الأول رضوان الله عليهم أجمعين، ولم يتغافلوا عن وضعها موضع التطبيق في منهج حياتهم، فقد وجدت لها ترجمة عملية في حياة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وكذلك جيل التابعين وتابعيهم بإحسان، وصار عندهم منهج الدعوة بالرفق واللين في القول طريقاً لا مناص منه، والتجافي عن الكلمات الجافية فضلاً عن النابية جسراً لا حياء عنه، لأن الخطاب اللين يستطيع أن يؤلف النفوس الناشزة، ويُدنيها من الرشد والإصغاء إلى الحجة والموعظة الحسنة،

(١) حسين، محمد الخضر، الدعوة إلى الإصلاح، المطبعة التعاونية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ص ١١٨.

(٢) انظر: فيصل، شكري، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٨م، ص ٣٦.

تأسيساً على خطاب الله ﷻ لنبيه موسى وهارون عليهما السلام: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٤٣﴾ فَقَوْلًا لَهُ، قَوْلًا لِنَا أَعْلَىٰ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ [طه: ٤٣-٤٦]، وقد لقن الله ﷻ نبيه موسى عليهما السلام من أطيب القول وأحسنه في الخطاب الذي يليق بعنيد جبار، عَبْدَ قومه، وكان يقول لهم: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿٢٤﴾ [النازعات]، ليقول له: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَنْ تَرَىٰ﴾ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ [النازعات: ١٨-١٩]، صارفاً القول على سبيل الإنكار إلى غير معين، إحقاقاً للحق، وتقوية للحجة البالغة، دون أن يشعر محدثه بأية غضاضة منه^(١).

ومن أمثلة هذا الأدب الدعوي الإسلامي الراقي المفعم بالاحترام والرحمة والشفقة على المدعويين، توجيه الداعي الإنكار لنفسه وهو يعني السامع وذلك منتهى الرحمة بالمدعويين، وقد حكاه لنا الخطاب القرآني تعليماً وتبهيها لنا بأهمية وقيمة الرحمة بالمدعويين فقال تعالى على لسان الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى بالدعوة إليه: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ [يس: ٣٢].

ويضاهي هذا الأدب الدعوي الراقي ما قدّم لنا الخطاب القرآني من تشكيلة خطابية راقية المأخذ، حيث يضع الداعي نفسه في منزلة السائل المتطلب للحقيقة، مقيماً الحجة البالغة على نفسه في موضع الاسترشاد والدعوة والوعظ، حتى تعلق بأذهان المخاطبين، وقبل أن يتبها أو يشعروا بمقصده فينصرفوا عنه بعقولهم وقلوبهم عن الاستماع والإصغاء والإنصات إليه^(٢)، نقله لنا المولى تبارك وتعالى في القرآن الكريم على

(١) انظر: حسين، محمد الخضر، الدعوة إلى الإصلاح، ص ٢٦.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٦.

(٣) ثمة فرق بين السمع والاستماع والإنصات، انظر: ابن المقفع، عبدالله، الأدب الكبير والأدب الصغير، ص ١١٩، نقلاً: عن: علي عيسى، راشد، مهارات الاتصال، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٠٣،

١٤٢٥هـ، ص ٨٤.



لسان نبيه إبراهيم عليه السلام في حاجته لقومه قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۖ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَنكِفِينَ ۖ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ۖ إِذْ تَدْعُونَ ۖ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۖ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۖ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء: ٦٩-٧٤] (١).

ويضاهي ذلك الأدب الدعوي الراقي الموسوم بالرحمة والرفق والشفقة، حمل خطاب الداعي للمدعويين في سياق اختفاء البينة من أمره، وإلقاء الكلام في هيئة المتردد الذي يحتمل أن الهدى موجود أمام العقول النيرة المفتوحة له، وليس معه هو فقط، وكأنه يود أن يستعين برأي وعقل المدعو، ويشركه معه في البحث عن الهدى والبيان الحق، لتفكيك الكثير من العقد والأمراض النفسية في أعماق المدعو كعقدة التعصب للرأي، وهو منزع جليل في إغراء المدعو لجذبه نحو الهدى، فيقبل بالاستماع والإنصات والاشترار والنظر بجد، فيستكين لتلاوة الخطاب والانصياع أمام قوة وسحر الآيات البينات، فيقع مُخَبِّتاً أمام فيوضات الحق، ويصير بين حالين، إما الاقتناع ومن ثم قبول الهدى والانخراط مع المهتمين، وإما العناد والضلال، من ذلك تعليمه عليه السلام نبيه محمد عليه السلام هذا الأسلوب الرائع رحمة بالمدعويين في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ ﴿٢٤﴾﴾ [سبا] (٢).

ولو جئنا نعدُّ ونُحصي قيمة الرحمة ومشتقاتها في الخطاب الدعوي الإسلامي (الكتاب، السنة)، ومن تطبيقات السلف الصالح من الأمة، لاحتجنا لتدوين الكتب والمصنفات والمجلدات. ولعلنا نختم هذا المطلب بتبيين آليات الخطاب المرهنة، حيث المرهنة شكل من أشكال الرحمة بالمسلمين، وحيث الترفق في الانتقال من حالة إلى حالة، ومن مرحلة إلى أخرى، وهو عين الرحمة

(١) انظر: حسين، محمد الخضر، الدعوة إلى الإصلاح، ص ٢٧.

(٢) انظر: حسين، محمد الخضر، الدعوة إلى الإصلاح، ص ٢٧.

وجوهر الشفقة والإحسان، التي يزخر بها الخطاب الدعوي الإسلامي، فقد أثر عن رسول الله ﷺ أنه كان يبدأ بالأسر جداً، فاليسير، فالميسر، فالعزيمة، وبالمألوف والمعروف قبل الغريب المستهجن، وبالمعقول والمفهوم قبل غيره، حتى إذا تألفت العقول والأرواح واستكانت النفوس وطلبت المزيد، انتقل ﷺ لما بعده، وعلى هذه القاعدة المحكمة أسس رسول الإسلام ﷺ سائر خطابه ومنهجه العقدي والتعبدي والأخلاقي، فالصلاة قبل حادثتي الإسراء والمعراج كانت ركعتين في الفجر والمغرب، ثم صارت على الوجه المعروف، وكان يُسمح فيها الكلام ثم نُهي عنه فيها وعُدَّ من مبطلاتها، وكذلك فرض الصيام والزكاة، والنهي عن الربا والخمر.. فعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: ”.. إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام. نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر. لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً“^(١).

وعن هذه القاعدة الدعوية الذهبية في الرحمة والرفق بالمدعويين ”أن يقصد الداعي إلى أمر فيه مشقة، فيضع أمامه تمهيداً يخفف وقعه، ويقلل شأنه، حتى لا تكبره النفوس، وترتخي دونه العزائم خوراً. ومثال ذلك ما سلكه التنزيل في التكليف بفريضة الصيام حيث شرعه أولاً في أمر مجمل فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وذكر أن هذا النوع من القرية قد فرض على الأمم السالفة، فقال تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فهو عمل مألوف وشريعة غير خاصة، وفي هذه التذكرة ما يدخله في قبيل السنن الجارية ويجعله أمراً هيناً. ثم أشعرهم بأن أيامه في الحساب قليلة فقال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]. وبعد أن هبأ النفوس لقبول فريضته والامتثال لها، قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي

(١) الحديث أخرجه البخاري، ج ٦، ص ١٧٩، حديث رقم ٢٢٨. والبخاري أيضاً، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ج ٤، ص ١٩١٠، حديث رقم ٤٧٠٧. والنسائي في سننه الكبرى، ج ٦، ص ٤٧٧، حديث رقم ١١٥٥٨ ...



أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴿[البقرة: ١٨٥]﴾. وجرى التنزيل على هذه السنة عند الترغيب في أمر صعب المركب شديد الأثر على النفس..^(١) وهو من الرحمة والشفقة بالمدعويين على اختلاف أصنافهم.

وبعد أن تبينت لنا الرحمة ومشتقاتها القريبة منها كقيمة مركزية دعوية في هذا الدين، بما لها من المكانة والموقع والتأثير التواصلية مع الآخرين، الأمر الذي يجعلها إحدى السمات العامة للدعوة ولللقاء بها من الدعاة، بل هي أخص السمات التي يجب على المنتسبين للإسلام التحلي بها أثناء قيامهم بالعمل الدعوي، والأعدوا من المفترين والمتأولين على هذا الدين بما ليس منه وفيه، صار من الأكيد علينا الآن أن ننتقل إلى تبين قيمتها ومكانتها كقيمة مركزية لنجاح الداعية في مهمته الدعوية.

الرحمة كقيمة مركزية لنجاح عمل الداعية:

تبينا آنفاً أن الداعية هو أحد الأركان الرئيسة في العملية الدعوية، وأن نجاح عمله ونشاطه الدعوي في إيصال الإسلام الصحيح -وكما نزل على محمد ﷺ وطبقه مع أصحابه ﷺ إلى جمهور المدعويين، إنما يقتصر بمدى تشبعه الصحيح والسوي بالمعارف والمبادئ والقيم والعلوم الإسلامية من جهة، وبمدى تمسكه بتعاليم الدين والتزامه بها حد الحب والشوق والتضحية وتفانيه في نشرها بين الناس من جهة ثانية، وبمدى تحليته وتزنيته وتأصله بقيم الإسلام المركزية من جهة ثالثة، وفي مقدمتها قيمة الرحمة ومشتقاتها.

وتأسيساً لذلك المنهج الرباني الرائد فقد أحيا وجسّد وأوصى رسول الله ﷺ بالرفق واللين والشفقة والإحسان والرحمة.. ونهى عن الفظاظة

(١) انظر: حسين، محمد الخضر، الدعوة إلى الإصلاح، ص ٢٠ و ٢١.

والعنف والغلظة، وهو الممدوح ﷺ بالرحمة والرفقة واللين في قوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ غَافِقًا لِّمَا تُكْفِرُونَ لَأَلْجَأَنَّكُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهو المثني عليه في العالمين بالخلق العظيم، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وإن مثل هذه الأخلاق والقيم الرفيعة مجلبة لكل خير، مجذبة لكل فاضل عاقل، فقد قال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»^(١).

وقد قدم هذا الأسلوب ثماره على مدار السنين، وكان خيراً لأئمة أهل عَرَصَةِ، فعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله عز وجل بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق»^(٢). وقد يذهب من يخالف هذا الأسلوب النبوي الشريف القائم على الرحمة والرفق إلى نعتهم بالسذاجة والبلادة وبرودة الدم وهدوء الأعصاب، وسيئون لهم بأشكال اللعن والشتائم والسباب، ويرون أنه لا بد من التشدد مع المدعويين، وهو ما يقع فيه الكثير ممن يضيق صدره بالدعوة والمدعويين من العاجزين أو من قليلي البضاعة، فيحمل هذا التشدد المدعويين على التعصب لآرائهم ومواقفهم وعقائدهم ودياناتهم، والقبض عليها بذات اليمين، فيخسرهم الإسلام والمسلمون^(٣).

وما يجب التأكيد عليه هنا، وانطلاقاً من التراث الفكري الدعوي^(٤)،

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه، حديث رقم ٣٦٨٨. والنسائي، السنن الكبرى، حديث رقم ٧٦٥٥. وابن حبان ٥٤٩.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في مسنده، ج ٦، ص ٧١، حديث رقم: ٢٤٤٧١.

(٣) انظر: حسين، محمد الخضر، الدعوة إلى الإصلاح، ص ٢٧ و ٢٨.

(٤) لمزيد من التوسع انظر: الغزالي، محمد، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، دار الهدى، عين مليلة، قسنطينة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م، ص ١٢٧.. ١٤١. وعبدالرحمن سعيد، همام، قواعد الدعوة إلى الله، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٥ م، ص ٦٩. والبيانوني، محمد أبو الفتح، القواعد الشرعية في ترشيد العمل الإسلامي، كتاب الأمة، ربيع الأول ١٤٢٢ هـ عدد ٨٢، ص ٩٤.. بباكر، معتصم مصطفى، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، كتاب الأمة، قطر، عدد ٩٥، جمادى أولى ١٤٢٤ هـ، ص ٤٧.. وفتحي يكن، احذروا الإيدز الحركي، دار الوفاء، المدينة، الجزائر، الطبعة الثانية، ١٩٩١ م، ص ٨١.. وعبدالله الزبير عبدالرحمن، =



ذي العلاقة الوطيدة بنجاح عمل الداعية، أن القواعد الدعوية العامة التي تنتظم جميع المدعويين، والصالحة لريادة الخطاب الدعوي الناجح معهم، لا يمكنها أن تضطلع بدورها الدعائي والتثويري والتأثيري الفعال، ما لم تتأسس وتتفاعل وتتناغم وتتلاءم، وقيمة (الرحمة) ومشتقاتها ك (الرفق والشفقة والإحسان والرأفة واللين وحسن الظن) كقيمة مركزية ومحورية في الخطاب الدعوي الناجح، بله لا تستطيع البتة التأثير في المدعويين، هذا إن لم تعجز عن تأليفهم وتحبيبهم في الإسلام، لأنها ستقدم لهم الإسلام في غير منهجه النبوي الرشيد، وستعرضه في قالب آخر يتسم بالفضاظة والتشدد كما هو سائد في الساحة الدعوية اليوم.

ومن مظاهر تجسيد وإحياء الرحمة كقيمة مركزية في الممارسة الدعوية للداعية الناجح حسن الأخذ والعرض والسياسة في المسلك الخطابي، بحيث

= دعوة الجماهير مكونات الخطاب ووسائل التسديد، كتاب الأمة، قطر، عدد ٧٦، ربيع أول ١٤٢١هـ، ص ٤١ و ٤٢ و ٤٦. والمودودي، أبو الأعلى تذكرة دعاة الإسلام، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ص ١٩. وزيدان، عبد الكريم أصول الدعوة، دار قصر الكتاب، البليدة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٩م، ص ٣٢٣. ويكن، فتحي، قوارب النجاة في حياة الدعاة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ، ص ٢٨. وجمعة، أمين عبدالعزيز، الدعوة قواعد وأصول، دار الصديقية للنشر، الجزائر، دون طبعة وتاريخ، ص ١٤. وعيساوي، أحمد محمود، مدخل إلى مناهج الدعوة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ ٢٠١٥م، ص ٢٨. وهذه القواعد الدعوية، هي:

١. القاعدة الأولى: الدعوة إلى الله سبيل النجاة في الدنيا والآخرة.
٢. القاعدة الثانية: لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم.
٣. القاعدة الثالثة: الأجر يقع لمجرد الدعوة ولا يتوقف على الاستجابة.
٤. القاعدة الرابعة: على الداعية أن يصل إلى رتبة المبلغ وأن يسعى إلى البلاغ.
٥. القاعدة الخامسة: على الداعية أن يقدم الجهد البشري وهو يطلب المدد الرباني.
٦. القاعدة السادسة: الداعية مرآة دعوته والنموذج المعبر عنها.
٧. القاعدة السابعة: خاطبوا الناس على قدر عقولهم.
٨. القاعدة الثامنة: الابتلاء سنة الله وهو السبيل إلى تمثّل الدعوة وصياغة النفس وفق العقيدة.
٩. القاعدة التاسعة: مجال الدعوة واسع فليتخير الداعية لدعوته.
١٠. القاعدة العاشرة: الزمن عنصر من عناصر الدعوة.
١١. القاعدة الحادية عشرة: الدعوة فن وقيادة، وهي تقوم على التخطيط والمتابعة.
١٢. القاعدة الثانية عشرة: الدعوة صورة أكيدة من صور الجهاد.
١٣. القاعدة الثالثة عشرة: الدعوة سلعة شريفة لا تباع بالأغراض الدنيوية.
١٤. القاعدة الرابعة عشرة: التعرف على المدعو عامل أساسي في كسبه.
١٥. القاعدة الخامسة عشرة: المعاصرة ومعرفة البيئة العامة من أسباب نجاح الدعوة.

لا يجهر برأيه الصريح في صدر مقالته وخطابه، ويتخير من الكلام روعة المطمع، والحوم بحكمة حول المعاني المقصودة، بما يُخفف على المخاطبين أو المدعويين الوطأة والنكير رحمة بهم، وخشية الإعراض عن الحق، ولا يفتأ يحاول -بالألفاظ والتعابير المجملة- الدنو شيئاً فشيئاً من الموضوع المرغوب الخوض فيه، حتى لا يُفصح بداءةً عن مراده، إلاّ بعد أن يتأكد من أن النفوس قد ارتاضت، وأن الخواطر قد أنست، وأن المشاعر قد هدأت، وأن الآذان قد ألفت نبرات وتوقيعات الخطاب والخطيب، متأسيماً بطريقة مؤمن آل فرعون الذي كان يكتنم إيمانه مع حبه الشديد لإظهاره، ودعوة قومه إليه، ولولا خشيته -التصريح بعقيده- من هبتهم في وجهه، وغضبهم وانتقامهم منه، ورحمة بنفسه وبهم، لما سلك هذا المسلك الجليل في الخطاب، حتى إذا ما اغتمت اجتماعهم على البيطش بنبي الله موسى (عليه السلام)، ووجد الفرصة سانحة قام رافعاً وتيرة خطابه منكرراً عليهم هذه المؤامرة المخزية، مدعيماً أن الإيمان بالله الواحد القهار أمر معهود من هذا النبي وممن سبقه، خالصاً إلى دعوتهم للإيمان والتصديق بما جاء به ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ [غافر: ٢٨]. منكرراً عليهم خطورة قتل رجل لدينه، دون أن يشعروا أنه مؤمنٌ مثله، ما جمع إليه عقلاء القوم الذين ينكرون قتل الأبرياء بسبب قوله: ﴿ أَنْقَتُونِ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [غافر: ٢٨] القوي بالأدلة والبراهين ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨]، ليجرهم وليقربهم إلى حظيرة الإيمان، مع عدم إظهاره أنه من شيعته، مُبعداً نفسه بعض الشيء عن ما جاءهم به موسى من البينات، مسترسلاً بخطاب العدل والانتصاف والعقل والروية.. إلى أن صدع ببطلان نحلتهم، داعياً إياهم في آخر خطابه الصريح إلى الإيمان ﴿ وَيَقَوْمٍ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ [٤١] تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ [غافر: ٤١-٤٢] (١).

(١) انظر: حسين، محمد الخضر، الدعوة إلى الإصلاح، ص ٣١ و٣٢، بتصرف.



ويعتبر هذا المسلك الجليل في الخطاب الدعوي والأدبي الإسلامي أحد فروع وفنون البيان العربي، وهو -فوق براعته البيانية تلك- أمثلة نفسية وأخلاقية في محاسن الأخلاق الإسلامية التي تغشأها خلق الرحمة وسائر مشتقاتها القيمية والضرورية لنجاح الداعية في مهمته التبليغية، ولثراء بضاعته الدعوية المعرفية والمنهجية والأسلوبية.

ومن أسباب نجاح الداعية في عمله الدعوي إحياء القيم الإسلامية التي يدعو إليها بلسان حاله وحال من هم في رعايته وحفظه، والذي يجب أن يسبق لسان مقاله، تأسياً بصاحب الحنيفية السمحة محمد ﷺ، الذي كان حاله وسلوكه معرضاً جميلاً وبهيجاً لتلك القيم الربانية السامية في الأرض، فما كان يأمر بأمر إلا وقد أتاه، فتراه في بعض الأحيان يُصرح لأصحابه أو يأذن لهم بفعل أمر، ولكنهم لا يبادرون إلى الامتثال ويحجمون عنه فيبادر تقريره بالعمل، من ذلك إذنه لهم بالإفطار في شهر رمضان في غزوة بدر وبقاؤه صائماً، فلم يقطعوا صومهم إسوة به، حتى عمد ﷺ إلى الفطر فخفوا إلى الاقتداء بفعله ﷺ^(١). ولما أذن لهم بنكاح أزواج أديعتهم أحجموا، فتزوج زينب ﷺ زوجة ربيبه زيد بن حارثة ﷺ امتثالاً لأمر الله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. ولما خالفه المسلمون في صلح الحديبية وامتنعوا أن يتحللوا وينحروا هديهم دخل على أم المؤمنين أم سلمة ﷺ وأخبرها بامتناع أصحابه، فأشارت عليه بأن يخرج وينحر ولا يكلم أحداً منهم كلمة حتى ينحر هديه ويحلق، ففعل ﷺ، فلما رأى أصحابه ذلك قاموا فامتثلوا وحلقوا ونحروا^(٢).

(١) أخرجه البخاري، ج ٧، ص ٤٩٨، والترمذي في سننه، ج ٢، ص ٩٢، حديث رقم ٧١٤. وأحمد في مسنده، ج ١، ص ٢٢، حديث رقم ١٤٠.

(٢) أخرجه البخاري، ج ٤، ص ١٥٣٢، كتاب قصة صلح الحديبية، حديث رقم ٣٩٤٤. والنسائي في سننه الكبرى، ج ٢، ص ٢٥٩، حديث رقم ٢٧٥٢. والطبراني في معجمه الكبير، ج ٢٠، ص ١٥، حديث رقم ١٢. والبيهقي في سننه الكبرى، ج ٩، ص ٢٢١، حديث رقم ١٨٥٨٧. وغيرهم..

وهذا كله إنما جاء منه ﷺ ليشرع لهم نهج الرحمة في كل أمور الشرع الإسلامي.

الرحمة كقيمة مركزية لأصناف المدعويين: (حقيقيين، مُستقبلين، مرتقبين، متشككين، مناوئين..).

تبيننا في المدخل أن المدعويين هم أحد الأركان الرئيسية في العملية الدعوية، والمدعوون أصناف عديدة ومتنوعة، يختلفون باعتبار السن والجنس والبيئة والمكان والحال والزمان والمناخ والمستوى الثقافي والعلمي والعقلي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي والأخلاقي والمهني واللغوي والعقدي والتعبدي..^(١).

وعلى الداعية الحصيف أن يدرك أن جمهور المدعويين أصناف عديدة، فثمة المنافقون والذين في قلوبهم مرض، والذين مردوا على النفاق، وثمة الأعراب، وثمة من لا يعرفون الكتاب إلا أمانى، .. وثمة من استهوته الشياطين، وثمة من استهوته شهوة نفسه وهواه، وثمة من أخذته العزة بالإثم، وثمة من كابر واندفع لإغواء الأمة، وثمة من تخصص في الكيد للشريعة الإسلامية، وثمة من ناصب القرآن العدا، وثمة من تخصص في الطعن في نبي الإسلام، والذين يمكننا أن نصنفهم ضمن الأسر الدعوية الآتية: (المدعويين الحقيقيين، والمستقبلين، والمرقبين، والمتشككين، والمناوئين).

ولكل صنف من هؤلاء المدعويين خطاب يليق به، زخرت به أفانين البيان والبلاغة القرآنية والنبوية، تنطلق جميعها من الرحمة والشفقة.. بهم، لأنهم لو علموا الحق وشاهدوه وأدركوه لما تعنتوا وأعرضوا.

وهنا وجب على الدعاة، وانطلاقاً من قاعدة الرحمة ومشتقاتها بخلق

(١) انظر: عيساوي، أحمد محمود، منهجية البحث في عملية الاتصال الدعوي، ص ١٧١ .. ١٧٣.



الله، عدم التهكم والازدراء بعقول وأحلام المدعويين، وعليهم أن يضعوا كرامتهم الإنسانية فوق كل اعتبار، والتبته والحرص لسيول مكائدهم التي لا تتقطع، لأن ذلك يُخفف من غلواء خيالاتهم وشطط آرائهم وشذوذ أفكارهم، وإن لم يُحسن الداعية احترام هذه الأصناف وتوقيرها وتكريمها، لما استطاع أن يقيم الحجة عليها، ولا أن يدحض مكائدها، ولا أن يُحيدها جانباً، ليتفرغ لعمله الدعوي تجاه المدعويين الآخرين، وينجّر بالتالي معهم في مناهات تحيل الصريح رمزاً وشبهة، والطعن غمزاً وشكاً، والمعقول منقولاً، والباطل حقاً، والحق عجاباً..^(١).

كما يجب على الداعية أن يراعي -منطلقاً من القاعدة نفسها- وهو يخاطب المدعويين الحفاظ على أسرارهم وستورهم، فمن رغب أن يُحسن الإصغاء إليه، فليتخلل المدعويين بالنصيحة السرية، التي فَعَّدها سيدنا نوح عليه السلام لما قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۗ﴾ [نوح]، فإن صنفاً من المدعويين إن نصحتهم جهاراً أخذتهم العزة بالإثم، ثاني عطفه عن الاستماع أو الامتثال، بل ليكاد يذهب بعيداً ليضل عن سبيل الله تعالى.^(٢).

ولا حرج على الداعية أن يُلقي خطابه على المدعويين جهاراً إن تصامم المدعوون عن قبولها في سر أو خلوة، لأن عرض الخطاب الجهري أصدم لنفوسهم وأشد وقعاً، ولقدرته على فضحهم وتبكييتهم وتحذيرهم من سوء العاقبة، ومن الحكمة الجمع بين الخطابين السري والجهري، كما فعل نبي الله نوح عليه السلام عندما جمع بينهما، فحكى الله على لسانه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۗ﴾ [نوح] إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۗ﴾ [نوح] ثم إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۗ﴾ [نوح].^(٣) لحكمة وجدانية ونفسية وتربوية

(١) انظر: حسين، محمد الخضر، الدعوة إلى الإصلاح، ص ٢٨.

(٢) انظر: المرجع نفسه، ص ٢٩.

(٣) لمزيد من التوسع انظر: عيساوي، أحمد محمود، منهج الدعوة عند أنبياء الله، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ٢٠١٢م، ص ٣٨ و ٣٩. فقد قدم الباحث دراسة عن أربعة أنبياء (نوح، إبراهيم، يوسف، موسى) في مقدمتهم نبي الله نوح عليه السلام وبين وسائل دعوته (السرية والجهرية =

وأخلاقية، وخشية ما قد يقع في نفسية المدعو من لبس وغموض وشك، فطفء الدعوة الجهرية جذوة الهموم النفسية، وهو من جوهر الرحمة بأنفس ومشاعر المدعويين، الذين ستضطرم قلوبهم وأعماقهم بمثل تلك التأججات النفسية، التي حرص الإسلام عليها في خطابه القرآني والنبوي.

مدعوون حقيقيون^(١):

يُعد المدعوون الحقيقيون أفضل وأحسن صنف يتعامل معه الدعاة من آدم (عليه السلام) إلى اليوم، ويعتبر هذا الصنف خميرة وسواد الأمة، ويحتاج إلى خطاب مباشر وواضح ومختصر، نظراً لتهيؤ نفسيته، وسلامة سريرته، ونقاء فطرته، واستعداده لقبول الرسالة الإسلامية من أفواه وأعمال وتوجيهات الدعاة، وقد حفل التراث الإسلامي الدعوي بأفانين الخطاب المفعم بقيم الرحمة ومشتقاتها حيال هذا الصنف وغيره.

وقد كان من مظاهر الرحمة بالمدعويين مناداتهم بأفضل معاني التكريم عندهم، والخطاب العقلي التكريمي لهم يأتي في القرآن رحمة ورأفة بهم، وانطلاقاً من هذه القاعدة الدعوية فقد امتلأ الخطاب القرآني بمثل هذه الروائع التكريمية، وقد خاطب القرآن المشركين والمنافقين والمعاندين بقوله: ﴿يَأْتُوا لِيَ الْاَلْبَبِ﴾، ﴿يَأْتُوا لِيَ الْاَبْصَرِ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَنْقُونَ﴾، ﴿اَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ﴿اَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾..

ولم يكتف رسول الله ﷺ بالامتثال للأدب القرآني، وتجسيد تعاليمه وقيمه الكبرى في: الرحمة واللين وحسن الظن والتوقير والاحترام.. فحسب، بل كان ﷺ يتوسع مع الغلاظ والجاهلين والشداد من المؤلفات لقلبهم

= والليلية والنهارية والقومية والفردية والجمعية والأسرية والإشهارية والجماهيرية والترغيبية والترهيبية والجدلية والحجاجية والعقلية والوجدانية والوعظية والإرشادية والصبيرية.. (١) المدعوون الحقيقيون هم السواد الأعظم من المسلمين والمؤمنين العاملين والمتزمين بالإسلام، أحمد عيساوي، دراسات وأبحاث في تاريخ الدعوة والدعاة، ص ٥٦.

من الأعراب وسائر هذه الفئات التي لم يشرح الله صدرها بعد للإسلام ك (العباس بن مرداس السلمي، وعيينة بن حصن الفزاري، والأقرع بن حابس التميمي)^(١) وغيرهم، بأن كان يبسط في وجهها المعروف، ويواجهها بالجميل والمحبوب والمألوف لديها، وكان ﷺ ينشر في حضرتها الإحسان، ويرتاضها بالرضخ والأعطيات من متاع الحياة الدنيا، بل حتى من أموال الزكوات، تأليفاً وتحبيباً لها في سماع الخطاب الإسلامي، وتمهيداً لخواطرها وأنفسها لقبول النصيحة، ومن ثمَّ الدخول في الإسلام، لأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، ومطبوعة على مضافة وطاعة من عطف وتكرَّم عليها، ولذا كانت الحكمة القرآنية اعتبار فئة المؤلفه قلوبهم أحد الأصناف المستحقة للزكاة.

والمدعوون الحقيقيون يحتاجون إلى داعية رحيم رؤوم، يتفهمهم بدقة وعمق، ويعرف حقائق ذواتهم، وخفايا مشاعرهم بالضبط، ويدرك مدغذغات أنفسهم، ومحركات ضمائرهم، وما إلى ذلك من مكونات النفس الأساسية^(٢)، فقد يطلب منهم فعل شيء رحمة بهم ولا يفعله، وعندما لا يجد منهم الاستجابة والقبول يسعى إلى أخذهم أخذاً رقيقاً ليحملهم على فعل ذلك الأمر أو اجتنابه، أسوة برسول الله ﷺ الذي جسَّد لنا مثل هذه التطبيقات العملية في الكثير من مواقفه التشريعية في الأمر بالإفطار في رمضان في غزوة بدر والفتح، وأمره في زواج المسلمين أزواج أديانهم إذا قضاوا منهن وطراً، وتحلله في عمرة الحديبية^(٣).

(١) أخرجه البخاري، ج ٥، ص ٢٠٠، حديث رقم ٤٣٣٠. ومسلم، ج ٣، ص ١٠٨، حديث رقم ٢٤١٠. وأحمد في مسنده، ج ٤، ص ٤٢، حديث رقم ١٦٥٨٤.

(٢) انظر: المليجي، حلمي، علم نفس الشخصية، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ص ٢٠٦.. ونشواتي، عبدالمجيد، علم النفس التربوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة، ١٣١٤هـ - ١٩٩٣م، ص ٨٩..

(٣) انظر: البخاري، كتاب الاستئذان، باب آية الحجاب، ج ١٢، ص ٢٨٥، حديث رقم ٦٢٣٨. ومسلم، كتاب النكاح، باب زواج زينب، ج ٥، ص ٢٤٣ و ٢٤٤، حديث رقم ١٤٢٨ و ١٤٢٩. وابن هشام، السيرة النبوية، ص ٣٢٢ و ٥٦٤.

ويتوزع هذا الصنف من المدعويين العالم الإسلامي، بل لعلنا نعتبر هذا المليار ونصف المليار من المسلمين اليوم هم من المدعويين الحقيقيين، الذين ينتظرون العبور إلى أنفسهم وذواتهم عبر أفانين وأساليب الخطاب الدعوي المفعم بقيم الرحمة والشفقة واللين واليسر.. في عرض تفاصيل الرسالة الإسلامية عليهم، والتي تستطيع أن تجد الإجابات المقنعة لتساؤلاتهم ومشكلاتهم.. برفق ولين وتؤدة تأسياً بقول وعمل الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز رحمه الله (ت ٩٩هـ): "واني أخشى أن آخذ الناس بالإسلام جملة، فيدفعوه جملة"^(١). والرفق بهم وعدم التشكيك بنواياهم وتقصيرهم عملاً بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية].

مدعوون مُستقبلون^(٢):

يُعد صنف المدعويين المستقبلين للرسالة الإسلامية أحد الأصناف السهلة والصعبة معاً بالنسبة للدعاة، فبحسب إحكام اختيار حامل الخطاب ومراعاة مضمونه وسائر متعلقاته وأسباب نجاحه، تكون النتيجة تبعاً له، فإن أحكمت هذه المعطيات كانت النتيجة إيجابية وفلاحاً على الدعوة والمدعويين، وإن وقع خلل مقصود أو غير متوقع أو مفاجئ أو غير مدروس ومحسوب.. كانت النتيجة عكسية على الدعوة والمدعويين معاً. ولذا فقد كان رسول الله ﷺ يتخير من بين الجمع الغفير من صحابته رضي الله عنهم من عرفوا بالحكمة والرزانة والحلم وفصاحة اللسان وقوة العارضة والبيان.. للتصدي لمثل هذه المهام الخطيرة، ولمخاطبة نوعية خاصة من المدعويين، يترتب عليهم إيمان أو صدود ومعاداة قومهم.

(١) انظر: الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى (ت ٧٩٠هـ)، الموافقات، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م، ج ٢، ص ٩٣ و ٩٤. وابن الجوزي، عبدالرحمن، صفة الصفوة، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، ج ٢، ص ٥٧. وحلية الأولياء لأبي نعيم، ج ٩، ص ٢٨١.

(٢) المدعوون المستقبلون هم السواد الأعظم من الجماهير المسلمة التي تعرف منها وتُتكر، والتي تلتزم ببعض الإسلام وتترك بعضه، وينضم إليهم كل المهتمين والمنتظرين والمتابعين للخطاب الإسلامي من عامة الأمم الأخرى، أحمد عيساوي، دراسات وأبحاث في تاريخ الدعوة والدعاة، ص ٦١.



ومن أفاضل صحابته رضي الله عنه الذين انتدبهم لمثل هذه المهام الدعوية الحساسة جداً، العلاء بن الحضرمي الذي راح يخاطب المنذر بن ساوى ملك البحرين بقوله الرزين جداً: "يا منذر: إنك عظيم العقل في الدنيا، فلا تصغرن عن الآخرة"^(١). وهذا سليط بن عمرو الذي غدا يخاطب هود بن علي ملك اليمامة بقوله الحكيم جداً: "إن قوماً سعدوا برأيك، فلا تشق به"^(٢). وهذا عمرو بن أمية الضمري الذي مضى يخاطب النجاشي بقوله الهادئ: "إن علي القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا منا، وكأننا بالثقة بك منك، لأننا لم نظن بك خيراً إلا لننا، ولم نخفك في شيء إلا أمناه"^(٣). وهذا دحية بن خليفة الكلبي الذي وقف يخاطب قيصر الروم بقوله المليء بالحلم والاتزان والعقل: "فاسمع بذل، ثم أجب بنصح، فإنك إن لم تذلل لم تفهم، وإن لم تتصح لم تتصف"^(٤).

وقد نجح أمثال هؤلاء الصحابة الدعاة رضي الله عنهم ومن جاء من بعدهم من التابعين وتابعيهم.. نظراً لما استجمعوه في ذاتهم من خلاصة تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، من حكمة ورأفة ولين ورحمة بجمهور المدعويين، ولكونهم أتقنوا خطاب الحكمة والرحمة القائم على الاحترام والتكريم والتوقير والشفقة بالمخاطب.

والملاحظ على الساحة الدعوية اليوم أن هذا الصنف من المدعويين المستقبليين يتكون من مليارات الناس، بل لعل سكان المعمورة اليوم

(١) أخرجه أحمد، ج ٤، ص ٣٣٩، حديث رقم ١٩١٩٥. والطبراني في معجمه الكبير، ج ١٨، ص ٩٣، حديث رقم ١٦٥. وفي المعجم الأوسط، ج ٤، ص ١٥، حديث رقم ٣٤٩٥. في الصغير، ج ١، ص ٢٤٦، حديث رقم ٤٠٠.

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، ج ٢٠، ص ٩، حديث رقم ١٢. وفي المستدرک على الصحيحين، ج ٢، ص ٤١، حديث رقم ٢٢٥٥.

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، ج ٢٠، ص ٩، حديث رقم ١٢. وغيره كأحمد في مسنده.

(٤) أخرجه البخاري، الأدب المفرد، ج ١، ص ٢٨٠، كتاب خلق أفعال العباد، حديث رقم ١١٠٩. والنسائي، السنن الكبرى، ج ٥، ص ٢٦٥، حديث رقم ٨٨٤٥. والطبراني في معجمه الكبير، ج ٨، ص ١٦، حديث رقم ٧٢٦٩. والبيهقي في سننه الكبرى، ج ٩، ص ١٧٩، حديث رقم ١٨٣٨٨.

يشكلون هذا الصنف الخصب للدعوة، ويتوزعون على صنفين رئيسين، أحدهما: لا يعرف عن الإسلام والمسلمين شيئاً يُذكر، إلاّ بعض ما تنقله وسائل الإعلام والاتصال والتواصل الاجتماعي والثقافي.. عما يدور في العالم الإسلامي، وهم خميرة صالحة للدعوة وللدعاية الإسلامية الحكيمة إن وُجدت، ولاسيما عبر وسائل الدعوة الإلكترونية والشبكية، وهم يشكلون فئات مختلفة من المجتمع المدني في بلدانهم، وفيهم من النخب والتميزين في بلدانهم، وهم بحاجة ماسة إلى الدعاة الحكماء والتمكنين ليخاطبهم بلغاتهم^(١).

والصنف الثاني: وهم الذين يحملون صورة مشوهة وغير صحيحة عن الإسلام والمسلمين ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، ويُكنون له ولأهله العداة والكرهية والحقد، نظراً لما تلقوه من صور وأفكار ومعارف وتجارب مشوهة عنه من وسائل الإعلام والاتصال والثقافة والسياحة والاقتصاد والمال والأعمال والتجارة، وغالبيتهم من النخب المثقفة والمفكرة والحاكمة في بلادها، والتي لها تأثير وحضور قوي وفاعل ومباشر في بلدانهم والعالم. ويحتاج هذا الصنف من المدعويين إلى نوعية متميزة وراقية جداً من الدعاة، وإلى خطاب دعوي متميز ينطلق من نقاط الاتفاق بين الثقافتين الإسلامية والغربية المسيحية والآسيوية والعالمية أيضاً، ومن القضايا المشتركة بينهما ك (كرامة الإنسان وتقديس حقوقه الكبرى في العدل والمساواة والحياة والعيش الكريم والتعليم والصحة والتثقيف...، وفي الحرية والاستقلال وتقرير المصير واحترام القوانين والمواثيق والمعاهدات الدولية، والحق في الكرامة الإنسانية ونبذ العنف والتشدد، ونشر ثقافة السلم والسلام والمحبة والتعاون، ونشر قيم التعايش السلمي والمحبة والاحترام والعطف).

(١) انظر: عيساوي، أحمد محمود، مدخل إلى علوم الإعلام والاتصال، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠١٤م، ص ٨٦. والضوابط الشرعية للتعامل مع الإعلام الجديد، بحث قدم للمشاركة في ملتقى رابطة العالم الإسلامي بمكة السادس عشر، ٢ و ٣/ ذو الحجة/ ١٤٢٦هـ.



والانطلاق أيضاً من الهم العالمي والانشغال الإنساني المشترك لمواجهة قضايا ومعضلات الإنسانية الكبرى: (تلوث البيئة بالنفائات البيولوجية والكيميائية والنووية والبكتيرية، الحروب، الفقر والمجاعات، التصحر، المخدرات، انتشار التسليح، الإرهاب، الجريمة المنظمة، الاحتباس الحراري، الإجهاض...) (١).

ومن هنا يمكن التأسيس لخطاب ديني ودعوي إسلامي عالمي ناجح وناجح وفعال للمرور إلى قلب وعقل المليارات من المدعوين المستقبليين، وذلك عبر ثقافة الإسلام التي تغطي وتجب على كل معضلات البشرية، رأفة ورحمة بهذه الفئات العريضة التائهة والشقية -منذ قرون- بمنظومات ثقافية غير نقية، مستقاة من "دوايبه فلسفة سقراط، ومن سعادة أبيقور، ومن مكر ونفاق وسياسة ماكيافيلي، ومن نضالية فولتير، ومن حرية روسو، ومن أخلاقية هوبز، وستوارت مل وبنتام، ومن عدالة ماركس..." (٢) (٣).

- (١) انظر: عيساوي، أحمد محمود، تيارات وقضايا فكرية معاصرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠١٢م، ص ٢٩٩ ..
- (٢) سقراط Socrate: ٤٧٠ - ٣٩٩ ق.م. فيلسوف يوناني له آراء فلسفية متميزة، لم يترك كتاباً، بل عُرف من خلال تلامذته.
- أبيقور Avycores: ٣٤١ - ٢٧٠ ق.م، فيلسوف يوناني وصاحب مذهب السعادة في تحقيق: وإشباع اللذة والشهوة الشخصية.
- ماكيافيلي Machiavelli: ١٤٦٩ - ١٥٢٧م: سياسي وفيلسوف وكاتب إيطالي، أشهر كتبه الأمير وتاريخ فلورنسة، عمل مستشاراً في حكومة فلورنسة.
- فولتير Voltaire: ١٦٩٤ - ١٧٧٨م أديب وكاتب فرنسي من دعاة الحرية، وأحد منظري الثورة الفرنسية ١٧٨٦ - ١٧٨٩م.
- جون جاك روسو Rousseau: ١٧١٢ - ١٧٧٨م: كاتب وأديب فرنسي من أصل إيطالي.
- توماس هوبز Hobbes: ١٥٨٨ - ١٦٧٩م: فيلسوف إنجليزي من دعاة المادية الواقعية والطبيعية.
- جون ستوارت مل John Stoyirt: ١٨٠٦ - ١٨٧٣م: فيلسوف إنجليزي اشتهر بمباحث الفلسفة السياسية، أثرت أفكاره في الفكر العالمي.
- جرمي بنتام Germy Pen tem: ١٧٤٢ - ١٨٢٢م: فيلسوف إنجليزي اهتم بالفكر السياسي والفلسفي والاجتماعي.
- كارل ماركس Marx: ١٨١٨ - ١٨٨٣م: فيلسوف واقتصادي وسياسي ألماني صاحب المذهب الشيوعي. انظر: معجم لاروس الصغير، دار لاروس، باريس، دون طبعة، ٢٠١٢م.
- (٣) انظر: ياسين، عبدالسلام، العدل الإسلاميون والحكم، دار الأفاق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ص ١٥٢.

مدعوون مُرتقبون:

يُعد صنف المدعوين المرتقبين في حقل العمل الدعوي من أنجع الفِضاءات الواجب على الدعاة استثمارها بجد ومثابرة، فهم خميرة وعموم المدعوين من جهة، وهم أيضاً مدد الفئة المؤمنة وسواها من جهة ثانية، وهم الفئة التي يمكن سحبها من فئة المدعوين المستقبليين من جهة ثالثة، فبمجرد توجيه سيول الخطابات الدعائية الإسلامية المتميزة والمؤثرة نحو فئة المدعوين المستقبليين، لا يبقى أمامنا سوى أن ننتظر وصولهم الطوعي والاختياري والهاديء إلى هذه الفئة والدرجة، ليصبحوا قريبين أو بين قاب قوسين أو أدنى من الدخول في الإسلام، ويحتاج هذا الصنف القريب من الصنف الذي قَبَلَهُ إلى خطاب أكثر تخصصية وتفصيلية ودقة ووضوح ورحمة وحلم واهتمام وصبر بهم وبمشاكلهم وبانشغالاتهم وبوضعهم الجديد في ظل الانتماء الديني الجديد، ولنا في التراث الإسلامي العريق الأمثلة والنماذج على ذلك، حيث تُشكل قيم الرفق والرحمة والتيسير أحد هذه المعابر السريعة والأمنة نحو هذه الفئة التي تنتظر بفارغ الصبر حقائق الإسلام الشافية لهمومها ومشكلاتها، فهذه السيدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول واصفة سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدعوة والتعامل القائم على اليسر واللين، بقولها: «ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه»^(١).

ومن ذلك الخطاب الدعوي الرفيق وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبه إلى الملوك والأمراء وحكام أقوامهم بعبارة (عظيم) رحمة ورأفة وشفقة وتحببياً لهم بالإسلام، فعندما أرسل كتابه إلى ملك الروم سماه بـ (عظيم

(١) متفق عليه البخاري، ج ٤، ص ٢٣٠، حديث رقم ٣٢٩٦. ومسلم، ج ٧، ص ٨٠، حديث رقم ٤٢٩٤.



الروم)، وإلى كسرى فسماه ب (عظيم الفرس)، وهكذا سائر مراسلاته وكتاباتهِ ﷺ، مليئة بالقيم الفاضلة.

ومن أمثلة رحمته ولينه ﷺ مع المدعويين المرتقبين أنه كره من الصحابة أخذهم ذلك الأعرابي الذي بال في المسجد بالشدة، ونهيه لهم بقوله: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»^(١). فرأى رسول الله ﷺ أن هذا النهي من صحابته منشأً مفسدة أعظم، وهي تنفير هذا الرجل من الدخول في الإسلام، وأن البول في المسجد تلطيخ لمحل العبادة بالنجاسة التي تطهر بالماء، فاختر أن يعلمهم ما تقتضيه قاعدة «ارتكاب أخف الضررين»^(٢).

مدعوون متشككون^(٣):

يُعد صنف المدعويين المتشككين من أعقد وأشد الأصناف على الداعية، إذ يحتاجون إلى فهم خاص ومتميز وصحيح ودقيق، ولاسيما في أساليب التعامل وأفانين الخطاب ومنازع الأخذ، حيث يحتاج هذا الصنف إلى أسلوب ذكي ودقيق ومنضبط في الحوار، يغلب عليه التوقير والاحترام والاقتصاد في الكلام، لا يحتمل التفسير ولا التأويل، رحمة ورأفة وشفقة بعنادهم وشكهم الذي يجتاح أنفسهم وعقولهم، ويصعب عمل الداعية إن كان المدعو ذا مكانة تقتضي الطاعة، كطاعة الأب والمعلم، وقد قدم لنا القرآن الكريم مثلين دعويين شاب صاحبيهما الشك، فـ ”فيما قصه

(١) أخرجه البخاري، ج ١، ص ٦٥، كتاب الطهارة، حديث رقم ٢٢٠. وأبو داود، ج ١، ص ٢٦٢، كتاب الطهارة، باب بول الصبي يصيب الثوب، حديث رقم ٢٧٦. والنسائي في السنن، ج ١، ص ١٥٨، كتاب الطهارة، باب بول الجارية، حديث رقم ١٨٩. والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الصلاة، باب ما روي في الفرق بين بول الصبي والصبية، ج ٢، ص ٤٢٩، حديث رقم ٤٠٤٢. وغيرهم كابن ماجه والدارقطني والحاكم.. انظر: أيمن، صالح، أسباب اختلاف الفقهاء في تنزيل قاعدة ارتكاب أخف الضررين على الوقائع، مؤتمر فقه الموازنات، جامعة أم القرى مكة المكرمة ٢٠٠٢-٠٤/٠٩/٢٠١٣م، ص ٢٨٥٨.

(٢) المدعوون المتشككون هم فئات من المسلمين ومن غيرهم، ممن يحصل لهم الارتياح في دين الإسلام جراء زحمة الخطابات المعادية وغير المتزنة والمتشدة، أحمد عيسوي، دراسات وأبحاث في تاريخ الدعوة والدعاة، ص ٦٧.

علينا القرآن من موعظة إبراهيم عليه السلام لأزر وتسميته أباً ما يرشدنا إلى أن الأبوة لا تمنع من الأمر بمعروف أو النهي عن منكر، ولكن الأب يستحق من أدب الخطاب ولطف الموعظة أكثر مما يستحق غيره. وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام، واتباع الأول للثاني بصفة متعلم، ثم إنكاره عليه خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، عبرة للمتعلمين والمعلمين، فللمتعلمين حق الإنكار وعلى المعلمين ألا يستكفوا^(١).

ومن رحمته ﷺ بهذا الصنف من المدعويين تعطفه ورحمته بذلك الشاب الذي استأذنه في الزنا، فأقبل القوم عليه يزجرونه، وهم يقولون له: «مه مه»، فأدناه رسول الله ﷺ منه فجلس، ثم قال له: «أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم.. قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»^(٢). وما يستفاد من فعله ﷺ أنه كان مشفقاً على حاله أيما إشفاق، متلطفاً رحيماً بمشكلته، وهي مشكلة الملايين من الشباب المسلم اليوم، ناهجاً معه أسلوباً متميزاً في الدعوة، جمع الرحمة والرفافة والشفقة واللين والإقناع الهادئ والمنطقي، أسوة بنبي الله إبراهيم عليه السلام وهو يُحاج الملك المشكك في عظمة وقدرة الله، حيث قص علينا القرآن الكريم تلك المحاورة ﴿الَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]^(٣).

- (١) انظر: حسين، محمد الخضر، الدعوة إلى الإصلاح، ص ٤٠.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ج ٥، ص ٢٥٧، حديث رقم ٢٢٢٦٥. والطبراني في معجمه الكبير، ج ٨، ص ١٨٣، حديث رقم ٧٧٥٩.
(٣) انظر: أرشيف ملتقى أهل الحديث ٢، وقفة مع زواج المتعة، ج ٢، ص ٢٨١، تاريخ الدخول للموقع



مدعوون مناوئون^(١):

يُعد صنف المدعوين المناوئين من أخطر الأصناف في حقل الدعوة الإسلامية، ومن أشد المهام التي تعترض الدعاة للوصول إليهم من جهة، وإلى جمهور المدعوين المستقبليين والحقيقيين من جهة ثانية، وعلى الإبقاء على صفاء وسلامة وحرية الساحة الدعوية من جهة ثالثة، حيث تمتلئ بمثل هذا الصنف المعادي الذي يعكر عمل الدعاة، ولنا في تراثنا الإسلامي منهجاً ثرياً في التعامل مع مثل هذا الصنف المعادي.

فلنا من روائع أدب الدعوة القرآني في تجلية معاني الاحترام والتبجيل والرحمة أن تخاطب المدعوين بأعظم آبائهم إليهم، وبأحسن أجدادهم إليهم، وبأفضل وأشرف ألقابهم إليهم، فقد امتلأ القرآن الكريم بمثل هذه الروائع الدعوية رحمة بالمدعوين، وحبلاً لهم بكرامتهم الكاملة للإذعان للحق، فقد خاطب الله ﷻ اليهود في القرآن تحبيباً وتعظيماً لهم، بقوله: ﴿يَبْنَى إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧]، فنسبهم إلى أحسن آبائهم وهو سيدنا يعقوب عليه السلام.

كما كان يحترمهم ويجلهم بخطابه المتميز برفقة بهم، كي لا يعاندوا ويستكبروا ويصروا، حيث ينعتهم بالقراءة والكتابة وامتلاك الكتب والمعارف في مجتمع أمي جاهلي، فقال في العديد من المواقع: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]، ﴿يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران: ٦٥] ﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ

٢٠١٥/٠٩/٠٤ م.

(١) المدعوون المناوئون هم الذين نصبوا أنفسهم للإيقاع بالإسلام وأهله، أحمد عيساوي، دراسات وأبحاث في تاريخ الدعوة والدعاة، ص ٧٣.

يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ [آل عمران: ٦٩] ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ
يُخَيِّضُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ [البقرة: ١٠٥].

وذلك بعد أن جعلهم مضرب مثل في القرآن المكي، وهم يُلاحقون من
فرعون وجنوده، واتخذهم أسوة حسنة وقدوة طيبة للمؤمنين المطاردين
والملاحقين من كفار قريش، وهذا من معاني الحكمة والرحمة في الدعوة
وجذب المدعويين وإقامة الحجّة عليهم.

وللأسف الشديد فإن هذا الصنف المعادي اليوم يضم الجمع الغفير
من المثقفين والفلاسفة والكتاب والإعلاميين والفنانين والرسامين
والمستشرقين، ممن ينتجون المواد الثقافية والفكرية والإعلامية والفنية
والأدبية.. المشوهة لحقيقة وجوهر الإسلام، وتاريخ وحقيقة سلوك
شخصية نبيه الكريم محمد ﷺ الخاصة والعامة، ولصورة المسلمين
التاريخية والواقعية، وعليه، فهم يحتاجون من الدعاة ومن الهيئات
والمنظمات الدعوية الإسلامية إلى توجيه رسائل متنوعة المضامين
والأشكال والقوالب والقنوات.. وإلى صياغة خطابات عديدة ومتنوعة
تتسم بالعمق والدقة والتقنية، مفعمة بالرحمة والشفقة والإقناع معاً،
ممثلين لنصيحته ﷺ وهو يوصينا بأن نستغل تلك العقبة من ضغث
الرحمة الإلهية المرسلة إلى الأرض ليتراحم بها الناس بينهم «جعل الله
الرحمة في مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً، وأنزل في
الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس
حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه»^(١).



الخاتمة

النتائج والتوصيات

تبينا من خلال التحليل أن مفهوم ومصطلح الرحمة مبحث جليل وعظيم ومهم - منطلقا ومقصدا- في العلوم الإسلامية، كما تبينا أنها قيمة كبرى ومحورية فيه أيضاً، فهي مدار تعاليمه وتوجيهاته ومُثله العلا، بها بُعث، وبها سينتشر ويعلو، كما تبينا الحقائق التالية:

١ . للرحمة معان ومترادفات كثيرة كالرأفة والشفقة واللين والرقّة، وإن كانت الرأفة أقوى وأعمق من الرحمة.

٢ . الرحمة صفة من صفات الله ﷻ الأزلية، وهي قاعدة التعامل مع سائر مخلوقاته، وهي مؤسسة على الإحسان والإنعام والتفضل، لا على الشفقة والعطف.

٣ . الرحمة من أخص وأوجه صفات رسول الله ﷺ.

٤ . الرحمة من سمات هذا الدين الحنيف.

٥ . الرحمة من أهم سمات الصحابة رضي الله عنهم، فهم ”.. بركٌ - صدره - الإسلام وعصابة الإيمان، وعسكر القرآن، وجند الرحمن، أولئك

أصحابه ﷺ، ألين الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً،
وأحسنها بياناً، وأصدقها إيماناً، وأعمها نصيحة، وأقربها إلى
الله وسيلة..^(١)

٦. أهمية قيمة الرحمة في نجاح العمل الدعوي.

٧. أهمية قيمة الرحمة، في صياغة وتوجيه وإعداد الخطاب الدعوي
ورسائله المختلفة.

٨. أهمية توظيف قيمة الرحمة في أصالة ومثانة ونجاح الدعاة
والهيئات الدعوية.

٩. أهمية تعريف جماهير المدعوين بالإسلام الذي يغلب عليه السلم
والعطف والحنان والشفقة والرحمة لأنه من لدن رب رحيم
﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤْخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ
بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف: ٥٨]، ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ
ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

ويوصي الباحث بوصية واحدة مفادها: إيلاء الدعاة خصوصاً
والمسلمين عموماً أهمية لقيمة الرحمة أثناء عرضهم الإسلام وتعريفهم
به. والله أعلى وأعلم.



فهرس المصادر والمراجع:

المصادر:

• القرآن الكريم وتفسيره:

١. ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي بن محمد، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.
٢. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
٣. السنة والحديث والسيره:
٤. ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر، إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الجيل، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
٥. ابن هشام، أبو عبدالله عبدالملك بن هشام، السيرة النبوية، دار الفجر، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م.
٦. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، دار الفكر العربي، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
٧. البيهقي في سننه الكبرى، تحقيق: أحمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة، ١٩٩٤م.
٨. الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، تحقيق: كمال الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
٩. مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.
١٠. وابن الجوزي، عبدالرحمن، صفة الصفوة، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١١. المعاجم اللغوية والموسوعات:
 ١٢. الجرجاني، علي بن محمد الحنفي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
 ١٣. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: د محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
 ١٤. الزيبيدي، محمد المرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الجيل، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
 ١٥. الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى (ت ٧٩٠هـ)، الموافقات، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
 ١٦. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، قاموس المحيط، دار العلم للجميع، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
 ١٧. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد النجار، المكتبة العلمية، بيروت، دون طبعة وتاريخ.
 ١٨. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م.
 ١٩. عبدالباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون طبعة ولا تاريخ.
 ٢٠. معجم علوم التربية، سلسلة علوم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.
 ٢١. معجم لارووس الصغير، دار لارووس، باريس، دون طبعة، ٢٠١٢م.
- المراجع:

١. الأحمر، عبدالسلام، المسؤولية أساس التربية الإسلامية، مطبعة



طوب بريس، الرباط، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٢. ابن حميد، صالح بن عبدالله، رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤ م.
٣. البيانوني، محمد أبو الفتح، القواعد الشرعية في ترشيد العمل الإسلامي، كتاب الأمة، ربيع الأول ١٤٢٢ هـ عدد ٨٢.
٤. الطيب برغوث، منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
٥. الغزالي، محمد، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، دار الهدى، عين مليلة، قسنطينة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
٦. الغزالي، محمد، خلق المسلم، دار الشهاب، الجزائر، دون طبعة وتاريخ.
٧. القرضاوي، يوسف، العبادة في الإسلام، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، دون طبعة وتاريخ.
٨. المليجي، حلمي، علم نفس الشخصية، دار النهضة العربية، للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
٩. المودودي، أبو الأعلى تذكرة دعاة الإسلام، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
١٠. بابكر، معتصم مصطفى، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، كتاب الأمة، قطر، عدد ٩٥، جمادى أولى ١٤٢٤ هـ.
١١. جمعة، أمين عبدالعزيز، الدعوة قواعد وأصول، دار الصديقية للنشر، الجزائر، دون طبعة وتاريخ.
١٢. حسين، محمد الخضر، الدعوة إلى الإصلاح، المطبعة التعاونية،

- دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.
١٣. زيدان، عبدالكريم أصول الدعوة، دار قصر الكتاب، البليدة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٩م.
١٤. ساسي، عمار، المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث، إربد، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
١٥. شلتوت، محمود، الإسلام عقيدة وشريعة، دار القلم، القاهرة، الطبعة الثانية، دون تاريخ.
١٦. طهطاوي، سيد أحمد، القيم التربوية في القصص القرآني، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
١٧. عبدالرحمن سعيد، همام، قواعد الدعوة إلى الله، دار الشهاب، باقنة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.
١٨. عبدالله الزبير عبدالرحمن، دعوة الجماهير مكونات الخطاب ووسائل التسديد، كتاب الأمة، قطر، عدد ٧٦، ربيع أول ١٤٢١هـ.
١٩. عزي، عبدالرحمن، منهجية الحتمية القيمية في الإعلام ومقياس (ع.س.ن) للإعلام والقيم، الدار المتوسطة للنشر، تونس، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م.
٢٠. علي عيسى، راشد، مهارات الاتصال، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٠٣، ١٤٢٥هـ.
٢١. عيساوي، أحمد محمود، تيارات وقضايا فكرية معاصرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.
٢٢. عيساوي، أحمد محمود، دراسات وأبحاث في تاريخ الدعوة والدعاة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.
٢٣. عيساوي، أحمد محمود، مدخل إلى علوم الإعلام والاتصال، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ ٢٠١٤م.



٢٤. عيساوي، أحمد محمود، منهجية البحث في عملية الاتصال الدعوي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

٢٥. فتحي يكن، احذروا الإيدز الحركي، دار الوفاء، المدينة، الجزائر، الطبعة الثانية، ١٩٩١م.

٢٦. فيصل، شكري، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٨م.

٢٧. قانون العقوبات الجزائري الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون طبعة، ١٩٨٩م.

٢٨. نشواتي، عبدالمجيد، علم النفس التربوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة، ١٣١٤هـ ١٩٩٣م.

٢٩. ياسين، عبدالسلام، العدل الإسلاميون والحكم، دار الآفاق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

٣٠. يكن، فتحي، قوارب النجاة في حياة الدعاة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ.

• الرسائل الجامعية:

١. عمران عزت يوسف بخيت، الرحمة الإلهية - دراسة قرآنية-، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، فلسطين، إشراف: د محسن سميح الخالدي، ٢٠٠٩م.

• الملتقيات والمؤتمرات والمقالات:

١. أيمن، صالح، أسباب اختلاف الفقهاء في تنزيل قاعدة ارتكاب أخف الضررين على الوقائع، مؤتمر فقه الموازنات، جامعة أم القرى مكة المكرمة ٠٢-٠٤/٠٩/٢٠١٣م.

٢. عيساوي، أحمد محمود، الضوابط الشرعية للتعامل مع الإعلام

- الجديد، بحث قدم للمشاركة في ملتقى رابطة العالم الإسلامي بمكة السادس عشر، ٢ و ٣/ذو الحجة/١٤٣٦هـ.
٣. قديرة سليم، معنى الرحمة والثقافة لغة واصطلاحاً وعلاقتهما، بحث قدم للجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، دون تاريخ.
٤. فؤاد علي العاجز وعطية العمري، القيم وطرق تعلمها، دراسة مقدمة إلى مؤتمر كلية التربية والفنون تحت عنوان «القيم والتربية في عالم متغير» والمنعقد في جامعة اليرموك في الفترة من ٢٧-٢٩/٧/١٩٩٩م إربد، الأردن، ص ٤. على موقعهم في شبكة النت تاريخ الدخول ١٠/٥/٢٠١٤م.

• **الويبوغرافيا:**

١. أرشيف ملتقى أهل الحديث ٢، وقفة مع زواج المتعة، ج ٣، ص ٢٨١، تاريخ الدخول للموقع ٤/٩/٢٠١٥م.
- كتب عن الشبكة المعلوماتية:
١. صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، إتحاف السائل بما في العقيدة الطحاوية من مسائل شرح العقيدة الطحاوية، تاريخ الدخول ٢٣/٩/٢٠١٥م الساعة ١٦٠٠.
٢. عبدالله بن محمد الغنيمان، شرح العقيدة الواسطية، ترقيم آلي، درس رقم ٢١. تاريخ الدخول ٢٣/٩/٢٠١٥م الساعة ١٦٠٠.
٣. وانظر: سليمان بن محمد اللهيبيد، شرح كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب. تاريخ الدخول ٢٣/٩/٢٠١٥م الساعة ١٦٠٠.



مظاهر الرحمة في الدعوة إلى الإسلام

إعداد:
د. علي البرغوثي



المقدمة

الرحمة من ألصق خواص الإسلام إن لم تكن ألصقها. فقد تنزل القرآن من لدن رحمن رحيم، جعل من هذين الإسمين العظيمين مقدمة لكل سورة-حاشا واحدة-في أعظم كتاب أمتن فيه على البشرية بالهداية. وقد «تكررت صفة الرحمة بمشتقاتها ثلاث مئة وخمس عشرة مرة» في القرآن متقدمة على كل الصفات الأخرى فيه بفارق كبير، مما يؤكد أن «الرحمة مُقدّمة بلا منازع على كل الصفات الأخرى، وأن التعامل بالرحمة هو الأصل الذي لا ينهار أبداً، ولا يتداعى أمام غيره من الأصول» (الرحمة في حياة الرسول ﷺ ص ٤٦). يعزز هذه الحقيقة ما رواه البخاري (٧٥٥٣) من أن رسول الله ﷺ قال: «لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده: غَلَبَتْ أو قال سبقت رحمتي غضبي، فهو عنده فوق العرش». وهذه الكتابة عند الفراغ من خلق الخلق فيها تأكيد وإعلام بأن رحمة رب العالمين تحيط بهذا الخلق الجديد، وترعاه وتحثه إلى السير إلى رحمة الله الكاملة في الحياة الآخرة.

والله أنزل القرآن مُفضلاً وهداياً لرحمة الله. قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١﴾
عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ [الرحمن: ١-٢]، فجعل إنزال القرآن وتعليمه أكبر نعمة دالة على رحمته وأول نعمة يمتن بها على عباده. ونفى كل أسباب الشقاء

بإنزاله القرآن فقال تعالى: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۖ ﴾ [طه: ٢]، فبين أن القرآن سبب لكل سعادة وخير بما احتوى عليه من الهدى والبيانات والحجج الواضحة، يهدي الله الآخذ به إلى نعيم الدنيا والآخرة، وأن كل الشقاء هو في الإعراض عنه (تفسير الطبري والآلوسي وابن عاشور والسعدي). وقد أراد الله من خلقه أن يتصفوا بصفة الرحمة، ويتخلقوا بها فأخبر رسوله ﷺ أن الرحمة بالخلق هي سبيل تحصيل رحمة الله تعالى، فقال ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء) رواه الترمذي وصححه الألباني (صحيح الترمذي ١٩٢٤). وقال ﷺ: (من لا يرحم لا يرحم) متفق عليه (البخاري ٥٩٩٧ ومسلم ٢٣١٨). علق ابن بطال على هذا الحديث، فقال: «في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم كافرهم ومؤمنهم ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب، ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة» (شرح صحيح البخاري لابن بطال ج ٩ ص ٢١٩).

ولما كان المرسل هو الرحمن الرحيم، والرسالة قائمة على الرحمة أساساً وغاية، وكان المرسل ﷺ حاملاً ومبلغاً لهذه الرحمة، كانت الرحمة من أخص صفاته وأعلاها وأشهرها. قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وبين حرصه على المؤمنين بقوله: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وقال عن نفسه ﷺ: (إنما أنا رحمة مهداة) صحيح الجامع (٢٣٤٥).

ودعوة الخلق إلى دين الرحمة هي وظيفة الرسل الأولى والكبرى، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [التحل: ٣٦] وقال عن نبيه ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [٤٥] وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، وقد جعل



من سبيل الدعوة سبيل أصفياؤه من خلقه، فقال: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].
(انظر تفسير ابن كثير والقاسمي للآية ١٠٨ من سورة يوسف). والرحمة- كما سنزيده بياناً عما قريب- هي أصل الدعوة إلى الله والغاية منها، وهي قرينة الدعوة إلى الله في تفاصيلها ووسائلها. قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فأمر بالجدال -عند الحاجة إليه- على أحسن وجه ينتفع به سامعه، مع استصحاب الرفق واللين، حتى يقع الكلام موقعه من قلب السامع، ولا يعرض عنه (تفسير ابن كثير والقاسمي). وكان من رحمة الله أن ألان قلب رسول الله وطبعه لمن حوله ، ليقبلوا منه دعوته، قال تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ولو لم تكن هذه الرحمة قرينة للدعوة، لأنصرف الناس عنها مع ظهور حجتها وقوة تأثيرها وفصاحة مبلِّغها.

والحاجة لتبيان أن الدعوة خاصة والإسلام عامة قائمان على الرحمة وإذاعة هذا الرباط الوثيق ماسة في هذا العصر لأسباب عدة. فمنها ما يدعيه خصوم الإسلام أنه دين عنف وقتل وإرهاب. وهذا الهجوم لم يولد في هذا العصر، بل هو قديم يعود إلى العصور الوسطى، يوم نصبت أوروبا النصرانية العدا ل لإسلام لم تعرف منه إلا ما تخيلته ولفقته من أساطير. وهذه الدعاوى الحديثة ما هي إلا امتداد لأساطير الماضي، ولكن بوساطة آلة إعلامية عالمية تستغل تهور وجهل بعض المسلمين، لتصبغ الإسلام كله بهذه الصفة. وهذا الجهل والتهور الذي نراه من هؤلاء الغلاة من المسلمين ينقصه فهم تام ومؤصل للإسلام والرحمة التي يقوم عليها، فنراهم يجنحون للقسوة والشدة، ويرجحون جانبها ظناً منهم أن هذا هو الإسلام الصحيح. ثم نراهم يُروِّجون ويدعون إلى هذا الإسلام

الغالي في التكفير والقتل والقسوة وسوء الظن بالمخالف بأبشع الطرق والصور، فيصدون عن الإسلام من حيث ظنوا أنهم ينصرونه. فكان لزاما على المسلمين عامة والدعاة وأهل العلم خاصة النهوض لدحض هذا الانحراف وبيان أن دين الإسلام قائم على الرحمة بالخلق، وأن الدعوة ما هي إلا امتداد طبيعي لهذه الرحمة وانعكاس لها. فمن قام يدعو فلا بد له من أن يدعو إلى دين الرحمة بالرحمة، ومن عدا عن ذلك فقد ضل عن سواء السبيل وسعى في سبيل الشيطان.

ورغبة في المساهمة في القيام بجزء صغير من هذا الواجب يهدف هذا البحث إلى دراسة علاقة الرحمة بالدعوة ومدى ارتباطها بها وآثار الرحمة على أهداف الدعوة وأساليبها وطرائقها. ولتحقيق هذه الأهداف يبدأ البحث بتبيان الغاية من الخلق وتأكيد أن هذه الغاية هي ذاتها الغاية من الدعوة، ثم ينطلق البحث في دراسة تجليات الرحمة في طريقة عرض الإسلام وأخلاق الداعية ومراعاة حال المدعو.

أهداف الدراسة:

1. التعرف على العلاقة بين الرحمة والدعوة .
2. دراسة الآثار العامة للرحمة على الدعوة.
3. التعرف على الآثار المترتبة للرحمة على طرائق عرض الإسلام.
4. الكشف عن كيفية عرض القرآن والسنة الإسلام محققاً هذه الرحمة
5. التعرف على الآثار المترتبة للرحمة على أخلاق الداعية وطريقة معاملة المدعو.

منهج البحث:

يقوم البحث على المنهج الاستنباطي والتحليلي. يركز الباحث في

استنتاجاته على تحليل الآيات القرآنية والسنة النبوية بما تحويه من أمثلة وتوجيهات متعلقة بالرحمة والدعوة وعلى استنباطات من الواقع الدعوي في غير بلاد المسلمين والعوامل التي تعين على نجاح الدعوة أو فشلها. ومما ينبغي التنبيه إليه أنني إن لم أذكر الجزء والصفحة عند الإحالة لتفسير ما، فالإحالة لكلام المفسر عند الآية المشار إليها، وإن كان في غير ذلك الموضوع أشرت إليه برقم الصفحة والجزء. وأسأل الله أن يبارك في هذا الجهد المتواضع، وأن يغفر لي فيه تقصيري وخطئي.



الفصل الأول

الغاية من الدعوة هي الرحمة بالخلق

قد يذهل كثير من العاملين في الدعوة عن الغاية منها، وهذا نقص يؤدي إلى اختلال في مسيرتها ونتائجها، بل قد يأتي بغير مقصودها وعكسه. وهذا أمر مشاهد عند بعض من يدعو إلى الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فتراه يضيق ذرعاً بمن يخالفه، وقد يقسو عليه غير مبال بنتائج قسوته، ظاناً أن الهدف من دعوته هو إيصال معلومة إلى المخالف، تقوم بها عليه الحجة فور سماعها. فصار الهدف إلزام وتقرير، ثم توبيخ المدعو، وليس إنقاذه من النار وعذابي الدنيا والآخرة، وانتقلت بهذا غاية الدعوة من رحمة المخالف إلى إقامة الحجة عليه لتقريبه من سخط الله وعذابه. وقد أدى هذا الخلل في غاية الدعوة إلى اختلال في طرق الدعوة وأدواتها، كترك التنوع في أساليب الدعوة والتكرار فيها، وكالاقتصار على أقل الواجب منها أو الإخلال به مع الغفلة عن إحسان الدعوة ومراعاة حال ونفسية المدعو.

وبما أن غاية كل عمل ومقصده تضبط أطره وتقيّم وتعُدُّ وسائله، حتى لا تطفئ الوسيلة على الغاية أو تعاكسها، كان لا بد من استحضار الغاية من الدعوة على الدوام وعدم الذهول عنها. وهذه الغاية هي رحمة الخلق. وقد بين ربنا تعالى في كتابه الكريم هذه الغاية بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَيَّ



عَبْدِهِ ء آيَتٍ بَيِّنَةٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ [الحديد: ٩] ، فأوضح سبحانه أن إنزاله لآيات الكتاب هي لإنقاذ العباد من ظلمات الشرك والنفاق والشك والحيرة، ومن الضيق الذي لا يفارق أمر هذه الدنيا، إلى نور وطمأنينة الهدى والتوحيد والسنة، وإلى سعة الآخرة ورحابتها. وهذا كله رحمة ورأفة من الله بعباده، حيث أراد أن يخلصهم من كيد الشيطان، وأن يجبر ضعف نفوسهم ويطهر خبثها، ولولا ذلك ما زكى منهم من أحد. وقال تعالى كذلك: فعلى أحد القولين في تفسير الغاية من الخلق: أن الله خلقهم للرحمة والجماعة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] (انظر: تفسير الطبري وابن كثير). قال السعدي مبينا التصاق الشريعة بالرحمة وقيامها عليها: «إن الشريعة كلها مبنية على الرحمة في أصولها وفروعها، وفي الأمر بأداء الحقوق، سواء كانت لله أو للخلق، فإن الله لم يكلف نفساً إلا وسعها، وإذا تدبرت ما شرعه الله عز وجل في المعاملات والحقوق الزوجية وفي حقوق الوالدين والأقربين والجيران وسائر ما شرع وجدت ذلك كله مبنياً على الرحمة،» ثم قال: «لقد وسعت هذه الشريعة برحمتها وعدلها العدو والصديق، ولقد لجأ إلى حصنها الحصين الموقفون من الخلق» (موسوعة نضرة النعيم ج ٦ ص ٢١٠).

واستحضار هذه الغاية ونية إنقاذ الخلق من النار يصبغ الدعوة من بداياتها لنهاياتها بالرحمة والحرص على هداية الخلق. وهذا كمثل الأب الشفوق على ولده، الذي لا يألو في نصحه وتوجيهه، ويثابر على تذكيره بلا انقطاع أو يأس حتى يصلح حاله. بخلاف رجل غريب لا يكلف نفسه نصح هذا الولد إلا مرة واحدة يرى بها أنه أدى حقه عليه، ثم يتركه بعدها في شقائه وبؤسه. فمن جعل الرحمة غاية دعوته، وتأسى بأنبياء

اللّهُ في دعوتهم، كان كهذا الأب الشفوق في حرصه على هداية الخلق
إلى الحق وتخليصهم من النار. وهذه الغاية لا بد لها وأن تتجلى في طرق
الدعوة وأساليبها .



الفصل الثاني مظاهر الرحمة في الدعوة إلى الله

١. تكرار الدعوة وعدم اليأس من المخالف

قضى نوح في دعوة قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، أعاد وكرر فيها دعوتهم قدر ما استطاع حرصاً على هدايتهم بلا انقطاع أو فتور. قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ [نوح: ٥-٦]، فتابع دعوتهم رغم سوء ردهم ليلاً ونهاراً، ثم دعاهم جهره وعلانية وسراً كما ذكرت السورة، لا يثنيه عن ذلك كله إعراضهم وصدُّهم ووعيدهم مع طول المدة وقلة المستجيب والمعين. وهو في هذا كله ممتثل لأمر الله بالصبر والدأب في الدعوة، علَّهم يهتدون وتتجلي عنهم الشبهات، أو تصادف واحدة من هذه المحاولات على اختلافها منهم عقلاً صافياً ونفساً هادئة تستجيب للحق، أو تثمر كثرة سماعهم للحق تهدُّم أساسات باطلهم ودحض حججه، فلا يبقى بعد طول التدبر والتفكير واستماع حجج الحق لهم شبهة. ومن اعتاد مناً شيئاً وألَّفه صُعب عليه مفارقتها من أول وهلة، واحتاج إلى مدة يخرج فيها من ارتباطه العقلي والعاطفي بالباطل إلى ارتباط عقلي وعاطفي آخر مع الحق، هذا كله مع وجود ارتباطات أخرى اجتماعية واقتصادية، يصعب الانفكاك عنها مباشرة. فالمدعو يحتاج وقتاً للخروج عنها إلى غيرها، وإلى بناء إيماني يُمكنه من التضحية بها في سبيل الله.

وأمر الله لنبيه بالصبر على مشاق الدعوة مستفيض في القرآن. فقد أمره ربه أن لا يكون كصاحب الحوت (عليه السلام)، الذي ترك قومه ضجراً من تكذيبهم، (ويأساً من هدايتهم) (القلم ٤٨). وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فهذا أمر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالاستمرار بالدعوة والصبر عليها مقتدياً بصبر أولي العزم من الرسل، وأن لا يستعجل لهم بالعذاب ولا يدعو به، بل يظل قائماً بأمر الله فيهم وإن كذبوه وأذوه حتى يحكم الله فيهم (تفسير ابن كثير والسعدي). ولما دعا رسول الله على رؤوس قریش بعد أذيتهم للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والمسلمين يوم أحد نهاه الله عن هذا. قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. يقول السعدي (رحمته الله) في تفسيره لهذه الآية: «أنزل الله تعالى على رسوله نهياً له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرده عن رحمة الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» [آل عمران: ١٢٨] إنما عليك البلاغ، وإرشاد الخلق، والحرص على مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالى، هو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تدع عليهم، بل أمرهم راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام فعل، وإن اقتضت حكمته إبقاؤهم على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، وضروها وتسببوا بذلك، فعل، وقد تاب الله على هؤلاء المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام. « فمع قتلهم للمسلمين والتحريض عليهم ونيلهم من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يقطع الله الأمل من هدايتهم، فغيرهم من باب أولى أن لا ييأس الداعي منهم أو ينقطع عن دعوتهم لأول أو ثاني أو ثالث إعراض أو تكذيب أو أذى. ولهذا لما سأل بعض الصحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يدعو على المشركين قال: (إني لم أبعث لعاناً وإنما بُعثتُ رحمة) رواه مسلم (٢٥٩٩).

وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حريصاً على تكرار الدعوة وتحين فرصها لإقناع من لم يدخل في الإسلام بعد. فقد روى البخاري (٤٥٦٦) (٦٢٠٧) أن



رسول الله ﷺ لما مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين واليهود في المدينة اهتبلها فرصة، فنزل عن حماره، ودعاهم إلى الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، ولم يقنع ﷺ بترك غشيان مجالسهم، كما أراد منه عبد الله بن أبي ابن سلول. ومثله ما رواه البخاري (٧٣٤٨) أن رسول الله ﷺ خرج على الصحابة في المسجد فقال: (انطلقوا إلى يهود) فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس فقام النبي ﷺ فناداهم فقال: (يا معشر يهود أسلموا تسلموا) فقالوا: بلغت يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله ﷺ: (ذلك أريد أسلموا تسلموا) فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم فقال: لهم رسول الله ﷺ: (ذلك أريد) ثم قالها الثالثة. ومن هذا ما رواه أبو يعلى والطبراني وصحح إسناده ابن حجر أن قريشاً جاءت إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا قد أذانا في نادينا ومسجدنا فانهه عنا، فلم يلتفت رسول الله ﷺ لمطالبهم (منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة ص ١٠٠). ولما أمره الله بإنذار عشيرته الأقربين (الشعراء ٢١٤) صعد الصفا وهتف بقريش داعياً لهم فعمَّ وخصَّ، ثم جمع أهل بيته على طعام أعده لهم فكرر الدعوة (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ١٨٢). واستمر رسول الله في دعوة قومه وإقامة حجج الحق وتبيين سفه الباطل، لا يثنيه عن هذا صدود أو إعراض أو إغراء أو تهديد، فالهداية بيد الله، ومن يردُّ الإيمان اليوم لعله يؤمن غداً. ونوح ﷺ ما ترك دعوة قومه حتى أخبره الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن (هود ٣٦). فمتى لم يخبرنا ربنا بهذا، ظللنا ندعو ونرجو لمن ندعوه رحمةً من الله تهدي قلبه.

٢. تنوع طرائق الدعوة:

يرتبط تنوع طرائق الدعوة مع تكرير الدعوة، فهما صنوان. فالتنوع يقوم على ساق التكرار، والتكرير مع أهميته ثقيل على النفس بغير تنوع.

وقد مر علينا طرف من هذا التنوع وأمثلة له في مبحث تكرار الدعوة وعدم اليأس من المخالف. فنوح (عليه السلام) دعا قومه ليلاً ونهاراً، وفي هذا إشارة-والله أعلم- إلى تأثير الوقت على استجابة المتلقي للدعوة. وقد بين الله تعالى أن قراءة القرآن ليلاً تأتي بأثر أعمق من قراءته نهاراً فقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزمل: ٦]. وقد يختلف هذا التأثير باعتبار طبيعة الإنسان كذلك وعمله، فيكون من الناس من هو أكثر استيعاباً للحق وتقبلاً له ليلاً لقلّة الشواغل ولصفاء ذهنه، ومنهم من قد يناسبه النهار أكثر لنشاطه فيه، بينما ليله هو وقت راحته الذي تضعف فيه طاقته الذهنية. وقد يناسب البعض أكثر الجمع في الدعوة بين هذين الوقتين ليسمع الحق في حالتين نفسيّتين وبدنيتين مختلفتين، فيخاطب التذكير الأول جزءاً من عقله وقلبه ويصل التذكير الثاني إلى أجزاء أخرى لا يصلها الأول.

ومن التنوع كذلك الجمع في الدعوة بين العلانية والسر كما فعل نوح (عليه السلام)، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَاراً﴾ [المزمل: ٨] ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴿٩﴾ [المزمل: ٨-٩]. فالدعوة سرّاً-أي بين الداعي والمدعو فقط- تناسب من يحتاج مزيداً من الاهتمام والتقدير، ومن كانت طبيعته انطوائية، أو يحتاج وقتاً للتدبر والمراجعة والسؤال، وتناسب رؤوس الناس وعليتهم ممن يأنف من الدعوة الجهرية، وهم الذين يردّونها علناً كما فعل أبو لهب وأبو جهل وغيرهم (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ١٩٠-١٩٤). أما الدعوة الجهرية فلها مزاياها. فمن ذلك أن من الناس من ينجذب إلى الضجة التي تحيط بالدعوة الجهرية ويتأثر بها أكثر من تأثره بمحادثة فردية، وذلك لأن الجهر يعطي للأمر المعروض صبغة الشأن العام المهم الذي ينبغي أن يقبل عليه الكل. كما أن الأمر المعروض جهراً: إما أن يلقي معارضة جهرية أو لا. فإن لقي



معارضة جهرية، انتشر ذكره بين الناس. وإن لم يلق مثل هذه المعارضة، تجرأ الناس على الإقبال عليه لضعف المخالف. والجمع بين الإسرار والجهر جمع بين الحسنين وتبليغ للرسالة على أحسن وجه وأتمه.

ومن التنوع في تبليغ الدعوة التنوع في مكان الدعوة، وهو قريب من التنوع بين الجهر والإسرار. فهناك دعوة في بيت المدعو أو الداعي، والدعوة في المحفل العام، والدعوة في المسجد عند زيارة غير المسلمين له. ومثله الدعوة عن طريق المادة المكتوبة والسمعية والمرئية، حتى تناسب كل أذواق الناس وقدراتهم، والمادة الدعوية القصيرة التي تناسب من يعاني من ضعف التركيز والطويلة لمن يحب التعمق في المسائل. وسيأتي مزيد بيانٍ لألوانٍ من التنوع في مبحث التدرج الدعوي.

٣. تنوع الحجج العقلية والعاطفية والكونية والفطرية:

من حق هذا المبحث أن يلحق بسابقه، لأنه من التنوع الذي نتكلم عنه، إلا أنني رأيت إفراده لأهميته والحاجة إليه. اختلاف الناس وطبائعهم أمر مشاهد معلوم، فكما اختلف خلق الناس اختلفت كذلك أخلاقهم وطبائعهم. فمن الناس من يغلب عليه الجانب العقلي وآخر العاطفي، ومنهم من يميل للمادية والآخر للروحانية، ومنهم الاجتماعي الذي يخالط الناس وقد ضرب في الأرض ورأى حضارات وأجناساً شتى، ومنهم من يحب العزلة ويكره السفر وملاقة الناس. وقد تتفاوت هذه الطبائع ونسبها في الشخص الواحد في مراحل عمرية مختلفة أو بحسب ما يمر به من أحداث في حياته وما يتبوأ من مناصب ويحمل من أعباء.

وقد أشار النبي ﷺ إلى أن هذا التنوع راجع بعضه إلى أصل الخلقة فقال: (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك،

والسَّهْل والحَزْن والخبيث والطيب وبين ذلك) رواه أبو داود (٤٦٩٣) والترمذي (٢٩٥٥) وصححه الألباني (صحيح الترمذي ٢٩٥٥) وصحيح الجامع (١٧٥٩). ومع ما جُبل عليه الناس، هناك ما اكتسبوه بالممارسة والاختلاط، أشار إلى هذا رسول الله ﷺ بقوله: (الفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدادين أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم) متفق عليه (البخاري ٣٤٩٩ ومسلم ٥٢). قال ابن بطال في شرحه على البخاري: «أي من شأن ملازمة هذه المهن توليد ما ذكر من هذه الصفات» (الجزء ٦ ص ٤٥٨). ومثل هذا الحديث قوله ﷺ (من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتتن) رواه أبو داود (٢٨٥٩) والترمذي (٢٢٥٦) وصححه الألباني (صحيح الجامع ٦٢٩٦).

ولأن الله هو الرحيم الخبير بمن خلق، وبما يصلح لكل منهم، فقد نَوَّع في الحجج التي تدعوهم للإيمان، لتشمل كل طبع وخلق. فأتى الله في القرآن بأفضل وأوضح الحجج التي تخاطب عقل الإنسان وقلبه، يجد فيها كل امرئ ما يناسبه، ويحتاج إليه، لتبديد شبهاته، وضبط شهواته. يخاطب الله في القرآن عقل الإنسان مقررًا الحقائق الكونية، التي لا مناص من الإيمان بها، ويستدل بها على الحقائق الإيمانية الكبرى، فيقف العقل مسلمًا، طواعية لا قهراً. فعندما يسأل الله في كتابه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَلْفُونَ﴾ (٣٥) أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ﴾ (٣٧) [الطور: ٣٥-٣٧] فهو يقرر الناس بما استقر في عقولهم وفطرتهم، ولا يستطيعون رده. فالناس لم يخلقوا أنفسهم، وقد علموا ضرورة أن كل شيء لا بد له من موجد وصانع، فلم يبق إلا أن الله هو خالقهم وربهم وإلاهم. ثم انتقل إلى تقرير حقيقة كونية أخرى أعظم منها، وهي أنهم لم يخلقوا السموات والأرض ولا يد لهم في إدارة أمورهما، فلم يبق إلا رب العالمين. ثم قرر الحقيقة



الكبرى، وهي عجز البشر البين، فالذي يعطي ويمنع ويرفع ويخفض هو الله لا هم. وهذه الحقائق تدفع العقل دفعا-بغير تعقيدات الفلاسفة وشكوكهم- إلى الإذعان لعظمة خالقه والتسليم لأمره (انظر تفسير المحرر الوجيز والسعدي).

ويخاطب الله قلب الإنسان، وما يجد في نفسه من حاجة لله لا يقضيها إلا هو سبحانه. يقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُحْيِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤]. فمهما كابر الإنسان الحقائق وادعى غناه عن خالقه، فإنه لا بد وأن تمر به مواقف وحالات يخونه فيها كيد وقوته، ويعجز عن نصرته صديقه وحميمه، فيفزع قلبه إلى ربه ومولاه. ثم يذكره تعالى بأن فرج كل كرب نزل به أتاه من الله، وكل فرج يرجوه في مستقبله فهو بيد الله، فيتعلق قلبه حينها بربه ويتوكل عليه، ويزداد امتناناً وحباً لخالقه أن نجاه من البأس والضر. وهذا الربط العاطفي الذي يجمع بين الخالق وأشد حالات ضعف الإنسان وخوفه من غده يوقظ القلب من غفلته وينبهه إلى ربه الذي لا يسد حاجة قلب الإنسان إلا هو.

والله ينقل الإنسان في تأملاته من العظيم إلى الصغير ومن الصغير إلى العظيم، فيأمره بالتفكر بما حوله من سعة هذا الكون وعظمته، وبالنظر في التاريخ الذي هو قصة الإنسانية ونجاحاتها وإخفاقاتها، ثم يعرض عليه التفكير في خلقه وأجزاء بدنه ومحيطه الخاص وأحداث حياته، مقدماً لكل فرد ما يناسبه من الحجج مما يوافق ذكائه واطلاعه وسعة أو ضيق محيطه المعرفي.

وأنت واجد في السنة هذا الحرص على مخاطبة البشر بما يصلح لكل منهم. فقد أوصى رسول الله ﷺ معاذاً ﷺ لما بعثه إلى اليمن-منبها

له إلى اختلاف حال المدعويين هناك-قائلاً: (إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس) رواه البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩). ولما جاءه شاب يستأذنه بالزنا خاطب رسول الله ﷺ عقله وقلبه: (أتحبه لأمك؟ أتحبه لابنتك؟ أتحبه لأختك؟ أتحبه لعمتك؟ أتحبه لخالتك؟) رواه أحمد وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٧١٢)، فردّه عن نيته. وكان رسول الله يتلطف في مخاطبة ومعاملة الأعراب، ويعفو عن زلاتهم، مراعاة لجهلهم وجفائهم.

فمما ينبغي أن يتنبه له الداعية الرحيم الحريص هو الأخلاق الجبلية لمن يدعوهم، وما اكتسبوه من أخلاق بحسب بلادهم وأعمارهم وتجاربهم وما امتهنوه من أعمال. وإن كان الداعية سيدعو قومًا خارج بلده الذي يعرفه فلا مفر له من أن يتعرّف على مجتمعهم وعاداتهم وتاريخهم، حتى تنجح دعوته، وليستعن بالمسلمين من أهل ذلك البلد إن وجدوا فهم أدرى ببلادهم. وليوطن الداعية نفسه إلى أنه سيلاقي السهل اللين الذي ينقاد للحق سريعاً، والحزن صعب الطباع الذي يحتاج إلى صبر ومعاونة، والطيب الذي يتوافق طبعه مع الإسلام، والخبيث الذي يحتاج إلى معالجة خبثه ليُقبل على الإسلام وقد يجد صعوبة في الثبات عليه بعد الدخول فيه. وسيقابل العقلاني والعاطفي، والذكي وبطيء الفهم، وصاحب التجارب والغرّ. فعلى الداعي للحق أن يستخدم من أساليب الدعوة ما هو أصلح لمن يقابله، وأن ينوع من هذه الأساليب لتشمل كل جوانب شخصية المدعو من عقل وعاطفة، وليتأسس في هذا بالقرآن ويعتمد على حججه.

٤. التدرج في الدعوة من المهم إلى الأهم:

مما تتجلى فيه الرحمة في الدعوة التدرج فيها والسير مع المدعو برفق حتى يصل إلى حقيقة الإيمان. ولو حُمِّل الناس كل حقائق الإسلام والإيمان دفعة واحدة لما احتملوها، ولأوشكوا أن يردوها كلها دفعة واحدة، فكان لا بد من التدرج في الدعوة. ولما أنزل الله القرآن أحرَّ تحريم الخمر والزنا حتى رسخ الإيمان في قلوب الناس. قالت أمنا عائشة رضي الله عنها عن نزول القرآن: (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل لا تزنا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً) رواه البخاري (٤٩٩٣). وهذا الذي أخبرت به الطاهرة المطهرة يستحق التأمل وينبغي أن تتم ترجمته إلى برنامج دعوي يُبصِّر الداعية بأي أصول الإسلام يبدأ، وأي آيات القرآن يُقدِّم في دعوته، ونلاحظ هنا أصل ترسيخ الإيمان وحب الله والخوف منه في الدعوة لبناء المسلم التقي.

وطبيعة هذا الدين والنفس البشرية تقتضي هذا التدرج. قال رسول الله ﷺ: (إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق) رواه أحمد وحسنه الألباني (صحيح الجامع ٢٢٤٦). نقل المناوي في شرحه لهذا الحديث عن الغزالي قوله: «أراد بهذا الحديث أن لا يكلف نفسه في أعماله الدينية ما يخالف العادة، بل يكون بتلطف وتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبدل فإن الطبع نفور، ولا يمكن نقله عن أخلاقه الرديئة إلا شيئاً فشيئاً حتى تنفصم تلك الصفات المذمومة الراسخة فيه، ومن لم يراع التدرج وتوغل دفعة واحدة ترقى إلى حالة تشق عليه فتعكس أمره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً

لا ينفر عنه وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق، وله نظير في العادات، فإن الصبي يحمل على التعليم ابتداءً قهراً فيشقى عليه الصبر عن اللعب والصبر مع العلم حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشقى عليه الصبر عن العلم» (فيض القدير ج ٢ ص ٥٤٤).

ويؤكد هذا ما أخرجه البخاري (٣٩) أن رسول الله ﷺ قال: (إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة). فالرفق والتأني هما أساس الالتزام بالإسلام والدعوة إليه. يقول ابن تيمية في اختلاف أحوال الناس واختلاف حاجاتهم في الدعوة والتعليم: «أول الواجبات الشرعية يختلف باختلاف أحوال الناس، فقد يجب على هذا ابتداءً ما لا يجب على هذا ابتداءً، فيخاطب الكافر عند بلوغه بالشهادتين، وذلك أول الواجبات الشرعية التي يؤمر بها. وأما المسلم فيخاطب بالطهارة إذا لم يكن متطهراً، وبالصلاة وغير ذلك من الواجبات الشرعية التي لم يفعلها. وفي الجملة فينبغي أن يعلم أن ترتيب الواجبات في الشرع واحداً بعد واحد، ليس هو أمراً يستوي فيه جميع الناس، بل هم متنوعون في ذلك، فكما أنه قد يجب على هذا ما لا يجب على هذا، فكذلك قد يؤمر هذا ابتداءً بما لا يؤمر به هذا. فكما أن الزكاة يؤمر بها بعض الناس دون بعض، وكلهم يؤمر بالصلاة، فهم مختلفون فيما يؤمرون به ابتداءً من واجبات الصلاة، فمن كان يحسن الوضوء وقراءة الفاتحة، ونحو ذلك من واجباتها، أمر بفعل ذلك، ومن لم يحسن ذلك أمر بتعلمه ابتداءً، ولا يكون أول ما يؤمر به هذا من أمور الصلاة، هو أول ما يؤمر به هذا.» (درء تعارض العقل والنقل ج ٨ ص ١٦-١٧).

وبداية الدعوة لا بد أن تكون بالأهم قبل غيره، لأنه الأصل الذي ينبنى عليه غيره، وهو يمهد لغيره ويعين عليه، ولولاه لما كان للمهم أن يكون أو



يستمر. والتدرج من سنة رسول الله ﷺ الذي قال ناصحاً معاذاً رضي الله عنه: (إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة، من أموالهم وترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس) رواه البخاري (١٤٥٨) ومسلم (٣١). وقد فسرت الرواية الأخرى عند البخاري (٤٣٤٧) ومسلم (٢٩) المراد بعبادة الله بالشهادتين: (إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله). فالتوحيد هو أصل الإسلام وهو أول الدعوة إلى الله، وهو أهم ما ينبغي ترسيخه في عقل وقلب المدعو.

والداعية سيلاقي في طريق دعوته العديد من الناس، الذين يحملون أفكاراً مغلوبة عن الإسلام في معاملته للمرأة وموقفه من العنف وغيرها من الشبهات. ومع أهمية الجواب عن هذه التساؤلات إلا أن الداعية لا ينبغي له أن يغفل عن أصل دعوة الإسلام ليخوض في تفاصيل لا نهاية لها، بل يسعى دائماً إلى العودة بحواره إلى أصول الإيمان من توحيد الله والإيمان بالرسول والبعث. ومتى ما آمن المدعو بهذه الأصول وهدى الله بها قلبه، تفتحت له من المعارف، وآتاه الله من الطمأنينة ما يدفع عنه الشبهات. فطريق رد الشبهات الأسلم والأقصر هو البداية بأهم المسائل وأصولها قبل الاشتغال بالفروع، ومتى ما سلمت الأصول سلمت الفروع.

ومما نلاحظ فيه الأمر بالتدرج مراعاة لحال الناس قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ الْبَالِغَ إِحْسَنِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [التحل: ١٢٥]. فالحكمة متضمنة للدعوة بالرفق واللين، فإن لم يستجب المدعو انتقل الداعية إلى الترغيب

والترهيب وهو ذكر ثواب الطاعة وما فعل الله بمن أطاعه، وذكر عقاب المعصية وما فعل الله بمن عصاه، ثم يأتي الجدل لمن كانت له شبهة ينافح عنها (انظر المحرر الوجيز وتفسير السعدي). ويؤكد ابن تيمية هذا التدرج في هذه الآية وصلاحيته لأقسام الناس المختلفة، فيقول: «الإنسان له ثلاثة أحوال. إما أن يعرف الحق ويعمل به، وأما أن يعرفه ولا يعمل به، وأما أن يجحده. فأفضلها أن يعرف الحق ويعمل به. والثاني أن يعرفه لكن نفسه تخالفه فلا توافقه على العمل به. والثالث من لا يعرفه بل يعارضه. فصاحب الحال الأول هو الذي يدعى بالحكمة، فإن الحكمة هي العلم بالحق والعمل به. فالنوع الأكمل من الناس من يعرف الحق ويعمل به، فيدعون بالحكمة. والثاني من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه، فهذا يوعظ الموعدة الحسنة. فهاتان هما الطريقتان الحكمة والموعظة. وعمامة الناس يحتاجون إلى هذا وهذا. فإن النفس لها هوى تدعوها إلى خلاف الحق وإن عرفته. فالناس يحتاجون إلى الموعدة الحسنة وإلى الحكمة. فلا بد من الدعوة بهذا وهذا. وأما الجدل فلا يدعى به، بل هو من باب دفع الصائل. فإذا عارض الحق معارض جُودل بالتي هي أحسن. ولهذا قال (وجادلهم)، فجعله فعلاً مأموراً به مع قوله (ادعهم). فأمره بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأمره أن يجادل بالتي هي أحسن. وقال في الجدل (بالتي هي أحسن) ولم يقل بالحسنة كما قال في الموعدة، لأن الجدل فيه مدافعة ومغاضبة فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسن حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة، والموعظة لا تُدافع كما يدافع المجادل. فما دام الرجل قابلاً للحكمة أو الموعدة الحسنة أو لهما جميعاً لم يحتج إلى مجادلة. فإذا مانع جودل بالتي هي أحسن» (الرد على المنطقيين ٥١٢-٥١٣).
فبين ﷺ أن الجدل لا يُلجأ إليه إلا عند الحاجة وهو آخر المطاف، بينما ترى البعض منّا يبدأ به، ويجعله أساس دعوته. وقد أكد ابن القيم مراتب الدعوة هذه معلقاً على الآية السابقة، فقال: «فذكر سبحانه مراتب الدعوة



وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو. فإنه إما أن يكون طالباً للحق، راغباً فيه محبباً له مؤثراً له على غيره إذا عرفه، فهذا يدعى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال. وإما أن يكون معرضاً مشتغلاً بضد الحق، ولكن لو عرفه عرفه وآثره واتبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب. وإما أن يكون معانداً معارضاً فهذا يجادل بالتي هي أحسن. (الصواعق المرسله ج ٤ ص ١٢٧٦). فالطريقة المثلى هي أن يبدأ الداعية ببيان الحق للمدعو، فإن لم يستجب لجأ للترغيب والترهيب، ثم يجادله بالحسنى إن استمر في إعراضه.

٥. التنزل مع المخالف وإنصافه

لا ينفك الداعية في دعوته من إيراد الحجج على المخالف وتبيان ضعف أدلته واستدلاله. والداعية الموفق لا بد له من زاد طيب من العلم الشرعي ومعرفة بالنصوص الشرعية وطرق القرآن في الجدل. ومن هذه الطرق القرآنية إنصاف المخالف والتنزل معه في النقاش، وهو من الأمور التي قد يغفل عنها بعض الدعاة في حموة الجدل والرغبة في الظهور على المخالف، لا سيما عند اشتداد النقاش وعناد المخالف. والداعية لا بد له من أن يستحضر أن غايته هو هداية المخالف، وليس الظهور عليه وغلبته بأي طريقة، حتى ولو أدى ذلك إلى نفوره من الدعوة والداعي. وتحقيق هذه الغاية يكون بالتلطف مع المخالف ونزع سؤرة المخالفة. فإن ترك المألوف وما تربي عليه الإنسان صعب على النفس. لكن المخالف إذا شعر بإنصاف الداعية وأنه متجرد للحق كان هذا أعون له على ترك

باطله. ومثال هذا ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ قُلْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَّا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ

بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتْحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْعَمَ بِهِ شُرَكَاءُ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ [سبأ: ١٢٤-١٢٧]. يقول الرازي في شرح هذه الآية: «هَذَا إِرْشَادٌ مِنَ اللَّهِ لِرَسُولِهِ إِلَى الْمُنَظَرَاتِ الْجَارِيَةِ فِي الْعُلُومِ وَغَيْرِهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَحَدَ الْمُتَنَظِّرِينَ إِذَا قَالَ لِلْآخَرِ، هَذَا الَّذِي تَقُولُهُ خَطَأً وَأَنْتَ فِيهِ مُخْطِئٌ يُعْضِبُهُ، وَعِنْدَ الْغَضَبِ لَا يَبْقَى سَدَادُ الْفِكْرِ، وَعِنْدَ اخْتِلَالِهِ لَا مَطْمَعَ فِي الْفَهْمِ، فَيَفُوتُ الْغَرَضُ، وَأَمَّا إِذَا قَالَ لَهُ: بَأَنَّ أَحَدَنَا لَا يَشْكُ فِي أَنَّهُ مُخْطِئٌ، وَالتَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ قَبِيحٌ، وَالرُّجُوعُ إِلَى الْحَقِّ أَحْسَنُ الْأَخْلَاقِ، فَجَبَّهْتُ وَنَبَّصَرُ أَيْنَا عَلَى الْخَطَأِ لِيَحْتَرِزَ، فَإِنَّهُ يَجْتَهِدُ ذَلِكَ الْخَصْمَ فِي النَّظَرِ، وَيَتْرُكُ التَّعْصَبَ، وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ نَقْصًا فِي الْمَنْزِلَةِ لِأَنَّهُ أَوْهَمَ بِأَنَّهُ فِي قَوْلِهِ شَاكٌّ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَشْكُ فِي أَنَّهُ هُوَ الْهَادِي، وَهُوَ الْمَهْتَدِي، وَهُمْ الضَّالُّونَ وَالْمُضِلُّونَ» (مفاتيح الغيب ج ٢٥ ص ٢٠٥). وقد نقل القاسمي وابن عاشور عند تفسيرهما لهذه الآيات من سورة سبأ أن هذا من الكلام البليغ، الذي يسمى كلام المنصف، والذي لا يملك الخصم معه إلا الإقرار بعدل مخالفه.

ومن الأدلة على هذه الرحمة في التنزل مع المخالف قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] ، فمع أن هذا الأمر من المحال إلا أن الله أمر رسوله أن يخبر من خالفوه أنه لو فرض وجود ذلك لعبدته إرضاءً لله، فليس رفضي لذلك من باب العناد أو الكبر، ولكن لأنه لا وجود لهذا الولد على الحقيقة. فإن كنت على هذا الحال من طلب الحق ورضوان الله، وتقديم هذا على محاببي، فحريُّ بكم كذلك أن تطلبوا الحق، ولا تردوه حميةً أو عنادا. ومثل هذا الأسلوب ينزع شر المخالف ويخفف عناده. والنفوس تميل إلى من ترى منه الرفق والحكمة، وتحب من يحترمها ويظهر إرادة الخير لها، فتحلِّي الداعية بهذه الصفات من أعظم ما يستعين به لإنجاح دعوته.



والإنسان مفضور كذلك على محبة من ينصفه ويعترف بما معه من الحق. والداعية الموفق يستخرج ما عند مخالفه من الحق، ويدعوه إلى البناء عليه، والاستمرار فيه، حتى يصل الى الحق الكامل. والشاهد على هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، أي هذا أمر لا نختص به، بل هو مشترك بيننا وبينكم، قد جاءت به كل الأنبياء، فهو من إرثكم وأنتم أحق به (انظر تفسير المنار والسعدي). ومثال هذا أن يقول الداعية لمن يدعوه: إن الله قد منّ عليه بالصواب في كذا وكذا من المسائل، وله من الصفات الحميدة كذا وكذا، وهذا كله من رحمة الله به، فلا يليق بك أن تعرض عن الصواب وأنت قريب منه مستحق له، فإن إعراضك عما يستلزمه الحق نقض للحق من أصله، وكأنه لا وجود له ولا أثر.

٦. الرفق واللين في الدعوة

التنزل مع المخالف وإنصافه جزء من أصل عام في الدعوة، وهو اللين والرفق، وهذا بدوره أصل عام في الإسلام كله. قال رسول الله ﷺ: (إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه) رواه مسلم (٢٥٩٣)، قاله رسول الله لعائشة رضي الله عنها في الرد على مخالف قد سبه، فما بالك بغيره؟ وقال ﷺ كذلك: (من حُرِم الرفق حُرِم الخير) رواه مسلم (٢٥٩٢)، وقال: (ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه) صحيح الجامع (٥٦٥٤). فمن أراد الخير والتوفيق في دعوته استصحب الرفق فيها.

٤١١

ومن الرفق في الدعوة بسط الوجه والتبسم. قال رسول الله ﷺ: (من المعروف أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط) رواه أبو داود وابن

حبان وصححه الألباني (صحيح الجامع ٤٥٥٧). وقد روى الترمذي (٣٦٤١) عن عبد الله بن الحارث رضي الله عنه قوله: (ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم صححه الألباني (صحيح الترمذي ٣٦٤١). وقد وصفه جرير بن عبد الله رضي الله عنه فقال: (ولا رأني إلا تبسم) رواه البخاري (٦٠٨٩). فرغم ما قد يلاقيه الداعية من مشاق وهموم، إلا أن عليه أن يتذكر أن ابتسامته وسعة صدره هما مفتاحه لقلب من يدعوهم. وكثير من الناس يتأثر بحسن خلق الداعية أكثر من تأثره بمضمون الدعوة، ويدخل في دين الداعية لهذا السبب أساساً.

ومن الرفق في الدعوة التآني في عرض الأدلة حتى يتيح للمخالف فهمها والنظر فيها، وأن يجيب على أسئلته إجابة تامة شافية. ومن نظر في القرآن رأى كثرة الحجج التي أوردها الله فيها، وكم كررها على الأسماع، وفي هذا دليل على أن الواحد منا قد يحتاج إلى سماع الحق مرات ومرات، قبل أن يقتنع به ويدخل قلبه، ثم يحتاج بعدها إلى سماع الحق مرات ومرات، ليظل ثابتاً عليه. ومن الرفق ألا يعرض الداعية من الحجج والأقوال ما لا يطيقه عقل السامع وفهمه، كما قال علي بن أبي طالب: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله» رواه البخاري (١٢٧)، أي بما تقدر على فهمه عقولهم. وأخرج مسلم في خطبة كتابه (ص ٣٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث الناس حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.» فمن جاء سامعه بما لا يطيقه، لم يأمن أن يفته ذلك، ويصده عن الدين، أو أن يُعنته، ويشق عليه بغير حاجة. فكان من الرحمة تقدير فهم السامع، وإيراد ما يناسبه، ويحتاجه من الحجج بغير تعقيد أو تشتيت لذهنه وقلبه.

ومن الرحمة في الدعوة احتمال أذى المخالف والصبر على نقاشه

وعناده ، حتى يتبين له الحق . ولنا في رسول الله ﷺ قدوة في هذا . فقد روى ابن مسعود قال : (كَأَنِّي انْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ضَرِبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) رواه البخاري (٢٤٧٧) . وهذه كلمة قد قالها رسول الله نفسه لما كسرت رباعيته ، وجرح وجهه ، وهشمت البيضة على وجهه يوم أحد (السلسلة الصحيحة ج٧ ص٥٣٢) . وبرغم شدة هذا الأذى يوم أحد إلا أن النبي ﷺ لاقى ما هو أشد منه ، كما أخبر هو عن نفسه في دعوته لأهل الطائف . ولو شاء أن ينتصر لنفسه أو ضجر من إعراض قومه وأذاهم وأراد أن يشتفي منهم لأخبر ملك الجبال ، ففضى عليهم حينها بغير تأخير ، ولكنه رحمهم وترفق بهم وقال : (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً) متفق عليه (البخاري ٣٢٣١ ومسلم ١٧٩٥) . وقد حقق الله رجاءه ، فهدى قومه وأخرج من أصلابهم من عبد الله وحده ولم يشرك به شيئاً . فعلى الداعية أن يستحضر هذه المعاني ومثل هذا الرجاء ، فلعل الله أن يهدي من يدعوهم ولو بعد حين ، ولعل الله أن يجعل منهم ومن ذرياتهم من يعبد الله وحده ، وينصر الإسلام نصرًا عظيمًا . وكلما كاد اليأس والضجر أن يتسرب إلى نفس الداعية ذكر نفسه بصبر الرسل في دعوتهم ورحمتهم بأقوامهم ، فجدد ذلك من عزمته وعاد رجأؤه بالله قويا .

٧. قضاء حاجات الناس وحل مشاكلاتهم

دعوة الناس للإسلام لا تكون فقط بعرض مبادئ الإسلام عليهم ، بل كذلك بتقديم الأنموذج الصالح . وقد جعل الله رسوله ﷺ مثلاً للخلق الرفيع ، فجذب به قلوب الناس ، وفتح أقفالها ، ليقبلوا على الإسلام أفراداً وجماعات . والله جعل أساس علاقة المسلم بغيره قائمة على العدل فقال :

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]. وأباح الله صلة الكافر وبرّه ما لم يكن محارباً، فقال: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]. وكان من هدي النبي ﷺ عيادة الكافر وبرّه خصوصاً إن كان جاراً. روى البخاري (١٢٥٦) أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ مرض فأتاه النبي ﷺ يعودُه، فقعده عند رأسه، فقال له: (أسلم)، فنظر إلى أبيه، وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: (الحمد لله الذي أنقذه من النار). وروى الترمذي (١٨٣٣) أن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ ذبح شاة فقال: هل أهديتم منها لجارنا اليهودي؟ ثلاث مرات ثم قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) صححه الألباني (صحيح الترمذي ١٨٣٣). ولا بأس من الدعاء للكافر ما لم يكن محارباً كما جاء عن عقبة بن عامر الجهني أنه «مرَّ برجل هيئته هيئة مسلم، فسلمَّ فردَّ عليه: وعليك ورحمة الله وبركاته. فقال له الغلام: إنه نصراني. فقام عقبة فتبعه حتى أدركه فقال: إن رحمة الله وبركاته على المؤمنين، لكن أطل الله حياتك وأكثر مالك وولدك» (صحيح الأدب المفرد ٨٤٧).

من أهم الأسباب التي يترك الناس لأجلها دينهم إلى دين جديد هي حسن المعاملة والعناية التي يلقونها من أصحاب الدين الجديد. وهذه دعوة غير مباشرة لكن أثرها يفوق في بعض الأحيان الدعوة المباشرة والإقناع العقلي. وكثير من الناس في بلاد الغرب وغيرها لا يلقون كثير بال للمسائل الدينية، بل يعرضون عنها وعنم يتكلم فيها، لكنهم يعانون من مشاكلات اجتماعية أو نفسية، تؤرق بالهم، وتتغص عليهم عيشتهم. والسبيل للوصول إلى هؤلاء الناس ودعوتهم يكون بالإصغاء لمشاكلاتهم

واقترح علاج لهذه المشاكلات وتقديم العون لهم. ومتى ما رأوا هذا الخير من المسلمين وحرصهم عليهم انجذبوا لدينهم، وغير هذا من قناعاتهم عن الإسلام والمتدينين. ومثل هذه العناية تنشئ في الناس رغبة ذاتية للتعرف على الإسلام وشعورًا طيبًا تجاه المسلمين.

ويمكن للمسلمين أن يستثمروا علاقاتهم الاجتماعية مع جيرانهم ومعارفهم وزملائهم في العمل، لتحقيق غايتين رئيسيتين. الغاية الأولى هي دعوتهم إلى الإسلام، والثانية هي نيل رحمة الله برحمتهم لخلق الله. ورسول الله ﷺ قد علمنا فقال: (في كل كبد رطبة أجر) البخاري (٢٢٦٣). وإن كان رجل قد دخل الجنة لسقيه كلب، فما الظن بمن فرج عن إنسان كريبًا؟

٨. استخدام الترهيب

من الناس من يكون قريبًا من الحق أو باحثًا عنه ومستعدًا لقبوله متى ما وجده، وهذا يجدي معه بيان الحق. ومن الناس من يكون معرضًا أو عنيدًا أو قلبه متعلق بشبهة أو شهوة، ومثل هذا لا ينفع معه بيان الحق وحده، بل يحتاج إلى ما يززع قلبه من القوارع والزواجر. يقول تعالى:

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥]. فيبدأ الداعية بالرفق واللين، وهذه هي مرتبة الحكمة، ثم ينتقل مع المدعو إلى الترغيب والترهيب، فيعرض عليه مآل الطائعين وعقاب العاصين (المحرر الوجيز وتفسير السعدي). وهذه هي طريقة القرآن الذي يخوف الله فيه عباده ومن عصاه، ليقلع عن ذنبه، ويقبل إلى ربه. قال إبراهيم بن شيبان: «إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشبهات منها، وطرد الدنيا عنها» (مدارج السالكين ج ١ ص ٦٠٩).

وبرغم ما قد يظنه البعض فإن استخدام أسلوب الترهيب لا يناقض

الرحمة بل هو جزء منها. فإيصال جزء من المكروه إلى امرئ بغرض إصلاحه ونجاته هو من الرحمة به، وهذا كجلد الزاني. يقول تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢]. فجعل سبحانه الرأفة هي المانعة من إقامة الحد، لأن الرأفة هي إيصال النعم بغير ألم، بينما الرحمة هي إيصال النعم مطلقاً ولو صاحبها ألم وكرهه، مما يستدعيه حال المرء. وهذا كسائر الحدود التي شرعها الله تطهيراً لعباده، وحماية لهم من الحرام وعذاب الآخرة (انظر معجم الفروق اللغوية ٢٤٦-٢٤٧ والنهج الأسمى ٢١٥-٢١٦). بل قد قال سفيان بن عيينة: «خلقت النار رحمة يخوف بها عباده لينتهوا» (صفة النار ص ٩٥). فخلق النار نفسه وتحذير الله منها هو من الرحمة بالخلق.

والله يخوف عباده في القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَتَخَوَّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠] وقال: ﴿لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبادُونَ فَأَتَقُونَ﴾ [الزمر: ١٦]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، يقول القاسمي في تفسيره: «وهو تهديد عظيم»، وقال الحسن نافياً مناقضة هذا التحذير للرحمة: «من رأفته بهم أن حذرهم نفسه» (تفسير الطبري عند تفسيره للآية ٣٠ من آل عمران). وذكر عذاب الآخرة وعذاب الله للعصاة في الدنيا مستفيض في القرآن، وليس هذا بمانع له من أن يكون كتاب رحمة وهداية، بل هو جزء أصيل من هذه الرحمة. فالرحمة التي تقود الداعي في دعوته وترسم له طريقه لا تناقض استخدام أسلوب الترهيب، بل تُحتمل لتشمل الدعوة لجميع الخلق.

وهذا الأسلوب الدعوي برغم وضوحه في القرآن والسنة قد يتم تجاهله



أو التقليل من أهميته ظناً أنه يناقض رحمة ورفق وبشاشة الإسلام. أو قد نبالغ في سعينا للدفاع عن الإسلام ونقض شبه العنف والقسوة المثارة حوله، فننفي كل ما من شأنه أن يجرح شعور الآخرين من دعوتنا ولو كان هذا في مصلحتهم، وهذا نقص جلي في الدعوة. وعلى الدعاة أن يتذكروا دائماً أن الإسلام الذي أنزله الله هو دين الله الكامل الذي يصلح به الناس، ولا يحتاج منا إلى تعديل وترقيع وتجميل. ونحن متى لم ندع إلى الله كما يحب الله وكما دعا رسوله ﷺ، لم نكن حقاً متبعين لهذا الدين وداعين إليه. ولرأينا نتاج هذا الخلل في قلة الحصاد وسوء الثمرة الدعوية.

٩. التدرج في الالتزام بالشرع لدى المسلمين الجدد

قد قدمت في مبحث التدرج الدعوي الكلام عن أهمية التدرج في الالتزام بالإسلام وعدم تحميل النفس ما لا تطيقه. وهذا أمر ينبغي التنبيه إليه خاصة عند دخول المرء في الإسلام وازدحام الواجبات عليه. روى أبو داود في سننه (٨٣٢) أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: لا أستطيع أن آخذ من القرآن شيئاً علمني ما يجزئني منه، فقال: (قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم). قال: يا رسول الله هذا لله فما لي؟ قال: (قل اللهم ارحمني وارزقني وعافني واهدني). فلما قام قال هكذا بيده، فقال رسول الله ﷺ: (أما هذا فقد ملأ يده من الخير) صححه الألباني. وهكذا المسلم الجديد، الأعجمي قد يعجز عن القرآن وغيره لمدة، فيُنصح بما يقوم مقامه حتى يتعلم. ومما نلاحظه في الحديث أن الرسول ﷺ استجاب لطلبه وعلمه ما يدعو به لنفسه، ثم بشره بالخير الوفير. وفي مثل هذه البشرية واللين أعظم ترغيب للمسلم الجديد، وحثُّ له على التمسك بالخير والازدياد منه.

ومن رحمة الشارع أن راعى الحالة النفسية والفكرية التي يمر بها

المسلم الجديد، وترفق به حتى يستقر الإسلام في قلبه. روى أبو داود في سننه (٣٠٢٥) عن وهب قال سألت جابرًا عن شأن ثقيف إذ بايع قال: اشترطت على رسول الله ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد وأنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعد ذلك: (سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا) صححه الألباني (صحيح أبي داود ٣٠٢٥). وروى أحمد (٤٠٢/٣) أن رجلاً أتى النبي ﷺ فأسلم على ألا يصلي إلا صلاتين، فقبل منه (قال الألباني في الثمر المستطاب ٥٣/١: هذا إسناد صحيح على شرط مسلم وصححه إسناده شعيب الأرنؤوط في جامع العلوم والحكم ج ١ ص ٢٢٨). وروى أحمد كذلك (٢٥/٣ و ٢٦٣) عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: بايعت النبي ﷺ على أن لا أخّر إلا قائمًا (صححه إسناده شعيب الأرنؤوط على شرط مسلم)، قال أحمد: معناه أن يسجد من غير ركوع (جامع العلوم والحكم ج ١ ص ٢٢٨). وقال النبي ﷺ لرجل: (أسلم) قال: إني أجدني كارها قال: (وإن كنت كارهاً) (صححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٤٥٤).

قال ابن رجب: «ولم يكن النبي ﷺ يشترط على من جاءه يريد الإسلام أن يلتزم الصلاة والزكاة، بل قد روي أنه قبل من قوم الإسلام واشتروا أن لا يزكوا» ثم ذكر طائفة من الأحاديث، التي تقدمت، ثم قال: «وأخذ الإمام أحمد بهذه الأحاديث وقال: يصح الإسلام على الشرط الفاسد، ثم يلزم بشرائع الإسلام كلها» (جامع العلوم والحكم ج ١ ص ٢٢٨-٢٢٩). وقال ابن رجب كذلك: «وقد كان أحياناً يتألف على الإسلام، من يريد أن يسامح بترك بعض حقوق الإسلام، فيقبل منهم الإسلام، فإذا دخلوا فيه رغبوا في الإسلام فقاموا بحقوقه وواجباته كلها» إلى أن قال: «قال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: إذا أسلم على أن يصلي صلاتين يقبل منه فإذا دخل يؤمر بالصلوات الخمس» (فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج ٣ ص ٣٢-٣٣). وقال الشوكاني: «هذه الأحاديث فيها دليل على

أنه يجوز مبايعة الكافر وقبول الإسلام منه، وإن شرط شرطاً باطلاً وأنه يصح إسلام من كان كارهاً» (نيل الأوطار ج ٨ ص ١٢-١٣). وقال الألباني: «ويجوز لولاة الأمر أن يقبلوا إسلام الكافر ولو لم يرض بإقامة كل الصلوات الخمس» (الثمر المستطاب ج ١ ص ٥٣، وانظر كذلك فقه الإيمان على منهج السلف الصالح ص ٣١٣-٣٤٤). وذلك أنه قد اجتمع في هذا الفعل مصلحة ومفسدة، وكانت مصلحة الإسلام تربو كثيراً على مفسدة ترك بعض الواجبات. فحيث لم يمكن أن يؤتى بهذه المصلحة إلا مع مفسدة أقل منها، جاز بل وجب الإتيان بها، واحتمال هذه المفسدة (انظر مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٣٥ ص ٢٨-٣٢).

والداخل في الإسلام خصوصاً في غير بلاد المسلمين قد يصعب عليه الالتزام بشرائع الإسلام بدايةً أو أن يترك بعض عاداته المحرمة. وقد تكمن العقبة في عدم إدراكه للحكمة من هذه التشريعات، بسبب كثرة الانتقادات الموجهة للإسلام، والشبهات المثارة حوله في بيئة لا تعرف من الإسلام إلا أقل القليل. فمن الحكمة هنا في مثل هذه البيئة الترفق بهذا المسلم الجديد حتى يقوى إيمانه. والمسلم قد يدخل الإسلام، ولا يزال له تعلق بشرب الخمر أو بعض المخدرات، أو قد لا يستطيع المحافظة على الصلوات أو الصيام. والمسلمة قد لا تستطيع أو لا تقبل لبس الحجاب في بداية إسلامها، أو ترفض تعدد الزوجات، أو لا تقبل بعض أحكام الإسلام الأسرية لكثرة ما تسمع أو ترى من ظلم بعض المسلمين لنسائهم وسوء معاملتهم لهم. لكن زيادة العلم بهذا الدين والعمل به ومخالطة المسلمين كفيلة بمعالجة كثير من هذه الشبهات والشهوات. وهذا لا يعني إهمال نصح المسلم الجديد وإرخاء الحبل له، ليعتقد ويفعل ما يشاء، أو إيجاد شريعة خاصة بالمسلمين الجدد مختلفة عن بقية المسلمين. كلا، بل هذا حل مؤقت، حتى يستقر الإيمان في قلوبهم. وهذا يتطلب إيجاد برنامج تعليمي اجتماعي خاص

بالمسلمين الجدد، يرتقي بهم علما وعملا ليتجاوزا هذه العقبات. والسُّنة لم ترد بتحديد مدة التأقلم التي يحتاجها المسلم الجديد، حتى يلتحق بركب سائر المسلمين، ولعل هذا لأن هذه المدة تختلف باختلاف الزمان والمكان والأشخاص وقوة الإسلام أو ضعفه، فلا ينبغي الغفلة عن هذا.

ومن الأمور التي يعاني منها المسلم الجديد حيرته واختلاط الأمور عليه، بسبب عدم التدرج في تعليمه، أو الإغراق في تفاصيل لا يحتاجها قبل تثبيت الأصول، أو بسبب تضارب المعلومات عنده بسبب كثرة من يحاول نصحه واختلافهم. وهذا مما يزيد من حيرة المسلم الجديد وقد يُزهدُه في الإسلام نفسه، وهو أمر مشاهد ومنتشر. وعلاج هذا التخبُّط يكون بإيجاد برنامج شامل للمسلم الجديد، يراعي حاجاته ويتدرج معه. ويستحسن مع هذا البرنامج أن يُخصص لكل مجموعة من المسلمين الجدد في كل منطقة معلّم أو مجموعة متعاونة ومتفاهمة من المعلمين توجههم وتجيّب عن أسئلتهم في هذه المرحلة الدقيقة إلى أن يتمكنوا من الالتحاق بحلقات العلم العامة في المساجد.

١٠. الاهتمام بالجانب الاجتماعي والعاطفي والمالي للمسلم الجديد،

تتصب معظم الجهود الدعوية والأموال التي تنفق عليها على إقناع الكافر على الدخول في الإسلام، هذا هو المحور الأكبر لدائرة الاهتمام الدعوي. وتجف الأموال وتتبخر الهمم بعد أن يدخل في الإسلام. وحاجة المسلم الجديد للرعاية يغفل عنه الكثير منا، وقد رأينا آثاره السيئة في انتكاسة المسلم الجديد وارتداده عن دينه، لقلة من يعتني به ويسأل عن حاله بعد إسلامه. وما لا يدركه كثير منا هو أن المسلم الجديد تواجهه العديد من التحديات والمشكلات بعد إسلامه. تبدأ هذه التحديات من محيطه الأسري



والاجتماعي. فأفراد عائلته وأصدقاؤه وزملاء عمله لا يتفهمون غالباً أمر إسلامه، ومنهم من يبدأ في تجنبه، ومنهم من ينتقد ويهاجم قرار إسلامه، ومنهم من يقطع صلته به فوراً أو تدريجياً، فيفقد بإسلامه العائلة والأصدقاء والزملاء. وحتى من يحاول تقبل أمر إسلامه لا ينجو من هوة تتسع بينه وبين المسلم الجديد، حين يرى تبدل عاداته واهتماماته وأنشطته الاجتماعية والدينية. وهذا المحيط الأسري والاجتماعي هو الذي يوفر لكل منا المخزون العاطفي الذي نحتاجه لحياة سوية، نشكوا إليهم همومنا، ويملؤنا حبهم لنا وحبنا لهم وسعادة وطمأنينة. فماذا يحدث للمسلم الجديد حين يفقد كل هذا، ويرى بدلاً منه نظرات الشك والعداوة والانتقاد ممن كانوا أقرب الناس إليه سابقاً؟ هذه واحدة من أهم الضغوط التي يعاني منها المسلم الجديد، والتي غالباً ما يستمر أثرها عليه لسنوات، وبعض هذه الروابط الاجتماعية لا تعود لسابق عهدها أبداً. عندما يفقد هذا المسلم عائلته وأصدقاءه، يحاول استبدال أهل المسجد وأفراد الجالية المسلمة بعائلته وأصدقائه، ليكون محيطاً جديداً يعينه على دينه وحياته. وعندما نخذله. كثير من المسلمين لا يحس بالمعانة التي يمر بها المسلم الجديد وما يحتاجه منا، فيتجاهله أو ينشغل عنه إلا من عبارات مقتضبة لا تروي غليلاً. وتندر محاولات احتوائه ودمجه في المجتمع المسلم لأن كثيراً من المسلمين يعيشون في دوائر اجتماعية محصورة على من أتى من بلدهم ويتكلم لغتهم وله مثل عاداتهم. وسرعان ما يشعر المسلم الجديد بصعوبة اندماجه في هذه الدوائر وقبوله فيها. وعندما لا يجد اهتماماً من المسلمين به ولا من يسد حاجته منهم يعود مضطراً إلى محيطه السابق. فإن كان قوي الإيمان ثبت على دينه. وإن كان ضعيف الإيمان ضعُف التزامه بهذا الدين. فإما أن يتمسك بجزء صغير منه ويخلط معه غيره ليقبله أهله والناس من حوله، أو يستمر في حمل اسم الإسلام لكن بغير أثر له في حياته، أو يترك الدين كله ويرتد. وهذا أمر مشاهد ومتكرر للأسف الشديد.

ويُعدُّ الجانب المالي عامل ضغط آخر في حياة المسلم الجديد. فقد يطرده أهله من بيته أو قد يفقد عمله. وربما يكون من الطبقة الفقيرة الكادحة التي تعاني من مشكلات مادية مزمنة. والمسلمون الجدد يأتون في كثير من الأحيان من الطبقة الفقيرة، أو من الأقليات العرقية التي تعاني من التمييز العنصري وندرة فرص العمل، أو ممن لديهم مشكلات أسرية واجتماعية. وإسلامهم قد يضاعف هذه الضغوط عليهم. فإن لم يجدوا العون ممن هو حولهم من المسلمين فإن إسلامهم مهدد بالزوال.

والرحمة التي حملتنا على الدعوة هي ذاتها التي يجب أن تحملنا على رعاية واحتضان المسلم الجديد فور إسلامه، بل إن هذه الرعاية أوجب لأنَّ حقه علينا قد زاد بإسلامه. والسنة النبوية قد حملت في طياتها ما يعين على هذا الاحتضان والرعاية. وواحد من أهم هذه الدروس في السنة هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، لما أمر الله بالهجرة إلى المدينة آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ليذهب عن المهاجرين وحشة الغربة، ويدمجهم في المجتمع المدني الجديد، ويخفف عنهم المعاناة الاقتصادية بعد أن تركوا أموالهم وأهليهم في مكة. وهذه المؤاخاة خصَّت المتأخيين بمزيد من الحقوق، مما قوّى الروابط بين المهاجرين والأنصار، وأذاب النعرة القبلية ليحلّ الولاء للإسلام محلها. وكان من آثار هذه المؤاخاة أن أنزل الأنصار المهاجرين في منازلهم وأشركوهم في ثمار نخيلهم، وكانوا يهدونهم الطعام والثمار، ويعطونهم المنائح (انظر منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة ص 225-227). وإن كان الله قد نسخ الإرث من المؤاخاة، إلا أن بقية عناصرها من العون المادي والمعنوي تبقى كفكرة وطريقة لتحقيق ما حققته المؤاخاة، الأولى من اندماج وتخفيف أعباء. وهناك أدلة شرعية توحى ببقاء هذا النوع من المؤاخاة وأنه تترتب عليه حقوق فوق الحقوق العامة بين المسلمين (انظر السيرة النبوية في ضوء



المصادر الشرعية ج ١ ص ٣٥٣-٣٦٠). فعلى أهل العلم والدعاة دراسة هذا الأمر وتفعيله في الوسط الدعوي وبين المسلمين للحفاظ على مكتسبات الدعوة وحماية المسلمين في الغرب من خطر الردة وضعف الالتزام الديني.

ولمعالجة كثير من هذه المشكلات فإنه لا بد وأن يخصص جزء من الإنفاق الدعوي لإعانة المسلمين الجدد وتخفيف مشكلاتهم، ولا ينبغي أن تصرف كل موارد الدعوة على إدخال الناس في الدين ثم إهمالهم بعده. ويعين على هذا تفعيل سهم المؤلفة قلوبهم في الزكاة. ومن كنا نرجوا حفظ إيمانهم وتقويته بدفع المال جاز لنا إعطاؤه من سهم المؤلفة قلوبهم خصوصاً مع حالة الضعف الشديدة التي يعيشها المسلمون اليوم (انظر الشرح الممتع على زاد المستقنع ج ٦ ص ٢٢٦-٢٢٩ والموسوعة الفقهية ج ٢٣ ص ٣١٩-٣٢٠). ثم تأتي الخطوة التالية باجتماع الجالية المسلمة في كل مدينة ومن كل عدة مدن على إنشاء مشاريع ومؤسسات تحتضن المسلمين الجدد بشكل منهجي ومنظم، ولا تكتفي بإخراجهم من ضائقهم المالية بل تعمل على توجيههم ورعايتهم ليصبحوا ناجحين ومتميزين دينياً واقتصادياً واجتماعياً.

وينبغي أن يصاحب هذا كله حملة تثقيفية وإرشادية تبصر عامة المسلمين بالتحديات التي يواجهها المسلمون الجدد وتحثهم على إحسان معاملتهم والقرب منهم وإعانتهم، كما تنبه الجميع إلى الأخطار التي تحيق بهم والمسؤولية العامة في حفظ إسلامهم وتقوية إيمانهم.



الخاتمة

دين الإسلام مبني على الرحمة في أصوله وفروعه، والغاية من الدعوة هي رحمة الخلق. والداعية الذي يستحضر رحمة الله بخلقه ينطلق في دعوته ليرحم خلق الله وينقذهم من عذابي الدنيا والآخرة. وتتجلى هذه الرحمة الإسلامية في معاملة الداعية لمن يدعوهم، وطريقة دعوته وعرضه للإسلام، وحرصه على إسلامهم وثباتهم على هذا الإسلام بعد الدخول فيه. وقد راعى الله أحوال الناس وقدراتهم، فأودع في شرعه ما يسعهم كلهم، ويترفق بهم حتى يدخل الإيمان، ويستقر في قلوبهم. ويتأكد تفعيل هذه الرحمة الدعوية في هذا العصر لكثرة الفتن التي تعصف بالإسلام والمسلمين، وكثرة من يصدُّ الناس عن الإسلام بقصد أو بغير قصد. والعلم بهذا الرفق الرباني ثم إنزاله على الواقع له أكبر الأثر في جذب قلوب الناس للإسلام وثباتهم عليه، وتصحيح صورة الإسلام في أذهان الناس، ورد شبهة العنف والغلظة والقسوة عنه. ودعاة الإسلام وعلماءه هم خطوط الدفاع الأولى عن الإسلام، فحري بهم أن يحملوا قسطا وافرصا من هذه الرحمة، وأن يكثرُوا من التأسّي برسول الله ﷺ في دعوته وحلمه ورحمته.

النتائج:

- ١ . دين الإسلام قائم على الرحمة بالخلق، والدعوة إلى دين الإسلام دعوة إلى دين الرحمة بالرحمة.
- ٢ . تتجلى مظاهر الرحمة في الدعوة في تكرار الدعوة وعدم اليأس من المخالف برغم الأذى وطول المدة، وكذلك في التدرج الدعوي من المهم إلى الأهم واختيار الطريق الأصح لإيصال رسالة الإسلام بحسب عقل المدعو وطبيعة شخصيته وبيئته، وما يحتمله فهمه.
- ٣ . من الرحمة في الدعوة تنوع طرائق الدعوة، لتناسب كافة الناس على اختلافهم، وتستجيب لكامل النواحي العقلية والعاطفية والفقيرية للمدعو.
- ٤ . معاملة الداعية للمدعو لها أكبر الأثر في جذب عقول الناس وقلوبهم إليه، فعلى الداعية أن يكون حسن الأخلاق حريصاً على قضاء حوائج الناس وحل مشكلاتهم. ومن حسن الخلق إنصاف المخالف، والتنازل معه في النقاش، والرفق في دعوته، حتى يمن الله عليه بالهداية.
- ٥ . رحمة الإسلام لا تمنع من استخدام أسلوب الترهيب، بل هو جزء مهم من رحمة الله بالخلق.
- ٦ . راعت الشريعة حال المسلم الجديد فأتاحت له التدرج في الالتزام بأحكام الإسلام، وخصّصت له ما يعينه مادياً ومعنوياً حتى يقوى إيمانه، وهذا من الأمور التي ينبغي للمسلمين الاهتمام بها وتطبيقها حتى لا تذهب ثمرة الدعوة سدى.

٧ . التوصيات:

- ١ . الاهتمام بإبراز جوانب الرحمة في الإسلام في هذا العصر على

مستوى المؤتمرات والبحوث العلمية، ثم تقديم زبدة هذه البحوث بوساطة مواد مرئية وسمعية ومقروءة بلغة سهلة وقريبة من عامة الناس، ثم ترجمتها للغات عالمية.

٢. تشجيع الدراسات التي توصل لجوانب الرحمة في الدعوة من خلال استقراء الشريعة والواقع، ثم ترجمة هذا التأصيل ونتائج هذا الاستقراء إلى توصيات وحلول عملية بالتعاون مع المؤسسات والمراكز الإسلامية في بلاد المسلمين وغيرها.

٣. تشخيص الواقع الدعوي المعاصر وتحديد تحدياته والعمل على تذليل الصعاب التي تعترضه.

٤. دراسة المشكلات التي تعترض المسلمين الجدد والعمل على إيجاد حلول قصيرة وطويلة الأمد لها.

٥. عقد مؤتمر سنوي عالمي للدعوة الإسلامية يجمع أهل العلم والدعاة للتشاور والتعاون والتخطيط المستقبلي

٦. إنشاء هيئة دعوية عالمية لتوحيد الجهود الدعوية



فهرس المصادر والمراجع

١. التحرير والتنوير أو تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. الدار التونسية للنشر-تونس. ١٩٨٤م.
٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. عبدالرحمن بن ناصر السعدي. تحقيق عبدالرحمن بن معلا اللويحق. دار السلام للنشر والتوزيع-الرياض. الطبعة الثانية-١٤٢٢هـ.
٣. الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب. محمد ناصر الدين الألباني. مؤسسة غراس للنشر والتوزيع-الكويت. الطبعة الأولى-١٤٢٢هـ.
٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري. محمد ابن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي أبو جعفر الطبري. تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. الطبعة الأولى-١٤٢٢هـ.
٥. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم. زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن رجب. مؤسسة الرسالة ناشرون-بيروت. الطبعة السابعة-١٤٢٢هـ.
٦. درء تعارض العقل والنقل. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي. تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية-المملكة العربية

- السعودية. الطبعة الثانية-١٤١١ هـ.
٧. الرحمة في حياة الرسول ﷺ. راغب السرجاني. رابطة العالم الإسلامي: المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ودعوته. الطبعة الأولى-٢٠٠٩.
٨. الرد على المنطقيين. تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني. تحقيق عبدالصمد شرف الدين الكتبي. مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت. الطبعة الأولى-١٤٢٦ هـ.
٩. شرح صحيح البخارى لابن بطلال. ابن بطلال أبو الحسن علي بن خلف بن عبدالمملك. تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم. مكتبة الرشد-الرياض. الطبعة الثانية-١٤٢٣ هـ.
١٠. الشرح الممتع على زاد المستقنع. محمد بن صالح العثيمين. دار ابن الجوزي-الدمام. الطبعة الأولى-١٤٢٢ هـ.
١١. صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري. محمد ناصر الدين الألباني. دار الصديق للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى-١٤١٥ هـ.
١٢. صحيح سنن الترمذي. محمد ناصر الدين الألباني. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع-الرياض. الطبعة الأولى-١٤٢٠ هـ.
١٣. صحيح الجامع الصغير وزيادته. محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي-بيروت. الطبعة الثالثة-١٤٠٨ هـ.
١٤. صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين النووي المسمى المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. محي الدين النووي. تحقيق خليل مأمون شيحا. دار المعرفة-بيروت. الطبعة الأولى-١٤١٤ هـ.
١٥. صفة النار. أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا. تحقيق محمد خير رمضان يوسف. دار ابن حزم-بيروت. الطبعة الأولى-١٤١٧ هـ.



١٦. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت. ١٤١٤هـ.
١٧. فتح الباري في شرح صحيح البخاري. زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السّلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن رجب. دار ابن الجوزي-الدمام. الطبعة الأولى-١٤١٧هـ.
١٨. فقه الإيمان على منهج السلف الصالح. وميض بن رمزي العمري. دار النفائس للنشر والتوزيع-الأردن. الطبعة الأولى-١٤١٨هـ.
١٩. فيض القدير شرح الجامع الصغير. زين الدين محمد المدعو بعبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري. المكتبة التجارية الكبرى-مصر.
٢٠. محاسن التأويل. محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي. تحقيق محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية-بيروت. الطبعة الأولى-١٤١هـ.
٢١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي. تحقيق عبدالسلام عبدالشافي محمد. دار الكتب العلمية-بيروت. الطبعة الأولى-١٤٢٢هـ.
٢٢. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. شمس الدين إبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية. تحقيق عامر بن علي ياسين. دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع-الرياض. الطبعة الأولى-١٤٢٤هـ.
٢٣. معجم الفروق اللغوية. أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن

- سعيد بن يحيى بن مهران العسكري. تحقيق الشيخ بيت الله بيات
ومؤسسة النشر الإسلامي. مؤسسة النشر الإسلامي التابعة
لجماعة المدرسين-قم. الطبعة الأولى-١٤١٢هـ.
٢٤. مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير. أبو عبدالله محمد بن عمر بن
الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي
خطيب الري. دار إحياء التراث العربي - بيروت. الطبعة الثالثة
١٤٢٠هـ.
٢٥. المفيد في التعامل مع المسلم الجديد. محمد صالح المنجد. مجموعة
زاد-الخبر. الطبعة الأولى-١٤٣٠هـ.
٢٦. منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة. محمد
أمحزون. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة-القاهرة.
الطبعة الثانية-١٤٢٤هـ.
٢٧. الموسوعة الفقهية. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-الكويت.
الطبعة الثانية-١٤١٢هـ.
٢٨. النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى. محمد الحمود النجدي.
مكتبة الإمام الذهبي-الكويت. الطبعة الثانية-١٤١٧هـ.



مظاهر الرحمة في العهدة العمرية، وأثرها في نشر الإسلام

دراسة تحليلية،

مقارنة بميثاق منظمة حقوق الإنسان

إعداد:

بدر إبراهيم أحمد فراج

باحث في التاريخ الإسلامي

جامعة الإسكندرية - مصر



توطئة

الحمد لله رب العالمين، له الحمد على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة، أعزنا بالقرآن، وكفى به عزة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير، وأشهد أن نبينا محمداً عبد الله ورسوله، أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، فكان نبياً لكل طالب هدى، وعلماً على الإنسانية في أبهى الصور، فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آل بيته الطيبين وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.... وبعد

الرحمة لها صور متعددة ومتنوعة، ولقد رسم الإسلام لها صوراً تعد أسمى الصور على مدار التاريخ الإنساني، وإذا تحاكرنا إلى الرحمة في الإسلام فأول ما نتحاكم إليه هو المنهج لا التطبيق، لأن المنهج ثابت في نصوصه، أما التطبيق فهو متغير، لأن المطبق قد يعتريه بعض القصور، لذا لا نعول على من يكيّدون للإسلام، فيبرزون ثلمات في التطبيق العملي على أنه هو الإسلام بوصفه منهجاً وشرعاً، ثم بعد النصوص نتحاكم إلى أفضل من طبق على وجه البسيطة، وهو نبي الرحمة ﷺ، ومن تلقوا، وأخذوا عنه هذا الدين، لذا يدور بحثي هذا حول تجربة عملية، قام بها

صحابي جليل من صحابة النبي ﷺ، ضارباً لنا مثلاً في التعامل مع غير المسلم، خاصة إذا كان غير المسلم في موقف المستضعف، ألا وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونخص مشهد دخوله إلى بيت المقدس، وعقده لصلح بيت المقدس المسمى بالعهد العمرية، لنبرز من خلالها مظاهر الرحمة فيها بصفها تطبيقاً علمياً لكيفية التعامل مع غير المسلم في الإسلام.

أ. أهمية البحث:

التعرض لتجربة عملية، أوضح من خلالها أن الإسلام دين الرحمة، وأنه لا يتعامل في هذا المضمار على معيار الدين والعقيدة، ولكن على معيار الإنسانية، وذلك بأنه يكفل له حرية العقيدة، وحقه في الحياة، بل والحفاظ على حياته وعرضه وماله، واحترام العهود والمواثيق المبرمة معه، وغيرها من حقوق، كان للإسلام السبق فيها قبل منظمات حقوق الإنسان وغيرها في العصر الحديث.

ب. منهج البحث:

يعتمد البحث على السبر والتحليل النقدي، الذي يعتمد على فهم وتحليل النص والأحداث، ونهجي في هذا البحث هو:

- ذكر مواضع الآيات في المصحف الشريف.
- تخريج الأحاديث، ومنهجي في التخريج: تقديم ذكر ما في الصحيحين على غيرهما، ثم ذكر ما في السنن الأربع - إن وُجد - ثم ما في مسند أحمد - إن وُجد - معتمداً في الحكم على أحاديث السنن والمسند على تعليقات الشيخ الألباني رحمه الله، سواء التعليقات المذكورة في تصحيحه للسنن، أو ما ذكره أحمد شاكر في تحقيقه للمسند من تعليقات للألباني، أو ما ذكره الإمام الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة.

- الرجوع أولاً إلى المصادر، ثم المراجع، واللجوء أحياناً إلى الأبحاث والمقالات المنشورة والمعتمدة
- التعريف بأهم الشخصيات المذكورة في البحث، معتمداً على كتاب الأعلام للزركلي، فإن لم أجد فكتاب سير أعلام النبلاء للذهبي.
- التعريف بالمصطلحات الغريبة بما ورد في كتب المعاجم وغريب الألفاظ من تعريفات.
- التعريف بأهم البلدان، معتمداً على معجم البلدان لياقوت الحموي، فإن لم أجد فكتاب البلدان لليعقوبي

ج. الدراسات السابقة:

مظاهر الرحمة في القرآن والسنة كثيرة، أما الدراسات التي تناولت العهدة العمرية، سواء بالذكر، أو بالنقد والتحليل فهي متعددة، فمنها على سبيل المثال الكتب التي تناولت سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مثل مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزي، وكذلك ما تناولت أحكام أهل الذمة، وأشهرها أحكام أهل الذمة لابن القيم - وإن كان قد تناول الشروط لا العهدة كما سنوضح -، كذلك من المعاصرين الأستاذ الدكتور: عبدالعظيم أحمد عبدالعظيم في كتابه (حقوق غير المسلمين في الإسلام)، حيث تعرض الكاتب لحقوق غير المسلمين، سواء الدينية أو الاجتماعية أو المالية، وغيرها في دولة الإسلام، مع مناقشة روايات الشروط العمرية بذكر أسانيدنا ونقدها على منهج المحدثين والحكم بضعفها، كذلك شوقي أبو خليل، العهدة العمرية، البعد الإنساني في الفتوحات العربية الإسلامية، في بحث منشور له.

د. محتويات البحث:

يشتمل البحث على أربعة محاور: المحور الأول: التعريف بالعهدة

العمرية ورواياتها، المحور الثاني: مظاهر الرحمة في العهدة العمرية، المحور الثالث: أثر العهدة العمرية في نشر الإسلام، المحور الرابع: مقارنة بين العهدة ومواثيق حقوق الإنسان، لإثبات السبق للعهدة العمرية لتلك المنظمات.

هـ. أهداف البحث:

١. إثبات نسبة العهدة العمرية لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.
٢. توضيح مظاهر الرحمة في العهدة العمرية.
٣. إظهار رُقي الشريعة الإسلامية في التعامل مع غير المسلم.
٤. الوقوف على أثر العهدة العمرية في نشر الإسلام.
٥. إثبات أن الشريعة الإسلامية كانت أسبق من منظمات حقوق الإنسان في المحافظة على حقوق الإنسان - بصرف النظر عن عقيدته، أو جنسه، أو لونه... إلخ.

و. الخطة التفصيلية للبحث:

البحث يتكون من: أربعة محاور وخاتمة، المحور الأول: التعريف بالعهدة العمرية، وذكر أهم رواياتها، ومصادرها، وتوضيح الفرق بين العهدة العمرية، والشروط العمرية - التي شكك البعض في نسبتها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه - معتمداً في ذلك على منهج السرد والتحليل.

المحور الثاني: تحليل ألفاظ العهدة العمرية، محاولاً في ذلك إبراز أهم بنود العهدة العمرية، وذكرها في نقاط، وإبراز أهم مظاهر الرحمة بها، مع توضيح مدى توافق بنود العهدة العمرية مع آيات القرآن الكريم، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم التي أظهرت الرحمة في التعامل مع غير المسلمين، خاصة المعاهدين منهم، معتمداً في ذلك على منهج السرد والتحليل.

المحور الثالث: أثر العهدة العمرية في نشر الإسلام. في هذا المحور أحاول أن أوضح أهم النتائج المترتبة على العهدة العمرية من المساهمة في نشر الإسلام، بعد ما ظهرت رحمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أهل إيلياء، معتمداً على منهج السرد والتحليل.

المحور الرابع: العهدة العمرية ومواثيق حقوق الإنسان، في هذا المحور أحاول أن أثبت السبق للشريعة الإسلامية من خلال التطبيق العملي في الحفاظ على حقوق الإنسان، بعيداً عن عقيدته، وجنسه، ولونه، وغير ذلك، بما يشهد للإسلام بسبقه لمنظمات حقوق الإنسان، ومعتمداً في ذلك عرض بعض بنود منظمة حقوق الإنسان، مع مقارنتها ببنود العهدة العمرية.

الخاتمة: أوضح فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث. وبعدها ذكر مراجع البحث، وفهرس المحتويات.



المحور الأول

التعريف بالعهد العمرية، والروايات التي ذكرت بها

تتسبب العهد العمرية إلى الخليفة الصحابي عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٤ق.هـ/ ٥٨٤م - ٢٣هـ/ ٦٤٤م) والعهد العمرية، أو ما يسمى بصلح أهل إيلياء^(١)، أتى في إطار الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه خاصة بعدما استطاع القائد العسكري أبو عبيدة بن الجراح^(٢) أن يحقق انتصاراً رائعاً في معركة اليرموك ١٥هـ/ ٦٣٦م، حيث افتتح الجابية من أعمال دمشق

(١) إيلياء: بكسر أوله واللام، وباء، وألف ممدودة: اسم مدينة بيت المقدس، قيل: معناه بيت الله، وحكى الحفصي: فيه القصر، وفيه لغة ثالثة، حذف الياء الأولى، فيقال: إلباء بسكون اللام والمد، قال أبو علي: وقد سمي البيت المقدس إلباء بقول الفرزدق:

وبيتان بيت الله نحن ولاتة
وقصر بأعلى إلباء مشرف

(معجم البلدان، ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي،

ت/٦٢٦هـ، دار صادر بيروت، ٢، ١٩٩٥، ج ١، ص ٢٩٣).

(٢) أبو عبيدة ابن الجراح (٤ ق هـ - ١٨هـ = ٥٨٤ - ٦٣٩م) وهو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي: الأمير القائد، فاتح الديار الشامية، والصحابي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، قال ابن عساکر: داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة. وكان لقبه أمين الأمة. ولد بمكة. وهو من السابقين إلى الإسلام. وشهد المشاهد كلها. ولاء عمر بن الخطاب قيادة الجيش الزاحف إلى الشام، بعد خالد بن الوليد، فتم له فتح الديار الشامية، وبلغ الفرات شرقاً وآسية الصغرى شمالاً، ورتب للبلاد المرابطين والعمال، وتعلقت به قلوب الناس لرِفقه وأناته وتواضعه. وتوفي بطاعون عمواس ودفن في غور بيسان، وانقرض عقبه. له ١٤ حديثاً. وكان طوالاً نحيفاً، معروق الوجه، خفيف العارضين، أثمر الشيتين (انترع بأسنانه نصلًا من جبهة النبي ﷺ يوم أحد، فهتم) وفي الحديث: لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح، الحديث رواه البخاري، باب قصة أهل نجران، ج ٥، ص ١٧٢، رقم ٤٢٨٢ (الأعلام للزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي ابن فارس، ت/١٢٩٦هـ، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م، ج ٣، ص ٢٥٢/ (سير أعلام النبلاء، الذهبي (شمس الدين الذهبي)، دار الحديث - القاهرة، ط ٤٢٧هـ/ ١٦٠٢م، ج ٢، ص ٥، ٧)

وقنسرين، وحاصر أهل إيلياء، وعرض عليهم الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، فأبوا إلا التسليم والجزية، ولكن أبوا أن يسلموا إلا في وجود عمر بن الخطاب^(١) ولبي الخليفة عمر رضي الله عنه طلب أهل إيلياء بالذهاب بنفسه وتسلم مفاتيح القدس -خاصة أنه كان قريباً منهم بوصوله إلى مسرح العمليات العسكرية ونزوله بالجابية- من البطريرك صفرونيوس الذي تسلم أمور بيت المقدس بعد فرار الأرطوبون^(٢) وعقد عمر بن الخطاب صلحاً مع أهل إيلياء، وقد صيغت بنود هذا الصلح فيما يسمى بالعهد العمرية.

والعهد العمرية تناولتها المصادر التاريخية بصيغ، وطرائق مختلفة من حيث الإيجاز والاسترسال، فيما يمكن تقسيمه على ثلاثة أقسام.

القسم الأول:

نصوص مختصرة للعهد العمرية، ذكرها كل من اليعقوبي في تاريخه وسعيد بن البطريق في التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، فقد ذكر اليعقوبي ما نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس: إنكم آمنون على دماءكم وأموالكم، وكنائسكم لا تسكن ولا تخرب، إلا أن تحدثوا حدثاً عاماً، وأشهد شهوداً).^(٣)

أما النص الذي ذكره سعيد بن البطريق: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عمر بن الخطاب لأهل مدينة إيلياء: أنهم آمنون على دماءهم، وأولادهم، وأموالهم، وكنائسهم لا تهدم ولا تسكن، وأشهد شهوداً).^(٤)

- (١) البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ج ٥، ص ١٨٥.
- (٢) أرطوبون: يمكن قراءتها أطربون بوصفها كلمة معربة عن الكلمة اللاتينية تربيون، وهي رتبة عسكرية، ولقب للقائد الأعلى للجيش البيزنطي الذي يلي هرقل في المكانة (تاريخ الخلفاء الراشدين والفتوحات والإنجازات السياسية، محمد سهيل طقوش، دار النفائس، ط ١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٢٧١، هامش ١).
- (٣) تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بمن جعفر بن وهب)، مطبعة الغري، النجف، د. ط، ١٣٥٨هـ، ج ٢، ص ٢٧.
- (٤) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، أفيتشيوس سعيد بن بطريق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، د. ط، ١٩٠٥م، ص ١٦.

القسم الثاني:

نصوص طويلة للعهد العمرية: منها رواية الطبري ما نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله: عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه، وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه، وماله مع الروم، ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذين عليهم من الجزية، يشهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدالرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة).⁽¹⁾

القسم الثالث:

رواية المصادر اليونانية التي نشرتها البطريركية الأرثوذكسية في القدس في عام ١٩٥٢م، وهي مؤرخة في العشرين من شهر ربيع الأول عام ١٥هـ، تعد هذه الوثيقة من أبرز النصوص التي تناولها التغيير والزيادة، وهي

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري (محمد بن جرير الطبري)، دار التراث - بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ، ج٢، ص٩٠٦.

على طولها تعكس الأسلوب الكنسي في الكتابة الذي يبدو واضحاً، وتركز على الصلة الشخصية بين عمر بن الخطاب، والبطيريك صفرونيوس، وأن لهذه الصلة ارتباطاً كبيراً باستسلام المدينة.

• ومن أهم نقاط الصلح كما وردت في النص:

١. أعطى عمر بن الخطاب عهداً للبطيريك صفرونيوس بالأمان (لرعايا والقسوس، والرهبان والراهبات حيث كانوا، وأين وجدوا)، والواقع أن هذا ما جرى عليه المسلمون في معاملتهم لأهل الذمة.
٢. أعطى عمر بن الخطاب الأمان (عليهم وعلى كنائسهم، ودياراتهم وكافة زياراتهم التي بيدهم داخلاً وخارجاً، وهي القيامة وبيت لحم، ومولد عيسى عليه السلام كنيسة الكبريا، والمغارة ذات الثلاثة أبواب، قبلي وشمالي وغربي)، وهذا أيضاً ما جرى عليه المسلمون في معاملتهم لأهل الذمة.
٣. يكون (بقية أجناس النصارى الموجودين هناك، وهم الكرج^(١) والحبش، والذين يأتون للزيارة من الإفرنج والقبط، والسريان والأرمن والنساطرة، واليعاقبة والموارنة، تابعين للبطيريك المذكور، ويكون هو متقدماً عليهم).

يعد هذا النص بالغ الإيجابية، والقوة في يد صفرونيوس ومن يأتي بعده؛ لأنه أعطى بطيريك بيت المقدس الرسولي اليد العليا على سائر النصارى من مقيمين وزوار، وجعل له السلطان عليهم، وقد يلقي ذلك ضوءاً على أنه وضع لاحقاً لوضع حد للخلافات

(١) الكرج: هم جيل من الناس نصارى، كانوا يسكنون في جبال القبق، وترجع تسميتهم إلى بلاد الكرج، وهي من أعمال بلاد الروم، يقع أغلبها في جزائر صغيرة، في بحر بنطس، وهي على ساحل هذا البحر. وأخلاق أهلها شبيهة بأخلاق الروم من جميع الوجوه. (معجم البلدان، ابن ياقوت الحموي، دار صادر بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، ج١، ص ٦٤ / شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبدالحى بن أحمد بن محمد بن العماد، أبو الفلاح، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠١هـ / ١٩٨٦م، ج٥، ص ٢٦٢)

المذهبية على الرئاسة الروحية لكنيسة القيامة، ثم نسب إلى عمر ابن الخطاب لإكسابه أهمية، واستعماله حجة على أن الرئاسة للطائفة الأرثوذكسية على مر الأيام.

٤. إعفاء نصارى بيت المقدس من دفع (الجزية، والواجب من كافة البلايا في البر والبحور، وفي دخولهم للقيامة وبقية زياراتهم لا يؤخذ منهم شيء)، ويعد هذا النص وثيقة مهمة في يد سكان بيت المقدس الأصليين، لقد استنتجناهم من دفع الجزية، ذلك الحكم الذي جرى عليه عمل المسلمين في سائر فتوحهم، والملاحظ أننا لم نجد أي رواية تاريخية تستثني نصارى فلسطين بعامة، وبيت المقدس بخاصة من دفع الجزية، مما يفسر على أنه وضع لاحقاً لتمييز سكان بيت المقدس عن النصارى بعامة.

٥. (وأما الذين يقبلون إلى الزيارة إلى القيامة، يؤدي النصراني إلى البطريرك درهم وثلث من الفضة)، لقد أعطى هذا النص البطريرك، ومن خلاله نصارى بيت المقدس، الملكية المطلقة للأماكن المقدسة في المدينة وما يجاورها، وأذن لهم بجباية درهم، وثلث من الفضة من كل نصراني يزور كنيسة القيامة، والراجح أن هذا النص وضع لاحقاً، أيضاً لقطع الخلافات المذهبية على الرئاسة الروحية لكنيسة القيامة^(١).

ثانياً: العهدة لا الشروط:

وجب التنويه على أن هناك من خلط بين العهدة العمرية^(٢) وبناءً على ذلك شكك في نسبة العهدة العمرية لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

نص الشروط العمرية الوارد في بعض كتب التاريخ (هذا كتاب لعبدالله

(١) ساهاس، دانيال: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٦٧م، ص٧٦.

(٢) الشروط العمرية وردت في سنن البيهقي الكبرى، كتاب الجهاد، باب الإمام يكتب كتاب الصلح، وردت كذلك في أحكام أهل الذمة للعلامة ابن القيم، وفي تفسير ابن كثير وفي السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار بأسانيد تنتهي إلى عبدالرحمن بن غنم.

أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا، سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا قلاية ولا كنيسة ولا صومعة، وألا نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفيفاً... ولا نركب السروج، لا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله، ولا نتقلد السيوف....، وتقوم -أي نصارى بيت المقدس- للمسلمين عن المجالس إن أرادوا الجلوس... ولا يشارك أحد منا مسلماً في تجارة إلا أن يكون إلى مسلم أمر التجارة...⁽¹⁾ وسارت الشروط على هذا النسق الذي يظهر نوعاً من التعصب في التعامل مع أهل الذمة، بل ولقد ألف الإمام ابن القيم (٦٩١-٧٥١هـ = ١٢٩٢-١٣٥٠م) كتاباً يسمى أحكام أهل الذمة قائماً في أساسه على تلك الشروط، ولقد ناقش الأستاذ الدكتور عبدالعظيم أحمد عبدالعظيم في كتابه الممتع (حقوق غير المسلمين في الإسلام) تلك النصوص بأسانيدھا، وأثبت ضعف تلك الروايات، وعدم نسبتها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، بل وشكك مؤلف الكتاب في نسبة أحكام أهل الذمة لابن القيم، في توطئته للكتاب المذكور آنفاً، وأرى أن وضع مثل هذه الشروط ضمن سيرة أحداث التاريخ الإسلامي يرجع إلى نفسها الأسباب التي جعلت كثيراً من الفرق تضع أحاديث تخدم أغراضها سواء السياسية أو العقائدية؛ بما لا يسع لي في مجال هذا البحث أن أتحدث عنه باستفاضة، ولكن تكفي الإشارة؛ وعلى ما سبق وجب أن ننوه أن هناك فرقاً بين الشروط العمرية وبين العهدة العمرية موضوع البحث، وأن من أنكر نسبة العهدة العمرية للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما خلط بين الشروط والعهدة.



(١) أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية (محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، ت/ ٧٥١هـ)، رمادي للنشر - الدمام، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ج٣، ص١١٥٩/ حقوق غير المسلمين في الإسلام، عبدالعظيم أحمد عبدالعظيم، الرائد للطباعة، مصر، دمنهور، ط١، ١٠٢٠م، ص٦٢، ٦٣.

المحور الثاني تحليل ألفاظ العهدة العمرية، وتوضيح مظاهر الرحمة التي بها

يتضح من الروايات السابقة للعهد العُمري، أنه على الرغم من اختلاف بعض ألفاظها، وإيجاز واسترسال بعضها، إلا أن هناك قاسماً مشتركاً بينهم، وهو الرحمة والتسامح مع غير المسلمين من أهل إيلياء، بما يتوافق مع الإسلام في نصوصه ومنهجه ككل، وهذا ما أحاول أن أبرزه في هذا المبحث، من خلال تحليل ألفاظ العهدة، بما تضمنه من مظاهر رحمة: كتطبيق عملي لمنهج الإسلام في الرحمة مع غير المسلمين من خلال حسن معاملتهم.

أولاً: أهم ملامح شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

اشتهر عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل الإسلام وبعد الإسلام بالشدة، وأخذ الأمور إلى مسار واحد دون التفكير في حلول أخرى أكثر رفقاً، وهذا واضح من خلال سيرته مع النبي صلى الله عليه وسلم فعلى سبيل المثال، عندما عقد النبي صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية مع قريش ٦هـ، وكانت إحدى بنود الصلح: (أنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليه رده محمد إليه)^(١)، ثم أتى أبو

(١) إمتاع الأسماع، المقرئزي (تقي الدين المقرئزي)، تحقيق/ محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ج١، ص٢٩٥.

جندل^(١) فرده النبي ﷺ وفقاً لبنود الصلح، فغضب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال للنبي ﷺ: (ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! فلما نعطي الدنية في ديننا؟)^(٢)، كذلك أظهر بعض الأعراب المشتركين في غزوة حنين ٨هـ جفاءً وغلظة عند قسمة الغنائم بالجعرانة^(٣)، فقال أحدهم مخاطباً الرسول ﷺ: "أعدل، فقال: شقيت إن لم أعدل". وقد غضب عمر بن الخطاب من كلام الأعرابي، فطلب من الرسول ﷺ أن يأذن له بقتله، فأبى عليه، وقال: "معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي"^(٤)، هذه شخصية عمر رضي الله عنه التي بمرور الوقت أثر الإسلام فيها لتبرز جوانبها الطيبة المشعة بالرحمة، خاصة بعدما أصبح أميراً للمؤمنين، وفي موضع المسؤولية.

أما عن العهدة العمرية ومدى توافقتها مع نصوص ومنهج الإسلام، أقوم بتقسيم العهدة إلى بنود، أو نقاط، ومطابقة كل بند مع نصوص الشريعة، كالآتي:

١. تأمين أهل الذمة على أرواحهم وأموالهم.

(١) أبو جندل بن سهيل بن عمرو القرشي العامري، أسلم قديماً بمكة، فحبسه أبوه وأوثقه في الحديد، ومنعه الهجرة، ثم أفلت بعد الحديبية، فخرج إلى أبي بصير بالعيص، فلم يزل معه حتى مات أبو بصير، فقدم أبو جندل ومن كان معه من المسلمين المدينة على رسول الله ﷺ، فلم يزل يغزو معه حتى قبض رسول الله ﷺ، فخرج إلى الشام في أول من خرج إليها من المسلمين، فلم يزل يغزو، ويجاهد في سبيل الله حتى مات بالشام في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة، في خلافة عمر بن الخطاب (الطبقات الكبرى، ابن سعد - أبو عبد الله محمد بن سعد البصري)، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، ج ٧، ص ٢٨٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إِذْ يَبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، ج ٦، ص ١٣٦، رقم ٤٨٤٤ / المغازي، الواقدي (أبو عبد الله الواقدي)، دار الأملية - بيروت، ط ٣، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩، ج ٢، ص ٨٠٦.

(٣) الجعرانة: وهي ماء بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب، نزلها النبي ﷺ، لما قسم غنائم هوازن مرجعه من غزاة حنين وأحرم منها، ﷺ، وله فيها مسجد، وبها بئار متقاربة (معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج ٢، ص ١٤٢).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، ج ٢، ص ٧٤، رقم ٦٣٠١ / أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، ط ٦، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥ م، ج ٢، ص ٥١٤.

٢. حرية الاعتقاد، والعبادة.
٣. كنائسهم لا تسكن ولا تخرب
٤. عدم الإهانة أو الانتقاص من رمز العقيدة عندهم وهو الصليب.
٥. مطلق الحرية لأهلها في البقاء أو الارتحال دون قيود.
٦. إعفاء نصارى بيت المقدس من دفع الجزية.
٧. تأمين من أراد الخروج في نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه.
٨. الحفاظ على الكنائس والصلبان كأمانة، لمن أراد أن يخرج بنفسه دونهم.
٩. عدم التعرض لسلطان الكنيسة على رعاياها، أو الانتقاص من هذا السلطان.
١٠. السماح لزيارة بيت المقدس وما بها من مقدسات مسيحية بحرية.
١١. حق كل إنسان في العيش بكرامة، دون الاعتداء عليه، بصرف النظر عن دينه أو جنسه.
١٢. الحفاظ على أسرى الحرب وتأمينهم.
١٣. حرية كل إنسان أن يقيم أين أراد دون فرض الإقامة الجبرية على أحد لمجرد مخالفة الديانة.
١٤. الوفاء بالعقود والمواثيق.

والبنود السابقة خير دليل على مدى مظاهر الرحمة مع غير المسلم، التي تولدت منها العهدة العمرية، ولم يكن ذلك إلا تمشيئاً مع منهج وشريعة الإسلام الذي وصف الله ﷺ نبيه بقوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء، ١٠٧]، وهذا ما وضع من خلال ذكر نصوص تحث على

الرحمة مع غير مسلم، سواء من القرآن، أو صحيح الحديث، وتطابقهما مع بنود العهدة سالفة الذكر.

ثانياً: ترابط العهدة بنصوص من القرآن الكريم:

١. قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة] والآية واضحة في إطلاق حرية الاعتقاد دون إكراه لأحد، وهذا قمة الرحمة، لأن الله تعالى لم يجعل الدخول في دينه عن طريق القهر والقسر، وهو الذي قال ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ فَسَّكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [٣] إِنْ دَشَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٣-٤].

ولكن الله ﷻ يريد خضوع قلوب، لا إخضاع أعناق، وما كانت الحروب في الإسلام إلا لإزالة قهر من يفرضون على الناس اعتقاد بعينه ويجبرونهم عليه، فإذا زال هذا السلطان الغاشم، ظهرت الرحمة وتجلت في الحرية الكاملة لكل من يريد أن يعتنق فكراً، واعتقاداً مخالفة، دون المساس به لاعتقاده، وهذا ما تجلى واضحاً في نص العهدة وبنودها.

٢. قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة]، فلا شك أن المؤمن يبعث في الكافر كفره فقط، أي فعله واعتقاده لا نفسه وذاته، ومع ذلك يضع الله ﷻ مبدأً عظيماً حين التعامل مع غير المسلم، وهو العدل معهم بعدم بخسهم حقهم أو حتى الاعتداء على حق من حقوقهم، قال القرطبي: (دلت الآية على أن كفر الكافر لا يمنع

العدل معه، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن المثلة بهم غير جائزة، وإن قتلوا أبناءنا وأطفالنا وغمونا بذلك، فليس لنا أن تلهم بمثله قصداً لإيصال الغم والحزن إليهم^(١)

وهذا ما سطرته أحداث كثيرة في سيرة النبي ﷺ، وكذلك سيرة أصحابه، وما أصبح جلياً في العهدة العمرية، التي ضمنت الحفاظ على المقدسات النصرانية من كنائس وصلبان وغيرها، وعدم السماح لأحد بالاعتداء عليها بغير وجه حق، على الرغم من مخالفة أصحابها لنا في العقيدة، ولكنه العدل الذي قامت به السماوات والأرض، والذي تتجلى منه صورة الرحمة في أبهى صورة له.

٣. قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾

[المائدة: ٢٢]، وهذا الحكم على الرغم أنه موجه لبني إسرائيل لأنهم أول أمة نزل عليهم الوعيد بسبب القتل ظلماً وعدواناً مكتوباً، إلا أنه حكم عام يشمل جميع الأمم، وهو في أمة الإسلام أكد، فحفظ النفس في الإسلام أمر مقدس ليس فيه جدل، وحفظ النفس غير متوقف على دين أو نحلة، بل هو مكفول للجميع، فلا تعدي بالقتل على أحد إلا بحق، حتى ولو كان غير مسلم، وهذا ما أكدته الآية الكريمة الأخرى، حيث يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]، فالأمة مطالبة أن تعدل في التعامل مع غير المسلم، ولا تعتدي عليه مادام هو غير معتدّ بظلم، وهذا ما أستقرئه من نص وبنود العهدة موضوع البحث.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (أبو عبد الله القرطبي)، تحقيق أحمد البردوني، دار الشعب/ القاهرة، ط ٢، ١٣٧٢هـ

٤ . قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُّوا
إِلَى اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال الله ﷻ: ﴿فَمَنْ
أَعْدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْدَىٰ عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، تؤكد هاتان الآيتان على المعنى السابق الذي
أسلفت ذكره مع التأكيد على عدم التجاوز حين مقابلة الاعتداء
بظلم برد هذا الاعتداء أن يكون هناك تجاوز يفضي إلى ظلم، فمن
رقي التشريع الإسلامي أنه يضع حدوداً وضوابط حين رد العدوان
بعنوان مثله، أن لا يتجاوز الإنسان، فيقع في ظلم، لذا أكد سبحانه
وتعالى على هذا المعنى بقوله: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾
وهذا ما يتضح من نص العهدة العمرية لأهل إيلياء.

على أن المتبع لنصوص القرآن يستخرج درراً لامعة تبرز أرقى معاني
الرحمة والإنسانية في الإسلام خاصة مع غير المسلم، الذي رفض أن
يتبع تلك الشريعة السمحة، فلا يمنعه هذا أن يقابل بكل إنسانية ورحمة.

ثالثاً: في سيرة النبي ﷺ وسنته:

إن مواقف التسامح والرحمة مع غير المسلمين من قبل النبي ﷺ
متعددة، وكل موقف بمثابة صورة معبرة عن معنى راقٍ من معاني التسامح
الإنساني والرحمة بين بني البشر على الرغم من اختلاف العقيدة، وهذا
ما مثلته سيرة النبي ﷺ، فكان بمثابة نبراساً أضاء لمن عايشوه من
الصحابة طريقهم، حين تعاملوا مع غيرهم من غير المسلمين، وأنهم كيف
يقدمون لهم صورة حية عن الرحمة؟ ما هي إلا فرع من أصل، وغيض من
فيض، لأنهم تلامذة المبعوث رحمة للعالمين ﷺ، ولما لا وهو الذي قال:
(وإنما بُعث رحمة) (١)

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، ج٤، ص ٦٠٠٢،

١. عهد نصارى نجران^(١):

كتب النبي ﷺ لأهل نجران أمناً شمل سلامة كنائسهم وعدم التدخل في شؤونهم وعباداتهم، وأعطاهم على ذلك ذمة الله وذمة رسوله، يقول ابن سعد: (وكتب رسول الله ﷺ لأسقف بني الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم: أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير، من بيعهم وصلواتهم ورهبانهم، وجوار الله ورسوله، لا يغير أسقف عن أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولا كاهن عن كهانته)^(٢).

٢. مسألة الجزية:

الجزية من الفعل جزی، فهو يجزئ، أي كافأ عما أسدي إليه، والجزية في الإسلام لها أحكام، وليست كما يتصور البعض أنها تُؤخذ من غير المسلم مقابل كفره، إذ لو أن الأمر هكذا لما أعفي منها الرهبان، أو رجال الدين، فهم الأولى إذا بالدفع، وكذلك لما أعفي منها النساء والشيوخ والأطفال، بل كانت تُؤخذ من الرجال الأشداء، الأقوياء القادرين على حمل السلاح، ويرجع تقديرها لولي الأمر، ففي زمن الرسول ﷺ لم تجاوز جزية الفرد الدينار الواحد، فحين أرسل معاذ بن جبل^(٣) إلى اليمن أخذ من كل حالم ديناراً، قال معاذ: (بعثني رسول الله ﷺ إلى

(١) نَجْرَانُ: بالفتح ثم السكون، وآخره نون، ونجران في مخاليف اليمن من ناحية مكة (معجم

البلدان، ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٣٦٦)

(٢) الطبقات الكبرى، ابن سعد، ص ٤٠٢

(٣) معاذ بن جبل (٢٠٢ هـ - ١٨ هـ = ٦٣٩ - ٣٠٦ م) وهو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري

الخرزجي، أبو عبد الرحمن: صحابي جليل، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام. وهو أحد الستة

الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ. أسلم وهو فتى، وأخى النبي ﷺ بينه وبين جعفر بن أبي

طالب. وشهد العقبة مع الأنصار السبعين. وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول

الله ﷺ وبعثه رسول الله، بعد غزوة تبوك، قاضيًا ومرشدًا لأهل اليمن، وأرسل معه كتابًا إليهم،

يقول فيه: (إني بعثت لكم خير أهلي) فبقي في اليمن إلى أن توفي النبي ﷺ وولي أبو بكر، فعاد

إلى المدينة. ثم كان مع أبي عبيدة بن الجراح في غزو الشام. ولما أصيب أبو عبيدة (في طاعون

عمواس) استخلف معاذًا. وأقره عمر، فمات في ذلك العام. (الأعلام للزركلي، ج ٧، ص ٢٥٨)

اليمن، فأمرني أن آخذ من كل ثلاثين بقرة تبيعاً، ومن كل أربعين مسنة تلك زكاة المسلمين، ومن كل حالم ديناراً، أو عدله معافر أي ثياب^(١).

٣. التحذير من ظلم أهل الذمة:

وحذر النبي ﷺ من ظلم أهل الذمة وانتقاص حقوقهم، وجعل نفسه الشريفة خصماً للمعتدى عليهم، فقال: (من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة)^(٢)، وأكد كذلك أن ظلم غير المسلم موجب لانتقام الله، الذي يقبل شكاته ودعوته على ظالمه المسلم، فقال ﷺ (اتقوا دعوة المظلوم - وإن كان كافراً - فإنه ليس دونها حجاب)^(٣).

٤. التأمين عند العجز:

ضمن الإسلام لغير المسلم العيش الملائم، ما دام أنه من رعايا الدولة الإسلامية من باب قول النبي ﷺ: (كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالإمام راع، وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع، وهو مسئول عن رعيته)^(٤) ففي عقد الذمة الذي كتبه خالد بن الوليد لأهل الحيرة بالعراق، وكانوا من النصارى: وجعلت لهم: أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين

(١) رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في زكاة البقر، ج٢، ص١١، رقم ٦٢٢، قال الألباني: حديث صحيح

(٢) رواه أبو داود في السنن، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا، ج٣، ص١٧، رقم ٥٢٠٣، قال الألباني في تعليقه على سنن أبي داود: صحيح

(٣) مسند الإمام أحمد، مسند أنس بن مالك ﷺ، ج٢، ص٢٢، رقم ١٢٥٤٩، قال الألباني في صحيح الجامع برقم ١١٩: حسن.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الاستقراض، باب العبد راع في مال سيده، ج٣، ص١٢، رقم ٩٠٢٤.

هو وعياله، وكان هذا في عهد أبي بكر الصديق، وبحضرة عدد كبير من الصحابة، وقد كب خالد به إلى أبي بكر ولم ينكر عليه أحد، وهذا يعد إجماعاً من الصحابة^(١)، وهو ما تعلموه من النبي ﷺ.

٥. لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها:

عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: غزوت مع رسول الله ﷺ خيبر فأنت اليهود، فشكوا أن الناس قد أسرعوا إلى حظائهم، فقال رسول الله ﷺ: (ألا لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها)^(٢)

٦. الحفاظ على حياة المعاهد:

لم يكن اختلاف العقيدة أبداً ذريعة أو مبرراً للقتل، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً)^(٣)

٧. التشديد على منع قتل نساء وأطفال المقاتلين:

روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: أن امرأة وُجِدَت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان، وفي رواية لهما: أنه نهى ﷺ عن قتل النساء والصبيان^(٤)

٨. الوفاء بالعهد:

قال ابن القيم: وكان من هدي النبي ﷺ أن أعداءه إذا عاهدوا واحداً

(١) حقوق غير المسلمين في الإسلام، عبد العظيم أحمد عبد العظيم، ص ٢٥
(٢) سنن أبي داود، باب: النهي عن أكل السباع، ج ٥، ص ٦٢٣، قال الألباني: إسناده ضعيف لضعف صالح بن يحيى بن المقدم، على نكارة في منته في ذكر النهي عن لحوم الخيل.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الديات، باب إثم من قتل ذمياً من غير جرم، ج ٩، ص ١٢، حديث رقم ٦٩١٤
(٤) صحيح البخاري، باب قتل الصبيان في الحرب، ج ٤، ص ٦١، حديث رقم ١٤٠٣ / صحيح مسلم، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، ج ٣، ص ١٣٦٤، حديث رقم، ١٧٤٤

من أصحابه على عهد لا يضر بالمسلمين من غير رضاه أمضاه لهم، كما عاهدوا حذيفة وأباه الحُسيل أن لا يقاتلهم معه ﷺ، فأَمْضَى لهم ذلك، وقال لهم: (انصرفا، نفي لهم بعهدهم، نستعين الله عليهم) (١)

ومما سبق من نصوص قرآنية، ووقائع نبوية، دليل على أن عمر بن الخطاب ﷺ كان متأثراً بروح النصوص الشرعية عن فهم واع وعميق لدلالات ومناطات تلك النصوص، ومترجماً معنى راقياً للرحمة، ورأساً صورة رائعة لحسن التعامل مع غير المسلم واحترام معتقده، وحرمة التعدي عليه في نفسه، أو عرضه، أو ماله، أو حتى مقدساته، بل والعمل على الحفاظ على هذه الأمور السابقة، وتلك هي صورة من صور الرحمة في الإسلام، التي قلما توجد - أو لا توجد - في أمة سابقة أو لاحقة.



(١) صحيح مسلم، باب: الوفاء بالعهد، ج٣، ص ١٤١٤، رقم ١٧٨٧ / ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير

العباد، ج٣، ص ٣٦٩

المحور الثالث أثر العهدة العمرية في انتشار الإسلام

كل عصر من العصور له أدواته الإعلامية التي تتماشى مع الحقبة الزمنية الموجودة، ولكن لا يُتخيل وجود حقبة زمنية دون آلة إعلامية تنقل ما يجري من أحداث، وتداول الأخبار، والإسلام-كديانة جديدة أصبح لها كيان سياسي متمثل في دولة الخلافة- حدث لا يمكن تجاهله من الآخرين، خاصة وقد أصبح له مجال انتشار وتوسع، والعهدة العمرية-أو ما يسمى صلح بيت المقدس- حدث كان له أكبر الأثر في نفوس الأغلب، مما أوقع في نفوسهم تقدير هذا الدين وتلك الشريعة التي تحوي من الإنسانية والرحمة صوراً مفتقدة حتى في شرائعهم، دفعهم هذا الشعور إلى أن يعتنقوا هذا الدين، قد يكون في أول الأمر من أجل الحصول على حياة أفضل يعمها العدل والرحمة، ثم بعد ذلك سرت روح الشريعة في داخلهم فجعلتهم ينتفضون، ويتوجهون إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد.

١. الشام البيزنطي:

الإمبراطورية البيزنطية امتلكت جزءاً كبيراً امتد في وقت الصلح ليشمل القسطنطينية وجزر بحر إيجه وجنوب إيطاليا وولاية شمال أفريقية حول قرطاجنة، فضلاً عن جزء من آسيا الصغرى^(١) أما بلاد الشام فقد امتدت

(١) أوروبا في العصور الوسطى، سعيد عبدالفتاح عاشور، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٦، ١٩٧٥م، ج١،

إليها الفتوحات الإسلامية -إلا النذر اليسير-، حيث إن العهدة العمرية هي صلح بيت المقدس الذي هو جزءاً من بلاد الشام، ومن ثم هذا المبحث يتناول أثر العهدة العمرية في نشر الإسلام في مصر والشمال الإفريقي.

أ. دخول عمر إلى بيت المقدس:

دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بيت المقدس بعقد الصلح، ومعه البطريرك صفرونيوس يدلهم على آثارها، وأماكن الحج فيها، ثم دخلوا كنيسة القيامة، وجلسوا في رواقها، وأدرك عمر الصلاة، فطلب البطريرك منه أن يصلي بها، فهي من مساجد الله، لكن عمر بن الخطاب خشي إن فعل هذا أن يتبعه المسلمون كسنة، ويضعون يدهم عليها -وهذا يناقض عهد الأمان-، وكذلك اعتذر عن الصلاة في كنيسة قسطنطين المجاورة للسبب نفسه، بل وأعطى للنصارى عهداً أن لا يصلي المسلمون على عتاب الكنائس جماعة^(١)، وزار عمر كذلك كنيسة المهد في بيت لحم، ولما أدركه وقت الصلاة لم يصل بها، ولم يصل للسبب نفسه، بل وأعطى للبطريرك عهداً خاصاً يجعل هذه الكنيسة للنصارى، ويحدد دخول المسلمين إليها بشخص واحد في كل مرة، فهذه المشاهد السابقة إنما هي الترجمة العملية لبنود العهدة العمرية.

مكث عمر بن الخطاب في بيت المقدس عشرة أيام^(٢) ثم عاد عمر مع قادة جيشه إلى الجابية لاستكمال مناقشاته ومشاوراته في شؤون المسلمين، وتنظيم ما تم فتحه من بلاد الشام

ب- أثر العهدة العمرية في المناطق المجاورة:

انتشر صلح بيت المقدس في المناطق المجاورة، وبسبب ما حصل عليه

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ج٣، ص ٨٠٦.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ج٣، ص ٩٠٦.

النصارى بموجبه من امتيازات، تسابقت قرى المناطق في الحصول على صلح مماثل في شروطه، وقد ظفر أهل البلد من عمر بكتاب جرى عليهم، وعلى البلاد التي دخلت من بعد معهم فيه، فأعطاهم أماناً على أنفسهم، وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم وأن لا يُكرهوا على دينهم، ولا يضار أحداً منهم على أن يعطوا من الجزية ما يعطي أهل مدائن الشام^(١)، وهذا ما أعطى لأهل تلك الأمصار أن يقتربوا من الإسلام أكثر ويتعرفوا عليه، ثم ما يلبث من اقتنع قلبه منهم واطمئن إلا أن يعلن دخوله في دين وتحت مظلة شريعة لا يُظلم فيها أحد، بل قد يحصلون على حقوق لم تكن لهم في ظل ديانتهم هم وتحت حكم بني جلدتهم.

وهذا ما يتضح من خلال الأمثلة والنماذج الآتية:

١. بعد الصلح:

إن الخليفة عمر بن الخطاب تجلى حرصه على أموال النصارى في تصرفه -لدى وصوله القدس- عندما علم بأن المسلمين سيطروا على كرم من العنب يقع قرب المدينة، وكان تحت يد الروم وقد غلبهم المسلمون عليه، وكان الكرم لرجل من النصارى، فأخذ المسلمون يأكلون من عنب ذلك الكرم، فأسرع النصراني إلى عمر بن الخطاب شاكياً، فدعا عمر ببرذون^(٢) له، ثم خرج يركض به ليردّ المسلمين عن الكرم، فلقي في طريقه أبا هريرة يحمل فوق رأسه عنباً، فقال له الخليفة عمر: وأنت أيضاً يا أبا هريرة؟ فقال أبو هريرة: يا أمير المؤمنين، أصابتنا مخمصة شديدة، فكان أحق من أكلنا من ماله من قاتلنا، وعند ذلك استدعى عمر صاحب

(١) تاريخ الرسل والملوك، الطبري، ج ٣ ص ٩٠٦، ٩٠٦.

(٢) برذون: جمعها برادين، وهي الفرس الأصيل (تكلمة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دوزي، وزارة

الثقافة والإعلام، العراق، ط ١، ١٩٧٩م، ج ١، ص ٢٨٣

الكرم، وطلب منه أن يقدر ثمن محصوله، لأن الناس كانوا قد أكلوه، فقدره الذمي، ودفع له عمر ثمنه، فما كان من الذمي إلا أن أسلم^(١).

٢. مصر:

تعرض الأقباط في مصر قبل الفتح الإسلامي للاضطهاد على أيدي البيزنطيين، ومن ثم رأوا في الفتح الإسلامي على يد عمرو بن العاص الخلاص مما هم فيه، فرحبوا بدخول المسلمين مصر^(٢) وغادر البلاد عدد كبير من البيزنطيين مصر، وكانت أخبار العهدة العمرية تسربت إلى مصر، فلقي الأقباط من الحكم الجديد ما شعروا معه بكثير من الحرية، ولعل أول عمل قام به عمرو بن العاص الإعلان بين الناس جميعاً أن لا إكراه في الدين، وأن حرية العقيدة أمر مقدس، فلن يتعرض لأحد في حرته أو ماله بسبب دينه أو مذهبه، وخيرهم بين الدخول في الإسلام أو البقاء على دينهم، فمن يدخل في الإسلام يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم^(٣).

ويذكر في هذا المقام أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو أن يسأل المقوقس في خير وسيلة لحكم البلاد وجباية أموالهم فأشار عليه المقوقس بالشروط الآتية:

١. أن يستخرج خراج مصر في وقت واحد، عند فراغ الناس من زروعهم.

٢. أن يرفع خراجها في وقت واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم.

(١) الأُس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين العليمي، عمان ١٩٧٧م، ج ١، ص ٢٥٣
(٢) اختلف المؤرخون هل فتحت مصر عنوة أم صلحاً، ولكن بالمقارنة بين الروايات التاريخية يتبين لنا أن الإسكندرية فقط هي التي فتحت عنوة، قد أخبر عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب بأن الإسكندرية فتحت بلا عقد ولا عهد، أما باقي مصر فالراجح أنها صلحاً بين عمرو بن العاص والمقوقس بفرض جزية على القبط دينارين، راجع (تاريخ خليفة بن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار القلم/ مؤسسة الرسالة، دمشق - بيروت، ط٢، ١٣٩٧هـ، ج ١، ص ١٤١، ١٤٢)

(٣) تاريخ الخلفاء الراشدين والفتوحات والإنجازات السياسية، محمد سهيل طقوش، ص ٢١٥

٣. أن تصلح جسورها وتسد ترعها .

٤. ألا يُختار عامل ظالم ليلي أمورها .

• دلالة قصة ابن عمرو مع قبطي مصر:

عمرو بن العاص رضي الله عنه هو الأمير الفاتح لمصر، وابنه محمد بن عمرو ابن العاص رضي الله عنه هو ابن الأمير، وكان هذا في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال: "يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك"، قال: "وما لك؟"، قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل فأقبلت، فلما رآها الناس، قام محمد بن عمرو فقال: "فرسي ورب الكعبة، فلما دنا منه عرفته، فقلت: فرسي ورب الكعبة، فقام إليّ يضربني بالسوط، ويقول: "خذها وأنا ابن الأكرمين". قال: فوالله ما زاده عمر أن قال له: "أجلس، ثم كتب إلى عمرو إذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبل معك بابنك محمد، قال: فدعا عمرو ابنه فقال: "أحدثت حدثاً؟ أجريت جنابة؟"، قال: "لا"، قال: "فما بال عمر يكتب فيك؟"، قال: فقدم على عمر، قال أنس: فوالله إنا عند عمر حتى إذا نحن بعمرو، وقد أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه؟، فإذا هو خلف أبيه، قال: "أين المصري؟"، قال: "ها أنا ذا"، قال: "دونك الدرّة فاضرب ابن الأكرمين، اضرب ابن الأكرمين".

قال فضربه حتى أثخنه، ثم قال: أحلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، فقال: "يا أمير المؤمنين، قد ضربت من ضربني"، قال: "أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه، يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم

أمهاتهم أحراراً؟^١، ثم التفت إلى المصري فقال: ”انصرف راشداً،
فإن رابك ريب فاكتب إلي^(١)“.

هذا المشهد يسترعي الانتباه، إذ كيف لقبطي يتحمل مشاق السفر حتى يصل إلى المدينة مقرر حكم خليفة المسلمين من أجل أن يشتكي لطمة على الوجه، في حين أنه كان يعاني الاضطهاد والتتكيل في ظلم الحكم البيزنطي، هذا لا يكون إلا ليقين الرجل في عدالة عمر بن الخطاب ورحمته، وما رآه وسمعه عن المسلمين حين دخلوا بلدان أخرى، كيف كانوا يتعاملون مع أهلها بالعدل والإنسانية، وتلك هي مظاهر الرحمة التي جعلت كثيراً من أهل مصر وغيرها من البلدان يبادرون باعترافهم بدين الإسلام، الذي وجدوا فيه أرق معاني الإنسانية والرحمة، وليس كما يدعي البعض أنهم ما دخلوا في الإسلام إلا هرباً من دفع الجزية، إذ لا يعقل أن يغير الإنسان، أو حتى يتظاهر بعقيدة غير عقيدته من أجل دينارين فقط.



(١) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ابن مبرد الحنبلي، تحقيق عبدالعزيز محمد عبدالمحسن، عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٢ م، ج٢، ص ٤٧٣ نظرة على واقعنا الإسلامي المعاصر، محمد الغزالي، دار ثابت القاهرة، ط٢، ١٩٩٨ م، ص ٢٤.

المحور الرابع العهد العمرية ومواثيق حقوق الإنسان

في هذا المحور أحاول إثبات أن العهد العمرية سبقت بمئات السنين مؤسسة ومنظمات حقوق الإنسان الدولية، التي طالما سعت من أجل الحفاظ على الإنسانية بغض النظر عن العرق أو الجنس أو الدين أو اللغة، بالمقارنة بيت العهد العمرية ومواثيق حقوق الإنسان يتضح هذا المعنى جلياً، بصورة لا يستطيع أي منصف أن ينكرها، ولا يطمسها إلا حاقداً أو مدلساً.

أولاً: حقوق غير المسلمين المستمدة من العهد العمرية:

استناداً إلى العهد العمرية المستمدة من الكتاب والسنة، التي وقعت على منوالها معاهدات كثيرة في بلاد الشام، ومصر. استخلص الفقهاء حقوقاً لغير المسلم في دولة الإسلام، منها:

١. حفظ النفس، فدم الدمي كدم المسلم، قال علي عليه السلام: من كان له ذمتنا، فدمه كدمنا، وديته كديتنا^(١).

٢. القانون المدني سواءً فيه الدمي والمسلم، وأموال الدميين كأموالنا، ويضمن المسلم قيمة خمر الدمي وخنزيره إذا أتلفه^(٢).

(١) هذا حديث موقوف على علي بن أبي طالب عليه السلام ورد في مسند الشافعي برقم ٣٥١، من رواية أبي الجنوب الأسدي، وقد ضعفه بعض العلماء لأن أبا الجنوب ضعيف، لكن له شواهد تقويه مثل:

حديث «من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة» رواه أبو داود في السنن، وقال الألباني: حديث صحيح الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار، علاء الدين الحصكفي، تحقيق/ عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ج ١، ص ٣٣٧



٣. الأعراض: فلا يجوز إيذاء غير المسلم لا باليد ولا باللسان، ولا شتمه ولا غيبته، ورد في الدر المختار: ويجب كف الأذى عنه، وتحريم غيبته كالمسلم.^(١)

٤. الأحوال الشخصية: يقضى بها الذميون بحسب قانونهم الشخصي.

٥. لغير المسلم الحق في إظهار شعائره في معابده.

٦. لا يجوز في الجزية أن يكلفوا ما لا يطيقون، ومن يفقر أو يحتج

فلا يعفى من الجزية فحسب، بل يجرى له العطاء من بيت المال.

لذلك كله، عاش غير المسلمين في كنف الإسلام بحرية وعدل وإنصاف

ومراعاة للعبادات، وفق مبادئ الإسلام الثابتة الدائمة.

ثانياً: العهدة العمرية وحقوق الإنسان:

سبقت الشريعة الإسلامية منظمات حقوق الإنسان بمختلف مجالاتها،

فمثلاً أقر الإسلام مبدأ الحرية والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين في

الإنسانية المطلقة، وكفل الإسلام بأن يكون لكل إنسان مأوى أو مسكن

آمن، وكان للإسلام الفضل في تقرير الحقوق الاقتصادية والاجتماعية

والثقافية، فقرر حق الملكية وحق التجارة وحق العمل، وكذلك حق

الإنسان في الحياة بغض النظر عن جنسه ولونه ودينه ولغته، حرية

العقيدة، والنصوص التشريعية الدالة على ذلك كثيرة جداً، ولنا ضرب

المثل بالعهدة العمرية موضوع البحث، وكيف أن نص تلك العهدة وما بها

من معاني كثيرة من الإنسانية بوصفها مظهرًا من مظاهر الرحمة، كانت

بمثابة المنبع لكثير من نصوص موثيق حقوق الإنسان، سواء على الصعيد

الإقليمي أو العالمي، سواء فيما يتعلق بالطفل أو المرأة، أو أي إنسان.

(١) الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار، علاء الدين الحصكفي، تحقيق/ عبد المنعم خليل

إبراهيم، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج ١، ص ٢٢٧

ونعرض بعضاً من النماذج الحقوقية الدولية مقارنة بما أتى في العهدة العمرية:

أ. على الصعيد القانوني كانت سبّاقة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:

أما على الصعيد القانوني فقد جاءت العهدة العمرية سبّاقة بقرون عديدة لما يُعرف في عصرنا بـ «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» لناحية تكريس مجموعة من الحقوق لنصارى القدس في ظل الفتح الإسلامي لها منبعا الآيات القرآنية السابق ذكرها آنفاً وغيرها بحيث ترجمتها «العهد العُمريّة» إلى واقع تعايش بين الحكم الإسلامي وسكان القدس من النصارى^(١).

١. الحق بالحياة والسلامة:

العهد العُمريّة أكدت على الحق بالحياة وسلامة نصارى القدس الجسدية من أي اعتداء من قبل الغير، الأمر الذي ورد في عصرنا اليوم في المادة ٣ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، حيث نصت المادة على (لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه)^(٢).

٢. منع التعرض لأموال النصارى:

كذلك فإنها منعت التعرض لأموال النصارى في أوقات كانت أموال الغير تصادر في الفتوحات والحروب بين الشعوب، الأمر الذي يتماشى في عصرنا اليوم مع المادة ١٧ من «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» الذي يكرس حق الملكية الخاصة ويحميها من عدم جواز تجريد الفرد منها تعسفاً^(٣).

(١) مجموعة الكتيبات السنوية للأمم المتحدة على قرص مدمج ١٩٤٦: ١٩٩٩م، الفصل الخامس، الأمم المتحدة ٢٠٠٢م

(٢) مجموعة الكتيبات السنوية للأمم المتحدة على قرص مدمج ١٩٤٦: ١٩٩٩م، الفصل الخامس، الأمم المتحدة ٢٠٠٢م

(٣) مجموعة الكتيبات السنوية للأمم المتحدة على قرص مدمج ١٩٤٦: ١٩٩٩م، الفصل الخامس، الأمم المتحدة ٢٠٠٢م

٣. حرية العبادة والعقيدة:

وأيضاً ورد في العهدة العمرية ضمان حرية عبادة نصارى القدس (أهل إيلياء)، حيث لم تُهدم الكنائس فيها ولا تُتقص منها ولا من حيزها، وأعطى الأمان على الكنائس والصلبان، إن الحق في حرية التفكير والضمير والدين وإقامة الشعائر ومراعاتها، سواء أكان ذلك سرّاً أم مع الجماعة كرس في المادة ١٨ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان^(١).

٤. حرية اختيار الإقامة والتنقل:

أسلفنا الذكر أن العهدة العمرية أكدت على حرية كل إنسان أن يقيم أين أراد دون فرض الإقامة الجبرية على أحد لمجرد مخالفة الديانة، وهذا ما يتوافق مع المادة ١٣ من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بما نصه: (لكل فرد حرية التنقل واختيار محل الإقامة داخل حدود كل دولة، ويحق لكل فرد أن يغادر أي بلد بما في ذلك بلده، كما يحق له العودة إليه)^(٢).

٥. حق الأمان:

حيث كفلت وثيقة العهدة ومن ورائها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الأمان للسكان من أهل الكتاب، على أنفسهم وأموالهم، فلا تمس بسوء أو ضرر، أو إكراه أو مضايقة أو مصادرة^(٣) وهذا ما يتماشى مع المادة ١٢ من الإعلان التي نصها: (لا يعرض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة

(١) مجموعة الكتيبات السنوية للأمم المتحدة على قرص مدمج ١٩٤٦: ١٩٩٩م، الفصل الخامس،

الأمم المتحدة ٢٠٠٢م

(٢) مجموعة الكتيبات السنوية للأمم المتحدة على قرص مدمج ١٩٤٦: ١٩٩٩م، الفصل الخامس،

الأمم المتحدة ٢٠٠٢م

(٣) حقوق الإنسان في الوثائق الإسلامية، مصطفى بن حمو أرشوم، بحث منشور ضمن فاعليات

مؤتمر بعنوان الفقه الإسلامي، المشترك الإنسان والمصالح، جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم

الإنسانية - الجزائر، ٢٥/١٤٢٥هـ / ٢٠٠٢م، ص ٣٩

أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو الحملات على شرفه وسمعته، ولكل شخص الحق في حماية القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات)^(١).

٦. حق تقرير المصير السياسي:

كفلت العهدة لسكان إلبياء أن يقرروا مصيرهم بكل حرية وأمان، فإما أن يختاروا الانضواء تحت لواء المعاهدة، والقبول بشروطها حقوقاً وواجبات، وإما يرفضوا المعاهدة ومن ثم الخروج الآمن من القدس، والحق بالروم، برغم كونهم محاربين^(٢) وهذا متماشي مع المادة ١٤ من الإعلان، الذي نصه: (لكل فرد الحق في أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول اللجوء إليها هرباً من الاضطهاد)^(٣)، ويستتج من المعاهدة ما يدعو إليه الإسلام من تسامح وتعايش وتضامن ومساواة باعتبارها قيماً أخلاقية راقية لمعاملة الآخر، وهذه أسمى معاني الرحمة.

ب. اللجنة الدولية للصليب الأحمر والعهدة العمرية:

ولسماحة العهدة العمرية وغيرها من العهود في الإسلام، فإن اللجنة الدولية للصليب الأحمر في جنيف^(٤)، التي تستمد مهمتها من اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤، وبروتوكليها الإضافيين لعام ١٩٧٧م، وتعمل من أجل التطبيق الأمين وفقاً لحكم القانون الدولي الإنساني المطبق في المنازعات المسلحة، قد أصدرت كتاباً بخمس لغات هي اللغات المعتمدة في الأمم المتحدة، ومنها اللغة العربية عنوانه سجل التاريخ العربي - الإسلامي، جاء في مقدمة الكتاب ما نصه (بإطلالة واعية على التراث

(١) مجموعة الكتيبات السنوية للأمم المتحدة، مرجع سبق ذكره

(٢) مصطفى بن حمو أرشوم، مرجع سبق ذكره، ص ٤.

(٣) مجموعة الكتيبات السنوية للأمم المتحدة، مرجع سبق ذكره

(٤) هي منظمة تسعى للحفاظ على الإنسانية من ويلات الحروب وبمحاولة وضع حدود للحروب، تأسست سنة ١٨٦٣م على يد السويسري هنري دانون، تُعرف مجموعة الأحكام التي وُضعت لتلك الجمعية بالقانون الدولي الإنساني التي تشكل اتفاقيات جنيف حجر أساسه.

العربي الإسلامي العريق، يتبين لنا مدى حرصه على تأكيد تقاليد الفروسية، حيث أضفى عليها صبغته الإنسانية، وحث على التقاليد بها، من حيث الاحترام المتبادل، والإنصاف في الهجوم والدفاع، بالإضافة إلى احترام حقوق المقاتلين والرفق بالضحايا ومعاملتهم معاملة إنسانية، وهو في ذلك يتفق مع نصوص وروح القانون الدولي الذي يحتم حماية حقوق المقاتلين، وضحايا النزاعات المسلحة، ويقيد من وسائل استعمال القوة، بقصر استعمالها ضد المقاتلين في أثناء المعارك الحربية، وحظر استعمالها ضد المدنيين أو الجرحى من المقاتلين الذين حيدتهم إصاباتهم، فأصبحوا غير مشاركين في القتال فعلاً.

إن النظرة المتأنية لتبين بجلاء ووضوح مدى حرص شريعة الإسلام السمحة، وحرص قادة جيوش المسلمين على احترام إنسانية الخصم، سواء كان هذا الخصم مقاتلاً، أسيراً، مدنياً أعزل، مما يؤكد أن هذه الشريعة، كانت إحدى الموارد التي تأخذ منها القوانين الدولية الإنسانية قواعدها).

ويذكر الكتاب أيضاً (من يراجع التراث يجده قد اتفق مع المعاهدات المعاصرة، التي قيدت استخدام القوة في النزاعات المسلحة، ولقد اتسمت الحرب في الإسلام بالرحمة والفضيلة، وجاء الفقه الإسلامي مستنبطاً أمور العلاقات الدولية الحربية، وذهب الإمامان مالك والأوزاعي إلى أنه لا يجوز بحال من الأحوال قتل النساء والصبيان من الأعداء، ولو تترس بهم أهل الحرب)

ويتابع كتاب (اللجنة الدولية للصليب الأحمر - جنيف) مقررًا: تلك في عجالة بعض أحكام الشريعة الإسلامية عن حقوق المقاتلين وضحايا النزاعات المسلحة في خلفية عربية، بقدر ما يسمح به المجال، وكتب الفقه

تزرخ بكثير من الكتابات تحت مصنف السير، أو المغازي، حيث أضاف الفقهاء التفريعات تكملة للأصول، وواصلوا الأحكام، فنسخ اجتهاداتهم نظرية متكاملة في القانون الدولي الإنساني المعاصر، سبقت به الشريعة الإسلامية المجتمع الدولي بأكثر من ألف عام، بل لا تزال تسبق بما يطالب به الفقهاء المعاصرون، بمزيد من الحماية لضحايا النزاعات المسلحة. وبهذا العرض الموجز اتضح لنا أن قواعد القانون الدولي الإنساني لا تخرج عن عباءة الإسلام بأي حال، بل إن كثيراً من قواعده تجد مصادرها في هذا الدين الحنيف، وعلى ذلك، فإنه من السهل على الإنسان إذا ما عرف أن قواعد القانون الوضعي تفرض عليه احترام قواعد معاملة ضحايا النزاعات المسلحة، وأن الأمر فوق كونه قاعدة وضعية، فهو قاعدة إنسانية، استقرت ورسخت في الوجدان الإنساني، تخاطب فيه إنسانيته، فيحرص على احترامها، وصون أحكامها^(١)



الخاتمة

من العرض الموجز السابق يتبين لنا عدة أمور:

١. أن الدولة الإسلامية امتلكت القدرة على إبرام معاهدات سياسية مع النظم المختلفة الأخرى، مما يدل على تفوقها السياسي إلى جانب التفوق العسكري
٢. رغم التفوق السياسي العسكري لدولة الخلافة الإسلامية -خاصة في عهد الخلفاء الراشدين- إلا أنها أظهرت معاني الرحمة والإخاء الإنساني، من غير إفراط في استخدام القوة، حتى ولو كان في سبيل إدخال الغير في الإسلام -فإسلام المكره غير مقبول-.
٣. إثبات العهدة العمرية، تاريخياً، وللخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والتفرقة بين العهدة والشروط.
٤. تجلي مظاهر الرحمة في العهدة العمرية بكل معانيها وصورها مع قوم لم يتبعوا ملة الإسلام، ومع ذلك لم يقابلهم الإسلام إلا بكل تسامح ورحمة وحرية

٥. أثر العهدة العمرية، عندما سرت أنبائها إلى المناطق المجاورة، في نشر الإسلام، أو على الأقل الاطمئنان للعيش في كنفه، فلا إكراه في الدين، بل بر من ظل على عقيدته مادام لم يظهر على المسلمين بالسوء والأذى
٦. كيف تأثر الفقه والتشريع الإسلامي، بعد ذلك بالعهدة، خاصة فيما يتعلق بأحكام أهل الذمة
٧. كيف تأثرت منظمات حقوق الإنسان، بالعهدة العمرية، وأشادت بها، بل جعلتها مصدرًا لها في كثير من موثيقها
٨. الإنصاف من البعض، من غير المسلمين، الذي عايشوا أحداث التاريخ الإسلامي، فما وجدوا في عمومهم إلا التسامح والرحمة، حتى إن اللجنة الدولية للصليب الأحمر أصدرت كتابًا، تسجل فيه أهم مظاهر الرحمة في الموثيق والمعاهدات الإسلامية مع غير المسلمين.



قائمة المصادر والمراجع

١. ابن حنبل (أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني) (٢٤١هـ)، المسند، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٢م
٢. ابن خياط (أبو عمرو خليفة بن خياط) (ت/ ٢٤٠هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار القلم/ مؤسسة الرسالة، دمشق - بيروت، ط٢، ١٣٩٧هـ
٣. أبو داود (أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي) (ت/ ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت
٤. البخاري (محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي) (ت/ ٢٥٦)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المسمى صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ
٥. الذهبي (شمس الدين الذهبي) (ت/ ٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، دار الحديث - القاهرة، ط١٤٢٧هـ
٦. الزركلي (خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، ت/ ١٣٦٩هـ)، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م
٧. الطبري (محمد بن جرير الطبري) (ت/ ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث - بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ
٨. القرطبي (أبو عبدالله القرطبي) (ت/ ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام

٩. القرآن، تحقيق أحمد البردوني، دار الشعب/ القاهرة، ط٢، ١٣٧٢هـ
المقريزي (تقي الدين المقريزي) (ت/ ٨٤٥هـ)، إمتاع الأسماع،
تحقيق/ محمد عبدالحميد النميسي، دار الكتب العلمية - بيروت،
ط١، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م
١٠. اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب) (ت/ ٢٨٤هـ)،
تاريخ اليعقوبي، مطبعة الغري، النجف، د. ط، ١٣٥٨هـ
١١. ابن القيم (محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، ت/
٧٥١هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة - بيروت،
ط٢٧، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م
١٢. ابن سعد (أبو عبدالله محمد بن سعد البصري) (ت/ ٢٣٠هـ)،
الطبقات الكبرى، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤١٠هـ /
١٩٩٠م
١٣. ابن مبرد الحنبلي (ت/ ٩٠٩هـ)، محض الصواب في فضائل أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق عبدالعزيز محمد عبدالمحسن،
عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلامية، المملكة العربية السعودية،
ط١، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م
١٤. ابن ياقوت الحموي (ت/ ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، دار صادر بيروت،
ط٢، ١٩٩٥م
١٥. أفيتشيوس سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع على التحقيق
والتصديق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، د. ط، ١٩٠٩م
١٦. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم
والحكم - المدينة المنورة، ط٦، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م
١٧. الترمذي (محمد بن عيسى بن سَوْرَة بن موسى بن الضحاك،
الترمذي، أبو عيسى) (ت/ ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، تحقيق: بشار



عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٨م

١٨. المطهر بن طاهر المقدسي (ت/ ٣٥٥هـ)، البدء والتاريخ، مكتبة

الثقافة الدينية، بور سعيد

١٩. النسائي (أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني،

النسائي) (ت/ ٣٠٣هـ)، السنن الصغرى للنسائي، تحقيق:

عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، ط٢، ١٤.

١٩٨٦هـ - ١٩٨٦م

٢٠. الواقدي (محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني،

أبو عبدالله، الواقدي) (المتوفى: ٧٠٢هـ)، المغازي، تحقيق: مارسدن

جونس، دار الأعلمي - بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩.

٢١. رينهارت بيتر آن دوزي، تكملة المعاجم العربية، وزارة الثقافة

والإعلام، العراق، ط١، ١٩٧٩م

٢٢. ساهاس، دانيال: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، الإسكندرية،

١٩٦٧م.

٢٣. سعيد عبدالفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو

المصرية، ط٦، ١٩٧٥م

٢٤. شوقي أبو خليل، العهدة العمرية، البعد الإنساني في الفتوحات

العربية الإسلامية، من بحث منشور لمؤسسة القدس للثقافة

والتراث، بتاريخ ٢٥ / ٥ / ١١٠٢

٢٥. عبدالحى بن أحمد بن محمد بن العماد، أبو الفلاح (ت/ ٥٨٩هـ)،

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار

ابن كثير، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م

٢٦. عبدالعظيم أحمد عبدالعظيم، حقوق غير المسلمين في الإسلام،

الرائد للطباعة، مصر، دمنهور، ط١، ٢٠١٠م

٢٧. علاء الدين الحصكفي (ت/ ١٠٨٨ هـ)، الدر المختار شرح تنوير الأبصار وجامع البحار، تحقيق/ عبدالمنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م
٢٨. مجموعة الكتيبات السنوية للأمم المتحدة على قرص مدمج ١٩٤٦: ١٩٩٩م، الفصل الخامس، الأمم المتحدة ٢٠٠٢م
٢٩. مجير الدين العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. عمان ١٩٧٧م
٣٠. محمد الغزالي- نظرة على واقعنا الإسلامي المعاصر، دار ثابت القاهرة، ط٢، ١٩٩٨ م
٣١. محمد سهيل طقوش، تاريخ الخلفاء الراشدين والفتوحات والإنجازات السياسية، دار النفايس، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م
٣٢. مسلم (مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري) (ت/ ٢٦١هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ والمسمى صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٣٣. مصطفى بن حمو أرشوم، حقوق الإنسان في الوثائق الإسلامية، بحث منشور ضمن فاعليات مؤتمر بعنوان الفقه الإسلامي، المشترك الإنسان والمصالح، جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإنسانية - الجزائر، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.



معالم الرحمة

في سيرة إبراهيم عليه السلام

من خلال النصوص القرآنية

إعداد:

د. علي بن عبد الله بن حمد السكاكر
الأستاذ المشارك بقسم التفسير وعلوم القرآن
في كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية



المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على إمام الرّحماء
والمرحومين وسيدّ الصّالحين والمصلحين، ودعوة أبينا إبراهيم عليه،
وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد:

لما تحدّث القرآن الكريم عن بعض الأنبياء والمرسلين، وعرض لنا
نماذج من قصصهم، وسير حياتهم، وشيء ممّا تحلّت به أخلاقهم النبيلة
من رفق، ورحمة، ولين بأقوامهم.

وكان من بين أولئك الأنبياء والمرسلين الذين أطنب القرآن الكريم في
ذكرهم هو: نبيّ الله (إبراهيم عليه السلام)؛ فقد سمّيت سورة كاملة باسمه،
وتكرّر ذكر اسم (إبراهيم عليه السلام) في القرآن الكريم في خمس وعشرين
سورة من القرآن، ومجموع مرّات ذكره هو تسع وستون مرة^(١).

ومن يتأمّل تلك الآيات الواردة في سيرته يجدها مليئة بالرحمة
والشفقة من الله على نبيه الخليل (إبراهيم عليه السلام) التي ظهر أثرها في
دعوته على من في زمانه بالمعاملة والدعوة الحسنة، ومن سيأتي بعدهم
بالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة والأمن والرّزق الواسع.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٢).

وما يهمني في هذا البحث هو بيان سعة رحمة الله على عباده عمومًا وعلى نبيه (إبراهيم عليه السلام) خصوصًا مع بيان أثر هذه الرحمة في دعوته، التي اتّسمت بالحلم والرحمة للمدعوين.

لذا أصبح هذا الخلق النبيل، وهذه الصّفة العظيمة؛ سنة حسنة لكلّ نبّي، ومربّ، وداعية إلى الله بأن يسلك ما سلكه (إبراهيم عليه السلام) مع ذريّته ومع قومه؛ فاتّسمت صفة الرّحمة بـ(إبراهيم عليه السلام) اسمًا ومسمّى، فقد ورد في معنى لفظة (إبراهيم) ما ذكره ابن عطية وغيره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُم بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] أنّ معناه بالعربية: أب رحيم^(١). وذلك لرحمة (إبراهيم عليه السلام) بالأطفال، فكان وزوجته سارة كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارًا إلى يوم الدين^(٢).

قال القرطبيّ مؤيدًا هذا المعنى، ومما يدلّ على ذلك: ما أخرجه البخاريّ من حديث الرّوياً الطّويل عن سمرة، وفيه: أنّ النبيّ ﷺ رأى في الرّوضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد النّاس^(٣).

ومما دفعني لكتابة هذا البحث أمور من أهمّها:

١. بيان أثر رحمة الله على الخلق عمومًا، وأنه كل ما تمسك المسلم بهذا المنهج القويم، والصراط المستقيم كان حظه من رحمة ربه أوفر وأقرب ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].
٢. محو الواجهة السيئة التي ألصقتها أعداء الإسلام وغيرهم بالمسلمين ورسالتهم، وأنها تدعو إلى العنف والتّرهيب.
٣. إظهار تلك الصّفة العظيمة التي تحلّى بها (إبراهيم عليه السلام)، وهو

(١) انظر: المحرّر الوجيز: (٣٤٧/١).

(٢) نقل ذلك القرطبيّ عن السهيليّ. انظر: تفسير القرطبي: (٩٦/٢).

(٣) انظر: تفسير القرطبيّ: (٩٦/٢). والحديث: أخرجه البخاريّ: في كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين ح (١٣٨٦).

محل تقدير واحترام عند سائر الأمم والملل، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، فهو مثال يحتذى به في الخير.

٤. الكشف عن محاسن الإسلام، وذلك ببيان أنّ نبينا محمداً ﷺ وأُمَّته من بعده أمروا باتباع ملة (إبراهيم عليه السلام) أبي الأنبياء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]

٥. الاقتداء والاحتذاء بمن وصف (بالأمة)، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، فحريّ أن يحتذى به الدعاة والمربّون في حياتهم، وتزكية أنفسهم.

٦. الوقوف على بعض النماذج التي صوّرها لنا القرآن الكريم في سيرة أبينا إبراهيم في أحوال مختلفة، وظروف متباينة، وأعمار متفاوتة، وأعمال متنوعة؛ كالصبر، والحلم، والعفو، والتأوّه، والرقّة، واللين، وهذه الصفات كلّها دالّة على الرّافة والرّحمة المتبادلة منه على أبيه وذريّته وقومه.

لهذه الأسباب وغيرها جاءت فكرة البحث، وهي: (معالم الرّحمة في سيرة إبراهيم عليه السلام من خلال النصوص القرآنيّة). ولما أعلن عن المؤتمر الدوليّ (الرّحمة في الإسلام) وجدتها فرصة سانحة للكتابة في هذا الموضوع.

وقد جاءت خطة البحث على النحو التالي:

مقدّمة (بين يدي البحث)، وتمهيد، وثلاثة مباحث.

المقدّمة تحتوي على:

مقدمة بين يدي الموضوع.

التمهيد، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الرحمة، وبيان أهميتها.

المطلب الثاني: فضل إبراهيم عليه السلام، والأمر بالتأسي به.

المبحث الأول: رحمة الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام.

المطلب الأول: رحمة الله على الناس عمومًا، وإبراهيم خصوصًا.

المطلب الثاني: نماذج من رحمة الله لنبيه إبراهيم عليه السلام.

المبحث الثاني: نماذج من رحمة إبراهيم مع المخالفين.

المطلب الأول: رحمته مع أبيه.

المطلب الثاني: رحمته مع قوم لوط.

المطلب الثالث: رحمته مع عموم العصاة.

المبحث الثالث: نماذج من رحمة إبراهيم عليه السلام مع المسلمين.

المطلب الأول: رحمته مع ذريته الأقربين.

المطلب الثاني: رحمته مع ذريته الأبعدين.

منهج البحث:

واتبعت في هذا البحث المنهج الآتي:

١. الرجوع إلى القرآن الكريم لجمع الآيات الكريمة التي تحدثت

عن إبراهيم عليه السلام بصفة خاصة، مستنبطًا منها معالم الرحمة

في حياة إبراهيم عليه السلام، ومن ثم تصنيفها وترتيبها حسب عناصر

البحث وفقراته.

٢. عرض الموضوع عرضاً واضحاً بأسلوب سهل، مع بيان ما لا بد من بيانه في تلك الآيات.

٣. لا أذكر ما يتعلّق بالآية من مسائل أخرى، ما لم تكن ذات صلة واضحة في موضوع البحث.

٤. أصل مادة هذا الموضوع مستقاة من كتب أهل التفسير، ثمّ النظر بعد ذلك إلى ما عداها من كتب أهل العلم؛ لإظهار الموضوع بشكل متناسق ومترابط في فقراته.

٥. عزو الآيات إلى سورها، بذكر اسم السّورة، ورقم الآية، مع كتابتها بالرّسم العثمانيّ.

٦. تخريج الأحاديث، والآثار من مصادرها الأصيلة.

٧. ترجمت للأعلام غير المشهورين.

٨. إلتمت بعلامات التّرقيم.

وبعد، فهذا العمل جهد بشريّ متواضع يعتريه النقص والخلل - ولا شك - فالحمد لله على كلّ حال، وأسأل الله الإعانة، والتّوفيق وأن يقيّض لي من يقوّم عملي هذا، ويرشدني إلى ما فيه الصّواب فيؤجر ويشكر، وإنّي لأدعو له بظهر الغيب دعوة خير - إن شاء الله -.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم.



التمهيد

وفيه مطلبان:

المطلب الأول تعريف الرّحمة، وبيان أهميّتها

الرّحمة لغة: تدور مادّة (ر ح م) حول أصل واحد يدلّ على الرّقّة والعطف والرّأفة^(١). والرّحمة مصدر للفعل. ويقال: رَحِمَهُ يَرَحِمُهُ رَحْمَةً ومرحمة ورُحْمًا ورُحْمَانًا: رَقَّ له، وتعطف عليه، وهي رِقَّة تقتضي الإحسان إلى المرحوم^(٢).

وفرق أبو الهلال العسكري بين الرّقّة والرّحمة، وهو: (أنّ الرّقّة: تكون في القلب وغيره خلقة، وأمّا الرّحمة: فتكون من فعل الرّاحم، وهذا الفعل هو نتيجة من نتائج الرّقّة؛ ولذلك يقول النّاس: رَقَّ عليه فرحمه، فيجعلون الرّقّة سبب الرّحمة)^(٣).

فالرّحمة ومشتقاتها كلّها تدور حول التعاطف، والتّراحم، والتّوادّ؛ وهو ما أكّد عليه النّبِيّ ﷺ بقوله: (مثل المؤمن في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد...)^(٤).

(١) انظر: معجم مقاييس اللّغة مادّة (رحم: ٤٩٨/٢)

(٢) انظر: معجم مقاييس اللّغة مادّة (رح م). (٤٩٨/٢)، والصّاح مادّة (رحم: ٢٠٧/٦)

(٣) الفروق اللغويّة للعسكريّ (ص: ١٩٦)

(٤) أخرجه: البخاريّ في كتاب الأدب، (باب: رحمة النّاس والبهائم) (٦٠١١)، ومسلم في كتاب البرّ والصّلة والأداب، (باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم) (٢٥٨٦).

أما الرَّحمة اصطلاحاً: قيل: هي إرادة الخير بأهله^(١). وعلى هذا القول هي صفة ذاتية.

وقيل: هي ترك عقوبة من يستحق العقوبة، وإسداء الخير إلى من لا يستحق^(٢). وعلى هذا القول صفة فعل يجمع بينها الاتساع.

وقيل: الرَّحمة حالة وجدانية تعرض غالباً لمن به رقة القلب وتكون مبدأً للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان^(٣).

هذا في اصطلاح اللّغة؛ لكنّها في القرآن أوسع استعمالاً ودلالة، أحصتها كتب الوجوه والنظائر، فذكرت منها: دين الإسلام، والجنّة، والمطر، والنبوة، والنعمة، والقرآن، والرّزق، والنّصر، والعافية، والمودة، وغير ذلك. فالرّحمة في استعمال القرآن تختلف في معناها باختلاف السّياق، ومناسبة الآية التي ترد فيها^(٤).

أهمية الرَّحمة:

تعدّ الرَّحمة صفة من صفة الخالق عزّ وجلّ، ومن أسمائه الحسنى (الرّحمن الرّحيم)، وهما: اسمان مشتقان من الرَّحمة على وجه المبالغة، والرّحمن: أشدّ مبالغة من الرّحيم؛ لأنّ الرّحمن: هو ذو الرَّحمة الشّاملة لجميع الخلائق في الدّنيا، وللمؤمنين في الآخرة، والرّحيم: ذو الرَّحمة للمؤمنين يوم القيامة. وهي تختلف عن رحمة المخلوقين قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وعلى هذا أكثر العلماء. وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا^(٥). وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ

(١) انظر: تفسير البغوي (٥١/١)، والتّعريفات (١١٠).

(٢) انظر: البغوي (٥١/١).

(٣) انظر: الكلبيّ للكفوي (٢/٣٧٦).

(٤) ومن أهمّ البحوث التي تناولت هذا الموضوع بحث بعنوان (الرّحمة بين الدلالات المعجمية، والدلالات السياقية في الاستعمال القرآني) للأستاذ الدكتور/ خيس عبد الله التميمي. نشر في مجلة بغداد كلية الآداب. العدد (١٠٦) عام ١٤٣٥هـ.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٢٥/١).

كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصُوا بِالرَّحْمَةِ ﴿ [البعد: ١٧] ^(١) . ومن تأمل في أغلب سور القرآن الكريم وجدها لا تخلو من عبارة الرَّحمة إِمَّا تَأْكِيدًا على أهميتها أو بيانًا لأثرها .

وكذلك جاءت الأحاديث النبوية الشريفة، لتعزز وتوضح ما في القرآن من قيمة الرَّحمة بين المسلمين على وجه الخصوص وبين الناس على وجه العموم، فقد أكد الرسول الأعظم محمد ﷺ وإبراهيم عليه السلام من قبله، وسائر الأنبياء في كثير من أقوالهم، ومواقفهم على أهمية الرَّحمة، وأنها من أسس الدين الحنيف، فعلى المسلمين وأتباع الأنبياء أن يتحلوا بها في أقوالهم وأفعالهم وسلوكهم وتعاملهم .

ومن ذلك ما جاء في وصف الرسول الله ﷺ المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد، وذلك فيما رواه النعمان بن بشير قال ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» ^(٢) .

وروى جرير بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله» ^(٣) .

وهنا يمثل رسولنا الكريم للمؤمنين أثر المحبة والرَّحمة في حياتهم، لما تلزمهم من التَّعاون، والبذل، والعطاء، والمواساة، وأثر الرَّحمة عظيم في اللِّحمة والتَّرابط، وحسن الجوار بين الناس عمومًا، وبين المسلمين على وجه الخصوص. وبالعطف والشفقة، والرَّحمة انتشرت رسالة الإسلام وكانت

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٥ / ١) .

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، (باب: رحمة النَّاس والبهائم) (٦٠١١)، ومسلم في كتاب البرِّ والصَّلة والأداب، (باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم) (٢٥٨٦) .

(٣) رواه البخاري في كتاب التَّوحيد، باب قوله تعالى: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرَّحمن (ج) (٧٣٧٦)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصَّبيان والعيال (٢٣١٩)، من حديث جرير بن عبد الله-

ﷺ. واللفظ لمسلم.

أكثر شيوعاً وأسبق اعتناقاً وأعظم أتباعاً من باقي الرّسالات الأخرى. وكانت دعوة الرّسول ﷺ الرّحيمة، تعتمد على الوحدة والترابط الاجتماعيّ للعربيّ وغير العربيّ، «يا أيها النّاس ألا إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا، لا فضل لعربيّ على أعجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلاّ بالتّقوى»^(١).

المطلب الثاني صفات إبراهيم، والأمر بالتأسي به

إنّ الكلام على صفات (إبراهيم عليه السلام) وشمائله، والإحاطة بها لا يسع المقام لذكرها ومما يتعدّر حصرها؛ لأنّ الكلام في ذلك يعني الكلام على أمة متمثلة في رجل، وهذا من الصّعوبة بمكان، وبمقدور البشر لا يستطيع. ولعلّي أتطرق لأبرز ما سجّله القرآن من أنبل الصّفات وأسمائها ومن تلك:

١. كونه أبا الأنبياء:

ورد في القرآن أنّ الله عزّ وجلّ جعل النبوّة في ذريّة (إبراهيم عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤] فالآيات السابقة تظهر أنّ الله شرف نبيه (إبراهيم عليه السلام) بأنّ حصّ ذريّته بالنبوّة، فليس نبيّ بعده إلاّ وهو من ذريّته^(٢).

٢. كونه أمة قانتاً لله حنيفاً:

وصف الله تبارك وتعالى خليله بأنّه كان أمةً وقانتاً وحنيفاً، وذلك في

(١) أخرجه أحمد (٣٨ / ٤٧٤ح٢٣٤٨٩)، وأورده الهيتمي في مجمع الزوائد (٣ / ٢٦٦)، وقال: رجاله رجال الصّحيح.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣ / ١٧٨).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [التحل: ١٢٠]، وهو والرجل الجامع لكل أوصاف الخير يوصف بأنه أمة^(١). قال ابن عباس في شرح الآية: « كان عنده من الخير ما كان عند أمة^(٢) . وأما قنوته: فلزوم الطاعة مع الخضوع^(٣) .

وكونه حنيفاً، أي: مستقيماً على إسلامه لله تعالى المائل عن الشرك إلى دين الله^(٤) .

٣. الخلة:

اتّصف نبيّ الله (إبراهيم عليه السلام) بصفة الخلة، وهي أعلى درجات المحبة، قال تعالى: ﴿ وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥]، والخلة: المودة، وسمّى الله إبراهيم خليلاً؛ لافتقاره إليه سبحانه في كل حال^(٥) .

٤. الإمامة في الدين:

لقد منّ الله على نبيّه (إبراهيم عليه السلام) بأن اختبره فأتمّ ما ابتلي به فكان إماماً يقتدى به، كما يظهر من قول الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٢٤]، قال ابن عباس: « ما ابتلي أحد بهذا الدين فقام به كله غير إبراهيم، ابتلي بالإسلام فأتمه^(٦) .

٥. الرشد:

قال تعالى: ﴿ ءَايِنَّا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء: ٥١]، والرشد: هو الاهتداء لوجوه الصّلاح ومعرفة طرق الخير، وتوحيد ربّه منذ نعومة أظفاره وقبل بلوغه^(٧) .

- (١) انظر: المعجم الوسيط (٢٧).
- (٢) انظر: تفسير البحر المحیط (٥٢٩/٥).
- (٣) انظر: المفردات (٤١٣).
- (٤) انظر: تفسير القاسمي (٢٧٠/٢).
- (٥) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير (١٧٨/٣).
- (٦) انظر: تفسير الطبري (٥٧٢/١).
- (٧) انظر: تفسير البغوي (١٦١ / ٣).

٦. الحلم، والتأوه، والإنابة:

سيأتي - إن شاء الله- بيان ذلك في أثناء البحث بمزيد من الإيضاح والنماذج.

٧. الشكر، والاجتباء، والاصطفاء:

الشكر، والاجتباء، والاصطفاء من الصفات الجليلة التي بيّنها الله ﷻ في نبيه (إبراهيم عليه السلام) في كتابه العزيز في قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَحَبَّ أَنْ هَدَاهُ وَهُدًى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١]. والشكر هو: «تصوّر النعمة وإظهارها»^(١)، فكان عليه السلام شاكراً لله بقلبه، ولسانه، وجوارحه، خاضعاً لمولاه بالنعم، محبباً له، معترفاً بفضله.

والاجتباء والاصطفاء، أي: اصطفاه واختاره لخلّته^(٢)، من بين كثير من خلقه؛ فصفاه من الشوائب التي توجد في غيره^(٣)، وأرشده إلى الطريق المستقيم، وهو الإسلام لا اليهودية، ولا النصرانية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقوله: ﴿أَحَبَّ أَنْ هَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١]

٨. صديقاً:

تميّز نبي (الله إبراهيم عليه السلام) بصفة عظيمة، ألا وهي: صفة الصديقية، كما يتلى ذلك في كتاب الله تعالى في قوله جلّ وعلا: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] كان من أهل الصدق في حديثه، وأخباره، ومواعيده لا يكذب^(٤). وقد حاز إبراهيم عليه السلام صفة الصدق بأوسع معانيها؛ لكثرة ما صدق به من آيات الله جلّ وعلا.

(١) انظر: المفردات (٢٦٥).

(٢) تفسير الطبري (١٤/٣٩٣).

(٣) تفسير الطبري (١٤/٣٩٣).

(٤) تفسير الطبري (١٥/٥٤٨).

٩. سلامة القلب:

ومن صفات إبراهيم (عليه السلام) أيضاً - سلامة القلب، كما وصفه الله تعالى بذلك بقوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصفّات: ٨٤]، أي: من آفات القلوب، ومن العلائق الشاغلة عن التبتّل إلى الله عزّ وجلّ^(١)، وأقبل على الله بقلب يوحّده ويعظّمه، بعيد عن الشوائب، خالص من العيوب.

١٠. جوده وكرمه:

اتّصف الخليل بالكرم؛ فكان أوّل من ضيّف الضيّف^(٢)، وقد أثبت الله لـ(إبراهيم (عليه السلام)) وهذه الصّفة عند مجيء الملائكة له وإكرامه لهم بعجل سمين، قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الذّاريات: ٢٤]، وفي هذه الآيات ثناء على (إبراهيم (عليه السلام)) بالكرم؛ من وجوه منها:

- إذ دخلوا عليه، أي: أنّهم دخلوا دون استئذان، وهذا بيان أنّ بيته كان منزلاً للضيوف.
- أنّه راغ إلى أهله، أي: ذهب سرّاً كي لا يشعرون، ولا يحدث إحراجاً، أو مشقّة.
- أنّه جاء بعجل سمين، تخيّر له شدّة كرمه، وأنّه لم يبعثه مع خادمه بل أتى به بنفسه^(٣).

١١. الوفاء:

أثنى الله على نبيّه، ووصفه بالوفاء، فقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النّجم: ٧٣] قال كثيرون من السّلف، أي: قام بجميع ما أمر به، ووفّى كلّ

(١) تفسير أبي السعود (٧/ ١٩٧).

(٢) ورد في الأثر عن سعيد بن المسيّب أنّه قال: (كان إبراهيم أوّل النّاس ضيّف الضيّف، وأوّل النّاس اختن، وأوّل النّاس قصّ الشّارب... الموطأ (٢/ ٩٢٢) والحديث وصله ابن عدّي في الكامل (١/ ٢٢٣).

(٣) انظر: جلاء الأفهام (٣٩٤).

مقام من مقامات العبادة؛ فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير^(١).

الأمر بالتأسي به:

فبتلك الصفات السابقة - التي ذكرت وغيرها الكثير مما لم يذكر - تبوأ (إبراهيم عليه السلام) منزلة خاصة بين سائر الأنبياء، فقد أمر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ وأُمَّته بالتأسي به وأتباعه في مواضع عدّة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] وقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [المتحنة: ٤]، وقد ذكر الطبري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٢٠]، أي: اخترناه، واجتبيناه للخلة، ونصيره في الدنيا لمن بعده إماماً. وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خالف إبراهيم فيما سنّ لمن بعده فهو لله مخالف، وإعلام منه خلقه أن من خالف ما جاء به محمد ﷺ فهو لإبراهيم مخالف؛ وذلك أن الله تعالى أخبر أنه اصطفاه لخلته، وجعله للناس إماماً، وأخبر أن دينه كان الحنيفية المسلمة؛ ففي ذلك أوضح البيان من الله تعالى ذكره عن أن من خالفه فهو لله عدوٌّ لمخالفته الإمام الذي نصبه الله لعباده^(٢).

اللهم اجعلنا على ملة إبراهيم، وارزقنا اتباع التوحيد والدين القويم إنك أنت الغفور الرحيم.



(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢/ ٥٨٠).

المبحث الأول رحمة الله ﷻ على إبراهيم

المطلب الأول رحمة الله على الناس عموماً، وإبراهيم خصوصاً

اتّصف ربنا سبحانه بالرحمة، وهي صفة لا فهو أرحم الراحمين، وخير الراحمين، ورحمته وسعت كل شيء، وعمّ بها كل حي، حتّى ملائكة الرحمة التي تدعو للمؤمنين أتت على ربها، وتقرّبت إليه بهذه الصفة العظيمة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، وفي التنزيل الحكيم: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَأَرْحَمُ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، وقوله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. وفي الحديث القدسي: (إن رحمتي تغلب غضبي)^(١)، وجاء في الحديث الصحيح: (جعل الله الرحمة مئة جزء، أنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتّى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)^(٢).

ورحمة الله حاصله لعموم الناس في الدنيا مؤمنهم وكافرهم، وهي لا

(١) أخرجه: البخاري في كتاب بدء الخلق: باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (ج ٣١٩٤)، ومسلم في كتاب التوبة: باب سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه. (ج ٢٧٥١).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأدب: باب جعل الله الرحمة من مائة جزء (ج: ٦٠٠٠)، ومسلم كتاب التوبة: باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه (ج: ٢٧٥٢).

تعز على طالبها في أي مكان، ولا في أي حال. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، قال السعدي في تفسير هذه الآية: رحمة الله وسعت كل شيء من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿سَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾^(١). فرحمة الله عز وجل بعباده، تأتي على أوجه، لا يمكن حصرها، فبرحمته سبحانه شرع لهم شرائع الأوامر والنواهي، بل برحمته تكفل برزقهم، وبرحمته سخر لهم ما في السماء والأرض جميعاً منه، وبرحمته قبل توبة التائبين وستر عليهم، وبرحمته أرسل الرسل مبشرين ومنذرين.

أما رحمة إبراهيم على وجه الخصوص: فإنه كلما كان نصيب العبد من الهدى أتم كان حظّه من الرحمة أوفر، فنبى الله (إبراهيم عليه السلام) لما اتّصف بكلّ أوصاف الخير، كانت له عناية خاصة، ورحمة مستفيضة، وقد شهدت الملائكة برحمة الله الواسعة وبركاته الكثيرة عليه وعلى أهل بيته، قال تعالى على لسانهم: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧]، أرادوا: أنّ هذه البشرية بالولد بعد كبر سنّه، وأمثالها من النعم ممّا يكرمكم به ربّ العزّة، ويخصّكم به يا أهل بيت النبوة، فلا تتعجّبوا من الكرامات العالية الرفيعة، ومن الأمور الخارقة للعادة، فإنّ تخصيصكم بها ليس عجيباً^(٢).

ومناسبة الضمير في «عليكم» لدخول (إبراهيم عليه السلام) في الخطاب مع زوجته وأهل بيته بعموم الرحمة والبركة^(٣).

(١) انظر: تفسير السعدي (ص: ٣٠٥).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ٧٣)، واللباب في علوم الكتاب (١٠ / ٥٢٨).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٢٢ / ١٤).

ثم إنَّ الرِّحمةَ والبركةَ قد اجتمعت فيه (عليه السلام)^(١)، وقد اعترف (إبراهيم (عليه السلام)) برحمة الله عليه، واستشعرها حينما بشرته الملائكة بالولد، وسمَّى بشارتهم بالولد رحمة. وذلك في محاورته للملائكة، وقولهم له: ﴿أَبَشَّرْتُمُوِي عَلِيَّ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا بَشَّرُونَ﴾ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِيطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦) [الحجر: ٥٤-٥٦] فقولوه: ﴿أَبَشَّرْتُمُوِي عَلِيَّ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ لا تدلُّ على القنوط، بل إنما قال ذلك على سبيل الاستبعاد لما جرت به العادة؛ وإلا فهو أكمل البشر علماً وعملاً، ويعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك. وفي ذلك إشارة إلى أنَّ هبة الولد على الكبر من رحمة الله؛ إذ يشدُّ عضد والده به ويؤازره حالة كونه لا يستقل، ويرث منه علمه ودينه^(٢).

يقول القاسمي: والتصريح -إبراهيم- برحمة الله في أحسن مواضعه^(٣).

لذا يقول سيد قطب: وبرزت كلمة «الرِّحمة» في حكاية قول إبراهيم تتسيقاً مع المقدمة في هذا السياق، وبرزت معها الحقيقة الكلية: أنه لا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون. الضالون عن طريق الله، الذين لا يستروحون روحه، ولا يحسون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته.

فأمَّا القلب النديّ بالإيمان، المتصل بالرحمن، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، ومهما ادلهمت حوله الخطوب، ومهما غام الجوُّ وتلبَّد، وغاب وجه الأمل في ظلام الحاضر وثقل هذا الواقع الظاهر... فإنَّ رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين. وقدرة الله تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج، وتغيّر الواقع كما تغيّر الموعود^(٤).

(١) انظر: السراج المنير (٢/ ٢٧٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٦/ ٤٨٦)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٤١).

(٣) انظر: تفسير القاسمي (٦/ ٢٣٨).

(٤) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢١٤٨).

المطلب الثاني

نماذج من رحمة الله لنبية إبراهيم عليه السلام

سأكتفي ببعض النماذج التي تظهر بجلاء رحمة الله على نبيه إبراهيم، ومن أظهرها وأشهرها ما حكاه القرآن عنه عليه السلام فسأقتصر عليها، ومن ذلك:

١. نجاته من تعذيب قومه له في النار:

وهو أنه لما حذر إبراهيم قومه من عبادة الأصنام ودعاهم إلى عبادة رب السموات والأرض، خالفوه ولم يمتثلوا أمره، ولم يستجيبوا دعوته، توعدهم إبراهيم بكسر تماثيلهم وأصنامهم وتدميرها قطعاً صغيرة؛ فحكى الله عنه قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧] وفعلًا أنجز ما وعدهم به: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، فلما افتضح أمرهم وغلبوا بالحجة البيّنة، عدلوا عن المناظرة والمجادلة إلى القوة؛ خشية أن يفتضح أمرهم، فأمروا بحرقه في النار ظانين أنّ هذا هو آخر العهد به: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، فنزلت رحمة من رحمات الله على نبيه وخليله بجعلها: «بردًا وسلامًا على إبراهيم»^(١)، وفي قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: ٨٠]، يقول البقاعي: اقتصر الخليل عليه السلام على صفة الربوبية المقتضية للرفقة، والرحمة، والكفاية، والحماية، وقد وقع في قصته الأمران: إمكانهم من أسباب ضرره بإيقاد النار وإلقائهم له فيها، ورحمته بجعلها عليه بردًا وسلامًا^(٢). وفي هذا

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦٦/٧).

(٢) قال ابن عطية في تفسيره (٨٩/٤): قد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم وذكروا تحديد مدة بقاءه في النار وصورة بقاءه، ما رأيت اختصاره لقلّة صحته، والصحيح من ذلك أنه أُلقي في النار فجعلها الله تعالى عليه بردًا وسلامًا فخرج منها سالماً وكانت أعظم آية.

عظة وعبرة للمؤمنين: ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[العنكبوت: ٢٤]

٢. نجاة ابنه إسماعيل من الذبح:

ليس من السهل بمكان أن يُوهب للإنسان ولد بعد ما بلغ من الكبر ما بلغ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] وقد ترعرع هذا الغلام وبلغ سنَّ الشباب، وذهبت مشقته، وأقبلت منفعته: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، أي: فلما بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوادثه^(١). وبعد ذلك كله يؤمر بذبحه بيده، كيف سيكون قلب الأب المتألم والابن الذبيح؟! إلا أنه لا مناص لهما عن أمر ربهما، فاستسلم إبراهيم وابنه إسماعيل لأمر الله عز وجل، وكان هذا امتحاناً من الله لإبراهيم قبل إسماعيل، فامتثل إبراهيم لأمر ربه، واستجاب إسماعيل لرؤيا أبيه طاعةً لله، ووضع إبراهيم ابنه إسماعيل على وجهه وأمسك بالسكين ليذبحه، فكان الفرج والرحمة من الله أسرع، فقد نزل جبريل عليه السلام بكبش فداء، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، فالأمر بذبح فلذة الكبد امتحاناً لرجل عرف بالرحمة القلبية، حتى كان يوصف بالأب الرحيم، دال على رحمة إبراهيم وشاهد صدق عليها.

٣. نجاته وهجرته إلى الأرض المباركة:

ورحمة الله على نبي الله إبراهيم تتوالى، فبعد أن رحمه الله ونجاه من ضرر النار، نجاه الله من عدوه النمرود في أرض العراق إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٠)

(١) انظر: تفسير الزمخشري (٤/ ٥٣).

وَبَجَّيْتَهُ وُلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ [الأنبياء: ٧١-٧٠]، وهي أرض الشام، فترك صلوات الله عليه وقومه ودينهم وهاجر إلى الشام^(١). فهو أول من هاجر لله^(٢)، قال تعالى: ﴿فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦] وكانت الهجرة من ديار الشرك إلى ديار الإسلام سنة لمن جاء بعده من الأنبياء وأتباعهم، وممن عمل بها محمد رسول الله ﷺ وصحبه، فكانت هذه من ثمرات تلك التجربة الإبراهيمية ولونا من الاقتداء به.

وهب له على الكبر الذرية الصالحة: لما رغب إبراهيم عليه السلام بالذرية الصالحة التي لا يعدم نفعها في الدنيا ولا في الآخرة، دعا ربه قائلاً: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، فاستجاب الله ربه، ورحم ضعفه وكبره، فبشر بغلامين، أحدهما: من أوصافه الحليم، والآخر العليم، قال الله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، فقد وصف إسماعيل بالحلم وهو: التسليم لأمر ربه، وحسن الخلق، وسعة الصدر. وهو المناسب لمقام الآيات التي سيقف في قصة ذبحه^(٣). أما إسحاق عليه السلام وصف بالعليم، يقول تعالى: ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَوقَةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨]، أي: عالم في حال تكليفه وتحصيله^(٤)، وقيل: غلام في صغره، عليم في كبره^(٥).

- (١) انظر: تفسير الطبري (١٦ / ٣١٠).
- (٢) أسند الطبري (١٨ / ٢٨٥) إلى ابن جريج في قوله تعالى (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي) قال: هاجر إلى حران، ثم أمر بعد بالشام الذي هاجر إبراهيم، وهو أول من هاجر.
- (٣) انظر: تفسير ابن كثير (٧ / ٢٧).
- (٤) انظر: تفسير ابن عطية (٥ / ١٧٨).
- (٥) انظر: تفسير البغوي (٤ / ٢٨٤). تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد (ص: ١٢٧)، يقول ابن عثيمين في تفسير سورة الذاريات (١٢٧): وهذا الغلام العليم غير الغلام الحليم؛ لأن في القرآن أن إبراهيم بشر بغلام عليم في آيتين من كتاب الله، وبشر بغلام حليم في آية واحدة، وهما غلامان، أما الغلام الحليم فإنه إسماعيل أبو العرب، وأما الغلام العليم فإنه إسحاق أبو بني إسرائيل، ولذلك تجد قصتهما مختلفتين، ولقد أبعد عن الصواب، من قال: إن الغلام الحليم هو الغلام العليم، بل ونص صريح في سورة الصافات أنهما غلامان مختلفان، فإن الله تعالى لما ذكر قصة الذبيح في سورة الصافات قال بعدها: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ فكيف يبشر بمن أمر بذبحه؟!

وفي قوله تعالى على لسان سارة: ﴿قَالَتْ يَوْنِيحَءُ أَلِدْ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٥٨]، ذكرت ثلاثة موانع من وجود الولد: العقم، وكبرها، وكبر سن زوجها، إلا أن رحمة الله فوق ذلك كله. ومن كمال المنّة، وتمام النعمة أن بشر إبراهيم -أيضا- بولد الولد: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٥٨]

قال ابن كثير: وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النعمة، وقال: ﴿بَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾، أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقرّ أعينكما به كما قرّت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم «يعقوب»، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام، حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله -عز وجل- عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه؛ لتقرّ بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]، وقال هاهنا: ثم جعلت النبوة فيه وفي ذريته إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لِمَنْ الصَّالِحِينَ﴾ [٢٧] [العنكبوت: ٢٧]، ﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩] فكل الأنبياء من بعد إبراهيم هم من نسله فهم أولاده وأحفاده، حتى إذا جاء آخر الأنبياء محمد ﷺ جاء تحقيقاً واستجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام. كما جاء في حديث أن النبي ﷺ قال: (أنا دعوة أبي إبراهيم، وكان آخر من بشر بي عيسى ابن مريم) (١).



(١) أخرجه أحمد (١٧١٥٠)، وابن حبان (٢١٢/١٤)، والطبراني (٢٥٢/١٨) (٦٢٩: ٦٣١)، والحاكم (٥٣/٢) (٢٥٦٦)، وصححه ووافقه الذهبي - كلهم - من حديث العرياض رحمه الله والحديث صححه الأرنؤوط. وذكره الهيثمي في «المجمع» (٢٢٣ / ٨) عن العرياض بن سارية، وقال: رواه أحمد بأسانيد والبخاري والطبراني بنحوه، وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح، غير سعيد بن سويد، وقد وثقه ابن حبان.

المبحث الثاني نماذج من رحمة إبراهيم مع المخالفين

المطلب الأول رحمته مع أبيه

فبعد أن وجد إبراهيم شأبيب الرحمة من ربّ كريم رحيم عليه وعلى ذريته أصبحت الرحمة خلقاً لا ينفك عنه، وأصبح عليه السلام يتطلّع لرحمة ربه في كلّ أحواله وخاصة في دعوته للمخالفين من أمته، لذا ووصفه الله بصفات حميدة؛ فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مَّيِّبٌ﴾ [هود: ٧٥].

والحلم هو: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب. وقيل: إنه لم يغضب لنفسه، بل كان غضبه لله تعالى^(١). وقال ابن عاشور: الحلیم: الموصوف بالحلم، وهو اسم يجمع أصالة الرأى، ومكارم الأخلاق، والرحمة بالمخلوق^(٢).

فظهر حلمه ورحمته جلياً في دعوته لأبيه، وقومه كيف لا! وأحوج الناس بالرحمة والرّفق هم أقرب الناس إليك، وأولى القرابة هم الوالدان. والتي حملت إبراهيم على تلك الرحمة: هي رحمة النبوة وشفقة البنوة، وكذلك

(١) انظر: تفسير ابن عطية (٣/ ١٩٣).

(٢) انظر: التّحرير والتّوير (٢٣/ ١٤٩).

طبيعة المؤمن بربه يتعرض لنفحات رحمة ربه وعفوه، فقد حكى الله عن إبراهيم أنه قال لأبيه: ﴿يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۗ﴾ ﴿٤٣﴾ يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ [مريم: ٤١-٤٥]، و صدر دعوته لأبيه بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه، فناده عليه السلام بهذا النداء: «يا أبت المنطوي على غاية التواضع لهذا الأب له لعله يهتدي، وهو تلطف منه واستدعاء بالنسب.

كما أنه لم يصف أباه بالجهل ونفسه بالعلم وإنما قال: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي﴾^(١).

وهو لا يريد شيئاً من أبيه، وإنما يخاف عليه من عذاب الرحمن، فيكون ولياً للشيطان، وتأمل في العبارات التي نطق بها إبراهيم: (أخاف) و(يمسك) و(عذاب من الرحمن) تجدها ألفاظاً تعبر بصدق عما يكنه إبراهيم لأبيه من رحمة واستعطاف، لعل كلامه يتخلل قلبه، ويعطف فؤاده لقبول الحق الذي جاء به.

فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه، كما يفعل الشفيق الخائف على من يشفق عليه^(٢).

وكذلك لم يصرح بأن العذاب لاحق به، ولكنه قال: أخاف أن يمسك عذاب، فقد استعمل المجاملة، واللطف، والرفق، واللين، والأدب الجميل، والخلق الحسن^(٣).

وكرر عليه السلام صفة (الرحمن) في محاورته لأبيه، تنبيهاً على سعة رحمة

(١) انظر: البحر المحيط (٧ / ٢٦٨).

(٢) انظر: بدائع الفوائد (٣ / ١٣٣).

(٣) انظر: تفسير الزمخشري (٣ / ١٩).

الله، وقصد بذلك استعطافه، ولم يذكر المنتقم ولا الجبار وأن من هذا وصفه؛ فينبغي أن يعبد ولا يعصى^(١).

ففي هذه الآيات يظهر أسلوب الداعية المخلص في التوجيه والتعليم، الذي يحذر في لطف، وينذر في لين، ويعرف منزلة الأبوة ومكانتها، فيعطيهما حقها من اللين والاحترام. ومع أن تلك الأبوة لم تقابل هذه الدعوة بالحنان والشفقة، بل انقلبت إلى نار تتأجج، وجحيم يتوقد، تمثل ذلك في قول تلك الأبوة الظالمة: ﴿ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا بَرَهْمٌ لِّينَ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦]، فإن (إبراهيم عليه السلام) لم يقابل تلك الشدة بمثلها، ولم يخرجها هذا العنف عن أدبه الجم، ولا عن طبيعته الودود؛ ولكنه قابل تلك الشدة باللين، والرحمة، والإحسان، فهو يقول لوالده: ﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧]،

وهذا الاستغفار من (إبراهيم عليه السلام) إنما كان فرط ترحمه، وصبره على أبيه، وطمعا منه في إيمان أبيه، ولكنه حينما ظهر له إصراره على الشرك، وعداوته المتأصلة لدين الله تعالى، تبرأ منه وقطع صلته به، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤]^(٢)؛ ولكن أباه ينكر قوله ويغلظ له في القول، ويهدده تهديداً: ﴿ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا بَرَهْمٌ لِّينَ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴾. حتى إن شفقتة على أبيه امتدت له إلى يوم القيامة؛ فعندما يراه يوم القيامة تدركه الرأفة والرفقة، فيمسح الله أباه فيئس منه حينئذ، فيتبرأ منه تبرأاً أبدياً^(٣)؛ لذلك قال النبي ﷺ كما في صحيح الإمام البخاري: (يلقى إبراهيم أباه

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير (٧/ ٢٦٩).

(٢) انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام (١/ ١٩٨).

(٣) انظر: تفسير المنار (٧/ ٤٥٠).

آزر يوم القيامة وعلى وجه أزر قتره وغبرة -سواد وغبرة- فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، وأيّ خزي أخزي من أبي الأبعد، فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين، فيقال: يا إبراهيم! انظر ما بين رجليك، فينظر فإذا هو بذيخ -أي: ضبع، متلطخ قدر منتن- فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار^(١).

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: قيل الحكمة في مسخه لتتفر نفس إبراهيم منه، لئلا يبقى في النار على صورته، فيكون غضاضة على إبراهيم^(٢).

المطلب الثاني

رحمته مع قوم لوط

ومن أعظم المواقف الجليلة التي تمثلت فيها رحمة (إبراهيم عليه السلام): موقفه من عذاب قوم لوط، وهو أنه لما علم أن قوم لوط هالكون، كما أعلمته الملائكة بخبر ذلك أخذته الشفقة عليهم، فجعل يجادل ويسأل الرحمة بهم، رجاء أن ينظر الله إليهم نظر رحمة، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ مُجْدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۗ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۗ﴾ [هود: ٧٤-٧٥] فلرقة قلبه، وفرط رحمته، وسعة حلمه حملته على المجادلة، التي كان المراد منها سعي إبراهيم في تأخير العذاب عن قوم لوط، رجاء إقدامهم على الإيمان والتوبة من المعاصي^(٣). وقيل: إن مجادلته للملائكة

(١) أخرجه: البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: باب (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) (ح/٣٣٥٠).

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر (٨/٥٠٠).

(٣) انظر: تفسير الرازي (١٨/٣٧٧).

في قوم لوط بسبب مقام ابن أخيه لوط (عليه السلام)، والذين آمنوا معه^(١)، فخاف عليهم من أن يكون العذاب قد عمّ الجميع، فصار يُجادل الملائكة في ذلك قائلاً: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٢٢] فطمأنته الملائكة بقولها: ﴿تَحْسَبُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهٗ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُهْرِكُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِينَ﴾.

لذلك مدح الله (إبراهيم (عليه السلام)) بقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٢٢]: (حليم)، غير متعجل بالانتقام من المسيء، وكثير الاحتمال ممن آذاه، صفوح عمّن عصاه. (أواه): كثير التأوّه ممّا يسوء الناس ويؤلمهم، ومن ذلك أسفه على ما قد فات قوم لوط من الإيمان؛ الذي من أجله حلّ بهم العذاب. فَجَعَلَ يَتَأَوَّهُ عَلَيْهِمْ^(٢). (منيب): يرجع إلى الله في كلّ أمره. ووصف بأنه منيب؛ لأنّ من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة على الغير، فإنّه ينيب ويتوب، ويرجع إلى الله في إزالة ذلك العذاب عنهم، أو يقال: إنّ من كان لا يرضى بوقوع غيره في الشدائد، فأن لا يرضى بوقوع نفسه فيها كان أولى، ولا طريق إلى صون النفس عن الوقوع في عذاب الله إلا بالتوبة والإنابة، فوجب فيمن هذا شأنه يكون منيباً^(٣).

وهذه الصفات الثلاث دالة على رقة القلب، والرأفة، والرحمة^(٤). ثم إنّ جدال إبراهيم كان في ذات الله؛ وذلك لما جاء الردّ بأنّ أمر الله فيهم قد قضي، وأنّه لم يعد للجدال مجال ترك مجادلة الملائكة: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [هود: ٧٦]، أي: الجدال وإن كانت الرحمة ديدنك فلا فائدة فيه: ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، أي: قضاؤه الأزلّي بعدابهم، وهو أعلم بحالهم ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أي: لا سبيل لردّه^(٥).

(١) انظر: تفسير الرازي (١٨ / ٣٧٧)، وتفسير القرطبي (٩ / ٧٣).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٩ / ٧٣).

(٣) انظر: تفسير الرازي (١٨ / ٣٧٧).

(٤) انظر: الكشاف (٢ / ٤١٢).

(٥) انظر: السراج المنير (٢ / ٧٠).

المطلب الثالث رحمته مع عموم العصاة

إنّه لا أدلّ على رحمة إبراهيم التي غلب وصفها عليه حتّى أصبح يعرف بها، فكان يأخذ نفسه بالقول الجميل، والنطق الحسن، وجميل الأدب مع قومه؛ وهم يقابلون ذلك بالتكذيب والعصيان ويلحقون به الأذى، وقد جاوز أذاهم كلّ حدّ مطاق، فبلغ بهم الحقد، والصلف حدّ إلقاءه في النار؛ فيقابل ذلك كلّه بالشفقة والرّحمة على عصاة أمّته، والتّجاوز عن هفواتهم، وطلب العفو عن زلّاتهم. قال تعالى - على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَعْبَى فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. فإنّ في قوله: ﴿فَأِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تلويحاً أشبه بتصريح بأن يقول ومن عصاني فيما هو غير الشّرك والكفر فاغفر له وارحمه، فإنّك غفور رحيم^(١).

يقول سيّد: وفي هذا تبدو سمة إبراهيم العطوف، الرّحيم، الأواه، الحليم؛ فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه، ولا يستعجل لهم العذاب، بل لا يذكر العذاب، إنّما يكلمهم إلى غفران الله ورحمته^(٢).

وكذلك كان (إبراهيم عليه السلام) يخشى من استتصال عصاة ذريّته؛ ولذلك متّعهم الله قليلاً في الحياة الدّنيا، استجابةً لدعوة الخليل، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَسَّ الْأَمْصِرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦١﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٦٢﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴿٦٣﴾ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٩]^(٣).

(١) قال السدي: معناه من عصاني ثم تاب فإنك غفور رحيم. وقال مقاتل: ومن عصاني فيما دون الشرك فإنك غفور رحيم. انظر: تفسير البغوي (٤٢/٣).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٤/٢١٠٩).

(٣) انظر: التحرير والتجويز (١٣/٢٤٠).



ولشدة لين قلب (إبراهيم عليه السلام) ورحمته أصبح مضرِباً للمثل، فقد جاء في الأثر أن النبي ﷺ شبه لين قلب أبي بكر الصديق ورحمته بالخليل عليه السلام: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿فَمَنْ تَعَنَى فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].... الحديث»^(١).



(١) الحديث مروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، مع اختلاف في الألفاظ أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٦٦٩٠/٣٥٩)، والترمذي (٣٠٨٤)، وقال الترمذي: حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه. والحاكم في المستدرک ٢١/٣ - ٢٢ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وقال أحمد شاكر رحمه الله: إسناده ضعيف لانقطاعه. قلت إسناده رجاله ثقات كلهم، إلا أنه منقطع بين أبي عبيدة وأبيه، إذ لم يسمع منه. وقد صحح كثير من أهل الحديث حديثه عن أبيه مع أنه لم يسمع منه؛ لأنه كان يأخذ عن الثقات من أصحاب أبيه، وإنما حسنه أبو عيسى لشواهده.

المبحث الثالث

نماذج من رحمة إبراهيم مع المسلمين

المطلب الأول

رحمته مع ذريته الأقربين

لقد سبق أن مررنا معنا رحمة إبراهيم المتناهية مع من خالفه في المنهج؛ فماذا نقول إذاً عن رحمته بمن تبعه وامتلأ أمره؛ وخاصة إذا كانوا من ذريته الأقربين؛ لذا اجتمعت فيهم رحمتان: رحمة الفطرة والشفقة عليهم، ورحمة الرفق واللين بهم؛ وهذه الرحمة الأخيرة هي التي تعامل بها إبراهيم مع كل من لقيه من البشر. فالأهل والأبناء من أحوج الناس إلى الرحمة، وإلى إدخال السرور عليهم.

فلما كان (إبراهيم عليه السلام) ابناً رحيماً بوالديه، وكان والدًا رحيماً بأهله وولده، وكان عمًا رحيماً بابن أخيه لوط وقومه؛ فتح الله له أبواب الرحمة مع المؤمنين والكافرين.

ومن أروع الأمثلة التي تبين رحمة إبراهيم بأهله وولده:

أنه لما رُزق بإسماعيل من هاجر، تعلق قلبه به فغارت سارة، وطلبت أن يسكن هاجر وولدها بعيداً عنها، فاستجاب لطلبها، وكلفه الله تعالى أن يضعهما في مكان صحراوي حدده له، هو مكان البيت الحرام بمكة،

فذهب بهما إليه راضياً بأمر الله، وترك لهما بعض الماء والسقاء، وقفل راجعاً من حيث أتى، فجعل لا يلتفت إليهما، مع أن هاجر تناديه: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، خشيت أن يدركه ما يدرك الوالد من الرحمة لولده، حتى إنها تعلقت بثيابه، وقالت له: آله أمرك بهذا؟ فقال لها: نعم. فقالت: إذا لا يضيّعنا^(١).

ترك إبراهيم فلذة كبده وأمه في مكان قفر، ورجع إلى الشام مطيعاً لأمر الله، راضياً بقضائه فيه.

ويرقُّ قلب إبراهيم الرحيم لزوجته وولده، في هذه اللحظات؛ وهي لحظات الوداع، فما أن توارى عن أنظارهما عند الثنية، حيث لا يرونه توجّه بقلبه الخائف الواجف إلى ربه، واستقبل بوجهه إلى البيت فدعا ربه بهذه الدعوات التي كلّها شفقة ورحمة، قائلاً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] كما روى ذلك البخاري بسنده: أن (إبراهيم عليه السلام) بعدما انطلق وقف عند الثنية، حيث لا يرونه، واستقبل بوجهه البيت، ورفع يديه وتلا الآية السابقة^(٢).

يقول سيد قطب في هذه الدعوات: وفيها رقة، ورفرفة، تصوّر القلوب رفاةً مجنحة، وهي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديد؛ إنه تعبير نديّ يندي الجذب برقة القلوب.

(١) انظر: دعوة الرسل عليهم السلام (ص: ١١١).

وأصل هذه القصة في صحيح البخاري. كتاب أحاديث الأنبياء باب «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» (ح: ٢٣٦٤). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة... الحديث».

(٢) سبق تخريجه.

المطلب الثاني رحمته مع ذريته الأبعدين

ومن رحمة إبراهيم عليه السلام بذريته الأبعدين أنه لم يكتف بأن جعله الله -عز وجل- إماماً، بل طلب أن تكون هذه الإمامة في عقبه وذريته إلى يوم الدين، وهذا يدل على محبة إبراهيم الخليل أن يكثر في ذريته الداعون المرشدون إلى سعادة الدنيا والآخرة، فلما علم الله أنه سيكون من ذريته الأبعدين من لا يستحق الإمامة في الدين بخلاف ذريته الأقربين، أخبر سبحانه أن الإمامة لا تكون إلا لمن سعى في تحصيل أسبابها، وكابد لمناها وصبر، كما صبر أولو العزم من الرسل: ﴿وَإِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْهِمْ رُبُّهُ، بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَمْنَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124]، وقيل: إن معنى العهد في الآية: الرحمة، أي: إن إبراهيم طلب من الله أن تكون الإمامة والرحمة لهم من الله، فأقره الله على الصالحين من ذريته، ونفاها عن الظالمين.

قال عطاء في قوله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، قال: هي رحمه لا ينالها إلا المؤمنون أهل الجنة، ورحمته في الدنيا على الخلق كلهم^(١).

ثم اعلم أن من ذرية إبراهيم الأبعدين الذين شملتهم دعوة إبراهيم بالإمامة والنبوة والرحمة: محمداً عليه السلام فهو نبي الرحمة، وهو دعوة مستجابة من دعوات إبراهيم وابنه عليهما السلام، حيث دَعَا ربهما أن يبعث فيهم رسولا منهم من جنسهم، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة يدلهم إلى السعادة الأبدية، قالوا: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]، أي: فبعزتك وحكمتك ابعث فيهم رسولا من أنفسهم يعرفون صدقه، وأمانته، وعفته، وأخلاقه

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٢٢٣)، تفسير القرطبي (٢/ ١٠٨).

السَّامِيَّة؛ يعلمهم الكتاب لفظاً، وحفظاً، وتحفيظاً، ويزكّيهم بالأخلاق الحميدة، والأعمال الصّالحة، وينقيهم من العادات والأعمال الرديئة السّافلة، فاستجاب الله لهما، فبعث الله هذا الرّسول الكريم والرحمة المهداة، الذي رحم الله به ذريتهما خاصّة، وسائر الخلق عامّة؛ وهو محمّد بن عبد الله القرشيّ الهاشميّ ﷺ الذي قال: (أنا دعوة أبي إبراهيم، وكان آخر من بشر بي عيسى بن مريم)^(١).

ولما كان الدّعاء استمطار فضل من فضل الله، واستتزال رحمة من رحمته سلكه إبراهيم عليه السلام، فكان يكثر من الدّعاء لذريته وعقبه إلى يوم الدين، وقد امتدح الله خليله بدعائه، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] لذا قلّ أن نجد موطناً تذكر فيه دعوة إبراهيم إلا ويذكر معها جانب من تضرّعه ودعائه لنفسه ولذريته، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وهي دعوة عامّة لجميع ذريته، شملت المؤمنين جميعاً، بعد أن بدأ إبراهيم بنفسه، ثمّ بوالديه، ثمّ بذريته^(٢). فرحمة الله واسعة، وعطاؤه جزل.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، إلى آخر ما هناك من الدّعوات المباركات، التي تضرّع بها إبراهيم وخُلدها القرآن، فكان قدوة في الرّحمة واللّجوء إلى الدّعاء.

ورحمة إبراهيم على أمّة محمّد ﷺ لم تنقطع بوفاة إبراهيم عليه السلام، بل امتدّت إلى أن بعث محمّد ﷺ ولقيه في ليلة أسري به، فقال إبراهيم عليه السلام:

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن (٧/ ١٩٧)

-كما جاء في الحديث- «يا محمد أقرئ أمّتك مني السّلام، وأخبرهم أنّ الجنّة طيّبة التّربة، عذبة الماء؛ وأنّها قيعان، وأنّ غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»^(١).



(١) أخرجه الترمذي، في كتاب الدعوات: باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد برقم (٣٤٦٢)، صححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٤٦٢).

الخاتمة

الحمد لله الذي منَّ عليَّ بإتمام هذا البحث، وقد خرجت بحمد الله تعالى بجملة من الفوائد والنتائج، رأيت أن أجملها في ما يلي:

١. كثرة ورود اسم إبراهيم عليه السلام في القرآن، فقد ورد تسعاً وستين مرة؛ وفي هذا بيان لأهمية شخصية الخليل عليه السلام في القرآن، وأن المسلمين هم أولى الناس به في اتباعه عليه السلام.

٢. عناية الله بنبِيِّه إبراهيم عنايةً خاصّةً، ورحمةً واسعةً وعمّت ذريّته، فأثّرت في سلوكه، وفي دعوته عليه السلام مع الأقربين والأبعدين.

٣. أن من معاني اسم إبراهيم عليه السلام: (أب رحيم)

٤. حرّي بكلّ داعية أن يطلّع على كنيّة دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه، واقتفاء الأساليب التي اتّبعتها، والسّير عليها؛ فهو قدوة للمسلمين، وهو عليه السلام أمة في الخير.

٥. اتّصاف إبراهيم عليه السلام بجليل الصّفات، وكريم الخصال، وقد وردت صفاته في القرآن، ومنها: أنه أبو الأنبياء، فكلّ نبّي بعده هو من ذريّته، واتّصافه عليه السلام بالحلم، والرّشد، والإنابة لله سبحانه.

٦. إن خلق الرَّحمة من أهم الأسباب الدّاعية إلى حبِّ الخير للغير؛ حيث إنّها تحاكي القلوب، وتفتح مغاليقها، ويصبح المرء قادراً على مخاطبة النَّاس ودعوتهم.

٧. طرح قصّة إبراهيم عليه السلام ودعوته في المناهج التعليميّة، والحلقات الدعويّة، حتى يتم ترسيخ العقيدة على أصولها.

وفي الختام.. أسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبّل هذا العمل ويجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يعفو عنيّ ويغفر لي، فالخير أردت، والله من وراء القصد.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمّد وآله وصحبه أجمعين.



فهرس المصادر والمراجع

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ). ط/دار إحياء التراث العربي.
٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ). ط/١٤١٥ هـ. دار الفكر.
٣. البحر المحيط في التفسير. لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ). تحقيق: صدقي محمد جميل، ط/١٤٢٠ هـ. دار الفكر.
٤. بدائع الفوائد. لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار الكتاب العربي.
٥. التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، ط/١٩٨٤هـ، الدار التونسية للنشر.
٦. التعريفات. لعلي بن محمد بن علي الجرجاني (ت ٨١٦هـ) تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط ١/١٤٠٥هـ. دار الكتاب العربي.
٧. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار). لمحمد رشيد بن علي رضا ابن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت ١٣٥٤هـ) ط/ ١٩٩٠ م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٨. تفسير القرآن العظيم. لأبي محمد عبدالرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ). المحقق: أسعد محمد الطيب. ط ٣/١٤١٩هـ. مكتبة نزار مصطفى الباز.
٩. تفسير القرآن العظيم. لأبي الفداء الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ).

- ط / ١٤٠١. تحقيق: سامي محمد سلامة، ط٢ / ١٤٢٠ هـ. دار طيبة للنشر والتوزيع.
١٠. تفسير (الحجرات إلى الحديد). لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١ هـ). ط١ / ١٤٢٣ هـ. دار ابن الجوزي.
١١. التفسير القرآني للقرآن. لعبدالكريم يونس الخطيب (ت: بعد ١٣٩٠ هـ). ط/ دار الفكر العربي.
١٢. تفسير مقاتل بن سليمان. لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت: ١٥٠ هـ) تحقيق: عبدالله محمود شحاته. (ط١ / ١٤٢٣ هـ). دار إحياء التراث.
١٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. للشيخ عبدالرحمن ابن ناصر بن عبدالله السعدي (المتوفى: ١٢٧٦ هـ). المحقق: عبدالرحمن ابن معلا اللويحق. ط١ / ١٤٢٠، مؤسسة الرسالة.
١٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام المفسر محمد بن جرير الطبري (٣١٠ هـ)، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع مركز هجر للبحوث.
١٥. الجامع الكبير. للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) تحقيق: د/ بشار عواد معروف، ط٢ / ١٤١٨ هـ. دار الغرب الإسلامي.
١٦. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام. لمحمد ابن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، ط٢ / ١٤٠٧ هـ. دار العروبة.
١٧. الجامع لأحكام القرآن، للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت: ٦٧١ هـ)، ت: د. عبدالله التركي، ط/ دار هجر.



١٨. دعوة الرسل عليهم السلام. لأحمد أحمد غلوش. ط١/١٤٢٣هـ،
مؤسسة الرسالة.

١٩. الرحمة بين الدلالات المعجمية، والدلالات السياقية في الاستعمال
القرآني. للأستاذ الدكتور خميس عبدالله التميمي. نشر في مجلة
بغداد كلية الآداب. العدد (١٠٦) عام ١٤٣٥هـ.

٢٠. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم
الخير. لشمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني
الشافعي (ت ٩٧٧هـ). ط/١٢٨٥هـ. مطبعة بولاق.

٢١. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان
ابن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبي حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى:
٣٥٤هـ). تحقيق: شعيب الأرنؤوط. ط٢/٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة.

٢٢. صحيح البخاري. للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري
(ت ٢٥٦هـ) تحقيق: قاسم الشماعي الرفاعي، ط/ دار القلم.

٢٣. صحيح مسلم. للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري
النيسابوري (ت ٢٦١هـ) اعتنى به أبو صهيب الكرمي، ط/٤١٩هـ.
بيت الأفكار الدولية.

٢٤. صحيح وضعيف سنن الترمذي. للشيخ محمد ناصر الدين الألباني
(المتوفى: ٤٢٠هـ)، برنامج منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني -
من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.
طبعة الالكترونية.

٢٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري. للحافظ أحمد بن علي بن حجر
العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) تحقيق: محب الدين الخطيب، ط/ دار المعرفة.

٢٦. في ظلال القرآن. لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى:
١٣٨٥هـ). ط١٧/١٤١٢هـ، دار الشروق.



٢٧. الفروق اللغوية. لأبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت ٣٩٥هـ)
المحقق: محمد إبراهيم سليم. ط/ دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع،
القاهرة.

٢٨. قصص الأنبياء. لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي
(ت: ٧٧٤هـ). المحقق: مصطفى عبدالواحد. ط ١/، الناشر: مطبعة
دار التأليف - القاهرة.

٢٩. الكامل في ضعفاء الرجال. للإمام الحافظ أبي أحمد عبدالله بن
عدي الجرجاني (ت ٣٦٥هـ) تحقيق: د/ سهيل زكار، ويحيى مختار
غزّاوي، ط ٣/١٤٠٩هـ. دار الفكر.

٣٠. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. لأبي القاسم محمود بن عمرو
ابن أحمد، الزمخشري جارالله (ت: ٥٢٨هـ). ط ٣/١٤٠٧هـ. دار
الكتاب العربي.

٣١. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. لأيوب بن موسى
الحسيني القريني الكفوي، أبي البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)
المحقق: عدنان درويش - محمد المصري. ط/ مؤسسة الرسالة.

٣٢. لباب التأويل في معاني التنزيل. لعلاء الدين علي بن محمد بن
إبراهيم بن عمر الشيعي أبي الحسن، المعروف بالخازن (ت ٧٤١هـ)
تحقيق: محمد علي شاهين. ط ١/١٤١٥هـ. دار الكتب العلمية.

٣٣. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر
الهيثمي (ت ٨٠٧هـ) تحقيق: حسام الدين القدسي، ط/ ١٤١٤هـ.
مكتبة القدسي.

٣٤. محاسن التأويل. لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم
الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ). المحقق: محمد باسل عيون
السود. ط ١/١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية.



٣٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. لأبي محمد عبدالحق ابن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ) تحقيق: عبدالسلام بن عبدالشافى محمد، ط ١/ ٤١٣هـ. دار الكتب العلمية
٣٦. مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي). لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ). تحقيق: يوسف علي بديوي. ط ١/ ٤١٩هـ. دار الكلم الطيب و اللباب في علوم الكتاب (١٠ / ٥٢٨).
٣٧. المستدرک على الصحيحين. للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، ط ١/ ٤١١هـ. دار الكتب العلمية.
٣٨. مسند الإمام أحمد. للإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ). تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. إشراف: د عبد الله بن عبدالمحسن التركي ط ١/ ٤٢١هـ، مؤسسة الرسالة.
٣٩. المصنف في الأحاديث والآثار. للحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبه (ت ٢٣٥هـ) تحقيق: سعيد محمد اللحام، ط ١/ ٤٠٩هـ. دار الفكر.
٤٠. معالم التنزيل. للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (٥١٦هـ). تحقيق: محمد النمر، عثمان ضميريه، سليمان الحرش، ط ٢/ ٤١٤هـ. دار طيبة.
٤١. المعجم الكبير. للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠هـ) تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، ط ٢/ ٤٠٤هـ. مكتبة العلوم والحكم.
٤٢. المعجم الوسيط. إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة. (إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبدالقادر/ محمد النجار). الناشر: دار الدعوة.



٤٣. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. لمحمد فؤاد عبدالباقي. ط/ ١٤٢٢، دار الحديث.
٤٤. معجم مقاييس اللغة. لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ) تحقيق: عبدالسلام هارون. ط٢/ ١٣٨٩هـ. مطبعة مصطفى الحلبي.
٤٥. مفاتيح الغيب المسمى ب: التفسير الكبير. لأبي عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ). ط٣/ ١٤٢٠هـ. دار إحياء التراث العربي.
٤٦. المفردات في غريب القرآن. لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ). تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١/ ١٤١٢هـ. دار القلم، الدار الشامية.
٤٧. منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام. للدكتور حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي. ط١/ ١٤٢٤ عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية.
٤٨. موطأ الإمام مالك. لمالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت ١٧٩هـ). تعليق: محمد فؤاد عبدالباقي، ط/ ١٤٠٦هـ. دار إحياء التراث العربي.
٤٩. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ). ط/ دار الكتاب الإسلامي.



فهرس البحوث



• بحث: التربية بالرحمة من منظور التربية الإسلامية.

علي مصطفى غيبي

المقدمة	٧
المبحث الأول: مفهوم التربية بالرحمة	١٢
المبحث الثاني: التأصيل الشرعي للتربية بالرحمة وأهميتها في التربية الإسلامية	١٥
المبحث الثالث: أصناف التربية بالرحمة	١٨
المبحث الرابع: أهداف التربية بالرحمة	٢٣
المبحث الخامس: نماذج من التطبيقات التربوية للرحمة في التربية الإسلامية	٢٧
المبحث السادس: الآثار التربوية والنفسية للتربية بالرحمة من منظور التربية الإسلامية	٣١
الخاتمة	٣٧



• بحث: التربية على الرحمة في المحاضن القرآنية.

د. هاشم بن علي الأهدل

المقدمة	٤٧
المبحث الأول: الدلالات التربوية للرحمة في القرآن والسنة	٥١
المبحث الثاني: الرحمة في العملية التعليمية والتربوية في المحاضن القرآنية	٥٧
المبحث الثالث: الآثار التربوية للرحمة في المحاضن القرآنية	٦٤
المبحث الرابع: أساليب التربية على الرحمة في المحاضن القرآنية	٦٩
المبحث الخامس: دور مسؤولي المحاضن القرآنية في التربية على الرحمة	٧٢
الخاتمة	٧٦

• بحث: الرحمة بغير المسلمين وأثرها على مواقفهم تجاه الإسلام والمسلمين في ضوء نوازل الغرب الإسلامي.

د. محمد المسكيني

المقدمة ٨٣

المبحث الأول: الرحمة بغير المسلمين في ضوء النوازل الفقهية ٩٥

المطلب الأول: الرحمة من خلال نوازل العلاقة بالدولة والكنائس والأحباس ٩٥

المطلب الثاني: الرحمة من خلال نوازل المعاملات والأسرة والجوار ٩٩

المبحث الثاني: أثر الرحمة بغير المسلمين على مواقفهم تجاه الإسلام والمسلمين ١٠٧

الخاتمة ١٢١



• بحث: أحاديث الرحمة بغير المسلمين.

د. فهد بن عبد الرحمن الحمودي

المقدمة ١٣٣

المبحث الأول: عموم رحمة النبي ﷺ مع غير المسلمين ١٣٦

المبحث الثاني: الرحمة مع غير المسلمين بالدعاء لهم ١٣٨

المبحث الثالث: الرحمة مع غير المسلمين بإقامة العدل ومنع الظلم عنهم ١٤١

المبحث الرابع: الرحمة بالنساء والصبيان وكبار السن ورجال الدين غير المسلمين والنهي عن قتلهم ٤٥

المبحث الخامس: الرحمة بالمرضى من غير المسلمين، وعبادتهم، وتمني الخير لهم ٤٥

المبحث السادس: الرحمة بذوي القربي من غير المسلمين وصلة رحمهم ٤٥

المبحث السابع: الرحمة بالمعاهدين ومن في حكمهم ٤٥

الخاتمة ٤٥

• بحث: تجليات قيم الرحمة في الإسلام من خلال سير الصحابة
ﷺ وتطبيقاتها العملية.

د. الحسن البربوشي

المقدمة	١٦٧
المحور الأول: تجليات الرحمة في مجتمع الصحابة	١٧٠
المحور الثاني: التطبيقات العملية لقيم الرحمة من خلال سير الصحابة	١٨٢
الخاتمة	٢٠٠



• بحث: عمر بن الخطاب بين مثالية الأسس وواقعية السياسة.

د. مجدي محمد إبراهيم شفيق

المقدمة	٢٠٧
المبحث الأول: أسس الرحمة عند الفاروق	٢١٠
المبحث الثاني: ظاهريات الرحمة عند عمر بن الخطاب	٢١٩
الخاتمة	٢٤٢



• بحث: فتح القدس بين الرحمة والقسوة
دراسة مقارنة بين منهج المسلمين وغيرهم.

د. خالد بن محمد الشنيبر

المقدمة	٢٥٥
المبحث الأول: مكانة القدس في الحضارات	٢٥٩
المبحث الثاني: الصراع على القدس قبل الإسلام	٢٦٢
المبحث الثالث: القدس خلال الحضارة الإسلامية	٢٧١
المبحث الرابع: شهادات الدارسين للحضارات حول سلوك الفاتحين	٢٨٢
الخاتمة	٢٨٨



• بحث: قيم الرحمة في الإسلام ودور المرأة المسلمة في تعزيزها.
د. أسماء بنت راشد الرويشد

المقدمة	٢٩٧
المبحث الأول: مفهوم الرحمة وقيمها بين التشريع الإلهي والتشريعات الوضعية	٣٠١
المبحث الثاني: دور المرأة المسلمة في تعزيز مفهوم الرحمة أسريا ومجتمعيا	٣١٦
المبحث الثالث: تجربة تطبيقية لتعزيز مفهوم وقيم الرحمة أسريا ومجتمعيا (مركز آسية نموذجا)	٣٢٢
الخاتمة	٣٣٢



• بحث: قيمة الرحمة وأثرها الفعال في نجاح العمل الدعوي.
أ.د. أحمد محمود علي عيساوي

المقدمة	٣٣٧
المحور الأول: المدخل والتعاريف	٣٣٩
المحور الثاني: الجانب العملي في قيمة الرحمة وأثره في نجاح العمل الدعوي	٣٤٧
الخاتمة	٣٧٩



• بحث: مظاهر الرحمة في الدعوة إلى الإسلام.
د. علي البرغوثي

المقدمة	٣٨٩
الفصل الأول: الغاية من الدعوة هي الرحمة بالخلق	٣٩٤
الفصل الثاني: مظاهر الرحمة في الدعوة إلى الله	٣٩٧
الخاتمة	٤٢٤

- بحث: مظاهر الرحمة في العهدة العمرية، وأثرها في نشر الإسلام.
-دراسة تحليلية مقارنة بميثاق منظمة حقوق الإنسان-
أ. بدر إبراهيم أحمد فراج

المقدمة	٤٣٣
المحور الأول: التعريف بالعهد العفرية، وذكر أهم رواياتها، ومصادرها	٤٣٨
المحور الثاني: تحليل أفاض العهد العفرية	٤٤٤
المحور الثالث: أثر العهد العفرية في نشر الإسلام	٤٥٤
المحور الرابع: العهد العفرية ومواثيق حقوق الإنسان	٤٦٠
الخاتمة	٤٦٧



- بحث: معالم الرحمة في سيرة إبراهيم عليه السلام من خلال النصوص القرآنية.

د. علي بن عبد الله بن حمد السكاكر

المقدمة	٤٧٥
المبحث الأول: رحمة الله ﷻ على إبراهيم عليه السلام	٤٨٨
المبحث الثاني: نماذج من رحمة إبراهيم مع المخالفين	٤٩٥
المبحث الثالث: نماذج من رحمة إبراهيم مع المسلمين	٥٠٢
الخاتمة	٥٠٧

